عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم

رسالة دكتوراه

إعداد

د. عبدالرحمن بن محمد البرادعي

قسم الدراسات القرآنية في جامعة أم القرى ـ كلية المعلمين سابقاً

المجلد الأول

دار طيبة الخضراء
مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة دكتوراه

عُبُودِيَّةُ القَلْبِ لِرَبِّ العالمين في القُرْآنِ الكَرِيم

إعداد
د. عبد الرحمن بن محمد البرادعي
قسم الدراسات القرآنية في جامعة أم القرى
كلية المعلمين (سابقاً)

المجلد الأول

دار طيبة الخضراء
مكة المكرمة

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

الطبعة الثانية

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

دار طيبة الخضراء

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٥٥٨٩٠٢٧ - فاكس: ٥٥٨٩٧٨٠ - ص.ب: ٦٩٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمـة

أحمد الله تبارك وتعالى حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ثم الصلاة والسلام على النبي المجتبى، والرسول المصطفى، وعلى آله وصحبه، وبعد:

بتوفيق الله تعالى وفضله كان هذا البحث: (**عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم**)، والذي يتعلق موضوعه بمحور الحياة وغاية الوجود: عبادة الله سبحانه، ويتناول القاعدة المؤثرة في حركة العبد صلاحًا أو فسادًا، والمتمثلة في القلب الذي يشكل المركز الرئيس في قضية العبودية، والدائرة الأهم والأخطر ضمن دوائرها.

خطة البحث:

تشتمل خطة البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

وفيما يلي بيان ذلك على سبيل الإجمال:

المقدمة: وهي ما يعرض الآن بين يدي القارىء الكريم متضمنة خطة البحث، ومنهجه.

التمهيد: ويتضمن بيان المراد بالعبودية في اللغة والشرع.

الباب الأول: العبودية.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: معالم في مقام العبودية لله تعالى.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العبودية غاية الحياة.

المبحث الثاني: العبودية منهج الرسل عليهم السلام.

المبحث الثالث: شرف مقام العبودية.

الفصل الثاني: أقسام العبودية.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أقسام العبودية باعتبار الكائنات.

المبحث الثاني: أقسام العبودية باعتبارالعموم والخصوص.

المبحث الثالث: أقسام العبودية باعتبار أعضاء الإنسان.

الفصل الثالث: ضوابط العبودية.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: توحيد الله تعالى والإيمان به.

المبحث الثاني: إخلاص النية.

المبحث الثالث: التزام الشرع.

الباب الثاني: عبودية القلب.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: التعريف بالقلب وأهميته.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالقلب.

المبحث الثاني: لفظ القلب في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: أهمية القلب ومكانته.

الفصل الثاني: أركان عبودية القلب وتفاوت الناس فيها.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عبودية القلب بين الإيجاب والسلب.

المبحث الثاني: أركان عبودية القلب.

المبحث الثالث: منازل الناس في عبودية القلب.

الفصل الثالث: لوازم عبودية القلب وثمراتها والمؤثرات فيها.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: لوازم عبودية القلب ومقتضياتها.

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في حياة القلب.

المبحث الثالث: ثمرات عبودية القلب.

الباب الثالث: أنواع القلوب وأوصافها في القرآن الكريم.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: القلوب الصحيحة.

ويشتمل على سبعة مباحث:

المبحث الأول: القلوب السليمة.

المبحث الثانـي: القلوب المطمئنة.

المبحث الثالـث: القلوب الوجلـة.

المبحث الرابـع: القلوب المخبتـة.

المبحث الخامـس: القلوب المنيبـة.

المبحث السـادس: القلوب اللينـة.

المبحث السابـع: القلوب المربوط عليها.

الفصل الثاني: القلوب الميتة.

ويشتمل على ثلاثة عشر مبحثا:

المبحث الأول: القلوب اللاهية.

المبحث الثانـي: القلوب القاسية.

المبحث الثالـث: القلوب المتكبرة.

المبحث الرابـع: القلوب المشمئزة.

المبحث الخامـس: القلوب المرتابة.

المبحث السـادس: القلوب المنكرة.

المبحث السابـع: القلوب الزائغة.

المبحث الثامـن: القلوب الغافلة.

المبحث التاسـع: القلوب العمي.

المبحث العاشـر: القلوب المكنونة.

المبحث الحادي عشر: القلوب المطبوع عليها.

المبحث الثاني عشر: القلوب المختوم عليها.

المبحث الثالث عشر: القلوب المقفلة.

الفصل الثالث: القلوب المريضة.

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: المراد بمرض القلب.

المبحث الثاني: وصف القلب بالمرض في القرآن الكريم.

الخاتمة: وتتضمن ملخصًا لأهم نتائج البحث.

منهج البحث:

يمكن إيجاز منهج البحث في الآتي:

١. دراسة كل جزء من أجزاء البحث دراسة موضوعية، وذلك بجمع الآيات الكريمة المتصلة به، وتحليلها، وترتيب عناصرهـا، بهـدف تفصيل القضية المراد بيانها، وتحديد معالمها.

٢. الرجـوع في تفسير الآيـات إلى عـدد مـن أمهـات كتـب التفسير، والاعتماد ـ غالبا ـ على الجمع بين منهج التفسير بالمـأثور: تفسيراً للقـرآن بالقرآن أو بالسنة أو بأقوال الصحابة والتابعين، ومـنهج التفسير بـالرأي: من خلال جمع أقوال المفسرين في المسألة الواحدة، والاستفادة من ذلـك في التحليل الموضوعي لأجزاء البحث.

٣. يرتبط البحث أساسًا بالقرآن الكريم، لكن لما كانت السنة مبيّنة للقرآن، كانت الحاجة داعية في بعض الاحيان إلى الرجوع لما يتصل بالمسألة المراد بحثها من الحديث الشريف، وذلك على سبيل الاستشهاد، زيادة في التقرير والتأكيد، أو البيان والتوضيح، وكان المرجع في ذلك مجموعة من المصادر الحديثية التي تيسّر الاطلاع عليها.

٤. عزو النصوص إلى مصادرها على النحو التالي:

- كتابة الآيات برسمها القرآني، وتسجيل اسم السورة ورقم الآية بعدها مباشرة.

- عزو الحديث النبوي إلى من خرّجه من المحدثين، ممن تيسّر الرجوع إلى كتبهم، فإن كان في الكتب الستة يُذكر اسم الكتاب والباب، ثم رقم الجزء والصفحة، وإن كان في غيرها فالاكتفاء بذكر رقم الجزء والصفحة، إلا أن النص إذا كان في الصحيحين أو أحدهما يُكتفى بالعزو إليه، ويكون اللفظ في العادة لأول مصدر يُذكر في الهامش.

- نقل حكم بعض علماء الحديث على الرواية في غير الصحيحين، كالترمذي والمنذري والهيثمي وابن حجر والحاكم مع موافقة الذهبي وغيرهم، وكالألباني من المعاصرين.

- إذا كان النص من مراجع أخرى يُذكر المصدر في الهامش: اسم الكتاب، ثم رقم الجزء والصفحة، مع الإشارة إلى الاختصار أو التصرف إن حصل شيء من ذلك.

٥. محاولة الجمع في أسلوب الكتابة بين المنهج العلمي المعتمد على التوثيق، والمنهج الإنشائي المبني على الصياغة التعبيرية المخاطبة للوجدان، الباعثة على التأمل.

٦. بيان معاني بعض الألفاظ التي قد تحتاج إلى كشف وإيضاح.

٧. وضع ترجمة موجزة للتعريف بالأعلام الوارد ذكرهم أثناء البحث.

وأختم هذه المقدمة بتسجيل شكري وتقديري لفضيلة الشيخ المشرف، البروفيسور عمر يوسف حمزة، وأسأل الله جل وعلا أن يبارك في عمره، ويحفظه ويرعاه، ويجمع له بين خير الدنيا ونعيم الآخرة.

كما أدعو بخير الجزاء وأحسنه لكل من تتلمذت على يديه من أساتذتي ومشايخي، أكرم الله مثوبتهم وأجزل لهم العطاء.

وأدعوه سبحانه أن يهبني تسديدًا، وقبولاً، ورحمةً من عنده سبحانه.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله، نبينا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اقتفى أثره واهتدى بهداه.

التمهيد

(ويتضمن بيان المراد بالعبودية في اللغة والشرع)

لفظ العبودية في اللغة يتضمن معنى الذل والخضوع.

قال أهل اللغة: التعبد: التذلل، والتعبيد: التذليل، والبعير المعبّد: الذّلول، وطريق معبّد: أي مذلّل بكثرة الوطء والاستعمال.

وعبد الله يعبده عبادة: تألّه له، والاسم العبودة والعبودية.

يقال فلان عبد بيّن العبودة والعبودية.

والعبادة: الطاعة مع الخضوع، وكل من دان لملك فهو عابد له[١].

قال صاحب القاموس: (العبدية والعبودية والعبودة والعبادة: الطاعة)[٢].

ولا يبتعد معنى العبودية بمفهومها الشرعي عن هذا المعنى اللغوي، غير أنه يتميز باجتماع ثلاثة معالم، تحدّد باقترانها وتلازمها حقيقة العبودية في دين الله جل وعلا.

---

(١) انظر: الصحاح (تاج اللغة و صحاح العربية) للجوهري، ط٤، دار العلم: (٢/ ٥٠٣)، مقاييس اللغة لابن فارس، ط١، دار إحياء التراث ص: (٧٠١/ ٧٠٢)، لسان العرب لابن منظور، طبعة دار المعارف: (٤/ ٢٧٧٦ -٢٧٧٩)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز ابادي، طبعة المكتبة العلمية: (٤/ ٩).

(٢) ترتيب القاموس المحيط للفيروز ابادي، والترتيب للطاهر الزاوي: ط٣، دار الفكر: (٣/ ١٣٥).

أولها: أن هذا التذلل والخضوع مختص بالله تعالى وحده، كما قررته وآذنت به آية الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال ابن جرير[١] في تفسير: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (لك اللهم نخشع ونذل ونستكين، إقراراً لك ياربنا بالربوبية لا لغيرك)[٢] ثم بين ارتباط هذا التفسير بأصل معنى العبودية عند العرب، وهو التذلل.

وقال البغوي:[٣] (أي نوحدك ونطيعك خاضعين).[٤]

وثانيها: أن هذه العبودية مبناها على غاية الذل ونهاية الخضوع، ولا تكتمل إلا ببلوغ أقصى درجات التذلل والانطراح بين يدي الله جل شأنه،

---

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري، الإمام العلم المجتهد، كان رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه، علامة في التاريخ، عارفاً بالقراءات واللغة، توفي ببغداد سنة عشر وثلاث مئة، من مصنفاته: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وتهذيب الآثار. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، طبعة بيت الأفكار الدولية (٣/ ٣٣٦٦ - ٣٣٧٠)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، طبعة مكتبة القدسي: (٢/ ٢٦٠).

(٢) تفسير الطبري: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ط٢، مكتبة مصطفى البابي الحلبي: (١/ ٦٩).

(٣) هو الحسين بن مسعود بن محمد، أبو محمد الفراء البغوي، شيخ الإسلام، محي السنة، الشافعي الفقيه، المفسر المحدث، نسبته إلى بغا من قرى خراسان، من مصنفاته: معالم التنزيل في التفسير، ومصابيح السنة، توفي بمرو سنة ست عشرة وخمس مئة. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ١٥١٤ - ١٥١٥)، الأعلام لخير الدين الزركلي، طبعة دار العلم: (٢/ ٢٥٩).

(٤) تفسير البغوي (معالم التنزيل)، ط٢، دار المعرفة: (١/ ٤١)، وانظر مدارج السالكين في شرح منازل السائرين لابن القيم، ط١، المكتبة العصرية: (١/ ٦٧ - ٦٨).

باعثه تعظيم القلب للرب سبحانه، وتألهه للإله المعبود جل وعلا.

وبهذا شرح عدد من المفسرين لفظ العبادة في سورة الفاتحة:

يقول الزمخشري[١] وغيره: (العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل)[٢].

وقال الألوسي[٣]: (العبادة أعلى مراتب الخضوع)[٤].

فالعبودية لله تعالى تعني الانقياد لأمره، والإذعان لشرعه، والاستسلام لإرادته وحكمه ﷻ، إذ حقيقة العبادة امتثال الأمر والنهي[٥].

وثالثها: أن المعنى الشرعي للعبادة يقرن بين غاية التذلل وغاية المحبة

---

(١) هو محمود بن عمر بن محمد، أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، جار الله، برع في النحو والبلاغة وسائر علوم العربية، وكان معتزلي الاعتقاد متظاهراً به، من مصنفاته الكشاف في التفسير، وأساس البلاغة، والفائق في غريب الحديث، توفي سنة ثمان وثلاثين وخمس مئة. انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، طبعة دار الثقافة: (٥/ ١٦٨ - ١٧٤)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٨٠٠).

(٢) تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، طبعة دار إحياء التراث: (١/ ٥٦)، وانظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ط١، دار المعرفة: (ص: ٣٢٢)، تفسير البيضاوي: (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): ط١، دار الكتب العلمية: (١/ ٩)، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، طبعة دار الكتاب العربي: (١/ ٥).

(٣) هو محمد بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، مفسر محدث أديب، ولد ببغداد، وتوفي بها سنة سبعين ومئتين وألف، ونسبة أسرته إلى جزيرة آلوس في وسط نهر الفرات، من مصنفاته روح المعاني في التفسير. انظر: الأعلام: (٧/ ١٧٦-١٧٧)، التفسير والمفسرون لمحمد الذهبي: ط٢، دار الكتب الحديثة: (١/ ٣٥٢-٣٥٤).

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. طبعة دار الفكر: (١/ ٨٦).

(٥) انظر مدارج السالكين: (١/ ٨٣ - ٨٤).

لله تبارك وتعالى، وبذلك يجتمع شمل العبودية له جل شأنه خوفاً ورجاءً وحبّا(١).

ومن ثمّ فإن عبادة الله جل وعلا تتضمن أمرين، لابد من انضمام أحدهما للآخر ليتحقق معناها، هما غاية التذلل وغاية المحبة، ثم يتمثلان في حركة العبد كمالاً في الطاعة والاستجابة، ولذا سمي ما يقوم به المكلفون من الطاعات عبادة لأنهم يفعلونها على وجه التذلل والمحبة لربهم سبحانه(٢).

يقول ابن تيمية(٣): (لفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب)(٤).

ويقول: (من خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن له عابداً، كما قد يحب ولده وصديقه، ولهذا لا

(١) انظر العبادة في الإسلام للقرضاوي، ط٢، مؤسسة الرسالة: (ص: ٣٢ - ٣٣).

(٢) انظر: مدارج السالكين: (١/ ٦٦، ٣/ ٢٦، ٤٣)، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبد الله، ط٦، المكتب الإسلامي: (ص٤٦، ٤٧)، أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة لحافظ الحكمي، طبعة مكتبة الأقصى: (ص ١٨).

(٣) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، الحرّاني ثم الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية، شيخ الإسلام، مشهود له بالبراعة في التفسير والأصول، وسعة العلم في المنقول والمعقول، أوذي وسجن، وتوفي في معتقله سنة ثمان وعشرين وسبع مئة، من مصنفاته: منهاج السنة، والإيمان. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني، ط٢، مطبعة المدني: (١/ ١٥٤ - ١٦٩)، الأعلام: (١/ ١٤٤).

(٤) العبودية لابن تيمية: ط٤، دار المغني: (ص٨٨) وانظر: (ص٢٢) الوابل الصيب لابن القيم، ط٣، مكتبة الرشد: (ص: ٣٧-٣٨)، روضة المحبين لابن القيم، ط١، مكتبة الرشد: (ص:٤١).

يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله)(١).

و نظم ذلك ابن القيم فقال:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان(٢)

وقد ورد في حدّ العبودية عبارات منها:

(معانقة ما أمرت به ومفارقة ما زجرت عنه)(٣).

(فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيمًا لربه)(٤).

(عبارة عما يجمع كمال المحبة والخوف والتعظيم)(٥).

وهذه العبارات متقاربة في الدلالة على المراد، غير أن لابن تيمية تعريفًا يمتاز بزيادة بيان وشمول.

(١) العبودية: (ص: ٢٣)، وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية، طبعة دار المعارف: (١٠/ ١٩، ١٥/ ١٦٢).

(٢) القصيدة النونية، ط١، دار الكتب العلمية: (١/ ٩٩).

(٣) الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري، طبعة المكتبة التوفيقية: (ص: ٢٩٠)، وانظر حدائق الحقائق لشمس الدين الرازي: ط١، دار الكتب العلمية: (ص: ٨٠).

(٤) التعريفات للجرجاني، ط٢، دار الكتاب العربي: (ص: ١٨٩).

(٥) تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، طبعة دار المعرفة: (١/ ٢٥).

يقول ابن تيمية: (العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة).[1]

ثم عرض عددًا من الأمثلة على أعمال القلب الباطنة، وأفعال الجوارح الظاهرة.

وهو بذلك يجمع كل مراتب الدين (الإسلام، الإيمان، الإحسان) ضمن دائرة العبادة.[2]

وقد نظم صاحب سلم الوصول هذا التعريف فقال:

ثم العبادة هي اسم جامع   لكل ما يرضي الإله السامع[3]

ولما كانت طاعات المكلفين إما باطنة في القلب أو ظاهرة على الجوارح، وكل منهما إما قول أو عمل، كان التعريف شاملاً لهذه الأقسام.

يقول ابن القيم[4] (بني "إياك نعبد" على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

---

(١) العبودية: (ص: ١٧).

(٢) انظر العبودية: (ص٢١- ٢٢).

(٣) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول "في التوحيد" لحافظ الحكمي، طبعة دار ابن الهيثم: (١/ ٤٢٣ - ٤٢٤).

(٤) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب، أبو عبد الله الزرعي الدمشقي، شمس الدين، المعروف بابن قيم الجوزية، تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، واسع العلم، حسن الخلق، عارف بمذاهب السلف، توفي بدمشق سنة إحدى وخمسين وسبع مئة، من مصنفاته: مفتاح دار السعادة، زاد المعاد. انظر: الدرر الكامنة: (٤/ ٢١- ٢٣)، الأعلام: (٦/ ٥٦).

فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب (إياك نعبد) حقاً هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر والرضى، والموالاة والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة وإقرار بها)[1].

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٨٥)، (مع اختصار يسير).

الباب الأول:

العبودية

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: معالم في مقام العبودية لله تعالى.

الفصل الثاني: أقسام العبودية.

الفصل الثالث: ضوابط العبودية.

الفصل الأول:
معالم في مقام العبودية لله تعالى
ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العبودية غاية الحياة.

المبحث الثاني: العبودية منهج الرسل عليهم السلام.

المبحث الثالث: شرف مقام العبودية.

المبحث الأول
العبودية غاية الحياة

أوضح الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم أنه جل وعلا لم يخلق الناس عبثًا بلا غاية، ولم يوجدهم هملًا بلا حكمة، ولم يتركهم كالأنعام بلا جزاء أو محاسبة، فقال ﷻ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾. [المؤمنون: ١١٥].

قال ابن عطية[١]: (عبثا) معناه: باطلا لغير غاية مرادة).[٢]

وقال القرطبي[٣]: (أي مهملين كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب عليها).[٤]

ولذلك قال الله تعالى في الآية التالية لهذه الآية: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾. [المؤمنون:١١٦].

---

(١) هو عبدالحق بن غالب بن عطية، أبو محمد الغرناطي الأندلسي القاضي، إمام في التفسير والحديث والفقه، علامة في اللغة والأدب، من مصنفاته: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، توفي سنة اثنتين وأربعين وخمس مائة. انظر سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢١٤٨)، طبقات المفسرين للسيوطي: (ص: ٦٠ -٦١).

(٢) تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، ط١، دار الكتب العلمية: (٤/ ٥٩) قال الراغب: (يقال لما ليس له غرض صحيح: عبث)، المفردات: (ص: ٣٢٣)، وانظر تفسير البغوي: (١٣/ ٢٣٠).

(٣) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر، أبو عبد الله الأنصاري القرطبي المالكي، إمام مفسر، من أوعية العلم، من مصنفاته: الجامع لأحكام القرآن، التذكرة بأمور الآخرة، توفي سنة إحدى وسبعين وست مائة. انظر شذرات الذهب: (٥/ ٣٣٥)، طبقات المفسرين للسيوطي: (ص: ٩٢).

(٤) تفسير القرطبي: (الجامع لأحكام القرآن) ط١، دار الكتب العلمية: (١٢/ ١٠٤).

قال ابن كثير[١]: (أي تقدس أن يخلق شيئا عبثا فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك).[٢]

هذا المعنى ورد أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

قال النسفي[٣]: (مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث ولا يجازى).[٤]

بل لله تعالى في الخلق حكمة قصدها، وغاية أرادها، صرحت بها الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. [الذاريات: ٥٦].

وقد أورد المفسرون في المعنى المراد أقوالاً أبرزها مايلي:

القول الأول:

أن الآية محمولة على المؤمنين، فلفظ الآية عام لكن معناها خاص بأهل

---

(١) هو إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء، عماد الدين البصري ثم الدمشقي، إمام حافظ، مؤرخ محدث، وفقيه مفسر، أخذ عن ابن تيمية فأكثر عنه، من مصنفاته: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية، توفي سنة أربع وسبعين وسبع مائة. انظر الدرر الكامنة: (١/ ٣٩٩ - ٤٠٠)، شذرات الذهب: (٦/ ٢٣١ - ٢٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٥٩).

(٣) هو عبد الله بن أحمد بن محمود، أبو البركات النسفي، فقيه مفسر، نسبته إلى نسف ببلاد السند بين جيحون وسمرقند، من مصنفاته: مدارك التنزيل في التفسير، والمنار في أصول الفقه، توفي سنة عشر وسبع مائة. انظر: الدرر الكامنة: (٢/ ٣٥٢)، الأعلام: (٤/ ٦٧-٦٨).

(٤) تفسير النسفي: (٣/ ٦٢٥)، وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، طبعة دار الكتب العلمية: (ص: ٥٠١)، تفسير الطبري: (٢٩/ ٢٠٠-٢٠١).

الإيمان والطاعة: أي وما خلقت السعداء إلا لعبادتي.

وهو قول جماعة منهم سعيد بن المسيب[١]، وزيد بن أسلم[٢]، وسفيان[٣]، والضحاك[٤]، والفراء[٥]، وابن قتيبة[٦] [٧].

---

(١) هو سعيد بن المسيب ـ بفتح الياء وقد يكسر ـ بن حزن ـ بسكون الزاي ـ بن أبي وهب، أبو محمد القرشي المخزومي، من الفقهاء الثقات، والأخيار الفضلاء، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، توفي بالمدينة سنة أربع وتسعين. انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي، ط٣، دار المعرفة: (٢/ ٧٩-٨٢)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٨٢٢).

(٢) هو زيد بن أسلم، أبوعبد الله العدوي المدني، من علماء التابعين، فقيه عابد، وحجة قدوة، كانت له حلقة للعلم في مسجد رسول الله ﷺ، وله تفسير رواه عنه ابنه عبد الرحمن. توفي سنة ست وثلاثين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٧٣٧)، شذرات الذهب: (١/ ١٩٤).

(٣) هو سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الثوري الكوفي، إمام حافظ، شيخ الإسلام، فقيه محدث، ورع عابد زاهد، معدود في صغار التابعين، سيد العلماء في زمانه، توفي سنة إحدى وستين ومائة. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٢١٢ - ٢١٣)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٨٣٦ - ١٨٥١).

(٤) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، مفسر مشهور، من أوعية العلم، وثقه أحمد ويحي بن معين وغيرهما، توفي سنة اثنتين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٠٤٤-٢٠٤٥)، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ط١، دار الفكر: (٤/ ٣٩٧-٣٩٨).

(٥) هو يحي بن زياد بن عبد الله بن منظور، أبو زكريا الكوفي، مولى بني أسد، المعروف بالفراء، قيل لأنه يفري الكلام، بحر في اللغة والنحو، من مصنفاته: معاني القرآن، توفي سنة سبع ومئتين. انظر: سير أعلام النبلاء : (٣/ ٤١٦٤)، الأعلام: (٨/ ١٤٥-١٤٦).

(٦) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد، علامة ثقة فاضل، رأس في علم اللسان العربي، وفي أخبار الناس وأيامهم، من مصنفاته: تفسير غريب القرآن، وعيون الأخبار، توفي سنة ست وسبعين ومئتين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٥٣٢-٢٥٣٣)، الأعلام: (٤/ ١٣٧).

(٧) انظر معاني القرآن للفراء: (٣/ ٨٩)، تفسير غريب القرآن، (ص: ٤٢٢)، تفسير الطبري: (٢٧/ ١١-١٢)، تفسير السمعاني، طبعة دار الوطن: (٥/ ٢٦٤)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٣٥)، زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ط١، دار الفكر: (٧/ ٢١٣-٢١٤)، تفسير القرطبي: (١٧/ ٣٧)، تفسير النسفي: (٣/ ٤٢٢)، تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ط٢، دار الفكر: (٨/ ١٤٣)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٣٩-٤٠)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٣٨).

وهذا القول مبني على التعارض في الظاهر بين هذه الآية والآية الأخرى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾. [الأعراف: ١٧٩].

وذلك باعتبار أن من خلق لجهنم لا يكون مخلوقاً للعبادة، بالإضافة إلى أن الكافر لا تقع منه العبادة فعلًا.

قال ابن حجر[١]: (وسبب الحمل على التخصيص وجود من لا يعبده فلو حمل على ظاهره لوقع التنافي بين العلة والمعلول).[٢]

القول الثاني:

أن معنى الآية: ما خلقتهم إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً، فالمؤمنون يعبدون الله تعالى باختيارهم، والكافرون خاضعون جبراً لقضاء الله سبحانه.

وهذا القول مروي عن ابن عباس[٣] رضي الله عنهما[٤]، ورجحه ابن جرير[٥]،

---

(١) هو أحمد بن علي بن محمد، أبو الفضل الكناني العسقلاني، المصري الشافعي، شهاب الدين، المعروف بابن حجر، الإمام الحافظ، أقبل على الحديث ورحل في طلبه، ولي قضاء مصر، مشهور في علم الرجال معول عليه، من مصنفاته: فتح الباري شرح صحيح البخاري، والإصابة في تمييز الصحابة، توفي سنة اثنتين وخمسين وثمان مائة. انظر: شذرات الذهب: (٧/ ٢٧٠-٢٧٣)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي، طبعة مكتبة القدسي: (٢/ ٣٦-٤٠).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية: (١٧/ ٢٣٠-٢٣١).

(٣) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، القرشي الهاشمي، أبو العباس، ابن عم رسول الله ﷺ، ترجمان القرآن، حبر الأمة، بحر العلم، قال عنه عمر رضي الله عنه: ذاكم فتى الكهول، له لسان سئول وقلب عقول، توفي بالطائف سنة ثمان وستين، انظر صفة الصفوة: (١/ ٧٤٦-٧٥٨)، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، دار الكتب العلمية: (٤/ ١٢١-١٣١).

(٤) انظر تفسير الطبري: (٢٧/ ١٢)، زاد المسير: (٧/ ٢١٣)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٤٩)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي، طبعة دار الفكر: (٧/ ٦٢٤)، تفسير القرطبي: (١٧/ ٣٨)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٣٨).

(٥) انظر تفسير الطبري: (٢٧/ ١٢).

واختاره البقاعي."[١][٢]

القول الثالث:

أن معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: إلا لآمرهم بالعبادة وأدعوهم إليها.

وهذا القول مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٣]، ومجاهد[٤]، وعكرمة[٥]،

---

(١) هو إبراهيم بن عمر بن حسن، برهان الدين، أبو الحسن البقاعي، نسبة إلى البقاع في سورية، مؤرخ أديب، إمام في علم المناسبات، من مصنفاته: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، وعنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران، توفي بدمشق سنة خمس وثمانين وثمان مائة، انظر: طبقات المفسرين لأحمد الأدنه وي، ط١، مكتبة العلوم والحكم، (ص: ٣٤٧-٣٤٨) الأعلام: (١/ ٥٦).

(٢) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، ط٢، دار الكتب العلمية: (٧/ ٢٨٩).

(٣) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، القرشي الهاشمي، أبو الحسن، ابن عم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنها، رابع الخلفاء الراشدين، غزير العلم، عظيم الشجاعة والفروسية، شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ إلا غزوة تبوك، استشهد سنة أربعين، انظر صفة الصفوة: (١/ ٣٠٨-٣٣٥)، الإصابة: (٤/ ٤٦٤-٤٦٨).

(٤) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم، إمام ثقة، شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير والفقه عن ابن عباس رضي الله عنهما، توفي سنة اثنتين ومائة، انظر صفة الصفوة: (٢/ ٢٠٨-٢١١)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣١٨٥-٣١٨٧).

(٥) هو عكرمة بن عبد الله، أبو عبد الله المدني، مولى ابن عباس رضي الله عنهما، بربري الأصل، من علماء التفسير المشهورين، توفي سنة أربع ومائة، انظر: صفة الصفوة: (٢/ ١٠٣-١٠٤)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٧٠٣-٢٧٠٩).

والربيع بن أنس[١][٢]، واختاره الزجاج[٣][٤]، والواحدي[٥][٦]، وأيده ابن تيمية بقوة، قال: (وهو الذي عليه جمهور المسلمين، أن الله خلقهم لعبادته وهو فعل ما أمروا به)[٧]، واستدل لهذا القول مناقشًا الأقوال الأخرى[٨]، ومال إليه ابن كثير، فقد قال في تفسير الآية الكريمة: (أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم) ثم قال: (ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ومن عصاه

---

(١) هو الربيع بن أنس بن زياد البكري، بصري نزل خراسان، سمع من أبي العالية وأكثر عنه،كان عالم مرو في زمانه، توفي سنة تسع وثلاثين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٦٧٨)، تقريب التهذيب، طبعة دار المعرفة: (١/ ٢٤٣).

(٢) انظر تفسير البغوي: (٤/ ٢٣٥)، زاد المسير: (٧/ ٢١٣)، تفسير القرطبي: (١٧/ ٣٨)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ١٤٣)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٥١-٥٢).

(٣) هو إبراهيم بن محمد السّريّ، أبو إسحاق الزجاج، البغدادي، إمام في النحو، من مصنفاته: معاني القرآن، والاشتقاق، توفي سنة إحدى عشرة وثلاث مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ٦٩٥-٦٩٦)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ٥٢).

(٤) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ط١، عالم الكتب: (٥/ ٥٨).

(٥) هو علي بن أحمد بن محمد، أبو الحسن الواحدي، النيسابوري الشافعي، مفسر، عالم باللغة، من مصنفاته: أسباب النزول، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز. توفي سنة ثمان وستين وأربع مائة، انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٧٣٨-٢٧٣٩)، طبقات المفسرين للسيوطي: (٧٨ -٧٩).

(٦) تفسير الواحدي: (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، ط١، دار القلم: (٢/ ١٠٣٢).

(٧) مجموع الفتاوى: (٨/ ٥١).

(٨) مجموع الفتاوى: (٨/ ٣٩-٥٧).

عذبه أشد العذاب).[١]

وهو اختيار الشاطبي[٢] في الموافقات، حيث قال: (المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدًا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا، والدليل على ذلك أمور، أحدها: النص الصريح الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله، والدخول تحت أمره ونهيه،كقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾. [الذاريات: ٥٦]).[٣]

وهذا القول هو الأقرب في تفسير الآية الكريمة، والعلم عند الله تعالى.

يقول محمد الأمين[٤]: (التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية الكريمة ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم بعبادتي، أي أختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وإنما قلنا أن هذا هو التحقيق في معنى الآية لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٣٨)، وانظر تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٠٨).

(٢) هو إبراهيم بن موسى بن محمد، اللخمي الغرناطي، أبو إسحاق الشاطبي، أصولي مفسر، وفقيه محدث، من أئمة المالكية في عصره، من مصنفاته: الموافقات في أصول الشريعة، والاعتصام، توفي سنة تسعين وسبع مائة. انظر الأعلام: (١/ ٧٥).

(٣) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي، ط٦، دار المعرفة: (٢/ ٤٦٩).

(٤) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر، الجكني الشنقيطي، من علماء شنقيط (موريتانيا)، مشهود له بالبراعة في الفقه والأصول والتفسير، استقر بالمدينة النبوية، ودرّس في المسجد النبوي، توفي بمكة سنة ثلاث وتسعين وثلاث مائة وألف، انظر: الأعلام: (٦/ ٤٥)، أضواء البيان: (١٠/ ٣-٦٤). (ترجمة تلميذه عطية محمد سالم، ملحقة بآخر الأضواء).

الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملاً، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم).[١]

وأجاب عن التعارض بين هذه الآية وقول الله تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾ بأن الإرادة في قوله ﷻ: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾ إرادة كونية قدرية، والإرادة في قوله جل وعلا: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ إرادة دينية شرعية، ومن ثم فلا تعارض في الحقيقة[٢].

قال ابن تيمية بعد أن بين الإرادة الواردة في القرآن بنوعيها الكوني والشرعي[٣]: (وإذا كان كذلك فمقتضى اللام في قوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ الإرادة الدينية الشرعية، وهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع، والمعنى أن الغاية التي يحب لهم ويرضى لهم والتي أمروا بفعلها هي العبادة)[٤].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي، طبعة عالم الكتب: (٧/ ٦٧٣).

(٢) انظر دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب لمحمد الأمين الشنقيطي، طبعة عالم الكتب، (ص: ١٥٩-١٦٠).

(٣) انظر: الفرقان لابن تيمية، طبعة دار الكتب العلمية: (ص ٦٠ -٦١)، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ط١، دار البيان: (ص: ٥٦).

(٤) مجموع الفتاوى: (٨/ ١٨٩)، وانظر: (١٠/ ١٩).

وفي القرآن الكريم آيات أخرى تفسر هذه الآية الكريمة وتزيدها بياناً، ومن ذلك قول الله جل وعلا: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا﴾. [الإنسان: ٢].

قال البغوي: (نختبره بالأمر والنهي)[١].

وقوله ﷻ: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾. [هود: ٧].

﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾. [الكهف: ٧].

﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾. [الملك:٢].

قال ابن كثير: (معنى الآية انه أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم أي: يختبرهم أيهم أحسن عملا)[٢].

يقول محمد الأمين: (فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملا يفسر قوله: (ليعبدون) وخير ما يفسر به القرآن القرآن)[٣].

---

(١) تفسير البغوي: (٤/ ٤٢٧)، وانظر تفسير النسفي: (٣/ ٦٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٩٦)، وانظر: (٢/ ٤٣٧-٤٣٨).

(٣) أضواء البيان: (٧/ ٦٧٣-٦٧٤)، وانظر: (٣/ ١٣).

وعلى هذا فإن تحقيق الإنسان للعبودية التي هي غاية الحياة ومهمة الوجود هو في واقع الأمر استجابة والتزام وإذعان للتكليف الإلهي المشتمل على الأوامر والنواهي، مما تتنزل به الشرائع على الرسل عليهم السلام، اختبارًا من الله عز وجل وابتلاءً للعباد[1].

ذلك أن العبودية حق لله تبارك وتعالى على الناس، يتحتم عليهم أداؤها والقيام بمقتضياتها، ماداموا يقضون آجالهم التي قدرها الله عز وجل لحياتهم على الأرض.

ففي حديث معاذ بن جبل[2] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (هل تدري ما حق الله على عباده) قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: (حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا).[3]

---

(١) انظر مدارج السالكين: (١/ ٨٣-٨٤).

(٢) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، أبو عبد الرحمن، الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها، بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن بعد غزوة تبوك، إمام في علم الحلال والحرام، توفي سنة ثماني عشرة وهو ابن أربع وثلاثين سنة أو نحوها، انظر: صفة الصفوة: (١/ ٤٨٩-٥٠٢)، الإصابة: (٦/ ١٠٧-١٠٩).

(٣) رواه البخاري في كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل: صحيح البخاري لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، ط٣، دار ابن كثير: (٥/ ٢٢٢٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً: صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، ط٢، دار سحنون: (١/ ٥٨)، وانظر فتح الباري: (٢٤/ ١٣٤)، شرح النووي على صحيح مسلم، ط٢، دار إحياء التراث العربي: (١/ ٢٣١).

المبحث الثاني

العبودية منهج الرسل عليهم السلام

لما كانت العبودية هي الغاية المقصودة من الخلق كان منهج الرسل عليهم السلام قائما على دعوة الناس إلى تحقيق مراد الله تعالى في عبادته جل وعلا، وتوحيد هذه العبادة له سبحانه.

ومن ثم كانت هذه القضية محورًا تنبثق عنه الرسالات، وقاعدة تتأسس عليها الشرائع، مهما تنوعت وتعددت، ومهما اختلفت بعد ذلك في الفروع والأحكام.

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تبرز هذا الجانب وتؤكده.

ويمكن تقسيم هذه الآيات إلى قسمين:

القسم الأول:

نصوص عامة توضح اتفاق الرسل عليهم السلام جميعًا في هذا المنهج الذي شرعه الله تعالى لهم، ومن ذلك قول الله عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾. [النحل: ٣٦].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾. [الأنبياء: ٢٥].

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً

يَعْبُدُونَ ﴾.[الزخرف: ٤٥].

قال ابن كثير: (أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له).[١]

وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾.[الأحقاف: ٢١].

قال ابن الجوزي[٢]: (أي: قد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده بإنذار أممها ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، والمعنى: لم يبعث رسول قبل هود ولا بعده إلا بالأمر بعبادة الله وحده).[٣]

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾.[النحل: ٢].

والمراد بالروح في هذه الآية الوحي الذي تتنزل به الملائكة على من

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٣٠).

(٢) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد، جمال الدين، أبو الفرج ابن الجوزي، القرشي البغدادي الحنبلي، رأس في الوعظ والتذكير، بحر في التفسير، علامة في السير والتاريخ، من مصنفاته: زاد المسير في علم التفسير، وصفة الصفوة، توفي سنة سبع وتسعين وخمس مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢١٩٢ - ٢١٩٧)، الأعلام: (٣/ ٣١٦ - ٣١٧).

(٣) زاد المسير: (٧/ ١٤٠)، وانظر تفسير القرطبي: (١٦/ ١٣٥)، تفسير القاسمي (محاسن التأويل) ط٢، دار الفكر: (١٥/ ٢٠-٢١).

يشاء الله من عباده وهم الرسل عليهم السلام.[١]

قال السعدي[٢]: (وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي: على معرفة الله وتوحيده في صفات العظمة التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل بها كتبه وأرسل بها رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها).[٣]

وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾.[الأنبياء:٩٢].

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾.[المؤمنون: ٥١ - ٥٢].

(١) انظر تفسير الطبري: (١٤/ ٧٦-٧٧)، تفسير الواحدي: (١/ ٦٠٠)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٦١)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ١٠٥)، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) طبعة دار إحياء التراث العربي: (٥/ ٩٥).

(٢) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي، الناصري التميمي الحنبلي، قرأ على صالح ابن عثمان قاضي عنيزة ومحمد الأمين الشنقيطي صاحب الأضواء، وغيرهما، وإليه انتهت رئاسة العلم في القصيم، كان منقطعًا للعلم والتعليم، من مصنفاته: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، والقواعد الحسان لتفسير القرآن. انظر: مشاهير علماء نجد لعبد الرحمن ابن عبداللطيف، ط١، دار اليمامة: (٢/ ٤٢٢ - ٤٣١)، علماء نجد خلال ستة قرون لعبد الله البسام ط١، مكتبة النهضة: (ص: ٢٥٦-٢٦١).

(٣) تفسير السعدي: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، طبعة دار المدني: (٣/ ٤٧).

قال ابن كثير: (أي: دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له).[1]

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾.[الشورى: ١٣].

قال ابن كثير: (والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له).[2]

ويزيد هذا المعنى بيانًا حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (.. والأنبياء إخوة لعلات[3]، أمهاتهم شتى ودينهم واحد).[4]

قال ابن حجر: (معنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٤٧)، وانظر: (٣/ ١٩٤)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٢١٩ـ٢٢٠)، (١٤/ ٣٢٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٠٩)، وانظر الفرقان: (ص: ٣٦-٣٧)، تفسير القاسمي: (١٤/ ٢٩٩).

(٣) العَلاَّت بفتح العين وتشديد اللام: الضرائر، وأولاد العلات الإخوة من الأب وأمهاتهم مختلفة، قال ابن الأثير: (أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، طبعة دار الفكر: (٣/ ٢٩١)، وانظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ط١، دار النفائس: (٢/ ٣١٥-٣١٦)، فتح الباري: (١٣/ ٢٤٩)، بدائع الفوائد لابن القيم، ط١، مكتبة الصفا: (٣/ ١٦٨- ١٦٩).

(٤) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ...﴾ (٣/ ١٢٧٠)، ومسلم بنحوه في كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام: (٢/ ١٨٣٧).

وإن اختلفت فروع الشرائع).[1]

ويقول ابن كثير: (أي: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم،كقوله جل وعلا: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. [المائدة: ٤٨].[2]

القسم الثاني:

نصوص خاصة تؤكد اهتمام رسول معين من الرسل عليهم السلام بالدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده.

١- في مقدمة هذا الركب الكريم يأتي أول الرسل نوح عليه السلام[3]

يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. [هود: ٢٥-٢٦].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾. [المؤمنون: ٢٣].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.[نوح: ١ - ٣].

---

(١) فتح الباري: (١٣/ ٢٤٩)، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ١٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٠٩).

(٣) انظر تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٦٨).

٢- ويقوم هود عليه السلام بنفس المهمة، ويسير على ذات المنهج:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٢][(١)].

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣-١٤].

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١].

٣- وصالح عليه السلام:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣].

---

(١) والآيات تتناول قصة عاد قوم هود عليه السلام في قول عدد من المفسرين. انظر تفسير البغوي: (٣/ ٣٠٨)، زاد المسير: (٥/ ٣٢١)، تفسير الفخر الرازي: (التفسير الكبير: مفاتيح الغيب طبعة المطبعة البهية المصرية: (٣٢/ ٩٧)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٣٢).

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النمل: ٤٥].

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣ - ١٤].

٤- وشعيب عليه السلام:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

٥- وإبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦ - ١٧].

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. [الشعراء: ٧٥ - ٧٧].

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾. [الأنبياء: ٦٦ - ٦٧].

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾.[الصافات:٩٥- ٩٦].

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾. [مريم: ٤٢].

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾.[مريم: ٤٤].

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾. [الممتحنة: ٤].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾. [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾. [إبراهيم: ٣٥].

٦- ويعقوب عليه السلام:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا

وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾. [البقرة: ١٣٣].

٧- ويوسف عليه السلام:

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾. [يوسف: ٤٠].

٨- وإلياس عليه السلام:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾. [الصافات: ١٢٣ - ١٢٦].

٩- وموسى عليه السلام:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾.[البقرة: ٨٣][1].

١٠- وعيسى عليه السلام:

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾.[مريم: ٣٠ - ٣١].

﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾.[المائدة:٧٢].

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾.[المائدة: ١١٧].

---

(١) قال الألوسي: (هذا الميثاق ما أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم عليهم السلام) روح المعاني: (١/ ٣٠٧)، وانظر تفسير ابن عطية: (١/ ١٧٢).

﴿ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾. [آل عمران: ٥٠ - ٥١].

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾. [مريم: ٣٦].

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾. [الزخرف: ٦٣ - ٦٤](١).

١١- أما عن العبودية كمنهج لرسولنا ﷺ فإن كمًا كبيرًا من الآيات الكريمة تناولت هذه القضية إجمالاً وتفصيلاً.

والإشارة هنا إلى بعض النصوص فقط على سبيل التمثيل.

- **أمر الله ﷻ رسوله ﷺ بالعبادة:**

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾. [الزمر: ٢].

﴿ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾. [مريم: ٦٥].

- **وأمره أن يعلن منهجه:**

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾. [الرعد: ٣٦].

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾. [النمل: ٩١].

---

(١) قال القرطبي: "أي عبادة الله صراط مستقيم وما سواه معوج لا يؤدي سالكه إلى الحق" تفسير القرطبي: (١٦/ ٧٢).

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾. [الزمر: ١١].

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾. [الزمر: ١٤].

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. [يونس: ١٠٤].

- **وأمره جل وعلا أن يلازم هذا المنهج ويستمر عليه حياته كلها:**

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾.(١) [الحجر: ٩٩].

- **وتنزلت عليه الآيات الكريمات تدعو الناس إلى عبادة الله وحده فبلّغ وحي الله إليه:**

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. [البقرة: ٢١].

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾. [الأنعام: ١٠٢].

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾.[آل عمران: ٦٤](٢).

---

(١) واليقين الموت، تفسير غريب القرآن: (ص٢٤٠)، قال الرازي: (المراد منه: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ في زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات حياتك عن هذه العبادة) تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ٢١٦)، وانظر نظم الدرر: (٤/ ٢٤١ - ٢٤٢).

(٢) قال القرطبي: "المعنى أجيبوا إلى ما دعيتم إليه وهو الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق وقد فسرها بقوله ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾" تفسير القرطبي: (٤/ ٦٨).

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾. [الكهف: ١١٠].

- **إن نزول القرآن بتمامه على رسولنا ﷺ إنما كان لتحقيق منهج العبودية لله وحده سبحانه.**

يقول تبارك وتعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾. [هود: ١ - ٢].

قال محمد الأمين: (هذه الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها هي أن يعبد الله جل وعلا وحده، ولا يشرك به في عبادته شيء لأن قوله جل وعلا: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾. [هود: ١ - ٢] صريح في أن آيات هذا الكتاب فصلت من عند الحكيم الخبير لأجل أن يعبد الله وحده).[1]

(١) أضواء البيان: (٣/ ٧)، وانظر تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٣٥)، تفسير أبي السعود: (٤/ ١٨٣).

المبحث الثالث

شرف مقام العبودية

إذا اختار الإنسان طريق التذلل والخضوع لله تبارك وتعالى، وولج باب العبودية له سبحانه، كان ذلك إيذانًا بارتقاء سلم الشرف، وبلوغ منازل الرفعة، وحيازة مراتب التكريم.

وكلما علا في درجات العبودية، وتدرج في مقام الإسلام والإذعان لربه ﷻ، ازداد ذلك الشرف، وتأصل ذلك التكريم.

ومن ثم يصبح الوصف بالعبودية مستلزمًا لشرف الموصوف، ورفعة قدره، وعلو مرتبته.

يقول ابن كثير: (العبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى)[1].

ويقول ابن تيمية: (كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته)[2].

وقال ابن القيم: (والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه..)[3].

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٢٥)، وانظر: الرسالة القشيرية: (ص٢٩٢)؛ حدائق الحقائق: (ص٨١).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٧٦)، وانظر أحكام القرآن: (٣/ ١١٣٨).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٨٦)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٥٠، ١٧٦ - ١٧٩).

وقال الرازي[1] عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ..﴾ [الفرقان: ٦٣].: (خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية فدل ذلك على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات)[2].

وفيما يلي عرض لجملة من الآيات الكريمات المشتملة على تشريف الرسل عليهم السلام والمؤمنين بوصف العبادة، وذلك في مسألتين:

المسألة الأولى:

الرسل عليهم السلام:

لما كان الرسل عليهم السلام أعظم الناس التزاماً بمنهج العبادة وتحقيق معانيها، وأكثرهم اجتهاداً في الطاعة والخضوع للرب جل شأنه، فقد وصفهم الله تبارك وتعالى بصفة العبودية تشريفًا لهم وتفضيلًا، وإعزازًا لهم وتكريمًا[3].

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ

---

(١) هو محمد بن عمر بن الحسين، أبو عبد الله القرشي الشافعي، الطبرستاني الأصل، فخر الدين الرازي، نسبة إلى مدينة الرّي، مفسر أصولي، معروف بتوقد الذكاء، من مصنفاته: مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير أو تفسير الفخر الرازي، والمحصول في علم الأصول، توفي سنة ست وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٦١٠)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ٢١٣-٢١٤).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٠٧).

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ١٨٥).

ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٢]. ففي الآية الكريمة وصف الله عز وجل رسله عليهم السلام بالعبودية على سبيل التشريف، ثم أضافهم إلى ذاته سبحانه (لعبادنا) زيادة في التكريم والتخصيص.

وقد وصف الله تبارك وتعالى بذلك بعض رسله تخصيصًا في مواضع كثيرة من كتابه جل وعلا، وفي مقدمتهم سيد الخلق وأفضل الرسل وخاتمهم رسولنا ﷺ.

يقول ابن كثير: (سمى الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته)[1].

هذه الحالات الشريفة لرسول الله ﷺ والتي وصفه الله تعالى فيها بالعبودية يمكن تضمينها في ثلاث حالات:

الحال الأولى: نزول القرآن الكريم عليه ﷺ.

١- يقول الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾. [الكهف: ١].

قال أبو السعود[2]: (وفي التعبير عن الرسول ﷺ بالعبد مضافًا إلى

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٢٥)، وانظر مجموع الفتاوى: (١/ ٦٦ - ١٠/ ١٥٢)، مدارج السالكين: (١/ ٨٧ - ٣/ ٢٦ - ٣٤٢)، روضة المحبين: (ص: ٤٢).

(٢) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، أبو السعود، علامة مفسر، ولي قضاء القسطنطينية وغيرها، معروف بسرعة البديهة وحضور الذهن، من مصنفاته: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، والمشهور بتفسير أبي السعود، توفي سنة اثنتين وثمانين وتسع مائة. انظر شذرات الذهب: (٨/ ٣٩٨-٢٤٠٠)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ٣٩٨ -٣٩٩).

ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه ﷺ إلى أعلى معارج العبادة وتشريف له أي تشريف)(١).

٢- وقال جل وعلا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾. [الفرقان: ١].

قال ابن كثير: (وقوله (على عبده) هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته كما وصفه بها في أشرف أحواله).(٢)

٣- وقال سبحانه: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾. [الأنفال: ٤١].

قال الألوسي: ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ، وفي التعبير عنه بذلك ما لا يخفى من التشريف والتعظيم)(٣).

٤- وقال جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. [الحديد: ٩].

---

(١) تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٠٢)، وانظر التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزيّ الكلبي، ط٢، دار الكتاب العربي: (٢/ ١٦٦)، نظم الدرر: (٤/ ٤٤٢)، تفسير ابن عاشور: (التحرير والتنوير)، طبعة الدار التونسية: (١٥/ ٢٤٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٠٨)، وانظر التسهيل: (٣/ ٧٤)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٢٠٠).

(٣) روح المعاني: (١٠/ ٥).

والمراد بالعبد هنا رسولنا ﷺ، والمقصود بالآيات آيات القرآن(١).

قال ابن جُزَي(٢): (والعبودية هنا للتشريف والاختصاص)(٣).

٥- وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾. [البقرة: ٢٣].

قال أبو السعود: (وفي ذكره ﷺ بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به ﷺ وانقياده لأوامره تعالى ما لا يخفى)(٤).

الحال الثانية: الإسراء والمعراج.

١. يقول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾. [الإسراء: ١].

قال الرازي: (لولا أن العبودية أشرف المقامات لما وصفه الله بهذه الصفة في أعلى مقامات المعراج)(٥).

---

(١) انظر تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٥٩).

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد، أبو القاسم، ابن جُزَيّ الكَلْبي، فقيه لغوي مفسر، من أهل غرناطة، من مصنفاته: التسهيل لعلوم التنزيل، القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية. توفي سنة إحدى وأربعين وسبع مائة، انظر: الأعلام: (٥/ ٣٢٥).

(٣) التسهيل: (٤/ ٩٦).

(٤) تفسير أبي السعود: (١/ ٦٤)، وانظر تفسير القرطبي: (١/ ١٦١).

(٥) تفسير الفخر الرازي: (١/ ٢٥١)، وانظر التسهيل: (٢/ ١٦٦)، نظم الدرر: (٤/ ٣٢٨).

وقال محمد الأمين: (والتعبير بلفظ العبد في هذا المقام العظيم يدل دلالة واضحة على أن مقام العبودية هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها، إذ لو كان هناك وصف أعظم منه لعبر به في هذا المقام العظيم)[١].

٢. ويقول سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾. [النجم: ١٠].

والمعنى: أوحى الله تبارك وتعالى إلى عبده محمد ﷺ، وذلك ليلة المعراج[٢].

الحال الثالثة: العبادة والدعوة

١. يقول الله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾. [العلق: ٩-١٠].

قال ابن عطية: (لم يختلف أحد من المفسرين في أن الناهي أبوجهل وان العبد المصلي محمد ﷺ)[٣].

والملاحظ في الآية الكريمة تنكير اللفظ المتضمن وصف الرسول ﷺ بالعبودية (عبدًا).

قال البيضاوي[٤]: (ولفظ العبد وتنكيره للمبالغة في تقبيح النهي

(١) أضواء البيان: (٣/ ٣٩٧-٣٩٨)، و انظر أحكام القرآن لابن العربي: (٣/ ١١٩٢)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٣٥)، تفسير أبي السعود: (٥/ ١٥٤).

(٢) انظر تفسير البغوي: (٤/ ٢٤٦)، تفسيرالزمخشري: (٤/ ٤٢١)، تفسير القرطبي: (١٧/ ٦١)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ١٥٨)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٤٩)، فتح الباري: (١٨/ ٢٤٣).

(٣) تفسير ابن عطية: (٥/ ٥٠٢).

(٤) هو عبد الله بن عمر بن محمد، الشيرازي، ناصر الدين البيضاوي، علامة مفسر، ولي قضاء شيراز، من مصنفاته: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المشهور بتفسير البيضاوي، والمنهاج في أصول الفقه، توفي سنة خمس وثمانين وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٤٤٦)، الأعلام: (٤/ ١١٠).

والدلالة على كمال عبودية المنهي)[١].

وقال القاسمي[٢]: (ولفظ العبد وتنكيره لتفخيمه ﷺ)[٣].

٢. ويقول تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾. [الجن: ١٩].

وعبد الله في الآية هو رسول الله ﷺ.

قال ابن جزي: (ووصفه بالعبودية اختصاصًا له وتقريبًا وتشريفًا)[٤].

٣. ويقول سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾. [الزمر: ٣٦] وهذه قراءة الجمهور (عبده) على الإفراد[٥].

(١) تفسير البيضاوي: (٢/ ٦١٠).

(٢) هو جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، إمام الشام في عصره، مفسر محدث أديب، من مصنفاته: محاسن التأويل في التفسير، وقواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، توفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة وألف. انظر الأعلام: (٢/ ١٣٥).

(٣) تفسير القاسمي: (١٧/ ٢٠٩).

(٤) التسهيل: (٤/ ١٥٤)، وقد اختلف المفسرون في المراد بقيامه ﷺ على قولين، **الأول**: قيامه بعبادة الله تعالى صلاة وتلاوة للقرآن. والثاني: قيامه بالدعوة إلى الله تعالى، وبناء على ذلك اختلفوا في عود الضمير في (كادوا) فمنهم من قال بعوده إلى الجن، ومنهم من قال بعوده إلى كفار قريش أو إلي الكفار من الجن والإنس، انظر: تفسير الطبري: (٢٩/ ١١٧-١١٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٠٤-٤٠٥)، تفسير القرطبي: (١٩/ ١٦)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، طبعة دار الأرقم: (٥/ ٣١٩-٣٢٠).

(٥) قرأ عامة القراء السبعة (عبده) على الإفراد، والمراد به رسولنا ﷺ، وذكر بعض المفسرين احتمال أن يكون للجنس ويدخل فيه الرسول ﷺ دخولاً أوليا، وقرأ حمزة والكسائي (عباده) بالجمع، ويكون المراد الأنبياء عليهم السلام جميعًا، أو الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين. انظر: سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهي لأبي القاسم العذري، ط٣، مكتبة مصطفى البابي الحلبي. مصر: (ص: ٣٣٨)، النشر في القراءات العشر لابن الجزري، ط١، دار الكتب العلمية: (٢/ ٢٧١)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٧-١٦٨)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٣٢٥-٣٢٦)، فتح القدير: (٤/ ٤٦٢).

قال البغوي: (يعني محمدًا ﷺ)[1].

يقول أبو حيان[2]: (وفي إضافته إليه تشريف عظيم لنبيه)[3].

وكما وصف رسولنا ﷺ بالعبودية تشريفًا له، فقد وصف بذلك أيضًا عدد ممن سبقه من المرسلين عليهم السلام على سبيل التخصيص في عدد من آيات الكتاب العزيز، وفيما يلي ذكرهم عليهم السلام:

١- نوح عليه السلام:

يقول الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾. [الإسراء: ٣].

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾. [الصافات: ٧٩ - ٨١].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾. [القمر: ٩].

قال أبو السعود: (وفي ذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام ورفع لمحله)[4].

---

(١) تفسير البغوي: (٤/ ٧٩- ٨٠).

(٢) هو محمد بن يوسف بن علي، أبو حيان الأندلسي الغرناطي، مفسر مؤرخ، إمام في النحو واللغة، من مصنفاته: البحر المحيط في التفسير، ونحاة الأندلس. توفي سنة خمس وأربعين وسبع مائة. انظر: شذرات الذهب: (٦/ ١٤٥-١٤٦)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ٢٧٨-٢٨٠).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٢٩).

(٤) تفسير أبي السعود: (٨/ ١٦٩)، وانظر تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ١٤٤)، التسهيل: (٤/ ٨٠)، روح المعاني: (٢٣/ ٩٩)، تفسير القاسمي: (١٥/ ٢٦٦).

٢- نوح ولوط عليهما السلام:

يقول الله جل وعلا: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾. [التحريم: ١٠].

والمراد من التصريح بالعبودية تعظيم نوح ولوط عليهما السلام[1].

٣- داود عليه السلام:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. [ص: ١٧].

قال القرطبي: (وقوله [عبدنا] إظهارًا لشرفه بهذه الإضافة)[2].

وقال الرازي: (وصفه بكونه عبدًا له، وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم، وذلك غاية التشريف)[3].

٤- سليمان عليه السلام:

يقول الله جل شأنه: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. [ص: ٣٠].

ذكره جل وعلا بصفة العبودية على سبيل الثناء والتقريب[4].

---

(١) انظر تفسير البيضاوي: (٢/ ٥٠٧)، روح المعاني: (٢٨/ ١٦٣)، فتح الرحمن: (ص: ٣٥٩).

(٢) تفسير القرطبي: (١٥/ ١٠٤).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ١٨٤)، والأيد القوة. انظر معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٢٣)، الدر المنثور: (٧/ ١٤٨)، قال الشوكاني: (والمراد ما كان فيه عليه السلام من القوة على العبادة)، فتح القدير: (٤/ ٤٢٢).

(٤) انظر تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٠٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ٢٠٣)، تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ١١٠).

٥- أيوب عليه السلام:

يقول الله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾. [ص: ٤١].

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. [ص: ٤٤].

قال السعدي: (نعم العبد) الذي كمل مراتب العبودية في حال السراء والضراء والشدة والرخاء)[١].

٦- زكريا عليه السلام:

يقول الله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾. [مريم: ٢].

قال ابن جزي: (وصفه بالعبودية تشريفًا له وإعلامًا بتخصيصه وتقريبه)[٢].

٧- إبراهيم عليه السلام:

يقول الله ﷻ: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٩ - ١١١].

قال القرطبي: (أي: من الذين أعطوا العبودية حقها حتى استحقوا الإضافة إلى الله)[٣].

٨- إبراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي

(١) تفسير السعدي: (٤/ ٢٩٥)، وانظر تفسير القاسمي: (١٤/ ١٧٤).

(٢) التسهيل: (٣/ ٢).

(٣) تفسير القرطبي: (١٥/ ٧٤).

الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾[١]. [ص: ٤٥][٢].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾. [الأنبياء: ٧٢ - ٧٣][٣].

وصفهم بالعبادة الخالصة لله وحده في سياق مدحهم والثناء عليهم[٤].

٩- يوسف عليه السلام:

يقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. [يوسف: ٢٤].

(١) قرأ ابن كثير: (عبدنا) بالإفراد، وقرأ باقي القراء السبعة: (عبادنا) على الجمع. انظر سراج القارئ: (ص: ٣٣٦)، النشر: (٢/ ٢٧٠)، وعلى قراءة الإفراد: (عبدنا) يكون المراد إبراهيم عليه السلام، وتخصيصه على هذا لمزيد الشرف، وذكر بعض المفسرين احتمال أن يكون لفظ (عبدنا) للجنس والثلاثة بدل منه فتتفق القراءتان، انظر تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٠١)، روح المعاني: (٢٣/ ٢١٠)، فتح القدير: (٤/ ٤٣٥).

(٢) قال ابن كثير في معنى ﴿الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٠)، وانظر الدر المنثور: (٧/ ١٩٧-١٩٨).

(٣) والمراد بقوله (كلا) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وهذا اختيار ابن جرير، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي. انظر تفسير الطبري: (١٧/ ٤٨-٤٩)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٥٢)، زاد المسير: (٥/ ٢٥٥)، تفسير القرطبي: (١١/ ٢٠٢)، بينما اختار أبو حيان، وأبو السعود، والألوسي، ورجحه محمد الأمين: أن المراد يشمل الثلاثة إضافة إلى لوط عليه السلام. انظر تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٢٩)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٧٧)، روح المعاني: (١٧/ ٧١)، أضواء البيان: (٤/ ٥٩٢).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود: (٦/ ٧٧)، فتح القدير: (٣/ ٤٢٢)، تفسير السعدي: (٣/ ٢٩٠).

١٠- إلياس عليه السلام:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾. [الصافات: ١٣١ - ١٣٢].

١١- موسى وهارون عليهما السلام:

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾. [الصافات: ١٢١ - ١٢٢].

١٢- الخضر عليه السلام:

يقول الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. [الكهف: ٦٥] والمراد بالعبد في الآية الخضر عليه السلام[1].

قال أبو السعود: (التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف)[2].

وفي حديث أُبي ابن كعب رضي الله عنه[3]، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) انظر معاني القرآن لأبي جعفر النحاس، ط١، مركز إحياء التراث بجامعة أم القرى: (٤/ ٢٦٧)، تفسير البغوي: (٣/ ١٧٢)، فتح القدير: (٣/ ٣٠٣)، واختلف في نبوة الخضر. وممن رجح نبوته ابن عطية والقرطبي وابن كثير ومحمد الأمين. انظر تفسير ابن عطية: (٣/ ٥٢٩)، تفسير القرطبي: (١١/ ١٢)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٩٢)، أضواء البيان (٤/ ١٥٨-١٦٢)، ومال البغوي إلى عدم نبوته. تفسير البغوي: (٣/ ١٧٣)، وانظر زاد المسير: (٥/ ١١٧-١١٨)، فتح الباري: (١٨/ ٢١).

(٢) تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٣٤).

(٣) هو أُبي بن كعب بن قيس، الأنصاري، أبو المنذر، سيد القراء، شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها، كان عمر رضي الله عنه يسميه سيد المسلمين، ويسأله عن النوازل ومعضلات الأمور، توفي سنة ثلاثين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٤٧٤-٤٧٧)، الإصابة: (١/ ١٨٠-١٨٢).

(بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال موسى عليه السلام: لا، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: بل عبدنا خضر...) الحديث[1].

قال ابن حجر: (والإضافة فيه ـ أي في لفظ عبدنا ـ للتعظيم)[2].

١٣- عيسى عليه السلام:

بقول الله سبحانه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. [مريم: ٣٠][3].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. [الزخرف: ٥٩][4].

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾. [النساء: ١٧٢].

قال القاسمي: (أي: لن يأنف من أن يكون عبدًا لله فإن عبوديته شرف يتباهى به)[5].

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى الخضر: (١/ ٤٠).

(٢) فتح الباري: (١/ ٢٦٥).

(٣) انظر روح المعاني: (١٦/ ٨٩)، تفسير السعدي: (٣/ ١٩٩).

(٤) انظر روح المعاني: (٢٥/ ٩٣).

(٥) تفسير القاسمي: (٥/ ٦٨١)، وانظر تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) لمحمد رشيد رضا، طبعة دار المعرفة: (٦/ ٩٥)، تفسير السعدي: (١/ ٤٤٥)، مدارج السالكين: (١/ ٨٦).

وقال الألوسي: (والاقتصار على ذكر عدم استنكافه ﷺ عن ذلك مع أن شأنه ﷺ المباهاة به كما تدل عليه أحواله وتفصح عنه أقواله لوقوعه في موضع الجواب عما قاله الكفرة)[1].

المسألة الثانية: المؤمنون

وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بصفة العبودية، وأضافهم إليه جل وعلا على سبيل التكريم والتشريف في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

ذلك أن الإضافة إلى الشريف تضفي على المضاف الشرف والرفعة.

قال الرازي:(وفرق بين العبد مطلقًا وبين المضاف إلى الله تعالى، فإن الإضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفًا، تقول: بيت الله، فيكون فيه من الشرف مالا يكون في قولك البيت)[2].

ويعتبر أبو السعود أن تخصيص ذلك بالمؤمنين هو عادة القرآن الكريم.

يقول أبو السعود: (وإضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن الكريم)[3].

ويقرر الشوكاني[4] كذلك: (أن إضافة العباد إليه يراد بها المؤمنون لما في

---

(١) روح المعاني: (٦/ ٣٧)، وانظر تفسير أبي السعود: (٢/ ٢٦٠).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ٦٣)، وانظر تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٤).

(٣) تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٥٩)، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، وانظر تفسير الفخر الرازي: (٢٥/ ٢٤٩)، الكليات لأبي البقاء الكفوي، ط٢، دار الكتاب الإسلامي: (٣/ ٢٦٩)، تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ١١٠).

(٤) هو محمد بن علي بن محمد، الشوكاني، فقيه مجتهد، من كبار علماء اليمن في عصره، ولي قضاء صنعاء، من مصنفاته: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، وفتح القدير الجامع لفني الراوية والدراية من علم التفسير، توفي سنة خمسين ومائتين وألف. انظر: الأعلام: (٦/ ٢٩٨)، التفسير والمفسرون: (٢/ ٢٨٥-٢٨٦).

الإضافة من التشريف)[1].

لكن هذا التعميم يرد عليه أن هناك آيات كريمات تضمنت لفظ (العباد) مضافًا إلى الله تعالى مقصوداً به الكافرين، كقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾. [الفرقان: ١٧][2].

ويمكن الجواب على هذا الاعتراض والجمع بين النصوص من وجوه:

الأول: أن تخصيص ذلك بالمؤمنين هو باعتبار الغالب.

قال الشوكاني عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]: (ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين أن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم)[3].

الثاني: أن المخصوص بالتشريف بصفة العبودية هم أهل العبادة الخاصة لا العامة، الاختيارية لا الاضطرارية، عبيد الإلوهية لا الربوبية[4]، ويمكن تحديد المراد من خلال السياق القرآني ذاته.

قال ابن جزي: (والعبودية على وجهين: عامة، وهي التي بمعنى الملك، وخاصة، وهي التي يراد بها التشريف والتخصيص، وهي من

---

(١) فتح القدير: (٣/ ٢٤٧)، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ١٨٩-١٩٠).

(٣) فتح القدير: (٤/ ٢٥٤)، وانظر الكليات: (٣/ ٢٦٩)، تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ١١٠).

(٤) سيأتي الحديث عن هذا التقسيم في الفصل الثاني من هذا الباب بمشيئة الله وعونه.

أوصاف أشراف العباد)(١).

وهذا معنى قول ابن عطية عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]: (وعباد الله هنا خصوص في المؤمنين الناعمين لأن جميع الخلق عباده)(٢).

وهو معنى كلام ابن تيمية أيضًا حين قال بعد إيراده بعض الآيات في هذه المسألة، ومنها قول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]: (والمراد بعبده عابده المطيع لأمره، وإلا فجميع المخلوقين عباده بمعنى أنهم معبدون مخلوقون مدبرون)(٣).

يقول السعدي في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ [مريم: ٦١]: (والعباد في هذه الآية المراد عباد إلهيته الذين عبدوه والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفًا لهم كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] ونحوه.

(بخلاف عباده المماليك فقط الذين لم يعبدوه فهؤلاء إن كانوا عبيدًا لربوبيته لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم فليسوا داخلين في عبيد إلهيته، العبودية الاختيارية التي يمدح صاحبها، إنما عبوديتهم عبودية اضطرار لا

---

(١) التسهيل: (١/ ٤١).

(٢) تفسير ابن عطية: (٥/ ٤١٠)، وانظر تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٣٥)، أضواء البيان: (٣/ ٦١٠).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٥٠٣)، وانظر: (١/ ٤٣-٤٤).

مدح لهم فيها)(١).

الثالث: أن وصف الكفار بالعبودية المضافة إلى الله تعالى في الآية المذكورة هو وصف مقيد بالإشارة [أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء]، وهذه التسمية المقيدة بالإشارة ونحوها ـ كما ذكر ابن القيم ـ يمكن أن يوصف بها الكفار، أما التسمية المطلقة فهي خاصة بالمؤمنين.

يقول ابن القيم: (ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء) يقصد أهل الطاعة والولاية لله سبحانه(٢).

وفيما يلي عرض لجملة من الآيات الكريمة المتضمنة وصف العبودية مضافاً إلى الله تعالى تشريفًا للمؤمنين، وذلك على سبيل التمثيل.

- يقول الله جل وعلا: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾. [الإنسان: ٦].

قال ابن جزي: (وصفهم بالعبودية، وفيه معنى التشريف والاختصاص)(٣).

- ويقول سبحانه: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾. [الصافات: ٤٠، ٧٤، ١٢٨، ١٦٠].

في الآية الكريمة قراءتان: الأولى بفتح اللام في لفظ [المخلصين]

---

(١) تفسير السعدي: (٣/ ٢١١)، وانظر: (٣/ ٤٤٩- ٤٥٠).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٨٩)، وانظر تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ١١٠- ١١١).

(٣) التسهيل: (٤/ ١٦٧).

والثانية بكسرها[١]، والمعنى على القراءة الأولى: أي الذين أخلصهم الله تعالى لدينه وعبادته، وعلى الثانية: أي الذين اخلصوا لله العبادة[٢].

قال الألوسي: (و[المخلصين] صفة مدح حيث كانت الإضافة للتشريف)[٣].

- ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال القرطبي:(أضافهم إلى عبوديته تشريفاً لهم)، ثم قال: (فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذي يستحق اسم العبودية)[٤].

يقول السعدي: (العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد الله مربوبون مدبرون ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ

---

(١) قرأ عاصم وحمزة و الكسائي ونافع بفتح اللام، وباقي القراء السبعة بكسرها. انظر سراج القارئ: (ص: ٢٥٧)، النشر: (٢/ ٢٢١).

(٢) انظر معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٠٧)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٥٢)، فتح القدير: (٤/ ٣٩١)، حجة القراءات لابن زنجلة، ط ٥، مؤسسة الرسالة: (ص: ٣٥٨ – ٣٥٩).

(٣) روح المعاني: (٢٣/ ٨٥).

(٤) تفسير القرطبي: (١٣/ ٤٦)، وانظر تفسير الزمخشري: (٣/ ٢٩٦)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٥١٢).

عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣]، وعبودية لألوهيته وعبادته ورحمته، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه [الرحمن] إشارة إلى أنهم وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت)[١].

- ويقول ﷻ: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ [الزمر: ١٠].

قال أبو السعود: (وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة)[٢].

- ويقول تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨].

قال الرازي:(وصفهم بالعبودية، وهذا تشريف عظيم)[٣].

- ويقول سبحانه:﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[الإسراء:٥٣].

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥].

قال ابن عطية:(خصهم باسم العبادة وإن كان اسمًا عامًا لجميع الخلق من حيث قصد تشريفهم والتنويه بهم)[٤].

---

(١) تفسير السعدي: (٣/ ٤٤٩-٤٥٠)، وانظر نظم الدرر: (٥/ ٣٣٤).

(٢) تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٤٦)، وانظر: (٧/ ٤٥)، فتح القدير: (٤/ ٣١٢).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٢٧/ ٢٢٥)، وانظر تفسير أبي السعود: (٨/ ٥٤).

(٤) تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٧١)، وانظر معاني القرآن للنحاس: (٤/ ١٧٤)، تفسير البيضاوي: (١/ ٥٧٦).

وقال أبو حيان: (والإضافة إليه تعالى في [إن عبادي] إضافة تشريف، والمعنى: المختصين بكونهم عبادي لا يضافون إلى غيري)(١).

• ويقــــول ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٣].

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١].

أثنى عليهم الله تبارك وتعالى بوصف العبودية.

قال السعدي: (والعباد في هذه الآية المراد عباد إلهيته الذين عبدوه والتزموا شرائعه فصارت العبودية وصفًا لهم...)(٢).

---

(١) تفسير البحر المحيط: (٦/ ٥٩)، وانظر: (٦/ ٤٩)، روح المعاني: (١٥/ ٩٤).

(٢) تفسير السعدي: (٣/ ٢١١).

الفصل الثاني:

أقسام العبودية

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أقسام العبودية باعتبار الكائنات.

المبحث الثاني: أقسام العبودية باعتبار العموم والخصوص.

المبحث الثالث: أقسام العبودية باعتبار أعضاء الإنسان.

المبحث الأول

أقسام العبودية باعتبار الكائنات

الكون كله يعبد الله جل وعلا، يسبحه ويعظمه، ويسجد له ويخضع، ويشهد له بالوحدانية سبحانه.

هذا ما ينص عليه القرآن الكريم في مثل قول الله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾. [الإسراء: ٤٤].

فهذه الآية الكريمة صريحة في الدلالة على أن جميع المخلوقات مسبحة لله ﷻ عابدة له، إذ قررت الآية أن السماوات والأرض تسبح الله تعالى، ثم خصصت بالذكر العقلاء المكلفين من الملائكة والإنس والجن، ثم عمت بعد ذلك الأشياء كلها ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾.[1]

قال ابن كثير: (وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات).[2]

ومثل هذه الآية في الدلالة على المراد قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحج: ١٨].

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٥٩)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٣)، تفسير أبي السعود: (٥/ ١٧٥).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤١).

وقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٤١].[١]

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨ - ٤٩].

والمراد بالدابة في الآية كل ما يدب على الأرض مكلفًا أو غير مكلف، عاقلاً أو غير عاقل.[٢]

قال الضحاك: (كل شيء فيه روح: دابة يسجد لله ﷻ).[٣]

ومن الآيات الكريمة التي تشير إلى ذلك أيضًا قول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

قال ابن عطية: (معنى الآية أن المخلوقات كلها تقنت لله أي تخضع وتطيع).[٤]

وقول الله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

---

(١) انظر تفسير الطبري: (١٨/ ١٥٢)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٩٧)، قال ابن عطية: (٤/ ١٨٨) (قال المفسرون: قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عامة لكل شيء، من له عقل وسائر الجمادات، لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه بـ ﴿مَن﴾ تغليبًا لحكم من يعقل).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٠/ ٧٥)، التسهيل: (٢/ ١٥٥)، تفسير السعدي: (٣/ ٦٣).

(٣) معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٧١)، وانظر: الدر المنثور: (٥/ ١٣٦).

(٤) تفسير ابن عطية: (١/ ٢٠١)، وانظر: تفسير الطبري: (١/ ٥٠٧، ٥٠٨)، تفسير القرطبي: (٢/ ٥٩)، تفسير ابن كثير: (١/ ١٦٠)، الدر المنثور: (١/ ٢٧٠).

قال ابن كثير: (أي ملكه وعبيده ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي خاضعون خاشعون طوعًا وكرهًا).[١]

هذه الكائنات العابدة لله ﷻ منها ما هو مكلف عاقل ومنها ما ليس بعاقل، وفي المطلبين التاليين بيان ذلك:

المطلب الأول: المكلفون العقلاء.

ويشمل ذلك الإنس والجن والملائكة، ويمكن الإشارة إلى عبوديتهم في المسألتين التاليتين:

المسألة الأولى:

الإنس والجن

خلق الله تعالى الإنس والجن لعبادته ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن لم يعبد الله تعالى من الثقلين طوعًا واختيارًا سيعبده كرهًا واضطرارًا: خضوعًا لقهره ومشيئته سبحانه، وذلة لسلطانه وإرادته جل وعلا.

والرسل عليهم السلام وأتباعهم من المؤمنين رغبوا في عبودية الله اختيارًا، واتجهوا إلى الإسلام طوعًا، فوعدهم الله تعالى بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، والقرآن الكريم مليء بدلائل ذلك وشواهده.

والجن كالإنس في ذلك.[٢] فمنهم المؤمن العابد طوعًا، ومنهم الكافر

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٣٠)، وانظر: تفسير الطبري: (٢١/ ٣٤-٣٥).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (٤/ ٢٣٣ـ٢٣٧، ١٣/ ٧٩ـ٨٠، ٨٥ـ٨٧).

العابد كرهًا، كما قال جل وعلا حكاية عنهم ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن: ١١].

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤].

وقد نص القرآن الكريم على دعوة الرسول ﷺ لهم، وعلى استماعهم للقرآن، وإيمان فريق منهم بعد تأثرهم ويقينهم أنه من عند الله ﷻ.

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].[1]

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ[2] وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب) وفيه (فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة[3] وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه

(١) انظر: الفرقان: (ص: ٧٩، ٨١)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٧١)، الدر المنثور: (٧/ ٤٥٢-٤٥٣، ٨/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٢) بضم العين وتخفيف الكاف، و هو موضع بقرب الطائف كانت تقام به في الجاهلية سوق تجتمع فيه قبائل العرب فيتعاكظون أي يتفاخرون ويتناشدون. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٢٨٤)، المغني لمحمد طاهر الهندي، طبعة دار الكتاب العربي: (ص: ١٧٧)، الروض الأنف للسهيلي، طبعة دار الفكر: (٢/ ١٦٩).

(٣) بفتح النون وسكون الخاء: موضع بين مكة والطائف. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٤٩)، فتح الباري: (١٨/ ٣٢٠)، ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ٣٤٤).

صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].[1]

ومن حديث ابن مسعود[2] رضي الله عنه قال: (كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا استطير أو اغتيل[3]، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاءٍ من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: [أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن].[4]

وعن جابر[5] رضي الله عنه قال: (خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الجن: (٤/ ١٨٧٣ ـ ١٨٧٤)، ومسلم بنحوه في كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن: (١/ ٣٣١ ـ٣٣٢)، وانظر تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٧٨).

(٢) هو عبد الله بن مسعود بن غافل، أبو عبد الرحمن الهذلي، حليف بني زهرة، أحد السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بالقرآن بمكة، شهد بدرا والمشاهد كلها، لازم النبي ﷺ وأكثر من رواية الحديث عنه، وكان من القراء المشهورين، توفي سنة اثنتين وثلاثين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٣٩٥- ٤٢٢)، الإصابة: (٤/ ١٩٨- ٢٠١).

(٣) (أي ذُهِب به بسرعة، كأن الطير حملته، أو اغتاله أحد. والاستطارة والتطاير: التفرق والذهاب) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١٥٢).

(٤) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن: (١/ ٣٣٢).

(٥) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، أبو عبد الله الأنصاري، من بني سلمة، شهد بيعة العقبة الثانية وكان أصغرهم يومئذ سنًّا. أحد المكثرين عن النبي ﷺ، توفي سنة ثمان وسبعين، وكان آخر أصحاب رسول الله ﷺ موتًا بالمدينة. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٦٤٨ – ٦٤٩)، الإصابة: (١/ ٥٤٦ – ٥٤٧).

سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: [لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودا(1) منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد].(2)

المسألة الثانية:

الملائكة عليهم السلام

وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام بأنهم عباده فقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف: ١٩] وذلك في معرض الرد على أباطيل المشركين.

كما أثنى عليهم جل وعلا بصفة العبودية وشرف بها مقامهم ومنزلتهم عنده سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

(١) (أي أحسن ردًا وجوابًا لما تضمنه الاستفهام التقريري المتكرر فيها) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري، ط١، دار الحديث: (٨/ ٢٧٦).

(٢) رواه الترمذي (سنن الترمذي، ط٢، دار سحنون) في كتاب التفسير، باب ومن سورة الرحمن: (٥/ ٣٩٩)، وقال: حديث غريب، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي: المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، ط١، دار الكتب العلمية: (٢/ ٥١٥)، وصححه الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، ط١، مكتبة المعارف: (ص: ٥٣٢)، وانظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، طبعة دار الفكر: (٧/ ٢٥٤)، الدر المنثور: (٧/ ٦٨٩)، تحفة الأحوذي: (٨/ ٢٧٧).

وبين تبارك وتعالى أنهم عليهم السلام لا يأنفون أو يتكبرون عن الخضوع والاستسلام لعبوديته جل وعلا: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢].

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩].

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأنبياء: ١٩].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والمراد بـ ﴿ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ الملائكة عليهم السلام.(1)

ومن مظاهر عبوديتهم لله تعالى التسبيح والتحميد، والتمجيد والتعظيم، والصلاة والسجود ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢].

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

(١) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ٢٢٦، ١١/ ١٨٤)، زاد المسير: (٣/ ٢١٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ١٤٨)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٧٥، ٢/ ٢٨٢).

وقد فسر قتادة[١] تسبيح الملائكة بالتسبيح المعلوم في اللغة وهو تنزيه الله تعالى عن صفات النقص.[٢]

قال القرطبي: (وهو الصحيح)[٣] مستشهدا بحديث أبي ذر[٤] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: [ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده].[٥]

والتقديس (التطهير والتعظيم)[٦] فمعنى ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (أي نعظمك ونمجدك ونطهر ذكرك عما لا يليق بك).[٧]

وعلى هذا فالتسبيح والتقديس متقارب في المعنى.

قال الزمخشري: (التسبيح تبعيد الله عن السوء، وكذلك تقديسه).[٨]

---

(١) هو قتادة بن دعامة، أبو الخطاب السدوسي البصري، حافظ مفسر ثقة، من أوعية العلم، اشتهر بقوة الحفظ، توفي سنة سبع عشرة ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٢٥٩)، تهذيب التهذيب: (٨/ ٣١٥-٣١٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١/ ٢١١)، تفسير ابن عطية: (١/ ١١٨)، الدر المنثور: (١/ ١١٣).

(٣) تفسير القرطبي: (١/ ١٩١)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٥٤).

(٤) هو جندب ـ بضم الجيم وسكون النون وضم الدال وفتحها ـ بن جنادة ـ بضم الجيم ـ بن سكن، أبو ذر الغفاري، من السابقين إلى الإسلام، ثم كان سبباً في إسلام قبيلة غفار، أعلن إسلامه فأوذي، وعاء مليء علمًا، زاهد صادق اللهجة، توفي سنة إحدى وثلاثين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٥٨٤ -٦٠٠)، الإصابة: (٧/ ١٠٥ -١٠٩).

(٥) رواه مسلم في كتاب الذكر، باب فضل سبحان الله وبحمده: (٣/ ٢٠٩٣).

(٦) تفسير الطبري: (١/ ٢١١)، وانظر: تفسير ابن عطية: (١/ ١١٨).

(٧) تفسير القرطبي: (١/ ١٩١).

(٨) تفسير الزمخشري: (١/ ١٥٤).

أما سجود الملائكة المعطوف على التسبيح في قوله جل وعلا: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ فالمراد به الصلاة.[١]

وقال ﷻ أيضًا في تسبيح الملائكة عمومًا وحملة العرش والحافين به من الملائكة خصوصًا: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

فهم يجمعون بين التسبيح المتضمن تنزيه الله ونفي صفات النقص عنه سبحانه، والتحميد المتضمن إثبات صفات المدح والثناء له جل وعلا.[٢]

ويقول تبارك وتعالى أيضًا حكاية عنهم قولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤ - ١٦٦].

أي أن لكل ملك في السماوات مكانًا معلومًا وموضعًا مخصوصًا يعبد الله تبارك وتعالى فيه، وأن من أعمال الملائكة عليهم السلام الوقوف صفوفًا خضوعًا وإجلالاً لله تعالى، يسبحونه ويعظمونه ويصلون له جل وعلا.[٣]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٦٨)، زاد المسير: (٣/ ٢١٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٧١)، وانظر: القولين في الآية الأولى وعلاقة الثانية بها في تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٤٧، ٥/ ٢٦)، تفسير القرطبي: (١٦/ ٥)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٥٠٨)، أضواء البيان: (٧/ ١٥٣).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣١٦)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٥)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٣)، الدر المنثور: (٧/ ١٣٥ - ١٣٨)، فتح القدير: (٤/ ٢١٣).

عن حذيفة[١] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة] الحديث.[٢]

وفي حديث جابر بن سمرة[٣] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ (خرج علينا فقال: [ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟] فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: [يتمون الصفوف الأُوَل ويتراصون في الصف].[٤]

قال النووي[٥] في شرح هذا الحديث: (وفيه الأمر بالسكون في الصلاة والخشوع فيها والإقبال عليها، وأن الملائكة يصلون، وأن صفوفهم على

---

(١) هو حذيفة بن اليمان العبسي (واسم اليمان حسيل بن جابر)، أبو عبد الله، شهد أحدًا وما بعدها، كان يكثر من سؤال رسول الله ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه، وكان صاحب سره في المنافقين، ولاه عمر رضي الله عنه على المدائن، توفي سنة ست وثلاثين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٦١٠ – ٦١٦)، الإصابة: (٢/ ٣٩ – ٤٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة: (١/ ٣٧١).

(٣) هو جابر بن سَمُرة ـ بضم الميم ـ بن جُنادة العامري السُّوائي، حليف بني زهرة، سكن الكوفة وشهد فتح المدائن، توفي سنة أربع وسبعين. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ١٢٧٦)، الإصابة: (١/ ٥٤٢ – ٥٤٣).

(٤) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة: (١/ ٣٢٢).

(٥) هو يحي بن شرف الحوراني، محي الدين النواوي، الشافعي، أبو زكريا، فقيه مجتهد، عارف بالحديث ورجاله، شيخ الإسلام، عابد زاهد ورع، ولد في نوا من قرى حوران بسورية، وإليها نسبته، من مصنفاته: شرح صحيح مسلم، وشرح المهذب للشيرازي، توفي سنة ست وسبعين وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٤١٧٤ – ٤١٧٦)، الأعلام: (٨/ ١٤٩ – ١٥٠).

هذه الصفة. والله أعلم).[١]

وعن عمر[٢] رضي الله عنه أنه: كان (إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال: أقيموا صفوفكم واستووا فإنما يريد الله بكم هدي الملائكة، يقول: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾.[٣]

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه إشارة إلى عظم عبودية الملائكة لله جل شأنه مع كثرة عددهم في السماء، قال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ: [إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت[٤] السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله].[٥]

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (٤/ ١٥٤).

(٢) هو عمر بن الخطاب بن نفيل، القرشي العدوي، أبو حفص الفاروق أمير المؤمنين، كان إسلامه فتحًا على المسلمين، هاجر جهرًا، وشهد بدرًا والمشاهد كلها، شهدت خلافته فتوحات عظيمة، استشهد سنة ثلاث وعشرين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٢٦٨ – ٢٩٣)، الإصابة: (٤/ ٤٨٤ – ٤٨٦).

(٣) تفسير الطبري: (٢٣/ ١١٢).

(٤) بفتح الهمزة وشد الطاء أي صوّتت من ثقل ما عليها من ازدحام الملائكة عليهم السلام، من الأطيط وهو صوت الإبل وما عليها من الرحل. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٥٤)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، طبعة دار المعرفة: (١/ ٥٣٦)، تحفة الأحوذي: (٦/ ١٨٥).

(٥) رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً): (٤/ ٥٥٦)، وقال هذا حديث حسن غريب، وابن ماجة (سنن ابن ماجه، طبعة دار الكتب العلمية) في كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء: (٢/ ١٤٠٢)، وأحمد في المسند، ط٢، دار سحنون: (٥/ ١٧٣)، والحاكم في المستدرك: (٤/ ٦٢٣)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه أيضًا المناوي في فيض القدير: (١/ ٥٣٧)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٢٤٥).

وكذلك ما تضمنه حديث الإسراء من قوله عليه الصلاة والسلام [فرفع لي البيت المعمور فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم].(١)

إن هذه العبودية من الملائكة عليهم السلام دائمة بلا انقطاع، مستمرة دون ملل أو كلل، لا يصاحبها سأم أو فتور، ولا يحصل معها إعياء أو حسور.

يقول الله جل وعلا في وصف ملائكته عليهم السلام: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠].

قال الزجاج: (يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيا).(٢)

فهم دائبون في عبادة الله تعالى وتسبيحه في جميع أوقاتهم وفي كل أحوالهم، لا يعيون ولا يضعفون ولا يملون. كما قال سبحانه: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ [فصلت: ٣٨].

قال أبو حيان: (أي لا يملون ذلك).(٣)

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة: (٣/ ١١٧٣ - ١١٧٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ: (١/ ١٤٩ - ١٥١).

(٢) معاني القرآن: (٣/ ٣٨٧)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ١٤٩)، تفسير القرطبي: (١١/ ١٨٤)، الدر المنثور: (٥/ ٦٢١).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٩٩)، وانظر: المفردات: (ص: ٢٢٦).

ومع هذا الدأب العظيم في العبادة، فهم على حال عظيم من الخوف والوجل والإشفاق، تعظيمًا ومهابة وإجلالاً لربهم سبحانه، فيزدادون له تسبيحًا وتحميدًا.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٤٩ - ٥٠].

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ(١) بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣].

﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالملائكة عليهم السلام يخشون الله تعالى، وبسبب هذه الخشية البالغة يشفقون منه سبحانه حذرًا من معصيته المستوجبة للعقوبة.

قال الشوكاني: (والخشية الخوف مع التعظيم، والإشفاق الخوف مع التوقع والحذر، أي لا يأمنون مكر الله).(٢)

(١) قال البغوي في تفسيره: (٣/ ١١) (أكثر المفسرين على أن الرعد اسم ملك يسوق السحاب). انظر: معاني القرآن للزجاج: (٣/ ١٤٣)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٤٨٢ - ٤٨٣)، تفسير الواحدي: (١/ ٥٦٧)، تفسير السمعاني: (٣/ ٨٣)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٠٣)، التسهيل: (٢/ ١٣٢) وهذا القول مروي عن عدد من الصحابة والتابعين. انظر: الدر المنثور: (٤/ ٦٢٠-٦٢٣)، ويؤيده ما رواه أحمد في المسند: (١/ ٢٧٤)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الرعد: (٥/ ٢٩٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: أن يهود سألت رسول ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: [ملك من الملائكة موكل بالسحاب] الحديث. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٥٧٧- ٥٧٨). وعلى هذا فعطف الملائكة في الآية الكريمة من باب عطف العام على الخاص. انظر: فتح القدير: (٣/ ٧٥).

(٢) فتح القدير: (٣/ ٤١٠)، وانظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٧).

وفي حديث أبي هريرة[١] ﷺ قال: إن نبي الله ﷺ قال: [إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعانًا[٢] لقوله، كأنه سلسلة على صفوان[٣]، فإذا فزع عن قلوبهم[٤]، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير].[٥]

فهذا الحديث يؤكد خضوع الملائكة لأمر الله تعالى، وانتظارهم لما يتنزل من وحي الله، في حال من الوجل والخوف هيبةً وتعظيمًا لربهم جل وعلا.[٦]

ويدل هذا الحديث الصحيح على أن الضمير في لفظ ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ

---

(١) هو أبو هريرة بن عامر الدَّوْسي، واختلف في اسمه فقيل عمير وقيل عبد الرحمن وقيل غير ذلك، وكني بأبي هريرة لهرة كان يحملها، أسلم بين الحديبية وخيبر، كان أكثر الصحابة ﷺ حديثًا عن رسول الله ﷺ، ومن أشدهم حفظًا، وكان ملازمًا له عليه الصلاة والسلام، توفي سنة سبع وخمسين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٦٨٥ – ٦٩٤)، الإصابة: (٧/ ٣٤٨ – ٣٦٢).

(٢) (خُضْعانا) بضم الخاء وسكون الضاد: مصدر بمعنى خاضعين منقادين. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٤٣)، فتح الباري: (١٨/ ١٥٦).

(٣) (كأنه سلسلة على صفوان) أي صوت الملك بالوحي، والصفوان هو الحجر الأملس، كقوله في الحديث الآخر [مثل صلصة الجرس] انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤١)، فتح الباري: (١٨/ ١٥٦ – ١٥٧).

(٤) أي (كشف الفزع عن قلوبهم) معاني القرآن للزجاج: (٤ / ٢٥٣).

(٥) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ...﴾ (٤/ ١٨٠٤).

(٦) انظر: فتح الباري: (١٣/ ٤٥٦)، ط دار الفكر.

ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] يعود إلى الملائكة عليهم السلام.

قال ابن حجر: (والمراد بهم الملائكة، وهو المطابق للأحاديث الواردة في ذلك فهو المعتمد).[١]

وهو ما رجحه عدد من المفسرين كابن جرير[٢] والزجاج[٣] وابن عطية[٤] وأبي حيان.[٥]

ومن سمات الملائكة عليهم السلام في دائرة عبوديتهم لله تعالى الطاعة المطلقة، والتنفيذ الكامل، والامتثال المستمر، لما يتنزل عليهم من التكاليف.

قال الله تعالى عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ – ٢٨].

---

(١) فتح الباري: (١٣/ ٤٥٦)، وانظر: (٤٥٥، ٤٥٩)، ط، دار الفكر.

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٩٠ – ٩٢).

(٣) انظر: معاني القرآن: (٤/ ٢٥٣).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ٤١٨).

(٥) انظر: تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢٧٦ – ٢٧٧).

قال ابن قتيبة في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ (لا يقولون حتى يقول ويأمر وينهى ثم يقولون عنه).(١)

فهم عليهم السلام لا يتجاوزون أمر الله سبحانه، ولا يتعدون إذنه، ولا يتقدمون بين يديه بأمر أو نهي، بل يتبعون قوله، ويلتزمون وحيه جل وعلا.

المطلب الثاني: غير العقلاء

أثبت الله تعالى لمخلوقاته من غير العقلاء تسبيحًا وسجودًا له جل وعلا.

ومن الآيات المشتملة على ذلك قول الله سبحانه:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

---

(١) تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٨٥)، وانظر تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٠٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٧٦)، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الدمشقي، ط١، دار البيان: (ص: ٢٧٣-٢٧٥).

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فهذه الآيات الكريمات تبين أن جميع المخلوقات، ومنها الحيوان والطير والنبات وسائر الجمادات، تسبح الله تعالى وتعظمه وتنزهه عما لا يليق من الصفات.

والتسبيح في هذه الآيات جاء التعبير عنه بلفظ الفعل الماضي والمضارع.

قال أبو حيان: (وكله يدل على الديمومة والاستمرار، وأن ذلك ديدن من في السماوات والأرض).(١)

وبالإضافة إلى هذه الآيات العامة المقررة لعبودية المخلوقات من غير المكلفين هناك آيات أخرى خصت بالذكر تسبيح وسجود بعض المخلوقات لله تبارك وتعالى.

وفي المسألتين التاليتين إيراد لبعض تلك النصوص، وأهم الأقوال في توجيه المراد من ذلك التسبيح:

المسألة الأولى: بعض الآيات الواردة في عبودية غير العقلاء تنصيصًا.

١. يقول الله جل وعلا: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فهذه الآية الكريمة صريحة في تسبيح السماوات والأرض لله تعالى.

---

(١) تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢١٧)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٧٠)، الروض الريان في أسئلة القرآن لشرف الدين الحسين بن ريان، ط١، مكتبة العلوم والحكم: (ص: ٤٧٤)، فتح الرحمن: (ص: ٣٤٠).

٢. ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

فالآية الكريمة تقرر أن الطير يسبح الله تعالى ويعظمه ويخضع له، والمراد بقوله ﴿صَافَّاتٍ﴾ أي في حال طيرانها قد اصطفت أجنحتها في الهواء.(١)

قال ابن كثير: (أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا قال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ﷻ).(٢)

٣. ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨ - ١٩].

تتضمن هذه الآيات الكريمات أمر الجبال والطير بالتسبيح مع داود عليه السلام ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ أي رجّعي معه التسبيح كلما سبح.(٣)

(١) انظر تفسير ابن عطية: (٤/ ١٨٨)، تفسير القرطبي: (١٢/ ١٨٩).
(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٩٧).
(٣) انظر: غريب القرآن وتفسيره لليزيدي، ط١، عالم الكتب: (ص: ٣٠٥)، معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٢٤٣)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٨٠)، تفسير القرطبي: (١٤/ ١٧٠)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٢٧).

قال ابن عطية: (أي يسبح هو وترجع هي معه التسبيح أي ترده بالذكر).(١)

وكان ذلك معجزة لداود عليه السلام، أن ذلل الله تعالى له الجبال والطير، تجاوبه بالتسبيح إذا سبح عليه السلام وتتابعه فيه ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي أول النهار وآخره ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي تجتمع إليه الطير فتسبح الله تعالى معه عليه السلام(٢)، ومن ثم تشترك الجبال والطير مع داود عليه السلام في الأوبة إلى عبادة الله جل وعلا وتسبيحه، ولذلك قال سبحانه ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾.

قال الشوكاني: (أي كل واحد من داود والجبال والطير رجاع إلى طاعة الله وأمره).(٣)

٤. ويقول تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨].

تذكر الآية الكريمة أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والحيوانات، كل ذلك يسجد لخالقه تبارك وتعالى، طائعًا خاشعًا منقادًا

(١) تفسير ابن عطية: (٤/ ٤٠٧).
(٢) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٧٩)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٠٥)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٩، ٣٠).
(٣) فتح القدير: (٤/ ٤٢٣)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ١٣٨)، معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٢٤)، زاد المسير: (٦/ ٣٢٤).

عابدًا.

وقد ورد سجود الشمس خاصة في حديث أبي ذر ﷺ في الصحيحين (قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: [تدري أين تذهب] قلت: الله ورسوله أعلم، قال: [فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها] الحديث.[1]

وفي رواية لمسلم[2]: [إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها] الحديث.[3]

٥. ويقول جل شأنه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

في الآية الكريمة تصريح بسجود النجم والشجر لله تعالى.

وقد اختلف المفسرون في المراد بالنجم في الآية على قولين:

الأول: أن المراد بالنجم النبات الذي لا ساق له، سمي نجمًا لأنه

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان: (٣/ ١١٧٠)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان: (١/ ١٣٩)، وانظر: فتح الباري: (١٣ / ٤١٤) ط دار الفكر.

(٢) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم، أبو الحسين القشيري النيسابوري، إمام حافظ حجة، صاحب الصحيح، أجمعوا على جلالته وإمامته وورعه وإتقانه، ارتحل في طلب الحديث وسماعه إلى العراق والحرمين ومصر والشام وغيرها، توفي بنيسابور سنة إحدى وستين ومائتين. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٥٦٤ – ٥٦٨)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٨٣٥ – ٣٨٤٠).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان: (١/ ١٣٨)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٩٧)، فتح الباري: (١٣/ ١٩، ١٨/ ١٦١).

ينجم من الأرض أي يظهر ويطلع.

وعلى هذا القول أكثر المفسرين، وذلك باعتبار مناسبته للشجر المذكور في الآية، ومقابلته لما في الآية السابقة من ذكر الشمس والقمر.

وممن اختار هذا القول أو رجحه اليزيدي، وابن قتيبة، وابن جرير، والبغوي، والزمخشري، والرازي، وأبو حيان، وأبو السعود.[1]

الثاني: أن المراد بالنجم في الآية نجوم السماء.

ورجح هذا القول ابن كثير، وتابعه محمد الأمين، وذلك باعتبار اجتماع النجم والشجر في آية سورة الحج.[2]

وجوز الزجاج أن يكون المراد ما يشمل القولين معا، قال: (ويجوز أن يكون النجم هاهنا يعني به ما نبت على وجه الأرض، وما طلع من نجوم السماء، يقال لكل ما طلع قد نجم).[3]

٦. ويقول ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

(١) انظر: غريب القرآن: (ص: ٣٦٠)، تفسير غريب القرآن: (ص: ٤٣٦)، تفسير الطبري: (٢٧/ ١٧)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٦٧)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٤٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٨٩)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ١٨٩)، تفسير أبي السعود: (٨/ ١٧٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٧٠)، أضواء البيان: (٧/ ٧٣٧).

(٣) معاني القرآن: (٥/ ٩٦)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٢٤)، زاد المسير: (٧/ ٢٥٥)، تفسير القرطبي: (٧/ ١٠٠ – ١٠١).

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

والشاهد في الآيتين الكريمتين ما تضمنتهما من سجود الظلال لله تعالى.

وذلك يشمل ظل الإنسان مؤمنًا كان أو كافرًا ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾[1] أي: وتسجد ظلالهم لله سبحانه.[2]

عن مجاهد قال: (ظل المؤمن يسجد طوعًا وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعًا وهو كاره).[3]

كما يشمل ذلك ظل الأشياء والأجسام القائمة التي لها ظل كالجبال والأشجار ونحوهما[4] ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ أي: يميل ويرجع من جانب إلى جانب، ويكون أول النهار على حال وآخر النهار على حال أخرى[5] ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ فكما أن هذه الأشياء والأجرام داخرة أي صاغرة خاضعة لله تعالى فإن

(١) الغدو أول النهار، والأصيل آخره ما بين العصر إلى غروب الشمس، وتخصيص الوقتين لازدياد ظهور الظلال فيهما. انظر: تفسير البيضاوي: (١/ ٥٠٤).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٣/ ١٤٤)، زاد المسير: (٤/ ٢٣٥).

(٣) تفسير الطبري: (١٣/ ١٣١)، تفسير البغوي: (٣/ ١٢)، وانظر: الدر المنثور: (٤/ ٦٣).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٩٧)، تفسير القرطبي: (١٠/ ٧٤)، فتح القدير: (٣/ ١٧١).

(٥) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٤٣)، تفسير الطبري: (١٤/ ١١٤)، زاد المسير: (٤/ ٣٣٠).

ظلالها أيضًا تسجد لله جل وعلا.[1]

المسألة الثانية: المراد من تسبيح غير العقلاء

في توجيه المراد من تسبيح غير العقلاء ثلاثة أقوال رئيسة[2]، يمكن إيجاز الحديث عنها فيما يلي:

القول الأول:

أن تسبيح غير العقلاء تسبيح بلسان الحال لا بلسان المقال، وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة، والمعنى أن حال هذه المخلوقات من الحيوان والنبات والجماد يشهد على وحدانية الله وجلاله، وذلك فيما يظهر عليها من آثار الإبداع في الصنع، والإتقان في الخلق، والحكمة في التقدير، بما يدل على عظيم قدرة الله جل شأنه، فهي في ذاتها لا إدراك لها، لكنها تدعوا المتأمل فيها من ذوي الإدراك إلى تسبيح الله وتمجيده جل وعلا.

وإلى هذا القول مال الرازي، وحجته أن تسبيح المقال مبني على تحقق النطق والإدراك الذي يفتقده غير العقلاء.

يقول الرازي: (اعلم أن الحي المكلف يسبح الله بوجهين. الأول: بالقول كقوله باللسان: سبحان الله، والثاني: بدلالة أحواله على توحيد الله تعالى وتقديسه وعزته.

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١١٦)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٥٦٩)، تفسير النسفي: (٢/ ٢٠٧-٢٠٨)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٤٩٨).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٥٩)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٣)، أضواء البيان: (٨/ ١٥-١٦).

فأما الذي لا يكون مكلفًا مثل البهائم، ولا يكون حيّاً مثل الجمادات، فهي إنما تسبح الله تعالى بالطريق الثاني، لان التسبيح بالطريق الأول لا يحصل إلا مع الفهم والعلم، والإدراك والنطق، وكل ذلك في الجماد محال، فلم يبق حصول التسبيح في حقه إلا بالطريق الثاني).(١)

القول الثاني:

أن العموم الوارد في تسبيح المخلوقات معناه الخصوص في الكائنات التي تتصف بالحياة والنمو من حيوان أو نبات، ومن ثمّ فلا يشمل ذلك الجمادات التي لا حياة فيها ولا نماء.

ويُستدلّ لهذا القول بما ورد في الحديث من رواية ابن عباس رضي الله عنهما قال: (مرّ النبي ﷺ بقبرين، فقال: [إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة] ثم أخذ جريدة رطبة(٢) فشقها نصفين، فغرز في كل قبر واحدة. قالوا: يا رسول الله،لم فعلت هذا قال: [لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا].(٣)

(١) تفسير الفخر الرازي: (٢٠/ ٢١٨)، وانظر: (٢٠/ ١١٩ – ٢٢٠، ٢٤/ ١٠، ٢٩/ ٢٠٦–٢٠٧)، فتح الرحمن: (ص: ١٨٨).

(٢) الجريدة السَّعَفَة، وجمعها جريد، والرَّطب بفتح الراء وسكون الطاء خلاف اليابس. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٥٧)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ١٦٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول: (١/ ٨٨)، ومسلم بنحوه في كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه: (١/ ٢٤٠ – ٢٤١).

ووجه الاستدلال أنهما يسبحان مادام فيهما خضرة وحياة، فإذا يبسا صارا جماداً وانقطع تسبيحهما.(١)

القول الثالث:

أن اللفظ باق على عمومه، وأن تسبيح غير العقلاء كائن بلسان المقال على سبيل الحقيقة، وأنها تنطق به بإدراك يعطيهم الله تعالى إياه، وبكيفية يعلمها الله جل شأنه، إذ نصت الآية الكريمة على أن كل شيء يسبح تسبيحًا لا يفقهه البشر: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وهذا القول هو الراجح في المسألة، وبه قال جمع من المفسرين، وعزاه ابن عطية إلى الجمهور.(٢)

قال السمعاني(٣): (ذكر بعضهم أن تسبيح الجمادات هو أثر الصنع فيها، والأصح أن التسبيح حقيقة، وهو قول أهل السنة، لأنه لو كان المراد منه

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٥٩)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٣)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤١)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ٢٠٢)، فتح الباري: (١/ ١١٠).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٨٨).

(٣) هو منصور بن محمد بن عبد الجبار، أبو المظفر المروزي السمعاني الشافعي، إمام عصره، مفتي خراسان، حجة أهل السنة، محدث مفسر، وأصولي فقيه، كان بحرًا في الوعظ، من مصنفاته: المنهاج لأهل السنة، وتفسير القرآن العزيز (تفسير السمعاني)، توفي سنة تسع وثمانين وأربع مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٩٥٧ – ٣٩٥٨)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ١٤٣–١٤٤).

أثر الصنع لم يكن لقوله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ معنى، لأن أثر الصنع يعلمه ويفهمه كل واحد).(١)

وقال البغوي: (مذهب أهل السنة والجماعة أن لله تعالى علمًا في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء، لا يقف عليه غير الله، فلها صلاة وتسبيح وخشية، فيجب على المرء الإيمان به، ويكل علمه إلى الله ﷻ).(٢)

وقال القرطبي: (ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال).(٣)

وقال أيضًا بعد إيراده جملة من الأحاديث (الصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك، ولو كان ذلك التسبيح دلالة فأي تخصيص لداود(٤)، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا، وقد مضت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء، فالقول به أولى).(٥)

---

(١) تفسير السمعاني (تفسير القرآن العزيز) طبعة دار الوطن: (٥/ ٣٦٤)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٥/ ١٢١)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٥٩)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٣).

(٢) تفسير البغوي: (١/ ٨٥- ٨٦) (مع اختصار يسير)، وانظر: (٣/ ١١٧)، تفسير السمعاني: (١/ ٩٦، ٣/ ٢٤٤)، وكلام إسحاق بن راهويه: جامع العلوم والحكم لابن رجب، ط٧، مؤسسة الرسالة: (٢/ ١٧٢ – ١٧٣).

(٣) تفسير القرطبي: (٥/ ١٠٥)، وانظر: (١٧/ ١٥٣).

(٤) يعني ما ورد في الآية الكريمة ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

(٥) تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٤)، وانظر: (١٤/ ١٧٠)، الروح لابن القيم، ط١، دار الفكر: (ص: ٩٤- ٩٥).

وقال النووي: (المحققون على أنه يسبح حقيقة، وقد أخبر الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] وإذا كان العقل لا يحيل جعل التميز فيها، وجاء النص به، وجب المصير إليه).(١)

وقال ابن كثير في تفسير آية الإسراء: (أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين)(٢) ثم استدل لذلك ببعض الأحاديث في هذا الباب.

وقال الثعالبي(٣): (اختلف في هذا التسبيح هل هو حقيقة أو مجاز، والصواب أنه حقيقة ولولا خشية الإطالة لأتينا من الدلائل على ذلك بما يثلج له الصدر).(٤)

وقال محمد الأمين: (هذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن تسبيح الجمادات المذكور فيها، وفي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ٢٠٢)، وانظر: (١٥/ ٣٦- ٣٧)، مجموع الفتاوى: (١/ ٤٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤١).

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، أبو زيد الثعالبي المالكي، من أعيان الجزائر، إمام علامة مفسر، من مصنفاته: الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي)، وجامع الأمهات في أحكام العبادات، توفي سنة ست وسبعين وثمان مائة. انظر: طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ٣٤٢)، الأعلام: (٣/ ٣٣١).

(٤) تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، طبعة مؤسسة الأعلمي: (٢/ ٣٤٤).

﴿ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ ونحو ذلك تسبيح حقيقي، يعلمه الله ونحن لا نعلمه).[١]

وفي السنة الشريفة أيضًا ما يفيد تسبيح الكائنات من غير العقلاء، وما يدل على أن لها نطقًا وإدراكًا خاصًا، بها ومن ذلك ما يلي:

- عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قرصت نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح].[٢]

قال ابن حجر: (استدل به على أن الحيوان يسبح الله تعالى حقيقة).[٣]

- وعن أبي هريرة ﷺ قال: (صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس فقال: [بينما رجل يسوق بقرة، إذ ركبها فضربها فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث] فقال الناس: سبحان الله، بقرة تكلم، فقال: [فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر ـ وما هما ثَمّ[٤] ـ

---

(١) أضواء البيان: (٧/ ٨٠٤)، وانظر: (٤/ ٦٧٣- ٦٧٤، ٦/ ٢٤٥، ٦٠٥، ٨/ ١٦- ٢٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق: (٣/ ١٠٩٩)، ومسلم بنحوه في كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل: (٢/ ١٧٥٩).

(٣) فتح الباري: (١٣/ ٩٥)، وانظر: صحيح القصص النبوي لعمر الأشقر، طبعة دار النفائس: (ص: ١٦٧- ١٦٨).

(٤) من كلام الراوي، والمقصود أن أبا بكر وعمر ﷺ لم يكونا حاضرين، (قال العلماء: إنما قال ذلك ثقة بهما، لعلمه بصدق إيمانهما، وقوة يقينهما، وكمال معرفتهما لعظيم سلطان الله وكمال قدرته. ففيه فضيلة ظاهرة لأبي بكر وعمر ﷺ) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ١٥٦)، وثم بفتح الثاء اسم بمعنى هناك. انظر: ترتيب القاموس: (١/ ٤٢٠).

وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب هذا: استنقذتها مني فمن لها يوم السَّبُع، يوم لا راعي لها غيري][١] فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم. قال: [فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر] وما هما ثَمّ).[٢]

- وعن عبد الله بن جعفر[٣] ﷺ: (أن رسول الله ﷺ دخل حائطا[٤] لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنّ وذرفت عيناه فأتاه النبي ﷺ، فمسح ذفراه[٥] فسكت، فقال: [من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟] فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله، فقال: [أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه

---

(١) السبع بضم الباء وسكونها، أي الأسد، والمعنى: من لها يوم يتعرض لها الأسد فتفّر أنت منه، وأتخلف بعده لا راعي لها حينئذ غيري. وقيل غير ذلك. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ١٥٦- ١٥٨)، فتح الباري: (١٤/ ١٥٩- ١٦٠)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٣٦- ٣٣٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء ﷺ، باب (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم): (٣/ ١٢٨٠)، ومسلم بنحوه في كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ: (٢/ ١٨٥٧- ١٨٥٨)، وانظر صحيح القصص النبوي: (ص: ١٩٢ – ١٩٤).

(٣) هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بن عبد المطلب، أبو جعفر القرشي الهاشمي، حبشي المولد، مدني الدار، له صحبة ورواية، ويعدّ في صغار الصحابة، استشهد أبوه يوم مؤته، فكفله النبي ﷺ ونشأ في حجره، كان كبير الشأن، مشهورًا بالكرم والجود، توفي سنة ثمانين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٣٦٠- ٢٣٦١)، الإصابة: (٤/ ٣٥ – ٣٩).

(٤) الحائط (البستان من النخيل إذا كان عليه حائط وهو الجدار) النهاية في غريب الحديث: (١/ ٤٦٢)، وانظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي، طبعة دار الحديث: (٥/ ٥٠).

(٥) ذفرى البعير: أصل أذنه، أو مؤخرة رأسه، انظر النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١٦١)، معالم السنن للخطابي، طبعة دار المعرفة: (٣/ ٣٨٧)، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني لأحمد البنا الساعاتي، طبعة دار إحياء التراث العربي: (٢٢/ ٤٨).

شكى إليّ أنك تجيعه وتدئبه(١)].(٢)

- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار، أو رجل: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبرًا؟ قال: [إن شئتم] فجعلوا له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمها إليه، تئن أنين الصبي الذي يُسَكَّن. قال: [كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها].(٣)

قال ابن حجر: (في الحديث دلالة على أن الجمادات قد يخلق الله لها إدراكاً كالحيوان، بل كأشرف الحيوان، وفيه تأييد لقول من يحمل ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ على ظاهره).(٤)

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلّ الماء، فقال: [اطلبوا فضلة من ماء] فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: [حي على الطهور المبارك، والبركة من

(١) (أي تكدّه وتتعبه)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٩٥)، وانظر: عون المعبود: (٥/ ٥١).
(٢) رواه أبو داود (سنن أبي داود) طبعة دار سحنون، في كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم: (٣/ ٥٠)، وأحمد في المسند: (١/ ٢٠٥)، والحاكم في المستدرك: (٢/ ١٠٩)، وصححه، ووافقه والذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (ص: ٣٦٩-٣٧٠)، وانظر: المواهب اللدنية: (٢/ ٢٧٥ – ٢٧٦).
(٣) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (٣/ ١٣١٤).
(٤) فتح الباري: (١٤/ ٩٦)، و انظر المواهب اللدنية: (٢/ ٢٦٩ – ٢٧٣).

الله] فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل).(١)

- وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ [إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن].(٢)
- وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله).(٣)
- وعن معاذ بن أنس(٤) رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ (أنه مر على قوم وهم

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (٣/ ١٣١٢)، وانظر: فتح الباري: (١٤/ ٨١- ٨٢).
(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة: (١/ ١٧٨٢)، وانظر: شرح النووي: (١٥/ ٢٦).
(٣) رواه الترمذي في كتاب المناقب، باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله ﷻ به: (٥/ ٥٩٣) وقال هذا حديث غريب، ورواه الدارمي (سنن الدارمي) طبعة دار سحنون: (١/ ١٩-٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (ص: ٦٥٧)، وانظر: كلام النووي: (٤/ ١٧١) في شرحه لحديث ابن مسعود رضي الله عنه وقد سئل عمن آذن رسول الله ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن، قال: (آذنته بهم شجرة) وهو في صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن: (١/ ٣٣٣).
(٤) هو معاذ بن أنس الجهني، حليف الأنصار، صحابي نزل بمصر والشام، روى عن النبي ﷺ أحاديث، وروى عنه ابنه سهل بن معاذ وحده، بقي إلى خلافة عبد الملك بن مروان. انظر: الإصابة: (٦/ ١٠٧).

وقوف على دواب لهم ورواحل(١)، فقال لهم: [اركبوها سالمة(٢)، ودعوها سالمة(٣)، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرًا لله تبارك وتعالى منه].(٤)

هذه الأحاديث وغيرها(٥) تفيد أن الكائنات من غير العقلاء تسبح الله و تذكره، وأن لها نطقًا وتمييزًا خاصًا بها، بكيفية يعلمها من وهبها إياه جل شأنه.

وهي بذلك تقرر ما تضمنته آيات الكتاب العزيز، وتؤكد ما نصّت عليه، وتزيده بيانًا، والعلم عند الله تعالى.

---

(١) جمع راحلة وهي البعير القوي على الأسفار والأحمال، والذكر والأنثى فيه سواء. انظر النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٠٩).

(٢) (أي خالصة عن الكدّ والإتعاب) بلوغ الأماني: (١٩/ ٨٥).

(٣) (أي اتركوها ورفهوا عنها إذا لم تحتاجوا إلى ركوبها) بلوغ الأماني: (١٩/ ٨٥).

(٤) رواه أحمد في المسند: (٣/ ٤٣٩)، قال الهيثمي: إسناده حسن. مجمع الزوائد: (١٠/ ٢٠٥)، ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير (مع فيض القدير)، طبعة دار المعرفة: (١/ ٤٧٨).

(٥) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، ط١، دار الفكر: (١/ ٣٠٣ – ٣١٣).

المبحث الثاني

أقسام العبودية باعتبار العموم والخصوص

يوصف عموم الخلق بأنهم عبيد لله تعالى، وذلك وصف لازم لهم، شاءوا أم أبوا، أحبوا أم كرهوا.

لكن المؤمنين يختصون بعبوديتهم لله تعالى عن محبة واختيار.

وبهذا الاعتبار يمكن تقسيم العبودية لله تعالى إلى قسمين، أعرض لهما بمشيئة الله جل وعلا في المسألتين التاليتين:

المسألة الأولى:

العبودية العامة

هذه العبودية لله جل وعلا تعم الناس جميعًا، وتشمل المؤمن والكافر، ويشترك فيها الموحد والمشرك، فالكل أمام الله سبحانه عبد ذليل، خاضع صاغر.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فلا يمكن لأحد من الخلق أن يخرج عن وصف العبودية.

ومن المفسرين من حمل الإتيان الوارد في هذه الآية على أحوال الناس يوم القيامة(١)، لكن الرازي اعتبر المعنى عامًا، إذ لا تخصيص في الآية.(٢)

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٦/ ١٣٢)، تفسير البغوي: (٣/ ٢١٠)، زاد المسير: (٥/ ١٨٥)، تفسير القرطبي: (١١/ ١٠٦).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٢١/ ٢٥٥)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ٤٨)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٣٩).

يقول أبو السعود في تفسير الآية الكريمة: (أي ما منهم أحد من الملائكة والثقلين: ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ إلا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبودية والانقياد).(١)

وقال البقاعي: (أي منقاد له طوعًا أو كرهًا، في كل حالة وكل وقت).(٢)

فالجميع مربوبون لله جل وعلا، مذللون معبدون، مقهورون مدبرون، يجري عليهم قدر الله تعالى، وهم تحت مشيئة الله وقدرته تبارك وتعالى.

يقول ابن القيم: (العبودية العامة عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك).(٣)

إذ الكل ملك له سبحانه، مستسلم لأمره، منقاد لإرادته، خاضع لقضائه وتقديره، لا يقوى على الانفكاك عن ربوبيته، ولا يقدر على الممانعة لحكم الله وتدبيره جل شأنه.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

(١) تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٨٣).

(٢) نظم الدرر: (٤/ ٥٥٩)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢١٠).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٨٨).

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

قال الزمخشري: (منقادون لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته).(١)

فالآيتان الكريمتان تقرران قنوت المخلوقات كلها لله تبارك وتعالى، وهو قنوت عام يتضمن معاني الذلة والانقياد والخضوع.(٢)

ولا ريب أن الناس بمجموعهم متصفون بذلك، مقرون لله تعالى بالعبودية حتى وإن تمردت ظواهرهم، إذ تشهد أجسامهم على ربوبية الله جل وعلا ووحدانيته، وأنه سبحانه ربهم وخالقهم، لا يقدر أحد منهم على معارضة قضاء الله تبارك وتعالى في نوعه أو أجله، أو عوارض حياته، أو أقدار الله ﷻ فيه.

يقول ابن جرير: (وأولى معاني القنوت في قوله: ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ الطاعة والإقرار لله ﷻ بالعبودية بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة والدلالة على وحدانية الله ﷻ، وأن الله تعالى ذكره بارئها وخالقها).(٣)

(١) تفسير الزمخشري: (١/ ٢٠٧)، وانظر: (٣/ ٤٨١)، التسهيل: (١/ ٥٨)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٤٠).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٢٠١، ٤/ ٣٣٤- ٣٣٥)، مدارج السالكين: (١/ ٩٠).

(٣) تفسير الطبري: (١/ ٥٠٧)، وانظر: (٢١/ ٣٥)، معاني القرآن للزجاج: (١/ ١٩٨، ٤/ ١٨٣)، تفسير الثعالبي: (١/ ١٠٢)، الدر المنثور: (١/ ٢٧٠).

وأمر الله تعالى إما شرعي ديني، أو قدري كوني، وإذا كان من الناس من يعصي ويخالف أمر الله الشرعي، فإن عموم الناس منقادون طائعون لأمر الله الكوني، مستكينون لحكمه القدري لا يقدرون على ممانعته أو مخالفته سبحانه.[1]

ولفظ العبادة يتأسس في أصله اللغوي على معنى التذلل، وهو أساس يشترك فيه الخلق جميعًا، يصف حالهم مع الله، فالكل عبيد لربوبيته جل شأنه.

يقول ابن القيم: (وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع، يقال طريق معبد، إذا كان مذللًا بوطء الأقدام، لكن أولياءه خضعوا له وذلوا له طوعًا واختيارًا، وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداءه خضعوا له قهرًا ورغمًا).[2]

ومن ثم فإن عبودية الكافر عبودية اضطرارية لا تقوم على اختياره، ولا ترتبط بمحبته، بل هو مضطر إليها اضطرارًا، ويكره عليها كرهًا.

يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥].

---

(١) انظر ما ذكره ابن كثير في معنى القنوت: (١/ ١٦٠).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٩٠) (مع حذف يسير)، وانظر: الكواشف الجلية عن معاني الواسطية لعبد العزيز السلمان، ط١١، (ص: ٦٤١ - ٦٤٢).

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقد أورد المفسرون عدة أقوال[1] فيما تضمنته الآيتان الكريمتان من السجود والاستسلام كرهًا لله جل وعلا، أبرزها ما يلي:

القول الأول:

أن المراد الإقرار بربوبية الله تعالى.

عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: (هو كقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].[2]

قال ابن عطية: (فالمعنى أن إقرار كل كافر بالصانع هو إسلام كرهًا).[3]

وعن أبي العالية[4] قال: (كل آدمي أقر على نفسه بأن الله ربي وأنا عبده، فمن أشرك في عبادته فهذا الذي أسلم كرهًا، ومن أخلص لله تعالى فهو الذي أسلم طوعًا).[5]

---

(١) انظر: زاد المسير: (١/ ٣٥٣، ٤/ ٢٣٥).

(٢) تفسير الطبري: (٣/ ٣٣٦)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣٧٨)، الدر المنثور: (٢/ ٢٥٥).

(٣) تفسير ابن عطية: (١/ ٤٦٦).

(٤) هو رفيع ـ بالتصغير ـ بن مِهْران، أبو العالية الرياحي البصري، كان مولى لامرأة من بني رياح، تابعي ثقة، أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب وأسلم في خلافة الصديق ﵁، من أعلام القراء والمفسرين، توفي سنة تسعين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٦٩٥ - ١٦٩٧)، تقريب التهذيب: (١/ ٢٥٢).

(٥) تفسير الطبري: (٣/ ٣٣٦)، الدر المنثور: (٢/ ٢٥٥)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٢/ ٥١٥).

القول الثاني:

أن إسلام الكاره كان حين أخذ الله الميثاق على بني آدم[1] أن يقروا بربوبيته ويعبدوه وحده تبارك وتعالى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: (حين أخذ الميثاق).[2]

القول الثالث:

أن المراد بالكره سجود ظل الكافر وهو كاره.

عن قتادة قال: (أما المؤمن فيسجد طائعًا، وأما الكافر فيسجد كارهًا: يسجد ظله).[3]

وعن مجاهد قال: (سجود المؤمن طائعًا، وسجود ظل الكافر وهو كاره).[4]

---

(١) المراد بذلك ما ورد في الآية الكريمة ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وانظر: فتح القدير: (٢/ ٢٦٠ - ٢٦١).

(٢) تفسير الطبري: (٣/ ٣٣٦)، وانظر: تفسير البغوي: (١/ ٣٢٣)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣٧٨)، الدر المنثور: (٢/ ٢٥٤).

(٣) الدر المنثور: (٤/ ٦٣٠).

(٤) تفسير الطبري: (٣/ ٣٣٦ - ٣٣٧)، تفسير القرطبي: (٤/ ٨٢)، التسهيل: (٢/ ١٣٣)، الدر المنثور: (٤/ ٦٢٩ - ٦٣٠).

القول الرابع:

أن المراد بالكره من دخل في الإسلام من أهل النفاق خوفاً من القتل، فهم في الظاهر مسلمون ساجدون لله تعالى، وفي حقيقة الأمر باقون على كفرهم، يسلمون وهم كارهون، ويسجدون وهم كارهون.

عن الحسن[1] في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

قال: (أكره أقوام على الإسلام، وجاء أقوام طائعين).[2]

وعن ابن زيد[3] في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

قال: (من دخل طائعًا هذا طوعًا، وكرهًا: من لم يدخل إلا بالسيف).[4]

---

(١) هو الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد البصري، مولى الأنصار، من أئمة التابعين، وأحد العلماء الفقهاء، معروف بفصاحته وشجاعته، وزهده وعبادته، توفي بالبصرة سنة عشر ومائة، انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٣- ٢٣٧)، سير أعلام النبلاء: (١/ ١٤٥٦ - ١٤٦٢).

(٢) تفسير الطبري: (٣/ ٣٣٦ - ٣٣٧)، وانظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٤٦٦)، تفسير النسفي: (١/ ٢٣١، ٢/ ١٤٢)، الدر المنثور: (٢/ ٢٥٥)، تفسير أبي السعود: (٢/ ٥٤).

(٣) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، العُمَري المدني، أخذ التفسير عن والده زيد بن أسلم، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢١٧٩)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ١١).

(٤) تفسير الطبري: (١٣/ ١٣١)، وانظر: تفسير الزمخشري: (١/ ٤٠٧)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٠٥)، التسهيل: (٢/ ١٣٣)، الدر المنثور: (٤/ ٦٣٠).

وعلى هذا القول يكون العموم في الآيتين الكريمتين مرادًا به الخصوص، لأن من الكفار من بقي على كفره ولم يدخل الإسلام أصلًا، ولم يسجد لله تعالى لا طوعًا ولا كرهًا.[1]

القول الخامس:

أن المراد بإسلام وسجود الكافرين كرهًا خضوعهم لمشيئة الله تبارك وتعالى، وذلتهم وانقيادهم لتقديره، واستسلامهم واستكانتهم لقضائه وتدبيره، فإن إرادته جل وعلا فيهم نافذة، ومشيئته سبحانه في أقدارهم متحققة، لا يقدرون في كل ذلك على الممانعة والمغالبة، كما يشمل ذلك دعائهم إياه في المصائب، وتوجههم إليه عند الاضطرار.

وهو معنى قول الشعبي[2] في الآية الكريمة: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ قال: (استقادتهم له).[3]

وهذا القول مبني على أن الإسلام والسجود الوارد في الآيتين الكريمتين يقصد بهما المعنى اللغوي العام.

---

(١) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٣٢٣، ٣/ ١٢)، تفسير القرطبي: (٩/ ١٩٨)، فتح القدير: (١/ ٣٦٢)، أضواء البيان: (٣/ ٩٩- ١٠٠).

(٢) هو عامر بن شراحيل، أبو عمرو الهمذاني الشعبي، من أئمة التابعين، علامة عصره، فقيه مفسر، مشهور بقوة الحفظ، توفي سنة أربع ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٧٥ – ٧٧)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢١٠٠ – ٢١٠٦).

(٣) تفسير ابن عطية: (١/ ٤٦٦)، وانظر: زاد المسير: (١/ ٣٥٣)، الدر المنثور: (٢/ ٢٥٥).

قال القرطبي: (﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ أي استسلم وانقاد وخضع وذل، وكل مخلوق فهو منقاد مستسلم، لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه).[1]

ويقول النحاس[2]: (السجود في اللغة الخضوع والانقياد، وليس شيء إلا وهو يخضع لله وينقاد له).[3]

ولذا قال ابن القيم في السجود الوارد في الآية: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾: (هو سجود الذل والقهر والخضوع، فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته، مقهور تحت سلطانه).[4]

وهذا القول هو أقرب الأقوال في المراد بالكره، والعلم عند الله تعالى، ويؤيده جمع من المفسرين.

يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ (أي ينقادون لإحداث ما أراده فيهم من أفعاله شاءوا أو أبوا).[5]

---

(١) تفسير القرطبي: (٤/ ٨٢).

(٢) هو أحمد بن محمد بن إسماعيل، أبو جعفر المرادي المصري النحوي، المشهور بالنحاس، إمام في العربية وأخذ النحو عن الأخفش والزجاج وغيرهما، من مصنفاته: إعراب القرآن، الناسخ والمنسوخ، توفي سنة ثمان وثلاثين وثلاث مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ٩١٢)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ٧٢، ٣٢٤ – ٣٢٥).

(٣) معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٤٨٧)، وانظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٢٦)، المفردات: (ص: ٢٢٩).

(٤) مدارج السالكين: (١/ ٩٠).

(٥) تفسير الزمخشري: (٢/ ٤٩١)، وانظر: فتح الرحمن: (ص: ٥٧، ١٧٦).

وقال أبو حيان بعد عرضه عددًا من الأقوال في المعنى المراد: (والذي يظهر أن مساق هذه الآية إنما هو أن العالم كله مقهور لله تعالى، خاضع لما أراد منه، مقصور على مشيئته، لا يكون منه إلا ما قدر تعالى).[1]

وقال أبو السعود: (فالوجه حمل السجود على الانقياد).[2]

ويقول ابن كثير في قوله ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: (والكافر مستسلم لله كرهًا، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع).[3]

وقد رجح ابن كثير هذا المعنى، إذ قال بعد عرضه عددًا من الأقوال: (ولكن المعنى الأول للآية أقوى).[4]

قال ابن تيمية: (ذكر إسلام الكائنات طوعًا وكرهًا لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبّد العام سواء أقر المقر بذلك أو أنكره، وهم مدينون مدبرون، فهم مسلمون له طوعًا وكرهًا، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره وقضاه، ولاحول ولا قوة له إلا به، وهو رب العالمين ومليكهم، يصرفهم كيف يشاء، هو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم،

---

(١) تفسير البحر المحيط: (٥/ ٣٧٨)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (١/ ٤٣٨، ٣/ ١٤٤).

(٢) تفسير أبي السعود: (٥/ ١١)، وانظر: روح المعاني: (١٣/ ١٢٦).

(٣) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٧٨)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٨/ ١٣٠- ١٣١، ١٩/ ٣٠)، تفسير القرطبي: (٩/ ١٩٨)، تفسير القاسمي: (٤/ ١٢٤، ٩/ ٢٤٧).

(٤) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٧٨).

وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع مفطور فقير محتاج معبد مقهور، وهو الواحد القهار الخالق البارئ المصور).[1]

وقال أيضًا في سجود الكافرين كرهًا: (والصحيح أنه انقيادهم لحكمه القدري بغير اختيارهم).[2]

إن الناس مفطورون على معرفة الله تعالى، مقرون بربوبيته جل شأنه، وإن كفر به بعضهم شرعًا ودينًا، وأشركوا به عبادة وتوجها، لكنهم يشعرون في دواخلهم بحاجتهم إليه، وافتقارهم إلى غناه سبحانه، ولذلك فهم يتجهون إليه حين الشدائد، ويلجأون إليه عند الأزمات، يسألونه ويتضرعون إليه وقت الملمات، كما قال ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت: ٦٥]، وهم في كل الأحوال مستسلمون لأقدار الله ونوازله فيهم، وقد يعبدونه مع عبادتهم غيره جل وعلا.

يقول ابن تيمية: (وعامة السلف على أن المراد بالاستسلام استسلامهم له بالخضوع والذل، لا مجرد تصريف الرب لهم، كما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] وهذا الخضوع والذل هو أيضًا لازم لكل عبد، لابد له من ذلك، وإن كان قد يعرض له أحيانًا

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢٠٠)، وانظر: (١٠/ ١٥٤- ١٥٥).

(٢) مجموع الفتاوى: (٨/ ٤٩)، وانظر: نظم الدرر: (٢/ ١٢٠، ٤/ ١٣٥).

الإعراض عن ربه والاستكبار، فلا بد له عند التحقيق من الخضوع والذل، لكن المؤمن يسلم له طوعًا فيحبه ويطيع أمره، والكافر إنما يخضع له عند رغبة ورهبة، فإذا زال ذلك أعرض عن ربه، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]).[١]

ولذا وصف المشركون بالإنابة إلى الله جل شأنه في مثل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [الزمر: ٨] والمقصود الإنابة العامة لا الخاصة.

يقول ابن القيم: (والإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضرر كما هو الواقع.

(١) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٣٠ - ٣١)، وانظر: (١/ ٤٤ - ٤٥، ١٠/ ١٥٦).

وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم: ٣٣ - ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم، والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لألوهيته، إنابة عبودية ومحبة).[١]

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تضمنت لفظ العبد بهذا المعنى العام الذي يشمل الناس جميعًا، ومنها على سبيل التمثيل قول الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩].

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١].

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٢٩)، وانظر: طريق الهجرتين لابن القيم، طبعة دار الحديث: (ص: ١٦٩).

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١].

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

المسألة الثانية:

العبودية الخاصة

إذا كان الكافرون منقادين لله تعالى كرهًا، مستسلمين له جبرًا، عبيدًا لربوبيته اضطرارًا، وهم في دائرة التكوين تحت مشيئته القدرية وأمره الكوني، فإن المؤمنين يختصون باستجابتهم لله تعالى طوعًا، وسجودهم له اختيارًا، وعبوديتهم له رغبة ومحبة، فهم في دائرة التكليف منقادون لقضاء الله وأمره الشرعي، مستسلمون لمشيئته وإرادته الدينية، يتبعون شرعه، ويقبلون دينه، ويطيعون أمره، ويتذللون لتكليفه، ويصبرون على أقداره، ويخضعون لحكمه، وهم في هذه الخصوصية متفاوتون بحسب أحوالهم في درجات الإيمان ومراتبه.

يقول ابن تيمية وهو يتناول لفظ العبودية: (فإن العبد تارة يُعنى به المعبد فيعم الخلق، كما في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وتارة يُعنى به العابد فيخص، ثم يختلفون، فمن كان أعبد علمًا وحالًا كانت عبوديته أكمل، فكانت الإضافة في حقه أكمل، مع أنها حقيقة في جميع المواضع).[1]

(١) مجموع الفتاوى: (٥/ ١٠٥)، وانظر: (١٤/ ٢٩ – ٣٠).

وبهذه العبودية الخاصة وصف المؤمنون في القرآن الكريم، وبها كان الثناء والمدح لهم في مثل قول الله تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٣].

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

فهؤلاء المؤمنون المشمولون في هذه الآيات ونحوها هم عبيد الله تعالى، بمعنى العابدين له جل وعلا طوعًا، الذين يألهونه سبحانه حبًا وإجلالًا وتعظيمًا، فيجمعون بين الخضوع للحقيقة الكونية، اعترافًا بربوبية الله جل شأنه، واستسلامًا لقضائه وإرادته الكونية، وبين الخضوع للحقيقة الدينية القائمة على ألوهية الله تبارك وتعالى، عبادة واستعانة به ﷻ وحده،

وانقيادًا لأمره وإرادته الشرعية، عن محبة واختيار، وخوف ورهبة، ورجاء ورغبة.

يقول ابن القيم: (فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته).[1]

ويقول أيضًا: (فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ومن عداهم عبيد القهر والربوبية، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه، وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه، وإضافة ناقته إليه، وداره التي هي الجنة إليه، وإضافة عبودية رسوله إليه بقول: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩]).[2]

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٨٩).

(٢) الفوائد: (ص: ٤٧)، وانظر: تفسير السعدي: (٣/ ٢١١، ٤٤٩ – ٤٥٠).

المبحث الثالث

أقسام العبودية باعتبار أعضاء الإنسان

خلق الله تعالى الإنسان فأبدع خلقه، وأحسن صورته وهيئته، وأنعم عليه بأن جعله سويًا مستقيمًا، منتصب القامة معتدلا، وهيأ له من الأعضاء والحواس ما يكون به عاقلا مدركًا، يميز بين الخير والشر، والنفع والضر، ذا قدرة وحركة وإرادة.

يقول الله جل وعلا:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦ – ٧].

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

ولذلك أمر تبارك وتعالى عباده أن يشكروا نعمته سبحانه، باستعمال هذه الأعضاء والقوى في معرفة ربهم وتوحيده جل وعلا، وفي استغلال هذه الحواس في طاعة الله، واتباع شرعه، وإخلاص العبادة له تبارك وتعالى.

يقول ﷻ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

قال ابن كثير: (وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن من عبادة ربه تعالى فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه).[١]

وأنكر تبارك وتعالى على من لم يستفد من هذه الأعضاء في طاعة الله، وذم من لم يشكر نعمته فكفر به وعصاه.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].[٢]

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٧٩).

(٢) والآية الكريمة في شأن عاد قوم هود عليه السلام.

وقد أخبرنا القرآن أن العبد راع على جوارحه وحواسه، وهو مؤاخذ ومحاسب عنها، سيسأل يوم القيامة فيما إذا كان قد استعملها في الطاعة أو المعصية.

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

والمعنى أن الإنسان مسؤول يوم القيامة عن هذه الأعضاء.[١]

كما نص القرآن أيضًا على أن الجوارح ذاتها تشهد يوم القيامة على أفعال صاحبها، إقامة للحجة عليه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

يقول السعدي: (فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، أن يعد للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله وإخلاص الدين، وكفها عما يكرهه الله تعالى).[٢]

(١) انظر: تفسير الزمخشري: (٢/ ٦٢٤)، تفسير الفخر الرازي: (٢٠/ ٢١٠)، أضواء البيان: (٣/ ٥٩٠).

(٢) تفسير السعدي: (٣/ ١٠٨).

وقد أثنى الله جل شأنه في الحديث القدسي على أوليائه من عباده المتقين، الذين تقربوا إليه تبارك وتعالى بالفرائض والنوافل، فارتقوا بمحبة الله تعالى ومعيته لهم، إلى مرتبة عالية في مقام العبودية، بحيث تتحرك أعضاؤهم فيما يحبه الله ويرضاه، بنور منه سبحانه وتوفيق.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها..].(١)

قال ابن كثير: (معنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله ﷻ، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله ﷻ، مستعينًا بالله في ذلك كله).(٢)

ذلك أن (لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة، فإن قام لله في ذلك العضو بأمره، واجتنب فيه نهيه، فقد أدى شكر نعمته عليه فيه، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه، عطله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع: (٢/ ٢٣٨٥).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٧٩)، وانظر: الفوائد: (ص: ٤٤، ٦٢، ٨٠، ٨٥)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ٣٤٥ – ٣٤٧)، المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية لأبي القاسم المقدسي، ط١، مؤسسة علوم القرآن: (ص: ٨٦- ٨٧).

أكبر أسباب ألمه ومضرته).(١)

وقد ذكر ابن القيم أن بناء العبودية يقوم (على أربع قواعد: التحقّق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب (إياك نعبد) حقاً هم أصحابها).(٢)

ولما كان عمل المؤمن في دائرة التقرب إلى الله تعالى يتضمن الاعتقاد ونحوه بالقلب، أو القول باللسان، أو الفعل بالجوارح، ساغ تقسيم العبودية بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام، يمكن الإشارة إليها في المسائل التالية:

المسألة الأولى:

عبودية القلب

وظيفة القلب ومهمته أن يعبد الله جل وعلا، وتكليفه بذلك يسبق تكليف الجوارح، إذ أن عبودية القلب هي الأصل، وعبودية الجوارح تبع لها، فإذا عبد القلب ربه تبارك وتعالى، بصدق ويقين، ومحبة وإخلاص، أثر ذلك في بقية الأعضاء، فتحركت بما يرضي الله، وصدر عنها ما يحبه الله من القول والعمل، إذ القلب ملك والأعضاء جنود.

(١) الفوائد: (ص: ٢٣٤)، وانظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، طبعة المكتبة العصرية: (١/ ١٢- ١٣)، أحكام القرآن لابن العربي، طبعة دار المعرفة: (٢/ ٨٤٩)، مجموع الفتاوى: (٩/ ٣٠٧ – ٣٠٨).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٨٥).

ولهذا اهتم رسول الله ﷺ بصلاح القلب، حتى يكون ملك الأعضاء قائماً بعبودية الله جل شأنه.

فمن حديث النعمان بن بشير[١] ﷺ عنه يقول عليه الصلاة والسلام: [ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب].[٢]

قال ابن حجر: (خص القلب بذلك لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه).[٣]

وأول المهمات للرسل عليهم السلام، وأصل العلوم التي بعثوا بها، تعريف الناس بربهم سبحانه، والارتقاء بهم إلى العلم به تبارك وتعالى، والطريق الأول لذلك هو القلب قبل اللسان والجوارح، حين يتأله القلب لله جل وعلا، تذلُّلا وحبًا، وخوفًا ورجاءً، وذلك هو أول ما تعنيه كلمة التوحيد (لا إله إلا الله).

---

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد، أبو عبد الله، الأنصاري الخزرجي، له ولأبيه صحبة، كان أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهرًا، ولي قضاء دمشق، وولاية الكوفة في عهد معاوية ﷺ، توفي سنة خمس وستين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٤٠٣٠)، الإصابة: (٦/ ٣٤٦ - ٣٤٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه: (١/ ٢٩)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات: (٢/ ١٢٢٠).

(٣) فتح الباري: (١/ ٢١١).

وأوامر الله تعالى لعباده نوعان: أحدهما ظاهر على اللسان والجوارح، والآخر باطن يتمثل في أعمال القلب، وهذا النوع الثاني بمثابة الركيزة والأساس للأول، إذ بدون عبودية القلب تبقى عبودية الجوارح الظاهرة نفاقًا لا صدق فيه ولا إخلاص.

يقول أبو حامد الغزالي[١]: (شرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه، التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره، وفي الآخرة عدته وذخره، وإنما استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه، فالقلب هو العالم بالله، وهو المتقرب إلى الله، وهو العامل لله، وهو الساعي إلى الله، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية، فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرد على الله تعالى، وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره ، وبإظلامه واستنارته تظهر

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، زين الدين، أبو حامد الغزالي الطوسي، حجة الإسلام، نسبته إلى صناعة الغزل، أو إلى غزالة (إحدى قرى طوس)، برع في الفقه، ومهر في الكلام والجدل، وألف في الأصول وتزكية النفوس، صاحب ذكاء وفطنة، من مصنفاته: إحياء علوم الدين، والمستصفى، توفي سنة خمس وخمس مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٦٧٦ - ٣٦٨١)، الأعلام: (٧/ ٢٢- ٢٣).

محاسن الظاهر ومساوئه، إذ كل إناء ينضح بما فيه).[1]

ومن ثم فإن حظ القلب من العبودية عظيم، وفي مقدمة ذلك أعظم الواجبات على المكلفين، وهو الإيمان بالله جل وعلا، فمن باب الاعتقاد الصحيح والتصديق الجازم بالله تعالى يلج المرء دائرة الإيمان.

ففي حديث جبريل المشهور يفسر رسول الله ﷺ الإيمان بالاعتقادات الباطنة التي هي من عمل القلب، وذلك حين سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإيمان ، فقال عليه الصلاة السلام: [أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره].[2]

والإحسان، وهو أعلى مراتب الدين، يقوم كذلك في قاعدته وأساسه على عبودية القلب، ويمكن تأمل هذا المعنى من خلال تفسير رسول الله ﷺ للإحسان في الحديث ذاته بقوله عليه الصلاة والسلام: [أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك].[3]

وفي هذا التفسير النبوي الشريف بيان: (أن العبد يعبد الله على هذه الصفة، وهي استحضار قربه، وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب

---

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٣) مع اختصار يسير.

(٢) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الطويل في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان: (١/ ٣٦ - ٣٧).

(٣) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الطويل في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان: (١/ ٣٦ - ٣٧).

الخشية والخوف والهيبة والتعظيم).[1]

وهذه المعاني كلها من أخص مظاهر العبودية للقلب.

ذلك أن بنيان عبودية القلب يقوم على ثلاث ركائز أساسية، هي محبة الله جل وعلا، ورجاؤه، والخوف منه تبارك وتعالى، وباجتماعها تلتئم أركان العبادة القلبية.

ثم ينبثق عن تلك الأسس أنواع كثيرة من أعمال القلوب، كالإخلاص، والصبر على طاعة الله وعن معصيته، والصبر على أقداره، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والثقة به، والإنابة إليه، والوجل من ذكره سبحانه، ومحبة رسوله ﷺ، والحب في الله والبغض فيه، والرغبة والرهبة، وتعظيمه والتذلل إليه جل شأنه، والخشوع عند سماع كلامه ﷻ، وكراهية الكفر، والفرح بالحسنة، والندم على السيئة.

ومن عبودية القلب كذلك سلامته من الرياء، والعجب والخيلاء، والحسد، والحقد، والكبر، واليأس والقنوط، وشهوة المحرمات، وكراهية ما يحبه الله ورسوله.[2]

ثم ما من عمل من أعمال البدن قولاً أو فعلاً إلا ولعبودية القلب فيه مدخل وعلاقة، بل جوهر وأساس.

---

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ١٢٦).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (١/ ٣٢)، مدارج السالكين : (١/ ٨٥)، فتح الباري: (١/ ١٠٥).

يقول ابن تيمية: (وكل ما أوجبه الله على العباد لابد أن يجب على القلب، فإنه الأصل، وإن وجب على غيره تبعًا، فالعبد المأمور المنهي إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه، وإنما يقصد الطاعة والامتثال القلب).[١]

فالنية الخالصة ـ على سبيل التمثيل ـ عبادة قلبية، لكنها مرتبطة بشكل وثيق بكل عبادة من عبادات الجوارح: قولية أو فعلية، بدنية أو مالية.

ومن ثم يظهر الباعث على اهتمام الأئمة بحديث[إنما الأعمال بالنيات] وتعظيمهم لقدره، واحتفاؤهم به.

يقول عبد الرحمن بن مهدي[٢]: (ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب).[٣]

ويقول الشافعي[٤] وغيره: (هذا الحديث ثلث العلم).[٥]

(١) مجموع الفتاوى: (١٤/ ١١٤).

(٢) هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان، أبو سعيد العنبري البصري، حافظ حجة، إمام في الحديث، قدوة في العلم والعمل، توفي بالبصرة سنة ثمان وتسعين ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٤/ ٥ - ٧)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٢٤٢ - ٢٢٤٦).

(٣) فتح الباري: (١/ ٣١)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ٥٣ - ٥٤)، جامع العلوم والحكم: (١/ ٦١).

(٤) هو محمد بن إدريس بن العباس، أبو عبد الله القرشي، ثم المطّلبي، الشافعي المكي، الإمام المحدث الفقيه، عالم عصره، ارتحل في طلب العلم، وصنف في أصول الفقه وفروعه، من مصنفاته: كتاب الأم، والرسالة، توفي سنة أربع ومائتين. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ١١٠ - ١٣٦)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٢٧٨ - ٣٢٩٧).

(٥) جامع العلوم والحكم: (١/ ٦١)، وانظر: فتح الباري: (١/ ٣١)، شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد، مؤسسة دار العلوم: (ص: ٤٢).

(ووجه البيهقي[١] كونه ثلث العلم بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة، وأرجحها، لأنها قد تكون عبادة مستقلة، وغيرها يحتاج إليها).[٢]

والمقصود أن عمل الجوارح مفتقر إلى نية القلب الخالصة ليصبح عبادة مقبولة، بينما يمكن للنية أن تكون عبادة مستقلة مثابًا عليها، وذلك في حال تعذر العمل الصالح لسبب خارج عن المكنة مع خلوص النية.

المسألة الثانية:

عبودية اللسان

يأتي اللسان في المرتبة الثانية بعد القلب من حيث الأهمية في عبودية الله تعالى، إذ هو المترجم عمّا في القلب والمعبر عنه، وله أثره في حركة الجوارح إيجابا أو سلبا، ولها به أسوة واتباع.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ[٣]: [إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها

(١) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي، نسبة إلى بيهق بنيسابور، حافظ علامة، محدث فقيه، من مصنفاته: شعب الإيمان، ودلائل النبوة، توفي سنة ثمان وخمسين وأربع مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ٧٧٠ - ٧٧٢)، الأعلام: (١/ ١١٦).

(٢) فتح الباري: (١/ ٣١)، وانظر: شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد: (ص: ٤٢).

(٣) هو سعد بن مالك بن سنان، أبو سعيد الخدري، الأنصاري الخزرجي، مشهور بكنيته، استصغر بأحد، واستشهد أبوه بها، وشهد الخندق والمشاهد بعدها، كان من المكثرين من الحديث عن رسول الله ﷺ، توفي سنة خمس وستين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٧١٤ - ٧١٥)، الإصابة: (٣/ ٦٥ - ٦٧).

تكفر اللسان(١)، فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا).(٢)

قال ابن القيم: (إنما خضعت للسان لأنه بريد القلب وترجمانه والواسطة بينه وبين الأعضاء).(٣)

ومن ثم قال يونس بن عبيد(٤): (ما من الناس أحد يكون لسانه منه على بال إلا رأيت ذلك صلاحا في سائر عمله).(٥)

وأول وظائف العبودية للسان النطق بالشهادتين، التي هي أول أركان الإسلام الخمسة وأهمها، وبهذه الشهادة اللسانية يدخل المرء في دين الله جل وعلا.

---

(١) أي تخضع له وتتواضع، من التكفير: وهو الذل والخضوع، انظر النهاية في غريب الحديث: (٤/ ١٨٨)، بلوغ الأماني: (١٩/ ٢٥٧).

(٢) رواه الترمذي مرفوعًا وموقوفًا، ورجح وقفه، في كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان: (٤/ ٦٠٥ - ٦٠٦)، وأحمد في المسند: (٣/ ٩٦)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير، فيض القدير: (١/ ٢٨٧)، قال محقق المسند حمزة الزين، طبعة دار الحديث: (١٠/ ٣٠١)، (إسناده صحيح وحكمه حكم المرفوع قطعًا)، وانظر: تحفة الأحوذي: (٦/ ٢٧٧- ٢٧٨).

(٣) الفوائد: (ص: ٨٦).

(٤) هو يونس بن عبيد بن دينار، أبو عبد الله البصري العبدي، مولى عبد القيس، من صغار التابعين وفضلائهم، معروف بالزهد والورع، توفي سنة تسع وثلاثين ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٣٠١ - ٣٠٨)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٤٢٩٤- ٤٢٩٧).

(٥) صفة الصفوة: (٣/ ٣٠٧)، وانظر: حلية الأولياء لأبي نعيم، طبعة دار الكتاب العربي: (٣/ ٢٠).

فمن حديث ابن عمر رضي الله عنهما(١) يقول رسول الله ﷺ: [بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله...] الحديث.(٢)

وباللسان تتحقق عبودية القراءة والذكر والكلام الشرعي على اختلاف صوره.

فمن ذلك تلاوة القرآن، والتسبيح والتحميد ونحوهما، والدعاء، والاستغفار، والسلام ورده، وصدق الحديث، وأداء الشهادة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبليغ القرآن ونشر السنة، والدعوة إلى الله، وتعليم العلم، والذب عن دين الله جل وعلا.

ومن ذلك أيضًا ترك الكذب، وشهادة الزور، والتلفظ بالحرام، والسب، والقذف، والقول على الله بلا علم، والأذى القولي للمسلمين.(٣)

ثم إن عبودية اللسان تدخل في معظم عبادات الجوارح كالصلاة والحج وغيرهما.

ولذا كانت دعوة الرسول ﷺ إلى الاهتمام بأمر اللسان، والحرص على

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن القرشي العدوي، كان من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، عابدًا عالمًا ورعًا شديد الحرص على متابعته عليه الصلاة والسلام، توفي سنة ثلاث وسبعين. انظر: الاستيعاب: (٣/ ٩٥٠ - ٩٥٣)، الإصابة: (٤/ ١٥٥- ١٦١).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الإيمان: (١/ ١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام: (١/ ٤٥).

(٣) انظر: مدارج السالكين: (١/ ٩٥ -٩٦).

استقامته، حتى يرتقي به المسلم في درجات العبودية، ويحذر من انحرافه عن هذا المسار الشريف.

ومن ذلك قوله ﷺ: [إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالاً، يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم].(١)

ومن حديث أبي هريرة ﷺ يقول عليه الصلاة والسلام: [ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت].(٢)

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي(٣) ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: [قل آمنت بالله ثم استقم].(٤)

وفي رواية الترمذي(٥): قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف علي؟

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب الرقاق. باب حفظ اللسان: (٥/ ٢٣٧٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب (من كان يؤمن بالله..): (٥/ ٢٢٤٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار: (١/ ٦٨).

(٣) هو سفيان بن عبد الله بن أبي ربيعة، الثقفي الطائفي، أسلم بعد غزوة حنين مع وفد ثقيف، استعمله الرسول ﷺ على الطائف، واستعمله عمر ﷺ على صدقاتها، روى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٣١٤)، الإصابة: (٣/ ١٠٤).

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام: (١/ ٦٥).

(٥) هو محمد بن عيسى بن سَوْرة، السلمي الترمذي، من أئمة علماء الحديث، معروف بالحفظ والزهد والورع، تلمذ للبخاري، وشاركه في بعض شيوخه، رحل في طلب العلم، من مصنفاته: الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذي، وكتاب الشمائل، توفي سنة تسع وسبعين ومائتين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٦٢٦ - ٣٦٢٧)، الأعلام: (٦/ ٣٢٢).

فأخذ بلسان نفسه ثم قال: [هذا].(١)

ومن حديث معاذ بن جبل ﷺ بعد أن علمه رسول الله ﷺ كثيرًا من أبواب الخير وواجبات الإسلام قال له: [ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟](٢) قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: [كف عليك هذا] فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟

فقال: [ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم](٣).(٤)

قال ابن رجب(٥): (هذا يدل على أن كف اللسان وضبطه وحبسه هو

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان: (٤/ ٦٠٧) وقال هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة: (٢/ ١٣١٤)، وأحمد في المسند: (٣/ ٤١٣)، والدارمي: (٢/ ٦٠٧)، والحاكم في المستدرك: (٤/ ٣٤٩)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه أيضًا البنا وغيره، انظر بلوغ الأماني: (١٩/ ٢٥٨)، تحفة الأحوذي: (٦/ ٢٧٩) (الهامش).

(٢) بكسر الميم، والملاك: قوام الشيء وما يعتمد عليه فيه. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/٣٥٨)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٢٨).

(٣) حصائد الألسنة: ما يقتطع من الكلام الذي لا خير فيه، تشبيها بما يحصد من الزرع، والمراد جزاء الكلام المحرم وعقوبته. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٩٤)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ١٤٧).

(٤) رواه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة: (٥/ ١١ - ١٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة: (٢/ ١٣١٤ - ١٣١٥)، وأحمد في المسند: (٥/ ٢٣٧)، وصححه شعيب الأرناؤوط وغيره. انظر: جامع العلوم والحكم: (٢/ ١٣٤) (الهامش)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٢٦) (الهامش).

(٥) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، زين الدين، أبو الفرج الحنبلي، البغدادي ثم الدمشقي، إمام حافظ، فقيه محدث واعظ، ارتحل في طلب العلم، ثم اشتغل به تصنيفًا وتدريسًا وإفتاءً، من مصنفاته: جامع العلوم والحكم، والقواعد الفقهية، توفي سنة خمس وتسعين وسبع مائة. انظر: طبقات الحفاظ للسيوطي، ط١، دار الكتب العلمية: (ص:٥٤٠)، الأعلام: (٣/ ٢٩٥).

أصل الخير كله، وأن من ملك لسانه فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه) ثم قال: (وظاهر حديث معاذ يدل على أن أكثر ما يدخل به الناس النار النطق بألسنتهم، فإن معصية النطق يدخل فيها الشرك، وهو أعظم الذنوب عند الله ﷻ، ويدخل فيها القول على الله بغير علم، وهو قرين الشرك، ويدخل فيها شهادة الزور التي عدلت الإشراك بالله ﷻ، ويدخل فيها السحر والقذف، وغير ذلك من الكبائر والصغائر، كالكذب والغيبة والنميمة. وسائر المعاصي الفعلية لا يخلو غالبًا من قول يقترن بها يكون معينًا عليها).[1]

ومن الخير للمسلم أن يستغل لسانه في العبودية المستمرة، استجابة لدعوة رسول الله ﷺ، حين قال له رجل: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به.[2] قال: [لا يزال لسانك رطبا[3] من ذكر الله].[4]

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٢/ ١٤٦ - ١٤٧)، وانظر: منهاج العابدين للغزالي، طبعة دار الجيل: (ص: ٦٤ -٦٦)، تسلية أهل المصائب لمحمد المنبجي، ط٤،دار البيان: (ص: ٢٠٤- ٢٠٦)، أدب الدنيا والدين: (ص: ٢٨٣ - ٢٨٨).

(٢) أي أتعلق به وأتمسك. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٤٣٩)، تحفه الأحوذي: (٨/ ٣٧٨).

(٣) الرطب بفتح الراء وسكون الطاء: اللين، خلاف اليابس. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ١٦٨)، والمعنى: (طرياً مشتغلاً قريب العهد منه، وهو كناية عن المداومة على الذكر) تحفة الأحوذي: (٨/ ٣٧٨).

(٤) رواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن بُسر ﷺ في كتاب الدعاء، باب ما جاء في فضل الذكر: (٥/ ٤٥٨)، وابن ماجة في كتاب الأدب، باب فضل الذكر: (٢/ ١٢٤٦)، وأحمد في المسند: (٤/ ١٨٨)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٦٧٢ - ٦٧٣) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه من المعاصرين عصام الصبابطي في تخريج أحاديث الترمذي: تحفة الأحوذي: (٨/ ٣٧٨) (الهامش).

المسألة الثالثة:

عبودية الجوارح[1]

يعبر بالجوارح عن الأعضاء والحواس التي بها يتم الاكتساب والاستمتاع، كاليد والرجل والفم والسمع والبصر ونحوها.

وعبادات الجوارح هي الأعمال الظاهرة التي يتقرب بها المؤمن إلى ربه تبارك وتعالى، عن طريق توظيف حواسه وأعضائه فيما يرضي الله جل وعلا.

وقد ورد تفسير الإسلام بالعمل الظاهر في حديث ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان].[2]

وإذا كان النطق بالشهادتين أعلى عبادات اللسان، فإن الأركان الأربعة الباقية تمثل الدعائم والأسس الرئيسة لعبودية الجوارح.

هذه الأسس وغيرها من أعمال الجوارح يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: العبادات البدنية: كالصلاة، والصيام، والمشي إلى المساجد وحلق العلم، والوضوء، والطواف، والاستماع إلى قراءة القرآن وخطبة الجمعة والعلم النافع، والنظر والتأمل في آيات الله في الكون، وأكل ما يعين على طاعة الله سبحانه، ونحو ذلك.

---

(١) الجوارح: جمع جارحة، والمراد أعضاء الإنسان التي تكتسب، من جرح، واجترح، بمعنى: اكتسب. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ١٩٦)، المفردات: (ص: ٩٧)، ترتيب القاموس المحيط: (١/ ٤٧٠)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٣٧٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الإيمان: (١/ ١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام: (١/ ٤٥).

القسم الثاني: العبادات المالية: كإيتاء الزكاة، والنفقة على العيال، والصدقة على المساكين، والإنفاق على الدعاة والمجاهدين، ونحو ذلك.

القسم الثالث: العبادات المشتركة بين البدن والمال: كالحج، والجهاد، وصلة الرحم، والزواج بنية الإعفاف، والهجرة، والسفر لغرض شرعي، ونحو ذلك.

وعلى كل حال فإن المؤمن مدعو شرعًا إلى أن يستعمل أعضائه وحواسه في أداء الواجبات الشرعية، وفي الحرص على المستحبات، وأن يحفظها من التنزل عن المباحات، سواء كان ذلك في مشيه أو ركوبه، في لمسه أو بطشه، في ذوقه أو شمه، في استماعه أو نظره، وفي سائر حواسه وقواه.(١)

(١) انظر: مدارج السالكين: (١/ ٩٧ - ١٠١).

الفصل الثالث

ضوابط العبودية

ويشتمل على المباحث التالية

المبحث الأول: توحيد الله تعالى والإيمان به.

المبحث الثاني: إخلاص النية.

المبحث الثالث: التزام الشرع.

توطئة

هناك عدد من الضوابط[1] يجب تحققها ليصبح العمل عبادة مقبولـة، إذ لابد أن يكون مبنيًا على توحيد وإيمان، وأن يصاحبه إخلاص في النية والقصد، وأن يتأسس على قدوة واتباع لرسول الله ﷺ، وباستكمال هذه الأمور - صحة الاعتقاد والنية والوسيلة - يكون العمل صحيحًا مقبولا، ظاهرًا وباطنًا، يصح ظاهره بالمتابعة، ويصح باطنه بالتوحيد والإخلاص.

وبيان هذه الضوابط في المباحث التالية:

---

(١) الضوابط جمع ضابط، وأصله في اللغة من ضبط الشيء يضبطه ضبطًا: أي حفظه بقوة وحزم، ولزمه دون مفارقة، انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٥٨٥)، ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٨).
والمراد بالضوابط هنا ما يجمع فروع العبودية، وينظم صورها، ويضبطها لتُعرف فلا تختلط بغيرها، انظر: شرح الكوكب المنير لابن النجار، طبعة دار الفكر: (ص: ٣٠).

المبحث الأول

توحيد الله تعالى والإيمان به

يتضمن القرآن الكريم عددًا كبيرًا من الآيات الكريمة التي تدعو إلى توحيد الله ﷻ في العبادة، وإلى إفراد التوجه إليه بالطاعات والأعمال الصالحة.

وتأتي في المقدمة تلك الآية الجامعة في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، متضمنة تخصيص العبادة لله تبارك وتعالى وحده.

قال الزمخشري وغيره: (المعنى نخصك بالعبادة).[1]

وفي الآية الكريمة قدم المفعول ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعل ﴿نَعْبُدُ﴾ وذلك لإفادة الاختصاص والحصر، أي أن جميع أنواع العبادة ينبغي أن تكون لله ﷻ وحده دون سواه.

قال ابن كثير: (وقدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾ وكرر للاهتمام والحصر، أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) تفسير الزمخشري: (١/ ٥٦)، تفسير النسفي: (١/ ٥).

فالأول: تبرؤ من الشرك.

والثاني: تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله ﷻ).[١]

ومن ثم فإن هذه الآية الكريمة تشتمل على جانبي النفي والإثبات الذي تتضمنه كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، إذ إن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تعني البراءة من الشرك بالله جل وعلا وإثبات التوجه في أعمال العبادة إليه تبارك وتعالى وحده.

وهذا المعنى هو ما تضمنه أيضًا قول الله سبحانه

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد بين الله جل وعلا في القرآن الكريم أن العمل الصالح لا ينفع ولا يثمر، ولا يجد القبول عنده سبحانه، ما لم يكن قلب صاحبه عامرًا بيقين ثابت، وعقيدة صحيحة، وتصديق جازم بالله تباك وتعالى.

يقول الله سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٢٥).

كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

فهذه الآيات تضمنت اشتراط الإيمان في قبول الله تعالى سعي الآخرة من الأعمال الصالحة، وأن وعد الله تعالى بشكر هذا السعي والجزاء عليه وعدم رده وإبطاله مقيد بذلك القيد (وهو مؤمن).

يقول الرازي: (وهذا الشرط معتبر، لأن الشرط في كون أعمال البر موجبة للثواب تقدم الإيمان، فإذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط).[١]

فإذا حقق الإنسان هذا الشرط، والتزم بهذا القيد، بأن كان مؤمنًا مصدقًا بقلبه موحدًا لربه جل وعلا، فإن سعيه في العمل الصالح لا يكفر ولا يجحد، وجهده في الطاعات لا يضيع ولا يهضم، وكدحه في البر والخير لا يبخس ولا يظلم، بل كل ذلك مشكور مقبول، محفوظ مدخر لصاحبه عند الله تعالى، لا يخاف نقصا في ثواب الطاعات، أو زيادة في السيئات.[٢]

(١) تفسير الفخر الرازي: (٢٠/ ١٧٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٦٠، ١٧/ ٨٦)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٦٥)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٥٤، ١١/ ١٦٥، ١١/ ٢٢٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٦٦، ٣/ ١٩٤)، نظم الدرر: (٤/ ٣٧٢، ٥/ ١١٢).

ويتكرر قيد الإيمان في آيات أخرى أيضًا يقرر الله تعالى فيها أن الجنة والحياة الطيبة والجزاء الأحسن هو ثمرة العمل الصالح وعاقبته، لكن ذلك مشروط بسبق الإيمان.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(١) ﴾ [النساء: ١٢٤].

قال ابن عطية: (قيد الأمر بالإيمان، إذ لا ينفع عمل دونه).(٢)

ومن الآيات التي تدل على هذا الشرط أيضًا قول الله ﷻ:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ

---

(١) والنقير: النقطة التي تكون في النواة، ويضرب به المثل في الشيء الطفيف. انظر معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٢٠٠)، المفردات: (ص: ٥٠٥)، بصائر ذوي التمييز: (٥/ ١١٣).

(٢) تفسير ابن عطية: (٢/ ١١٧)، وانظر تفسير القرطبي: (٥/ ٣٩٩)، نظم الدرر: (٢/ ٣٢٣).

ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ [البلد: ١١ - ١٨].

فقد ذكرت هذه الآيات الكريمات عملين صالحين، وطاعتين عظيمتين، هما العتق و الإطعام، باعتبارهما من أسباب النجاة والفوز في الآخرة، ثم قيدت الآيات قبول هذين العملين وحصول التأثير بهما بقيد الإيمان: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

قال البغوي: (بين أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان).(١)

ومن جملة الآيات السابقات يُفهم أن الإيمان بالله جل وعلا شرط لقبول الطاعات، وأن فقد هذا الشرط يمنع الأثر الإيجابي للعمل الصالح فيما يتعلق بقبوله عند الله تعالى والجزاء الحسن عليه.

ويدل على هذا المعنى أيضًا ويؤكده ما ورد في القرآن الكريم من آيات تقرر أن الكفر والشرك بالله تعالى مانع من قبول العمل الصالح.

يقول الله سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ

---

(١) تفسير البغوي: (٤/ ٤٩٠)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٣١/ ١٨٧)، تفسير القرطبي: (٢٠/ ٤٧) . و(ثم) في الآية الكريمة (للتراخي في الرتبة لا في الزمان، وفيها إشارة إلى أن الإيمان أعلى من العتق والإطعام، ولا يصح أن يكون للترتيب في الزمان، لأنه لا يلزم أن يكون الإيمان بعد العتق والإطعام، ولا يقبل عمل إلا من مؤمن) التسهيل (٤/ ٢٠١)، وانظر تفسير الزمخشري: (٤/ ٧٦٠).

هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ [النور: ٣٩].

﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥ - ١٦].

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد: ١].

﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٥٤].

المبحث الثاني

إخلاص النية

المراد بالإخلاص إفراد الله تعالى بالنية والقصد في الأعمال الصالحة، ويقابله الرياء وهو: (إرادة العباد بطاعة الله)[1] بمعنى أن يظهر الإنسان العبادة للناس قاصدًا الثناء والحمد منهم.[2]

وقد أمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يجرد له النية في الطاعة، وأن يخلص له العبادة، وأن يجعل قصده وباعثه في تطبيق شريعة الله جل وعلا هو طلب مرضاته ومثوبته سبحانه.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر: ٢ - ٣].

﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ١١].

﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزمر: ١٤].

والأمر لرسولنا ﷺ أمر وخطاب لأمته.

يقول الرازي: (وإنما خص الله تعالى الرسول ﷺ بهذا الأمر لينبّه على أن

---

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٨١)، وهو مصدر، يقال: رآى فلان فلانا بعمله مراءاة ورياء. انظر: تهذيب الآثار: (٢/ ١٢٧).

(٢) انظر: الرسالة القشيرية: (ص: ٣٠٠)، مدارج السالكين: (٢/ ٧٨ - ٧٩)، فتح الباري: (٢٤/ ١٣٠).

غيره بذلك أحق)[١]

وكما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإخلاص الدين عمومًا فقد أمره بالإخلاص في بعض العبادات على سبيل التخصيص.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٦ - ٧].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وخاطب الله تعالى الناس جميعًا وأمرهم بما أمر به رسوله ﷺ من الإخلاص في عبادة الله تعالى، وإفراد القصد له سبحانه.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

والمراد بالدين طاعة الله وعبادته جل وعلا.[٢]

والملاحظ في الآيات الكريمات أن الأمر بالعبادة مقترن بحال الإخلاص لله تعالى، فالعبادة المأمور بها شرعًا هي عبادة يصاحبها

(١) تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ٢٥٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٥/ ٢١٤)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٣).

الإخلاص لله وحده، غير مجردة عنه، مما يدل على أهمية الإخلاص في العبادة، وأن فعل الطاعات دون تحرير النية وخلوصها لله وحده سبحانه دون سواه لا يثمر ولا ينفع، ولا يجد القبول عنده تبارك وتعالى.

ومن الأدلة كذلك على أن الإخلاص شرط في قبول العمل الصالح قول الله ﷻ:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

إذ تبين الآية أن كل ما يقوم به المسلم من عمل صالح، قلبي أو بدني أو مالي، لا بد أن يتحقق فيه صلاح في النية، قائم على إرادة الله وحده بذلك العمل الصالح، ولابد من الخلوص من الشرك، سواء كان شركًا أكبر بصرف شيء من العبادة إلى غير الله تعالى، أو كان شركًا أصغر بالرياء وقصد الثناء والمدح من الناس: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

وكثير من المفسرين على أن المراد بالشرك في العبادة هنا مراءاة الناس في العمل الصالح[١]، لكن لفظ الآية يعم مظاهر الشرك جميعًا، ولذلك قال محمد الأمين: (والتحقيق أن قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أعم من الرياء وغيره، أي لا يعبد ربه رياء وسمعة، ولا يصرف شيئًا من حقوق

(١) تفسير الطبري: (١٦/ ٤٠)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ١٨٧)، تفسير القرطبي: (١١/ ٤٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٠٨)، الدر المنثور: (٥/ ٤٦٩ - ٤٧١).

خالقه لأحد من خلقه).(١)

ومن الآيات التي أوردت شرط الإخلاص أيضًا قول الله جل وعلا:

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾[لقمان: ٢٢].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

والمراد بإسلام الوجه لله تعالى في هذه الآيات الكريمات إخلاص النية في العبادة لله وحده لا شريك له.(٢)

وبدون تحقق شرط الإخلاص يفسد العمل، وتبطل العبادة، ويضيع الأجر، ويترتب الإثم والوزر. ذلك أن إخلاص العمل لله تعالى هو في الواقع تحقيق لشهادة أن لا إله إلا الله، لأن مقتضى هذه الشهادة أن لا يعبد إلا الله وحده، وأن لا يقصد أو يراد بالعبادة إلا هو سبحانه، وذلك هو

(١) أضواء البيان: (٤/ ١٩٩)، وانظر: التسهيل: (٢/ ١٩٧)، نظم الدرر: (٤/ ٥١٣)، فتح القدير: (٣/ ٣٢٣).

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي: (٤/ ٤)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٥٠)، تفسير ابن كثير: (١/ ١٥٤)، تفسير الثعالبي: (١/ ٤١٧)، نظم الدرر: (٢/ ٣٢٤)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٧٣، ٤٩٥)، شرح حديث: (إنما الأعمال بالنيات) لابن تيمية، طبعة مكتبة السلام العالمية: (ص: ١٤)، مدارج السالكين: (٢/ ٧٦).

الإخلاص.

يقول ابن كثير: (وأما إن كان العمل موافقا للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله تعالى فهو أيضًا مردود على فاعله وهذا حال المرائين والمنافقين).(١)

وقد جاء وصف المنافقين بفساد النية وخبث القصد في قول الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون: ٤ - ٦].(٢)

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [النساء: ٣٨].(٣)

ولذلك كان من توبة المنافق أن ينخلع من وصف الرياء، وأن يلتزم بإخلاص الدين لله جل وعلا.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ١٥٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٣١١، ٣١٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٥/ ٨٧ - ٨٨).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٥ - ١٤٦].

وقد نهى الله سبحانه المؤمنين عن التشبه بالمنافقين الموصوفين بالرياء المبطل للعمل الصالح.(١)

فقال تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فالإنفاق على المحتاجين عمل صالح، لكن الرياء يبطله ويفسده، وقد ضرب الله تعالى لذلك مثلاً بالصفوان، وهو الحجر الأملس يعلوه تراب فيصيبه الوابل، وهو المطر الشديد، فيصبح ذلك الصفوان صلدًا: أي نقيًا، ليس عليه بقية من تراب أو غبار، وكذلك المنافقون المراءون لا يجدون لصنيعهم نفعًا، ولا يلقون لعملهم ثوابًا.(٢)

قال ابن جرير في تفسيره للآية الكريمة: (ثم رجع تعالى ذكره إلى ذكر المنافقين الذين ضرب المثل لأعمالهم، فقال: فكذلك أعمالهم بمنزلة

(١) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ٦٤،٦٦).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٢٥٠- ٢٥١)، زاد المسير: (١/ ٢٧٦)، تفسير أبي السعود: (١/ ٢٥٩)، نظم الدرر: (١/ ٥١٧).

الصفوان الذي كان عليه تراب، فأصابه الوابل من المطر، فذهب بما عليه من التراب، فتركه نقيا لا تراب عليه ولا شيء، يراهم المسلمون في الظاهر أن لهم أعمالا، كما يرى التراب على هذا الصفوان، بما يراؤونهم به، فإذا كان يوم القيامة وصاروا إلى الله اضمحل ذلك كله، لأنه لم يكن لله، كما ذهب الوابل من المطر بما كان على الصفوان من التراب، فتركه أملس لا شيء عليه، فذلك قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يعني به الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يقول: لا يقدرون يوم القيامة على ثواب شيء مما كسبوا في الدنيا، لأنهم لم يعملوا لمعادهم، ولا لطلب ما عند الله في الآخرة، ولكنهم عملوا رئاء الناس، وطلب حمدهم، وإنما حظهم من أعمالهم ما أرادوه وطلبوه بها).(١)

وفي السنة الشريفة أحاديث كثيرة تدل على أن الله تعالى لا يقبل من العبادة إلا ما كان خالصًا له ﷻ.

ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه].(٢)

(١) تفسير الطبري: (٣/ ٦٦)، وانظر: إعلام الموقعين: (١/ ١٨٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النية في الأيمان: (٦/ ٢٤٦٢)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: [إنما الأعمال بالنية]: (٢/ ١٥١٥ - ١٥١٦).

فقوله عليه الصلاة و السلام: [إنما الأعمال بالنية] يفيد الحصر، فلا عمل إلا بنية، وهو تقرير منه ﷺ بأن قبول الأعمال أوردها، صلاحها أو فسادها، معتبر بالنية، إذ القصد والباعث هو الذي يميز العمل لله عن العمل لغيره رياء.(١)

وقد عرض النبي ﷺ لهذه القاعدة الكلية مثالاً بالهجرة من بلاد الكفر إلى دار الإسلام، فهي في ظاهرها عمل صالح، وعبادة شرعية، لكن الذي يجعلها مقبولة مثابًا عليها هو إرادة الله تعالى وحده بها: [فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله..].

قال النووي: (معناه من قصد بهجرته وجه الله وقع أجره على الله، ومن قصد بها دنيا أو امرأة فهي حظ، ولا نصيب له في الآخرة بسبب هذه الهجرة).(٢)

يقول ابن رجب: أخبر النبي ﷺ أن هذه الهجرة تختلف باختلاف النيات والمقاصد بها، فمن هاجر إلى دار الإسلام حبًا لله ورسوله، ورغبة في تعلم دين الإسلام، وإظهار دينه حيث كان يعجز عنه في دار الشرك، فهذا هو المهاجر إلى الله ورسوله حقًا، وكفاه فخرًا وشرفًا أن حصل له ما نواه من هجرته إلى الله ورسوله، ولهذا المعنى اقتصر في جواب هذا الشرط على

(١) انظر: شرح الأربعين حديثا النووية لابن دقيق: (ص: ٤٣)، شرح حديث النية: (ص: ١٦)، إعلام الموقعين: (٣/ ١٢٣)، فتح الباري: (١/ ٣٣)، جامع العلوم والحكم: (١/ ٦٣).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ٥٤).

إعادته بلفظه، لأن حصول ما نواه بهجرته نهاية المطلوب في الدنيا والآخرة، ومن كانت هجرته من دار الشرك إلى دار الإسلام لطلب دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها في دار الإسلام، فهجرته إلى ما هاجر إليه من ذلك، فالأول تاجر، والثاني خاطب، وليس واحد منهما بمهاجر].(١)

والجهاد مثال آخر.

عن أبي موسى الأشعري ؓ(٢) قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر(٣)، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: [من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله].(٤)

قال النووي: (فيه بيان أن الأعمال إنما تحسب بالنيات الصالحة، وأن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله يختص بمن قاتل لتكون كلمة

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٧٣).

(٢) هو عبد الله بن قيس بن سليم، أبو موسى الأشعري، أسلم قديمًا، و قدم المدينة بعد فتح خيبر، بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن، وولاه عمر بن الخطاب ؓ على البصرة، و ولاه عثمان بن عفان ؓ على الكوفة، كان فقيهًا عالمًا حسن الصوت بالقرآن، و كان عمر ؓ يطلب منه القراءة، توفي سنة اثنتين وأربعين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٥٥٦ - ٥٦٢)، الإصابة: (٤/ ١٨١ - ١٨٣).

(٣) أي ليوصف بالشجاعة بين الناس و يذكر بها، ومرجع هذا إلى السمعة، ومرجع الذي يليه في الحديث إلى الرياء. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١٦٣)، فتح الباري: (١١/ ٢٩٠).

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد. باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله: (٣/ ١٠٣٤ - ١٠٣٥) ومسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله: (٢/ ١٥١٢ - ١٥١٣).

الله هي العليا).[١]

وهكذا سائر الأعمال مثل الجهاد والهجرة في هذا الباب، فصلاحها وفسادها معتمد على النية والإرادة الدافعة إلى العمل، ولا يقبل الله من ذلك إلا ما كان خالصًا له سبحانه.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه].[٢]

يقول النووي في شرحه للحديث القدسي: (ومعناه أنا غني عن المشاركة وغيرها، فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير، والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به)[٣].

فمن أراد قبول العمل الصالح فليبتغ به وجه الله وحده سبحانه.

عن أبي أمامة الباهلي ﷺ[٤] قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: (أرأيت رجلًا غزى يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال الرسول ﷺ: [لا شيء له][٥]

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ٤٩)، وانظر: تهذيب الآثار: (٢/ ١١٣ وما بعدها).
(٢) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله: (٣/ ٢٢٨٩).
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٨/ ١١٥ـ ١١٦)، و انظر تهذيب الآثار (٢/ ١١٣، وما بعدها).
(٤) هو صُدَيّ بن عجلان بن الحارث، أبو أمامة الباهلي، من أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية، سكن الشام، كان عابدًا زاهدًا، توفي سنة ست وثمانين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٧٣٣ - ٧٣٦)، الإصابة (٣/ ٣٣٩ - ٣٤١).
(٥) (أي لا أجر له) حاشية السندي على سنن النسائي، ط ٢، دار سحنون: (٦/ ٢٥).

فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: [لا شيء له (ثم قال): إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه].[١]

وإذا فقدت العبادة شرط الإخلاص كان الوزر والسيئة والعقاب عوضا عن الأجر والحسنة والثواب.

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت

(١) رواه النسائي (سنن النسائي)، ط٢، دار سحنون في كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر: (٦/ ٢٥)، وحسن إسناده الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار، طبعة المكتبة العصرية، بذيل إحياء علوم الدين: (٤/ ٥٠٧)، وجود إسناده كذلك المنذري في الترغيب والترهيب ط ٣، مكتبة مصطفى البابي الحلبي: (١/ ٥٥) وابن رجب في جامع العلوم والحكم: (١/ ٨١)، وابن حجر في الفتح: (١١/ ٢٩١)، والسيوطي في الدر المنثور: (٥/ ٤٧٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (ص: ٢٤٢).

فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار].[1]

قال النووي في شرح الحديث: (وفيه أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصًا، وكذلك الثناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه الخيرات كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصًا).[2]

يقول ابن تيمية: (فهؤلاء إنما كان قصدهم مدح الناس، وتعظيمهم لهم، وطلب الجاه عندهم، لم يقصدوا بذلك وجه الله، وإن كانت صور أعمالهم صورًا حسنة، فهؤلاء إذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب)[3].

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار: (٢/ ١٥١٣ - ١٥١٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ٥١).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٤/ ١١٣).

وسيأتي بمشيئة الله في المبحث الثالث مزيد من عبارات الأئمة في كون الإخلاص ركنًا أساسيًا من أركان قبول العمل.

المبحث الثالث

التزام الشرع

لا يكفي في قبول العبادة أن يكون المؤمن مخلصًا لله تعالى، مريدًا في عمله وجه الله سبحانه، قاصدًا ثوابه ومرضاته، بل لابد من تحقيق شرط آخر، هو صلاح العمل.

أي أن هناك ضابطين، أحدهما متعلق بالنية والقصد والإرادة، وهو الإخلاص لله جل وعلا، والآخر متعلق بالعمل ذاته، يتمثل في المتابعة للشريعة التي جاء بها رسول الله ﷺ.

وهذا الضابط الثاني هو المراد بالعمل الصالح في قول الله تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالعمل الصالح هو ما تضمنه شرع الله جل وعلا مما أحبه الله ورسوله ورضياه، وأمرا به على سبيل الوجوب أو الاستحباب.[1]

قال ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: (﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي ما كان موافقًا لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٨/ ٢٥٠ - ٢٥/ ٣١٧ - ٢٨/ ١٣٥)، شرح حديث النية: (ص:١٤).

لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ).[1]

يقول ابن تيمية: (فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين: أن يكون لله، وأن يكون موافقًا لمحبة الله ورسوله وهو الواجب والمستحب).[2]

ومن ثم فإن المؤمن حين يسعى في هذه الدنيا، سالكًا طريق الآخرة، مبتغيًا وجه ربه، فليس له أن ينتظر لسعيه قبولاً، ولا يرجو له ثوابًا، ما لم يكن ذلك السعي مشروعًا من الله جل وعلا، مرضيًا عنده سبحانه، متضمنًا امتثال أمره واجتناب نهيه، منبثقًا من الاتباع لطريقة رسول الله ﷺ ومسلكه، والالتزام بمنهجه وسنته.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩].

قال ابن عطية: (شرط في مريد الآخرة أن يسعى لها سعيها، وهو ملازمة أعمال الخير وأقواله على حكم الشرع وطرقه).[3]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٠٨)، وانظر تفسير البيضاوي: (٢/ ٢٥)، نظم الدرر: (٤/ ٥١٣)، فتح القدير: (٣/ ٣٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢١٣)، وانظر: دستور الأخلاق في القرآن: (ص: ٤٤٣ – ٤٤٤).

(٣) تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٤٦)، وانظر تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣).

ويقول البقاعي: (أي وضم إلى نيته العمل، بأن سعى لها سعيها، أي الذي هو لها، وهو ما كانت جديرة به من العمل بما يرضي الله، بما شرع في كتابه و سنة رسوله ﷺ، لا أيَّ سعي كان بما لم يشهد له ظاهر الكتاب و السنة).[1]

وهذا الشرط لقبول العمل هو المعبر عنه بالإحسان في قول الله جل وعلا:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان: ٢٢].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[النساء: ١٢٥].

قال ابن كثير بعد أن فسر إسلام الوجه بالإخلاص لله: (﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق.

وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي يكون خالصًا

---

(١) نظم الدرر: (٤/ ٣٧١ – ٣٧٢)، وانظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٥٩)، تفسير الفخر الرازي: (٢٠/ ١٧٩).

صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعًا للشريعة، فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمتى فقد الإخلاص كان منافقًا، وهم الذين يراؤون الناس، ومتى فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً، ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم).[1]

يقول ابن تيمية: (وهذان الوصفان، وهما إسلام الوجه لله والإحسان، هما الأصلان المتقدمان، وهما كون العمل خالصًا لله، صوابًا: موافقًا للسنة والشريعة، وذلك أن إسلام الوجه لله هو متضمن للقصد والنية لله).[2]

(فإذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه إلى الله فهذا صلاح إرادته وقصده، فإذا كان مع ذلك محسنًا فقد اجتمع أن يكون عمله صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا، وهو قول عمر ﷺ: اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا[3]، والعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات، وهو ما أمر الله به، والذي أمر الله به هو الذي شرعه الله، وهو الموافق لسنة الله وسنة رسوله، فقد أخبر الله تعالى أنه من أخلص قصده لله وكان محسنًا في عمله فإنه مستحق للثواب سالم من

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٥٥٩)، وانظر: (١/ ١٥)، اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، ط٢، مكتبة السنة: (ص:٤٥١)، مدارج السالكين: (٢/ ٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٧٥).

(٣) حديث عمر ﷺ رواه أحمد في الزهد، ط١، مكتبة الصفا: (ص: ١٦٠).

العقاب).[1]

وإذا كان شرط الإخلاص فيه تحقيق لمعنى لا إله إلا الله، فإن شرط المتابعة يحقق مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، استجابة لأمر الله تعالى:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

يقول ابن تيمية: (وأصل الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فمن طلب بعباداته الرياء والسمعة لم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله، ومن خرج عما أمره به الرسول من الشريعة، وتعبد بالبدعة، لم يحقق شهادة أن محمدًا رسول الله، وإنما يحقق هذين الأصلين من لم يعبد إلا الله، ولم يخرج عن شريعة رسول الله ﷺ التي بلغها عن الله).[2]

واعتبر ابن القيم أن تحقيق هذين الأصلين يمثّل هجرتين للقلب إلى الله تبارك وتعالى:

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٧٦ - ١٧٧)، وانظر: (١٠/ ١٧٣، ١٨/ ٢٥١).

(٢) مجموع الفتاوى: (١١/ ٦١٧ - ٦١٨)، وانظر: (١/ ٣٣٣، ١٠/ ٢٣٤)، اقتضاء الصراط المستقيم: (ص: ٤٥٢).

واجعل لقلبك هجرتين ولاتنم … فهما على كل امرئ فرضان
فالهجرة الأولى إلى الرحمن بال … إخلاص في سر وفي إعلان
فالقصد وجه الله بالأقوال وال … أعمال والطاعات والشكران
فبذاك ينجو العبد من إشراكه … ويصير حقا عابد الرحمن
والهجرة الأخرى إلى المبعوث بال … حق المبين وواضح البرهان
فيدور مع قول الرسول وفعله … نفيًا وإثباتًا بلا روغان[1]

وقد وعد الله جل وعلا بحفظ ثواب المؤمنين الذين يجمعون أوصاف الحسن في أعمالهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠].

كما بين سبحانه أنه خلق عباده ليختبرهم في حسن العمل:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

فلم يصف ﷻ العمل بالكثرة وإنما وصفه بالحسن، وذلك يشتمل على الأصلين العظيمين: صلاح العمل، وخلوصه لله ﷻ.

---

(١) القصيدة النونية: (١/ ٥٣ – ٥٤).

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ أي ليختبركم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ولم يقل أكثر عملاً، بل أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله ﷻ، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حبط وبطل).[1]

فلا بد في عبادة الله من إخلاص الدين له سبحانه، ولا بد فيها من موافقة شرعه، و متابعة أمره الذي بعث به رسله عليهم السلام.[2]

وما ذكره ابن كثير في تفسير العمل الحسن في الآية الكريمة مروي عن الفضيل بن عياض[3] إذ قال: (أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة).[4]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٣٨)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٣٠/ ٥٦)، روضة المحبين: (ص: ٤٧).

(٢) انظر: التدمرية لابن تيمية ط ١: (ص ٢٣٢– ٢٣٤)، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ط ١، دار ابن الجوزي: (١/ ٤٢ – ٤٣).

(٣) هو الفضيل بن عياض بن مسعود، أبو علي التميمي الخراساني، إمام محدث قدوة، شيخ الإسلام، رحل في طلب العلم، وسكن بمكة مجاورًا للحرم، كان عابدًا فاضلًا ورعًا، توفي سنة سبع وثمانين ومائة. انظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي، ط٣، مكتبة الخانجي: (ص: ٦ –١٤)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٣٠٤٢ – ٣٠٤٨).

(٤) حلية الأولياء: (٨/ ٩٥)، وانظر تفسير البغوي: (٤/ ٣٦٩)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٧٣– ١٧٤)، مدارج السالكين: (١/ ٧٣).

ومن ثم قال ابن القيم: (العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه[1] رملًا يثقله ولا ينفعه).[2]

ذلك أن العمل حركة تسبقها نية ولا بد من الصلاح في الأمرين.

يقول ابن تيمية: (لما كان العمل لا بد فيه من شيئين: النية والحركة، كما قال النبي ﷺ: (أصدق الأسماء حارث وهمام).[3]

فكل أحد حارث وهمام، له عمل ونية، لكن النية المحمودة التي يتقبلها الله ويثيب عليها أن يراد الله بذلك العمل، والعمل المحمود: الصالح، وهو المأمور به).[4]

---

(١) الجراب: المزود أو الوعاء. انظر: ترتيب القاموس المحيط: (١/ ٤٦٦).

(٢) الفوائد: (ص: ٧٤).

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب تغيير الأسماء: (٥/ ٢٣٧) من حديث أبي وهب الجُشَمي ؓ بلفظ: (وأصدقها حارث وهمام)، وأحمد في المسند: (٤/ ٣٤٥)، و البخاري في الأدب المفرد، ط ١، دار الصديق: (ص: ٢٨٣)، و حسنه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٣/ ٢٤٦)، وصححه الألباني في تخريج أحاديث الأدب المفرد: (ص: ٢٨٤)، وهو في السلسلة الصحيحة: (ص: ٣٥٢).

قال المنذري: (إنما كان حارث وهمام أصدق الأسماء لأن الحارث هو الكاسب، والهَمّام هو الذي يهمّ مرة بعد أخرى، وكل إنسان لا ينفك عن هذين) الترغيب والترهيب: (٣/ ٧٠)، وانظر: مختصر سنن أبي داود للمنذري، طبعة دار المعرفة: (٧/ ٢٥١)، روضة المحبين: (ص: ٤٢)، إغاثة اللهفان: (١/ ٦٩).

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٣٥).

وبالصلاح في النية والحركة يحقق المؤمن معنى العبودية كما قال ابن القيم: (لا يكون العبد متحققًا بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين أحدهما متابعة الرسول ﷺ، والثاني الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾).[1]

وقال نظمًا:

فقيام دين الله بالإخلاص وال	إحسان إنهما له أصلان
لم ينج من غضب الإله وناره	إلا الذي قامت به الأصلان
والناس بعد فمشرك بإلهه	أو ذو ابتداع أو له الوصفان
والله لا يرضى بكثرة فعلنا	لكن بأحسنه مع الإيمان.[2]

وقد جاء توجيه رسول الله ﷺ بالصلاح في العمل صريحًا جليًا لا لبس فيه، حين أوصى أصحابه ؓ بالالتزام بسنته عليه الصلاة والسلام، والوقوف عند مضامينها، وعدم تجاوزها، أو الانحراف عن منهجها وسبيلها.

فمن حديث العرباض بن سارية[3] ؓ يقول ﷺ: [فعليكم بسنتي وسنة

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٧٣).

(٢) القصيدة النونية : (١/ ٩٩).

(٣) هو عِرْباض بن سارية، أبو نجيح السلمي، قديم الإسلام، من أهل الصفة، نزل الشام، وسكن حمص، وحديثه في السنن الأربعة، توفي سنة خمس وسبعين. انظر تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٤٣٢)، الإصابة: (٤/ ٣٩٨ – ٣٩٩).

الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ(١)، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة].(٢)

والحديث الشريف واضح في الأمر بالتمسك بطريقته عليه الصلاة والسلام في كل أعمال العبادة، ما تعلق منها بالقلب أو اللسان أو الجوارح.

قال ابن رجب: (السنة هي الطريقة المسلوكة، فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا كان السلف قديمًا لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله).(٣)

وفي تعبيره ﷺ بالعض على النواجذ مزيد تأكيد واعتناء بشأن السنة الشريفة وأهمية التقيد بها.

---

(١) النواجذ: الأضراس، والتعبير بها لأنها أعظم في القوة. انظر النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٢٠)، شرح الأربعين النووية لابن دقيق: (ص: ١٨٥)، مجموع الفتاوى: (٢٢/ ٢٢٥)، عون المعبود: (٨/ ١٧).

(٢) رواه أبو داود ، في كتاب السنة، باب في لزوم السنة: (٥/ ١٣ـ ١٥)، والترمذي بنحوه في كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع: (٥/ ٤٤ – ٤٥)، وقال هذا حديث حسن صحيح، و ابن ماجة في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين: (١/ ١٥ – ١٦) وأحمد في المسند: (٤/ ١٢٦)، والدارمي: (١/ ٤٣ – ٤٤)، والحاكم في المستدرك: (١/ ١٧٥) وصححه، ووافقه الذهبي، و صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (ص: ٣١٣).

(٣) جامع العلوم والحكم: (٢/ ١٢٠).

قال الخطابي(١): (إنما أراد بذلك الجد في لزوم السنة، فعل من أمسك الشيء بين أضراسه، وعض عليه، منعًا له أن ينتزع، وذلك أشد ما يكون من التمسك بالشيء).(٢)

ولما أمر عليه الصلاة والسلام بالتزام سنته الشريفة حذر من ضدها، وهو إحداث عبادات لم يشرعها الله ورسوله [وإياكم ومحدثات الأمور] وأكد ذلك التحذير بقوله [فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة].

والمراد بالمحدثات ما أحدث واخترع على سبيل التعبد والتدين، مما ليس له دليل أو أصل في الشرع يرجع إليه، وهذه المحدثة في الدين هو ما يعبر عنها شرعًا بلفظ البدعة كما في هذا الحديث الشريف.(٣)

قال ابن رجب: (فكل من أحدث شيئًا ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه، فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة).(٤)

---

(١) هو حمد بن محمد بن إبراهيم، أبو سليمان البستي الخطابي، إمام حافظ ، فقيه لغوي محدث، رحل في طلب العلم، ثم صنف فأكثر، من مصنفاته: شرح سنن أبي داود، وغريب الحديث، توفي سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ١٥٦٤)، الأعلام: (٢/ ٢٧٣).

(٢) معالم السنن: (٧/ ١٢)، وانظر: الترغيب والترهيب: (١/ ٧٩)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ١٢٦).

(٣) انظر: الاعتصام للشاطبي، طبعة مكتبة الرياض الحديثة : (١/ ٣٧)، فتح الباري، طبعة دار الفكر: (١٣/ ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٧٨)، الإبداع في مضار الابتداع، لعلي محفوظ ط ٧، دار الاعتصام: (ص: ٢٦)، شرح الأربعين لابن دقيق: (ص: ٦٩ – ٧٠، ١٨٥).

(٤) جامع العلوم والحكم: (٢/ ١٢٨)، وانظر فتح الباري: (١١/ ١٢٨).

وقد تكرر هذا المعنى في كلام المصطفى ﷺ، فمن حديث جابر بن عبد الله ﵁ أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول في خطبة الجمعة: [أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة].(١)

وعلى ذلك فإن العمل التعبدي إذا فقد شرط الموافقة لشرع الله جل وعلا، والاتباع لسنة رسوله ﷺ، كان عملا باطلا، مردودًا غير مقبول، مهما كان صاحبه محققًا لشرط الإخلاص.

عن عائشة(٢) ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: [من أحدث في أمرنا(٣) هذا ما ليس منه فهو رد(٤)].(٥)

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة: (١/ ٥٩٢).

(٢) هي أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ﵄، أم عبد الله، زوج النبي ﷺ، تزوجها بمكة، وبنى بها بالمدينة، كانت من أكثر الصحابة ﵃ رواية، فقيهة عالمة، عابدة زاهدة، توفيت سنة سبع وخمسين. انظر: صفة الصفوة: (٢/ ١٥ – ٣٨)، تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٨٦٨ – ٨٧٠).

(٣) المراد بالأمر أمر الدين والشرع. انظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ١٧٧)، فتح الباري: (١١/ ١٢٨).

(٤) [رد] مصدر بمعنى اسم المفعول: أي مردود وباطل لا يعتد به. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢١٣)، شرح الأربعين لابن دقيق: (ص: ٦٩)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٢/ ١٦)، فتح الباري: (١١/ ١٢٨).

(٥) رواه البخاري في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود: (٢/ ٩٥٩)، ومسلم بنحوه في كتاب الأقضية. باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور: (٢/ ١٣٤٣).

وفي رواية أخرى لمسلم: [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد].(١)

يقول ابن رجب: (هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أن حديث [الأعمال بالنيات] ميزان للأعمال في باطنها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء)(٢) وكل (من تقرب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله فعمله باطل مردود عليه).(٣)

وهذا هو المقصود بقول سفيان الثوري: (لا يستقيم قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة).(٤)

وقول أيوب السختياني(٥): (ما ازداد صاحب بدعة اجتهادًا إلا ازداد من الله بعدًا).(٦)

---

(١) كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة: (٢/ ١٣٤٤).

(٢) جامع العلوم والحكم: (١/ ١٧٦).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ١٧٨)، وانظر: الاعتقاد للبيهقي، طبعة فيصل آباد: (ص: ١١١).

(٤) حلية الأولياء: (٧/ ٣٢)، الاعتصام: (١/ ٨٤).

(٥) هو أيوب بن أبي تميمة واسمه كيسان، أبو بكر السختياني البصري، من الأئمة الحفاظ والفقهاء الثقات، صاحب عبادة وزهد واتباع للسنة، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٢٩١ – ٢٩٦)، سير أعلام النبلاء: (١/ ١١٧٦ – ١١٧٩).

(٦) حلية الأولياء: (٣/ ٩)، صفة الصفوة: (٣/ ٢٩٥)، الاعتصام: (١/ ٨٣، ١١٧).

وقول الجنيد[1]: (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ، واتبع سنته، ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه).[2]

وقول عبد القادر الجيلاني[3]: (لا تبتدع ولا تحدث في دين الله ﷻ شيئًا لم يكن، اتبع الشاهدين العدلين: الكتاب و السنة، فإنهما يوصلانك إلى ربك ﷻ، وأما إن كنت مبتدعًا فشاهداك عقلك وهواك، فلا جرم يوصلانك إلى النار).[4]

وقول ابن القيم: (كل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء).[5]

---

(١) هو الجنيد بن محمد، أبو القاسم النهاوندي البغدادي، القواريري (لأن أباه كان يبيع الزجاج)، صاحب علم وفقه وذكاء، معروف بالعبادة والزهد، وبلاغة الألفاظ ودقة المعاني، توفي سنة سبع وتسعين ومائتين. انظر: طبقات الصوفية: (ص: ١٥٥ – ١٦٣)، سير أعلام النبلاء: (١/ ١٣٣٧ – ١٣٣٨).

(٢) طبقات الصوفية: (ص: ١٥٩)، حلية الأولياء: (١٠/ ٢٥٧)، وانظر: صفة الصفوة: (٢/ ٤١٨)، الاعتصام: (١/ ٩٥).

(٣) هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله، محي الدين، أبو محمد الجيلاني الحنبلي، إمام زاهد واعظ، وفقيه عالم قدوة، شيخ الحنابلة في زمانه، تصدر للتدريس والإفتاء والوعظ في بغداد، من مصنفاته: الفتح الرباني، الغنية لطالب طريق الحق، توفي سنة إحدى وستين وخمس مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٣٠٩– ٢٣١٣)، الأعلام: (٤/ ٤٧).

(٤) الفتح الرباني لعبد القادر الجيلاني، طبعة دار الألباب: (ص: ١٩٤)، و انظر له أيضًا الغنية، طبعة دار الألباب: (ص: ٧٩-٨٠).

(٥) مدارج السالكين: (١/ ٧٣).

ذلك أن العبادات إنما تبنى وتتأسس - كما يقول أهل العلم - على التوقيف لا على الرأي، والأصل فيها المنع حتى يرد الدليل الشرعي.[1]

يقول ابن تيمية: (العبادات مبناها على الشرع والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فإن الإسلام مبني على أصلين: أحدهما أن نعبد الله وحده لا شريك له، والثاني أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا نعبده بالأهواء والبدع، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فليس لأحد أن يعبد الله إلا بما شرعه رسول الله ﷺ من واجب ومستحب).[2]

وهذا هو الباعث إلى مقولة عمر بن الخطاب ﷺ وهو يقبل الحجر الأسود: (إني لأقبلك، وإني لأعلم أنك حجر، ولكني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك).[3]

وفي رواية أخرى: (رأيت رسول الله ﷺ بك حفيا).[4][5]

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٢٩/ ١٧، ١/ ٣٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى: (١/ ٨٠)، وانظر: (١/ ٣٦٥، ١١/ ٥٨٥)، شرح الطحاوية: (ص: ٢٠٢).

(٣) رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر ﷺ في كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف: (١/ ٩٢٥).

(٤) أي مهتمًا معتنيًا. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٤٠٩)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٩/ ١٧).

(٥) رواه مسلم من حديث سويد بن غفلة ﷺ في كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود: (١/ ٩٢٦).

فعمر ﵁ يعبد الله تعالى بهذا التقبيل للحجر الأسود، امتثالاً لشرع الله، وتأسيًا برسول الله ﷺ، ابتغاء مرضاة الله جل وعلا، ولولا ذلك لما قبّله.

وهذا منه ﵁ حث على الوقوف عند حدود الاتباع والموافقة لما جاءت به الشريعة.[1]

ومثله حديث علي ﵁: (لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه).[2]

ولذا أيضًا كان من قول عدد من الصحابة ﭫ: (الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة).[3]

وقد نهى الله جل وعلا عن الغلو في الدين[4]، حتى لا ينحرف المسلم عن حد الاعتدال والتوسط إلى طرف المبالغة والتشدد في العبادات بلا فقه

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٩/ ١٦ - ١٧).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الطهارة باب كيف المسح: (١/ ١١٤ - ١١٥) وحسن إسناده ابن حجر في بلوغ المرام من أدلة الأحكام، طبعة دار إحياء التراث العربي: (ص: ١٩). وصححه الألباني في إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل، ط٢، المكتب الإسلامي: (١/ ١٤٠).

(٣) هذا القول مروي عن ابن مسعود وأبي بن كعب وأبي الدرداء ﭫ. انظر: الزهد: (ص: ٢٠٦)، المستدرك: (١/ ١٨٤)، حلية الأولياء: (١/ ٢٥٣)، صفة الصفوة: (١/ ٤٧٦)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ٣٩٣، ٢٢/ ٢٢٤، ٢٥/ ٢٧٢، ٢٨/ ١٧٨)، الاعتصام: (١/ ٧٩، ٨١).

(٤) المراد بالغلو في الدين المبالغة والتشدد ومجاوزة الحد الشرعي. انظر النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٣٨٢)، فتح الباري طبعة دار الفكر: (١٣/ ٢٧٨)، الغلو في الدين لعبدالرحمن اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة: (ص: ٨١ - ٨٢).

شرعي، فيؤول به ذلك إلى الابتداع والرغبة عن السنة.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١ - سورة المائدة: ٧٧].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية الكريمة نزلت في بعض أصحاب رسول الله ﷺ، حين عزموا على ترك بعض المباحات تعبدًا وتدينًا.[1]

عن ابن عباس ﵄: (أن رجلا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي، فحرمت عليَّ اللحم. فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ (٨٧) وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٧ - ٨٨]).[2]

(١) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ٨ - ١١)، تفسير البغوي: (٢/ ٥٨ - ٥٩)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٢٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٨٧ - ٨٨)، الدر المنثور: (٣/ ١٣٩ - ١٤٤)، فتح القدير: (٢/ ٧٠ - ٧١)، الاعتصام: (١/ ٣٢٣ - ٣٢٥).

(٢) رواه الترمذي وحسنه في كتاب تفسير القرآن، باب من سورة المائدة: (٥/ ٢٥٥ - ٢٥٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره، طبعة المكتبة العصرية: (٤/ ١١٨٦)، والواحدي في أسباب النزول، طبعة دار الحديث: (ص: ١٦٨)، وصححه الصبابطي: تحفة الأحوذي: (٧/ ٤٨٠) (الهامش)، وانظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، ط١، دار إحياء العلوم: (ص: ٩٦)، تفسير الطبري: (٧/ ١١)، الدر المنثور: (٣/ ١٣٩).

وعن أنس بن مالك(١) ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط(٢) إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها(٣)، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: [أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني].(٤)

وفي رواية مسلم: [فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش].(٥)

(١) هو أنس بن مالك بن النضر، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، جاءت به أمه أم سليم بنت ملحان رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة وهو ابن عشر سنين، أشبه الناس صلاة برسول الله ﷺ، أحد المكثرين من الرواية عنه عليه الصلاة و السلام، توفي بالبصرة سنة اثنتين وتسعين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٧١٠ – ٧١٤)، الإصابة: (١/ ٢٧٥ – ٢٧٨).

(٢) الرهط: من الثلاثة إلى العشرة، جمع لا واحد له من لفظه. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٨٣)، فتح الباري: (١٩/ ١٢٥).

(٣) [أي رأى كل منهم أنها قليلة] فتح الباري: (١٩/ ١٢٦).

(٤) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح: (٥/ ١٩٤٩).

(٥) رواه مسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح: (٢/ ١٠٢٠).

ومع أن باعث هؤلاء الأصحاب ﷺ الوصول إلى ثواب الله تعالى ومرضاته، لكن رسول الله ﷺ رد عليهم صنيعهم، وصرح بمخالفته لطريقته عليه الصلاة والسلام: [فمن رغب عن سنتي فليس مني].

قال ابن حجر: (الرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره، والمراد: من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني).(١)

فقد برئ ﷺ ممن يعرض عن المشروع المسنون إرادة ومحبة، ويظن أن طريقته المبتدعة في التقرب إلى الله تعالى هي الأفضل والأجود.

وقد ذم الله تعالى النصارى الذين أحدثوا مسلك الرهبانية، فشددوا على أنفسهم في العبادة بما لم يرد في شريعة الله جل وعلا، ثم لم يفوا بعد ذلك بما التزموا به، ولم يقوموا بما تحملوه، بل غيروا وبدلوا.

قال ﷻ: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

قال ابن الجوزي: (هي غلوهم في العبادة، وحمل المشاق على أنفسهم في الامتناع عن المطعم والمشرب والملبس والنكاح والتعبد في الجبال).(٢)

فقد عاب الله عليهم الابتداع بما لم يكتبه الله عليهم، ثم عاب عليهم عدم الوفاء ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

(١) فتح الباري: (١٩/ ١٢٦)، وانظر: مجموع الفتاوى: (٢٧/ ٦٠).

(٢) زاد المسير: (٧/ ٣١١)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٨/ ٢٢٨).

يقول ابن كثير: (هذا ذم لهم من وجهين: أحدهما الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله، والثاني في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله ﷻ).[1]

ولذا حذر رسول الله ﷺ من الغلو و التنطع والتعمق[2] المتجاوز للسنة.

ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما يقول عليه الصلاة و السلام: [وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين].[3]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [هلك المتنطعون] قالها ثلاثا.[4]

قال النووي: (أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم).[5]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣١٥)، وانظر: مدارج السالكين: (٢/ ٥٤ – ٥٥) فتح الباري: (١٩/ ١٢٦).

(٢) التعمق: هو التشدد والمبالغة في الأمر بحيث يتجاوز فيه الحد. انظر النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٢٩٩)، فتح الباري: (١٣/ ٢٧٨)، وقد بوب البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب مايكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع: (٦/ ٢٦٦١).

(٣) رواه النسائي في كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى: (٥/ ٢٦٨) و ابن ماجة في كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي: (٢/ ١٠٠٨)، و أحمد في المسند: (١/ ٢١٥)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٦٣٧ – ٦٣٨) و صححه، ووافقه الذهبي، و صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص : ١٨٥).

(٤) رواه مسلم في كتاب العلم، باب هلك المتنطعون: (٣/ ٢٠٥٥).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ٢٢٠)، وانظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٧٤)، الغلو في الدين: (ص: ٥٨ – ٦٢).

كما بين عليه الصلاة والسلام أن عاقبة هذا المنهج إلى خسار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إن الدين يسر، ولن يشاد[1] الدين أحد إلا غلبه].[2]

قال ابن حجر: (والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب).[3]

ولما بلغ رسول الله ﷺ مقولة عبد الله بن عمرو[4] رضي الله عنهما: (والله لأصومن الدهر ولأقومن الليل ما عشت)[5] أنكر عليه ذلك.

يقول عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (قال لي رسول الله ﷺ: [يا عبد الله، ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل) فقلت: بلى يا رسول الله، قال: (فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك[6] عليك حقًا، وإن بحسبك[7]

---

(١) [المشادة بالتشديد المبالغة] فتح الباري: (١/ ١٦٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين يسر: (١/ ٢٣).

(٣) فتح الباري: (١/ ١٦٥).

(٤) هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل، أبو محمد القرشي السهمي، أسلم قبل أبيه، روى عن النبي ﷺ كثيرًا، كان عالمًا متعبدًا، توفي سنة خمس وستين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٦٥٥ – ٦٦٠)، الإصابة: (٤/ ١٦٥ – ١٦٧).

(٥) من إحدى روايات البخاري للحديث: في كتاب الصوم، باب صوم الدهر: (٢/ ٦٩٧).

(٦) الزور: بفتح الزاي وسكون الواو: الضيف الزائر. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣١٨)، فتح الباري: (٩/ ٥٠، ٢٢/ ٣٣٤).

(٧) المراد يكفيك، انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٨١)، فتح الباري: (٩/ ٥٠).

أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله] فشدَّدت فشُدِّد عليَّ. قلت يا رسول الله، إني أجد قوة، قال: (فصم صيام نبي الله داود ﷺ ولا تزد عليه) قلت: وما كان صيام نبي الله داود ﷺ؟ قال: [نصف الدهر] فكان عبد الله يقول بعد ما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ).(١)

وفي رواية أخرى: (قال لي النبي ﷺ: [ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار] قلت: إني أفعل ذلك. قال: [فإنك إن فعلت ذلك هجمت عينك(٢)، ونفهت نفسك(٣)، وإن لنفسك حقًا، ولأهلك حقًا، فصم وأفطر، وقم ونم].(٤)

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، وحبل

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم: (٢/ ٦٩٧)، ومسلم بنحوه في كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر...: (١/ ٨١٢).

(٢) هجمت عينك: (أي غارت وضعفت لكثرة السهر). فتح الباري: (٦/ ٤٧)، وانظر غريب الحديث لأبي عبيد، ط١، دار الكتاب العربي: (١/ ٢١).

(٣) نفهت نفسك: أي أعيت وسئمت و كلت.

انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (١/ ٢١ – ٢٢)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٨/ ٤٦)، فتح الباري: (٦/ ٤٧).

(٤) من رواية البخاري في كتاب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه: (١/ ٣٨٧)، ورواه مسلم بنحوه في كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر..: (١/ ٨١٦)، وانظر فتح الباري: (٩/ ٥٩)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٨/ ٣٩).

ممدود بين ساريتين، فقال: (ماهذا؟) قالوا: لزينب(١)(٢) تصلي، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به، فقال: [حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر قعد].(٣)

قال النووي: (فيه الحث على الاقتصاد في العبادة والنهي عن التعمق).(٤)

وعن عائشة ﷺ قالت: كانت عندي امرأة من بني أسد، فدخل عليّ رسول الله ﷺ، فقال: (من هذه؟) قلت: فلانة، لا تنام بالليل، تذكر من صلاتها، فقال: [مه(٥)، عليكم ما تطيقون من الأعمال، فإن الله لا يمل حتى تملوا].(٦)

---

(١) المراد على الأرجح أم المؤمنين زينب بنت جحش ﷺ. انظر: فتح الباري: (٦/ ٤٣ – ٤٤).

(٢) هي زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، ابنة عمة رسول الله ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، تزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث من الهجرة، كانت ﷺ كثيرة الصدقة والعبادة، توفيت سنة عشرين. انظر: صفة الصفوة: (٢/ ٤٦ – ٤٩) الإصابة: (٨/ ١٥٣ – ١٥٥).

(٣) رواه البخاري في كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة (١/ ٣٨٦)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته..: (١/ ٥٤٢).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/ ٧٣)، وانظر: فتح الباري: (٦/ ٤٤).

(٥) [مه] اسم فعل بمعنى اسكت أو اكفف، وفيه معنى الزجر والإنكار. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٣٧٧) فتح الباري: (١/ ١٧٥).

(٦) رواه البخاري في كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة: (١/ ٣٨٦)، ومسلم بنحوه في كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته...: (١/ ٥٤٢).

فالكراهية والإنكار منه عليه الصلاة والسلام هنا إنما هو على التشديد والتعمق خشية السآمة والملل المفضي إلى ترك العبادة، والحديث وإن كان سبب وروده خاصًا بالصلاة، لكن لفظه عام يشمل جميع العبادات.(١)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل(٢) نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي ﷺ: [مره فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه].(٣)

قال ابن تيمية: (لما نذر عبادة غير مشروعة من الصمت والقيام والتضحية أمره بفعل المشروع وهو الصوم في حقه، ونهاه عن فعل غير المشروع).(٤)

ويقول ابن حجر: (وفيه أن كل شيء يتأذى به الإنسان ولو مآلا مما لم يرد بمشروعيته كتاب أو سنة كالمشي حافيًا، والجلوس في الشمس، ليس هو

---

(١) انظر: فتح الباري: (١/ ١٧٥، ٦/ ٤٣ - ٤٥)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/ ٧٣)، الاعتصام: (١/ ٢٩٦).

(٢) مشهور بكنيته رضي الله عنه، و اسمه قُشَيْر، قرشي عامري وقيل أنصاري مدني، ليس في الصحابة من يكنى أبا إسرائيل غيره. انظر: تهذيب الأسماء و اللغات: (١/ ٦٦٦)، الإصابة: (٥/ ٣٣٦،٧/ ١٠-١١).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية: (٦/ ٢٤٦٥).

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٥/ ٢٧٧)،وانظر: (١١/ ٦١٣ - ٦١٤، ٢٢/ ٣١٥)، الاعتصام: (١/ ٣٠٧).

من طاعة الله، فلا ينعقد به النذر، فإنه ﷺ أمر أبا إسرائيل بإتمام الصيام دون غيره، وهو محمول على أنه علم أنه لا يشق عليه، وأمره بأن يقعد ويتكلم ويستظل).(١)

إن ما ورد آنفًا من نصوص الكتاب والسنة كاف للتأكيد على أن عبادة الله تعالى لابد أن تنبني على أصل صحيح من اتباع السنة وموافقة الشرع، وبدون ذلك يبقى العمل في دائرة الرد والبطلان.(٢)

---

(١) فتح الباري: (٢٥/ ٩١)، وانظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ١٧٨).

(٢) انظر: الموافقات: (٢/ ٤٩٨).

الباب الثاني:

عبودية القلب

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: التعريف بالقلب وأهميته.

الفصل الثاني: أركان عبودية القلب وتفاوت الناس فيها.

الفصل الثالث: لوازم عبودية القلب وثمراتها والمؤثرات فيها.

الفصل الأول :
التعريف بالقلب وأهميته
ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: التعريف بالقلب.

المبحث الثاني: لفظ القلب في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: أهمية القلب ومكانته.

المبحث الأول

التعريف بالقلب

١- القلب في اللغة مصدر للفعل الثلاثي قلب، يقلب.

ويرد بأحد معنيين[1]:

الأول: تحويل الشيء عن وجهه، بجعل أعلاه أسفله، وظاهره باطنه، أوردّه من جهة إلى أخرى.

يقال: قلب الثوب أو الرداء، يقلبه، قلبا: حوله ظهرًا لبطن. وقلب الإناء: ردّه على وجهه. وقلب الخبز ونحوه: حوله لينضج باطنه بعد نضوج ظاهره. وقلب فلان فلانًا: صرفه عن وجهه الذي يريد. والانقلاب إلى الله ﷻ: المصير والتحول إليه سبحانه.

والثاني: خالص الشيء ولبه وأشرف ما فيه.

يقال: جئت هذا الأمر قلبًا: أي خالصًا محضا لا يشوبه شيء. وهذا قلب كذا: أي أرفعه وأشرف ما فيه.

ثم نقل هذا المصدر، وسمي به العضو المعروف، أي العضو اللحمي ذو الشكل الصنوبري الموجود في الجانب الأيسر من الصدر.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٢٨ - ٨٢٩)، الصحاح: (١/ ٢٠٥)، لسان العرب: (٥/ ٣٧١٣ - ٣٧١٤)، ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٦٧١)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٨٨)، الكليات: (٤/ ٦).

ويجمع القلب على أقلب وقلوب.

٢- وتعريف القلب بأنه العضو الجسدي الموجود في صدر الإنسان هو أحد المعنيين اللذين يطلق عليهما لفظ القلب في الاصطلاح، وهو تعريف له بالاعتبار العضوي الحسّي.

ومن هذا الجانب يبقى هذا العضو اللحمي في الجسم أكثر الأعضاء أهمية، وأشدها تأثيرًا وحساسية بالنسبة له، إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونه، وإذا اضطرب بالمعنى الطبي تأثرت صحة الجسد كله بذلك، إذ هو مصدر الحياة له بإذن الله تعالى، ولو توقف عن القيام بوظيفته العضوية توقفت الحياة كما يقول أهل هذا الشأن، وهو بذلك ملك البدن من الناحية الجسدية، من حيث صحة البدن واعتلاله، وعافيته ومرضه، وهذا المعنى لا يختص بالإنسان بل يشاركه فيه عالم الحيوان أيضًا.(١)

أما المعنى الثاني فهو مرتبط بالجانب الروحي المعنوي، يفسر القلب بأنه لطيفة معنوية ربانية لكنها ليست معزولة عن الجانب الجسدي الحسي، ولا منفصلة عنه، بل متعلقة بالعضو المعروف بشكل وثيق، وهو منزل لها،

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٧)، خلق الإنسان لسعيد بن هبة الله، ط١، دار الكتب العلمية: (ص: ١٦٩)، التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، طبعة دار الكتب العلمية: (ص: ٢٢٩، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٥٨)، الكليات: (٤/ ٦)، الوافي في شرح الأربعين النووية لمصطفى البغا ومحي الدين مستو، ط١، مؤسسة علوم القرآن: (ص: ٣٤)، آيات الله في النفس والروح والجسد لماهر الصوفي، طبعة دار الرضوان: (ص: ١٥٧- ١٦٠).

متصف بها، بصورة يعلمها الله جل وعلا، إذ تلك العلاقة في نهاية الأمر مسألة غيبية لا نعلم كنهها على وجه التفصيل، لكننا نتيقن وجودها، وندرك خطورتها وآثارها، انطلاقًا من نصوص الكتاب العزيز والسنة الشريفة.

وهذا المعنى هو المقصود بالقلب في نصوص الشرع، وإليه اتجه أبو حامد الغزالي وابن القيم وغيرهما.(١)

يقول الغزالي: (هو لطيفة ربانية روحانية، لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته، فإن تعلقه يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام، والأوصاف بالموصوفات، والمستعمل للآلة بالآلة، والمتمكن بالمكان).(٢)

ويقول أيضًا: (وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان، ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة

(١) انظر: التعريفات للجرجاني، ط١، دار الكتاب العربي: (ص: ٢٢٩)، مجموع الفتاوى: (٩/ ٣٠٣)، روح المعاني: (١/ ١٣٤ - ١٣٥، ١٦/ ٢٠٩- ٢١٠)، مصباح الأنوار لمحمد بوعلاق، ط١، مكتبة الهلال: (ص: ١٣٨).

(٢) إحياء علوم الدين: (٣/ ٤).

خاصة، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له، ولكنها تتعلق به بواسطة القلب، فتعلقها الأول بالقلب، وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها).[١]

ويقول ابن القيم: (يطلق القلب على معنيين، أحدهما أمر حسي، وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه تجويف، وفي التجويف دم أسود. وهو منبع الروح.

والثاني: أمر معنوي، وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص. وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسانية).[٢]

وبهذا التفسير للمراد بلفظ القلب يمكن الجمع بين قولين:

أحدهما يتجه إلى أن لفظ القلب في القرآن (لم يقصد به مطلقًا الدلالة على القلب بمعناه التشريحي الطبي، ولكن قصد به التعبير عن جهاز إدراكي معرفي بالغ التعقيد..).[٣]

والآخر يتجه إلى: (أن المراد بالقلب هو هذا العضو المادي الذي مقره الصدر)[٤] وذلك في معرض ردّه على القول الأول.

---

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٦).

(٢) التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٩- ٢٦٠)، وانظر: مدارج السالكين: (٣/ ١٩٠).

(٣) وسائل الإدراك في القرآن الكريم لمحمد الشرقاوي، ط١، عالم الكتب: (ص: ٤٣)، وانظر: طب القلوب لابن القيم، جمعه عجيل النشمي، ط٢، دار الدعوة: (ص: ١٣) (المدخل).

(٤) القلب في القرآن لسيد الشنقيطي، طبعة دار عالم الكتب: (ص: ١٦)، وانظر: أحكام القرآن لابن العربي: (٣/ ١٥٠٤)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٧٩)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٦).

ذلك أن الاكتفاء بالأول فيه نوع معارضة لحديث رسول الله ﷺ: [ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب][١] وللآيات القرآنية المشتملة على لفظ القلب في سياق المدح أو الذم، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومن توجّهت إليهم هذه النصوص يعلمون ما يعنيه هذا اللفظ، إذ هو مبثوث في ثنايا كلامهم، ومعروف في مفردات لغتهم، ومن ثم يدركون المقصود به باعتباره عضوًا محسوسًا في البدن، وباعتبار ما يتعلق به من المعاني.

والاكتفاء بالثاني فيه نوع نفي لما هو ملموس من أن العضو المادي بمجرّده ليس هو المؤثر في استقامة العبد، إذ قد يختل القلب من حيث الصحة الجسدية ويبقى صاحبه ذا تقوى وإيمان، بينما قد يكون القلب صحيحًا قويًا من حيث العافية الجسدية ويكون صاحبه مرتكسًا في دائرة الكفر والفجور.

بالإضافة إلى أن القلب الحسي مما يشترك فيه الإنسان والحيوان.[٢]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه: (١/ ٢٩)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات: (٢/ ١٢٢٠).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة، ط١، دار الغد الجديد: (١/ ٢٣١).

ولذا قال ابن حجر في شرحه لحديث: [ألا وهي القلب]: (المراد المتعلق به من الفهم الذي ركبه الله فيه).(١)

وقال ابن القيم: (لم يرد شكل القلب، فإنه لكل أحد، وإنما أراد القوة والغريزة المودعة فيه).(٢)

٣- **هذا القلب محله الصدر**، يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم] وأشار بأصابعه إلى صدره.(٣)

٤- وفي سبب تسميته بالقلب أقوال منها:

أ- أنه خالص البدن وأهم عضو فيه، وأرفعه وأشرفه.(٤)

ب- أنه مقلوب الخلقة في الجسد من حيث الشكل.(٥)

---

(١) فتح الباري: (١/ ٢١١).

(٢) مدارج السالكين: (٣/ ١٩٠)، وانظر الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني، ط١، دار القلم: (١/ ٢١٢ - ٢١٤، ٢٤٥- ٢٤٦).

(٣) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم... (٣/ ١٩٨٧).

(٤) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٢٨)، الكليات: (٤/ ٦).

(٥) انظر: فتح الباري: (١/ ٢١١)، الكليات: (٤/ ٦).

ت - أنه كثير التقلب، سريع الخواطر، تتبدل فيه الإرادات فلا يستقر على حال، ولذلك قيل فيه:

ما سمي القلب إلا من تقلبه ... فاحذر على القلب من قلب وتحويل(١)

ويؤيد هذا القول ما ورد في حديث أبي موسى الاشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إنما سمي القلب من تقلبه، وإنما مثل القلب مثل ريشة معلقة(٢) في أصل شجرة، يقلبها الريح ظهرًا لبطن].(٣)

وحديث المقداد بن الأسود(٤) ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) انظر: المفردات: (ص: ٤١٠)، إحياء علوم الدين: (١/ ٦٠ -٦١)، منهاج العابدين: (ص: ٦٩)، زاد المسير: (١/ ٢٢)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣١)، عمدة القاري: (١/ ٢٩٨)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٩١)، الدر المنثور: (١/ ٢١٤)، فيض القدير: (٣/ ٢)، روح المعاني: (١/ ١٣٤ - ١٣٥).

(٢) قال البنا في بلوغ الأماني: (١٤/ ٢٨٩) (أي لكثرة تقلبه وعدم ثبوته على حالة واحدة، شبه القلب بالريشة لسرعة تقلبها بالقليل من الريح، لا سيما إذا كانت معلقة، ووصفها بالتعليق لأنها أبلغ في كثرة تقلب المعلق بالريح من الملقي على الأرض).

(٣) رواه أحمد في المسند: (٤/ ٢٠٨)، وابن ماجة بنحوه في المقدمة، باب في القدر: (١/ ٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، ط١، دار الكتب العلمية: (١/ ٤٧٣)، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى الطبراني وصححه: فيض القدير: (٣/ ٢)، وحسنه الحافظ العراقي في المغني: إحياء علوم الدين: (٣/ ٦١)، وانظر: كشف الخفاء للعجلوني، ط٤، مؤسسة الرسالة: (٢/ ٤٠٥).

(٤) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة، القضاعي الكندي، اشتهر بالمقداد بن الأسود لأنه حالف الأسود بن عبد يغوث الزهري في الجاهلية فتبناه، أسلم قديمًا، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، توفي بالمدينة سنة ثلاث وثلاثين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٤٢٣ - ٤٢٦)، الإصابة: (٦/ ١٥٩ - ١٦١).

[لقلب ابن آدم أسرع تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا].(١)

٥- الفؤاد وعلاقته بالقلب:

الفؤاد مأخوذ من فأد، يفأد، فأدا. وهو (أصل صحيح يدل على حمى وشدة حرارة، ومن ذلك فأدت اللحم: شويته)(٢) (وافتأدوا: أوقدوا نارًا، والمفتأد: موضع الوقود، والتفؤد التوقد).(٣)

والفؤاد: القلب، والجمع أفئدة.(٤) وعلى هذا فاللفظان مترادفان في المعنى.

وسّمي القلب بالفؤاد لتوقده وحرارته.(٥)

قال الراغب: (الفؤاد كالقلب، لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد، أي التوقد).(٦)

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة، ط١، المكتب الإسلامي: (١/ ١٠٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٧/ ٤٢٩) (رواه الطبراني بأسانيد رجال أحدها ثقات)، ورواه الحاكم في المستدرك: (٢/ ٣١٧) وصححه، ووافقه الذهبي، كما صححه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٥/ ٢٨١)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ١٩٧).

(٢) مقاييس اللغة: (ص: ٨٠٤).

(٣) لسان العرب: (٥/ ٣٣٣٤)، وانظر: ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٤٤٠).

(٤) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٠٥)، الصحاح: (١/ ٢٠٤)، النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤٠٥)، عمدة القاريء: (١/ ٢٩٨)، لسان العرب: (٥/ ٣٣٣٤ - ٣٧١٤)، ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٤٤٠)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢١٨، ٢٨٨)، الكليات: (٣/ ٣٥٥).

(٥) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٠٥)، لسان العرب: (٥/ ٣٣٣٤)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢١٨).

(٦) المفردات: (ص: ٣٧٢).

هذا القول بأن الفؤاد بمعنى القلب هو الظاهر.

قال في اللسان: (رأيت بعض العرب يسمي لحمة القلب كلها، شحمها وحجابها، قلبًا وفؤادًا، ولم أرهم يفرقون بينهما).(١)

وهناك من يفرق بين القلب والفؤاد في اتجاهين متقابلين:

الأول: أن القلب أخص من الفؤاد، ودائرة الفؤاد أعم.

قال في اللسان: (القلب مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط(٢)).(٣)

والقلب على هذا جزء من الفؤاد.

وقال ابن الأثير(٤): (الفؤاد القلب، وقيل وسطه، وقيل الفؤاد غشاء القلب، والقلب حبته وسويداؤه).(٥)

---

(١) لسان العرب: (٥/ ٣٧١٤)، من كلام الأزهري: (قال: ولا أنكر أن يكون القلب هي العلقة السوداء في جوفه).

(٢) النياط: (عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين) ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ٤٦٠)، وانظر: غريب الحديث لأبي سليمان الخطابي، ط دار الفكر: (١/ ٢٣٤)، التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٤١).

(٣) لسان العرب: (٥/ ٣٧١٤).

(٤) هو المبارك بن محمد بن محمد، مجد الدين أبو السعادات، ابن الأثير، الشيباني الجزري الموصلي، محدث لغوي علامة، من مصنفاته جامع الأصول، والنهاية في غريب الحديث، توفي سنة ست وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣١٨٢)، الأعلام: (٥/ ٢٧٢).

(٥) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤٠٥)، وانظر: معالم السنن: (٥/ ٣٥٩)، لسان العرب: (٥/ ٣٣٣٤)، ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٤٤٠، ٦٧١)، قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي، ط٢، دار صادر: (٢/ ١٠٢)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢١٨، ٢٨٨)، الكليات: (٣/ ٣٥٥).

وذكر ابن الجوزي أن القلب (مستكن في الفؤاد).(١)

وقال القرطبي: (الفؤاد محل القلب).(٢)

واستدل بعض القائلين بهذا القول بحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوبًا وأرق أفئدة...].(٣)

إذ وصف الحديث القلوب باللين والأفئدة بالرقة، مما يشير إلى افتراقهما في المعنى، والى أن الفؤاد غشاء للقلب.(٤)

قال في الفتح: (لأن الفؤاد غشاء القلب، فإذا رق نفذ القول وخلص إلى ما وراءه، وإذا غلظ بعد وصوله إلى داخل).(٥)

وقال ابن الصلاح(٦) في توجيه المسألة: (المشهور أن الفؤاد هو القلب،

---

(١) زاد المسير: (١/ ٢٢).

(٢) تفسير القرطبي: (١/ ١٣٣)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن: (٤/ ١٥٩٤)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه: (١/ ٧٣).

(٤) انظر: نوادر الأصول: (٤/ ١٢٠)، النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٩٦)، الكليات: (٣/ ٣٥٥).

(٥) فتح الباري: (١٦/ ٢٢٥)، وانظر: (١٣/ ٨٥) ط دار الفكر، غريب الحديث للخطابي: (١/ ١٩٦).

(٦) هو عثمان بن عبد الرحمن (صلاح الدين) بن عثمان، تقي الدين، أبو عمرو الكردي الشهرزوري الموصلي الشافعي، المعروف بابن الصلاح، حافظ علامة، من كبار الأئمة، متبحر في الأصول والفروع، صاحب وقار وفصاحة، وورع وعبادة، من مصنفاته: معرفة علوم الحديث، وأدب المفتي والمستفتي، توفي سنة ثلاث وأربعين وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٦٥٩ - ٢٦٦٠).

فعلى هذا يكون قد كرر ذكر القلب مرتين بلفظين، وهو أولى من تكريره بلفظ واحد.

وقيل الفؤاد غير القلب.(١) وهو عين القلب، وقيل الفؤاد باطن القلب، وقيل هو غشاء القلب).(٢)

الثاني: أن الفؤاد أخص من القلب، ودائرة القلب أعمّ.

فالفؤاد على هذا القول باطن القلب(٣)، أو وسط القلب(٤)، وعلاقته بالقلب كعلاقة القلب بالصدر(٥)، ومن ثمّ فهو يمثل الدائرة الأصغر والأعمق ضمن دوائر النفس.(٦)

وعلى كلٍّ فإن عددًا من المفسرين يرى أن الفؤاد يعبّر به عن القلب في آيات الكتاب العزيز، وكثيرًا ما يفسرون لفظ الفؤاد في مواضعه بالقلب.(٧)

---

(١) انظر: وسائل الإدراك في القرآن الكريم: (ص: ٦١- ٦٥).

(٢) صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢١٤)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٣٣-٣٤)، النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٩٦)، فيض القدير: (١/ ٩٣).

(٣) انظر: مشارق الأنوار: (١/ ٢٩٨)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٣٤)، الكليات: (٣/ ٣٥٥).

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤٠٥)، لسان العرب: (٥/ ٣٣٣٤).

(٥) انظر: روح المعاني: (١٤/ ٢٠٢)، فتح القدير: (٣/ ١٢٨).

(٦) انظر: الأخلاق الإسلامية و أسسها: (١/ ٢١٢، ٢١٤، ٢٨٤).

(٧) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٥٢)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٢٠١، ٤٠٠)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٥٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٥/ ١٥٣)، زاد المسير: (٧/ ٣٨٦)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣٢، ١٦/ ٢٠٨، ١٨/ ٢١٩)، نظم الدرر: (٢/ ٦٩٦)، روح المعاني: (١٥/ ٧٥، ٢٩/ ٢٠)، فتح القدير: (٥/ ٢٦٤).

٦ – الصدر وعلاقته بالقلب:

لفظ الصدر في أصله اللغوي يطلق على معنيين:

الأول: الصدر المقابل للورد، يقال: صدر عن الماء، أي رجع عنه، وصدر عن البلد، إذا وردها ثم شخص عنها وانصرف.

والثاني: الجارحة المعروفة في الإنسان، والجمع صدور.

ثم أطلق لفظ الصدر على مقدم كل شيء وأوله، وعلى الطائفة من الشيء. يقال: صدر المجلس، وصدر الأمر، وصدر النهار.[1]

والصدر أعمّ من القلب، إذ هو شامل له، ومحل له وموضع، كما صرّحت بذلك الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ولذا يعبّر بالصدر عن القلب في كثير من الآيات المتضمنة لهذا اللفظ في القرآن الكريم.[2]

ولابن القيم رأي في العلاقة بين الصدر والقلب أورده في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥].

يقول ابن القيم: (تأمل السّر في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٥٦٤)، لسان العرب: (٤/ ٢٤١١)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٨٠٤).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ١٠١)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣٢ – ١٣٣، ١٠/ ٤٢)، روح المعاني: (٢٤/ ٧٨).

صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل في قلوبهم.

والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمع في الصدر، ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليزله. ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود).[1]

ويرى بعض المعاصرين أن الصدر يمثل دائرة من دوائر النفس، أعم من دائرة القلب، فإذا أطلق لفظ الصدر في القرآن الكريم فقد يكون المراد عامة الصدر فيدخل تحته دائرة القلب، وقد يكون المراد ما يختص بدائرة القلب، وقد يكون المراد ما بقي تحت عنوان الصدر من وراء دائرة القلب.[2]

وعلى هذا الرأي يمكن أن يكون هناك معان تختص بالصدر دون القلب والعلم عند الله تعالى.

٧ – العقل وعلاقته بالقلب:

- **قال أهل اللغة:**

أصل العقل الحبس، مأخوذ من عقلت البعير، إذا جمعت قوائمه. والجمع عقول.

يقال: عقل الشيء، يعقله، عقلا: فهمه، فهو عاقل، وعقول.

(١) تفسير المعوذتين لابن القيم، ط٦، المطبعة السلفية: (٦٨)، وانظر: فتوح الغيب لعبد القادر الجيلاني، ط٢، دار القادري: (ص: ١٣٢)، أضواء البيان: (٩/ ٦٧٠ – ٦٧٢).

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها: (١/ ٢١٢ – ٢١٣، ٢٣٩)، المفردات: (ص: ٢٧٩ – ٢٨٠)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٣٩٢- ٣٩٣).

والعقل نقيض الجهل. يقال: عقل كذا، إذا عرف ما كان يجهله من قبل، أو انزجر عما كان يفعله.

والعقل ضد الحمق. يقال: رجل عاقل، أي جامع لأمره ورأيه، ورجل عقول، إذا كان حسن الفهم، وافر العقل.

وسمي العقل عقلًا تشبيها بعقل الناقة، لأن العقل يحبس الإنسان عن الإقدام على شهواته إذا قبحت، ويمنعه من ذميم القول والفعل، كما يمنع العقال الناقة من الشرود إذا نفرت.(١)

- ولم يرد لفظ العقل بهذا الاسم في القران الكريم، لكنه ورد بصيغة الفعل (عقل، يعقل..)(٢) في مواضع كثيرة، منها قول الله تعالى:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

- ويسمّى العقل لُبّا، والجمع ألباب، يقال: رجل لبيب، أي عاقل،

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٦٤٧)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٤ – ٣٠٦)، لسان العرب: (٤/ ٣٠٤٦)، ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٢٧٧)، أدب الدنيا والدين للماوردي، ط٦، دار اقرأ: (ص: ٩).

(٢) انظر: الإنسان في ضوء القرآن لعبد الرحمن المطرودي، ط١٤١٠هـ (ص: ٢٤٢ – ٢٤٣)، ووسائل الإدراك في القرآن الكريم: (ص: ١٥).

ولبُّ كل شي خالصه وأجوده.(١)

وقيل: اللب ما زكا من العقل، وعلى هذا فكل لب عقلا، وليس كل عقل لُبّا.(٢)

ومن مواضع لفظ اللب في الكتاب العزيز قول الله تعالى:

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

ويسمّى العقل أيضًا حِجْرًا، لأنه يحجر صاحبه، ويمنعه من الوقوع فيما لا ينبغي، والجمع حجور(٣) ومنه قول الله تعالى:

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥].

ويسمى كذلك نُهْية، لأنه ينهى عن القبيح من القول والفعل، والجمع نُهى.(٤)

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٩٩ – ٩٠٠)، الصحاح: (١/ ٢١٦)، المفردات: (ص: ٤٤٩)، لسان العرب: (٥/ ٣٩٧٩)، ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ١١٤)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤١٣)، الكليات: (٣/ ٢١٩).

(٢) انظر: المفردات: (ص: ٤٤٩)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤١٤).

(٣) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٢٧٨)، المفردات: (ص: ١١٦)، ترتيب القاموس المحيط: (١/ ٥٩٢)، الكليات: (٣/ ٢١٩).

(٤) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩٦٣)، المفردات: (ص: ٥٠٩)، ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ٤٥٤).

ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤، ١٢٨].

• وقد اختلف أهل العلم في حدّ العقل، فعرفوه بتعاريف كثيرة[١]، بعضها متقارب.

ومن ذلك أن العقل غريزة[٢]، أو آلة التمييز والإدراك[٣]، أو ما يحصل به الميز بين المعلومات[٤]، أو هو بعض العلوم الضرورية يستعد بها لفهم دقيق العلوم[٥]، أو غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه، لا يمكن وصفه وإنما يعرف بأثره، وعنه تكون المعرفة[٦]، أو هو نور معنوي في باطن الإنسان،

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني: (ص: ١٩٦ –١٩٨)، أدب الدنيا والدين: (ص: ٨-١٠)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٧٩ –٨٢)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٤ – ٣٠٥)، خلق الإنسان: (ص: ١٦٦)، الكليات: (٣/ ٢١٦ – ٢١٨)، تفسير القرطبي: (١/ ٢٥١ – ٢٥٢)، العقل للمحاسبي، ط١، دار الكتب العلمية: (ص: ١٦٩ – ١٦٢).

(٢) وهو مروي عن أحمد وغيره. انظر: المختصر لابن اللحام: (ص: ٣٧)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٨٠)، الاستقامة لابن تيمية، ط١، دار ابن حزم: (٢/ ١٦١ – ١٦٢)، مجموع الفتاوى: (٩/ ٢٨٧، ١٨/ ٣٣٨).

(٣) وهو مروي عن الشافعي. انظر: شرح الكوكب المنير: (١/ ٨٠)، الكليات: (٣/ ٢١٦).

(٤) انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٤)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٧٩)، الكليات: (٣/ ٢١٦-٢١٧).

(٥) انظر: المختصر: (ص: ٣٧)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٨١)، أدب الدنيا والدين: (ص: ٩)، الاستقامة: (٢/ ١٦٢).

(٦) هذا معنى قول المحاسبي في كتاب العقل: (ص: ١٦٩ – ١٧٠)، وهو حقيقة العقل عنده، ثم ذكر معنيين للعقل في لغة العرب، كائنين عن المعنى الأصلي، ويطلق عليهما العلماء عقلًا، أحدهما: الفهم والبيان لإصابة المعنى، والثاني: البصيرة بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة، ومنه العقل عن الله تعالى. انظر: (ص:١٧٢-١٧٣).

يبصر به القلب ما غاب عن الحواس بتأمله وتفكيره بتوفيق الله تعالى، بعد انتهاء درك الحواس.[١]

قال ابن الجوزي: (والتحقيق في هذا أن يقال: العقل غريزة، كأنها نور يقذف في القلب، فيستعدّ لإدراك الأشياء، فيعلم جواز الجائزات واستحالة المستحيلات، ويتلمح عواقب الأمور، وذلك النور يقل ويكثر، وإذا قوي ذلك النور قمع بملاحظة العواقب عاجل الهوى).[٢]

واعتبر الراغب أن العقل يطلق على القوة العقلية كما يطلق على ثمرتها من العلم المستفاد.

يقول الراغب: (العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل، وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول).[٣]

وقسم الماوردي[٤] العقل إلى غريزي ومكتسب، يعبّر الأول منهما عن

---

(١) الكليات: (٣/ ٢١٧)، وانظر: (٢١٦).

(٢) ذم الهوى لابن الجوزي، ط١، دار الجيل: (ص: ١٥).

(٣) المفردات: (ص: ٣٤٥)، ومثل ذلك قاله ابن تيمية حين ذكر أن العقل في القلب مثل البصر في العين، يراد به الإدراك تارة، ويراد به القوة التي يحصل بها الإدراك تارة أخرى. انظر: الاستقامة: (٢/ ١٦٢)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٣٩، ٩/ ٢٨٦ –٢٨٧، ١٨/ ٣٣٨)، تفسير الفخر الرازي: (٥/ ٩)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٨٥)، الكليات: (٣/ ٢١٧).

(٤) هو علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن البصري الماوردي الشافعي، إمام علامة، قاضي القضاة في عصره، صنف في الفقه والتفسير والأدب، من مصنفاته: أدب الدنيا والدين، والأحكام السلطانية، توفي سنة خمسين وأربع مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٨٣٣ – ٢٨٣٤)، الأعلام: (٤/ ٣٢٧).

حقيقة العقل، سواء ما كان منه نتيجة لإدراك الحواس، أو كان مبتدأ في النفوس، بينما يمثل العقل المكتسب ثمرة للعقل الغريزي، ونماؤه يتحقق بكثرة الاستعمال، وانتفاء الموانع من غلبة الهوى والشهوة، كما يتحقق بفرط الذكاء وحسن الفطنة.[1]

ويرى بعض المعاصرين أن العقل عقلان، عقل علمي، وعقل إرادي، وأن العقل الإرادي يستند إلى نتائج العقل العلمي، وإلا جنح عن الصواب، وأن العقل العلمي قد لا يقترن بالعقل الإرادي، إذ قد يتوصل الإنسان إلى معرفة علمية صحيحة ويعقلها، ولكنه يعجز عن ضبط نفسه عن أهوائها المتناقضة مع هذا العلم الحقّ.[2]

ويبقى كلام الغزالي من أحسن ما ورد في تحرير المراد من لفظ العقل، حيث يجمع بين كثير من الأقوال في إطار واحد يكشف حقيقة العقل بإطلاقاته المتعددة، إذ يرى أن العقل يطلق بالاشتراك على أربعة معان[3]:

الأول: الوصف الذي يميز الإنسان عن البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الفكرية، وبمعنى آخر الغريزة التي بها يتهيأ لإدراك العلوم النظرية.

(١) انظر: أدب الدنيا والدين: (ص: ٨ – ١١).

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها: (١/ ٢٩٦ – ٢٩٧)، إحياء علوم الدين: (٣/ ١٠ – ١١).

(٣) إحياء علوم الدين: (١/ ١١٨ – ١١٩)، وانظر: (٣/ ٦، ١٠ – ١١).

الثاني: العلوم الضرورية، كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وذلك مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد، وهي علوم تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز.

الثالث: العلوم المستفادة من التجارب، فمن حنكته التجارب يقال عنه إنه عاقل في العادة، فهذا نوع من العلوم يسمى عقلاً.

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقهر الشهوة الداعية إلى اللذائذ المضرّة، ومن تحصّل له ذلك يسمّى عاقلًا، من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب المصلحة لا بحكم الشهوة.

والمعنى الأول هو الأصل، والثاني فرع قريب منه، والثالث فرع عن الأول والثاني، والرابع الثمرة القصوى. فالأولان بالطبع، والأخيران بالاكتساب، وهذا معنى قول القائل:

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع[1]

• **واختلف أهل العلم أيضًا في محل العقل على قولين[2]:**

(١) منسوب إلى علي ﵁ انظر: المفردات: (ص: ٣٤٥)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٨٥).

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين: (ص: ٨)، ذم الهوى: (ص: ١٥)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٨٣ – ٨٥)، خلق الإنسان: (ص: ١٦٨ – ١٦٩)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٥)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٦٨، ١١/ ٢٩)، تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٧ – ١٦٨)، تفسير القرطبي: (١/ ٢٥٢)، مفتاح دار السعادة: (٢٣٠ – ٢٣١).

القول الأول: أن محله القلب.

وهو قول كثير من الشافعية والمالكية والحنابلة، ومنقول عن بعض الفلاسفة والأطباء المتقدمين(١)، ونسبه القرطبي إلى الأكثرين.(٢)

وممن قال به من المفسرين ابن عطية(٣)، وابن جزي(٤)، والرازي(٥)، والقرطبي(٦)، وابن الجوزي(٧)، وابن كثير(٨)، ومحمد الأمين(٩).

ومن أدلتهم ما يلي:

١- قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

ووجه الاستدلال أن الآية الكريمة صرحت بأن وظيفة القلب العقل،

---

(١) انظر: ذم الهوى: (ص: ١٥)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٥)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٦٨، ١١/ ٢٩)، المختصر: (ص: ٣٨)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٨٣)، التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٣)، عمدة القاري: (١/ ٣٠٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١/ ١٣٣).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٧).

(٤) انظر: التسهيل: (٣/ ٤٣).

(٥) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٧).

(٦) انظر: تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٢، ١٣/ ١٦٩).

(٧) انظر: زاد المسير: (١/ ٢٢).

(٨) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٧٩).

(٩) انظر: أضواء البيان: (٥/ ٧١٥).

كما أن وظيفة الأذن السمع.

قال ابن عطية: (هذه الآية تقتضي أن العقل في القلب).(١)

وقال أبو حيان: (إسناد العقل إلى القلب يدل على أنه محله).(٢)

وبنحوه قال جمع من أهل التفسير وغيرهم.(٣)

٢- قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وجه الاستدلال أن الآية الكريمة أضافت منفعة كل عضو إليه، فجعلت منفعة الفقه مختصة بالقلب، ومنفعة البصر مختصة بالعين، ومنفعة السمع مختصة بالأذن، وذلك في سياق الذم لأهل الكفر الذين لم ينتفعوا بهذه الوسائل في إدراك ما ينفعهم من الخير والهدى.

والفقه هو العلم والفهم، فثبت بذلك أن العقل في القلب.(٤)

---

(١) تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٧)، وانظر: فتح الرحمن: (ص: ٢٢٣).

(٢) تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٧٨).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ٤٠٠)، التسهيل: (٣/ ٤٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٣/ ٤٥، ٢٤/ ١٦)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٢، ١٣/ ١٦٩)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٦)، روح المعاني: (١٧/ ١٦٨)، أدب الدنيا والدين: (ص: ١٠)، شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٩)، مجموع الفتاوى: (٩/ ٣٠٣، ٣١١)، مفتاح دار السعادة: (ص: ٢٣١)، التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٣)، فتح الباري: (١/ ٢١١)، أضواء البيان: (٥/ ٧١٥).

(٤) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢/ ٥٣، ١٥/ ٦٤، ٢٤/ ١٦٧)، مجموع الفتاوى: (٩/ ٣١٠)، بدائع الفوائد: (٣/ ١٧١)، الوافي في شرح الأربعين النووية: (ص: ٣٤).

٣- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال بعض المفسرين: أي عقل[١]، عبر بالقلب عنه لأنه موضعه ومكان استقراره، مما يدل على أن القلب محل العقل.[٢]

وهو تعبير تستعمله العرب.

قال بعض أهل اللغة: المعقول ما تعقله بقلبك، ولب الرجل ما جعل في قلبه من العقل، والعقل القلب، والقلب العقل، وقلب عقول: أي فَهِم، وما قلبك معك، وأين ذهب قلبك: أي عقلك.[٣]

وعن ابن عباس ﷺ لما سئل: أنّى أصبت هذا العلم؟ قال: (لسان سؤول وقلب عقول).[٤]

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء: (٣/ ٨٠)، تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٧)، تفسير غريب القرآن: (ص: ٤١٩)، تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٧)، تفسير القرطبي: (٩/ ١٨٦، ١٧/ ١٧)، تفسير البيضاوي: (١/ ٢٣ - ٢٤)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٢٩)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٨٨)، فتح الرحمن: (ص: ٣٢٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١/ ١٣٢ - ١٣٣، ١٧/ ١٧)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٨٣)، ذم الهوى: (ص: ١٥)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٥)، شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٩)، فتح الباري: (١/ ٢١١)، مفتاح دار السعادة: (ص: ٢٣١)، التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٣).

(٣) انظر: معاني القرآن للفراء: (٣/ ٨٠)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٤)، لسان العرب: (٤/ ٣٠٤٦، ٥/ ٣٧١٤، ٣٩٧٩)، ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٦٧١)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٨٨)، الكليات: (٤/ ٦).

(٤) صفة الصفوة: (١/ ٧٤٩)، وقد أثنى عليه عمر ﷺ بذلك أيضًا انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٤١٢)، الإصابة: (٤/ ١٢٥).

وقد فسّر ابن كثير وغيره لفظ الأفئدة بالعقول في عدد من آيات الكتاب العزيز.[١]

٤ - أضاف القرآن الكريم الصفات المضادة للعلم إلى القلب، ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧].

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فهذه الآيات الكريمات تفيد أن الجهل محله القلب، مما يشير بدلالة المفهوم إلى أن موضع العقل والفهم هو القلب.[٢]

٥- حديث النعمان بن بشير ﷺ عن رسول الله ﷺ، وفيه: [ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب].[٣]

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٧٩، ٣/ ٢٥٢، ٤٥٨، ٤/ ٤٠٠)، تفسير السعدي: (٣/ ٣٦٩، ٥/ ١٧)، وقد فسر السمرقندي القلوب بالعقول في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾، تفسير السمرقندي، (بحر العلوم) طبعة دار الفكر: (٢/ ٤٦٣)، وكذلك فعل الزركشي في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وذلك باعتبار أن القلب محل العقل، فعبر به عنه. انظر: البرهان في علوم القرآن، ط٢، دار المعرفة: (٢/ ٢٨١).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٧).

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه: (١/ ٢٩)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات: (٢/ ١٢٢٠).

استدل ابن حجر وغيره بهذا الحديث: (على أن العقل في القلب)[١] باعتبار أن الرسول ﷺ جعل صلاح الجسد وفساده تابعًا للقلب.[٢]

القول الثاني: أن محله الرأس (الدماغ).

وهو اختيار الأحناف، ومروي عن أحمد[٣]، ومنقول عن بعض الفلاسفة والأطباء قديمًا، وهو المشهور في علم الطب الحديث.[٤]

ومن أدلتهم ما يلي:

١. أن الدماغ إذا تعرض لآفة أو ضربة قوية قد تضطرب قوى الإنسان، ويتأثر معها إدراكه وتمييزه، فيختل العقل بفساد الدماغ.

٢. أن الحواس التي هي آلات الإدراك نافذة إلى الدماغ.

---

(١) فتح الباري: (١/ ٢١١)، وانظر: عمدة القاري: (١/ ٣٠٢).

(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٥ - ٣٠٦)، شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٩، ١٦/ ١٢١)، الوافي في شرح الأربعين النووية: (ص: ٣٤).

(٣) هو أحمد بن حنبل بن هلال، أبو عبد الله الشيباني، المروزي ثم البغدادي، محدث فقيه، أحد الأئمة الأعلام، مجمع على إمامته وحفظه، وزهده وورعه، وعلمه وفقهه، من مصنفاته: المسند، وفضائل الصحابة، توفي سنة أربع وستين ومائة. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ١٨٤ - ١٨٧)، سير أعلام النبلاء: (١/ ٩٢١ - ٩٧٠).

(٤) انظر: المختصر: (ص: ٣٨)، خلق الإنسان: (ص: ١٦٨ - ١٦٩)، ذم الهوى: (ص: ١٥)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٥)، شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٩)، مجموع الفتاوى: (٩/ ٣٠٣)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٨٤)، التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٣)، عمدة القاري: (١/ ٣٠٢)، الوافي في شرح الأربعين النووية: (ص: ٣٥)، آيات الله في النفس: (ص: ١٣٧ - ١٣٨).

٣. أن الأعصاب التي هي آلات الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ.

٤. أن الرأس هو الذي يعالج عند اضطراب الفكر.

٥. أن العرب تقول فيمن يراد وصفه بكمال العقل: إنه وافر الدماغ، وفيمن يراد وصفه بقلة العقل وضعفه: إنه خفيف الرأس، خفيف الدماغ.[١]

ولا ريب أن القول الأول أقوى من حيث الاستدلال، غير أن الجمع بين القولين ممكن، بحيث لا يكون القول بأن العقل في الدماغ معارضًا للقول بأن العقل من وظائف القلب.

ومن ثم يمكن القول بأن للعقل تعلقا بالدماغ وبالقلب في آن واحد، وذلك باعتبارهما مصدرين، أولهما قريب فرعي مباشر، والآخر يمثل الأصل المؤثر والمركز الرئيس، والذي تنبعث منه إرادات الفكر والتصور، والعلم والفقه، والعمل والتطبيق، فمركز التفكير والنظر في الرأس يتلقى التوجيه من القلب، وينتظر الأمر، ثم يعود إليه بالنتائج ليقرر القلب ويريد.

---

(١) انظر: خلق الإنسان: (ص: ١٦٨ - ١٦٩)، أدب الدنيا والدين: (ص: ٨)، تفسير الفخر الرازي: (٤/ ١٦٧)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٦)، شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٩)، التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٣)، مفتاح دار السعادة: (ص: ٢٣١)، عمدة القاري: (١/ ٣٠٢).

وقد عرض ابن القيم لهذه المسألة، بعد ما ذكر أن الدماغ محل الحفظ والتأمل والتذكر، وإثر عرضه للرأيين قال: (والتحقيق أن أصله ومادته من القلب، وينتهي إلى الدماغ).(١)

وقال في موضع آخر: (الصواب أن مبدأه ومنشأه من القلب، وفروعه وثمرته في الرأس).(٢)

ويرى بعض المعاصرين أن ما يتعلق بالدماغ هو العقل العلمي، وما يتعلق بالقلب هو العقل الإرادي.(٣)

ولعل هذا التقسيم منبثق عن قول ابن تيمية بأن: (مبدأ الفكر والنظر في الدماغ، ومبدأ الإرادة في القلب، والعقل يراد به العلم، ويراد به العمل، فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة، وأصل الإرادة في القلب، والمريد لا يكون مريدًا إلا بعد تصور المراد، فلابد أن يكون القلب متصورًا، فيكون منه هذا وهذا، ويبتدئ ذلك من الدماغ، وآثاره صاعدة إلى الدماغ، فمنه المبتدأ وإليه الانتهاء، وكلا القولين له وجه صحيح).(٤)

---

(١) التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٣).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص: ٢٣١).

(٣) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها: (١/ ٢١٢، ٢٨٩).

(٤) مجموع الفتاوى: (٩/ ٣٠٤)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٧ – ١٦٨)، روح المعاني: (١/ ١٣٥، ١٧/ ١٦٩).

وبهذا الجمع بين الأقوال يمكننا أن نعي كيف يفلح البعض في اكتساب عقل الفكر والتأمل، فيبدعون فيه، ويتحقق لهم فيه التمكين، استثمارًا لسنن الله تعالى في الكون، بما يفيدهم علمًا دنيويًا صرفًا، ونفعًا ماديًا مجردًا، لكنهم يخفقون في اكتساب عقل الاهتداء، حين لا تتجه قلوبهم إلى إرادة الحق، وقصد الهدى، وحين يستنكفون عن الانتفاع بملكة التفكير لديهم في ولوج طريق الإيمان، والتزام منهج الله تعالى. فحصّلوا عقل الفكر، وفقدوا عقل الهداية، والعلم عند الله تعالى.

المبحث الثاني
لفظ القلب في القرآن الكريم

ورد لفظ القلب في القرآن الكريم اثنتين وثلاثين ومائة مرة، وذلك في أربع وعشرين ومائة آية، ضمن ثلاث وأربعين سورة.

وبالتأمل في تلك الآيات الكريمات باعتبارات متعددة، يمكن استنتاج بعض الملامح الكاشفة لسياقات لفظ القلب في القرآن على سبيل الإجمال، ومن ذلك ما يلي:

١ - ورد لفظ القلب بصيغة الإفراد تسع عشرة مرة، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

وورد بصيغة الجمع في بقية المواضع، ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة: ١١٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧٠].

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٠].[1]

ويستثنى من ذلك موضع واحد[2] ورد فيه لفظ القلب بصيغة التثنية، هو قول الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤].

والنفي في هذه الآية الكريمة لتقرير أن القلب في جوف المرء لا يتعدد، إنما هو قلب واحد، يقبل الإيمان، أو يقبل الكفر، ولا يجمع بين الضدين من

(١) ﴿ وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ ـ كما قال ابن قتيبة ـ (الذين كان النبي ﷺ يتألفهم على الإسلام) تفسير غريب القرآن: (ص: ١٨٩)، وانظر تفسير البغوي: (٢/ ٣٠٣ – ٣٠٤)، تفسير القرطبي: (٨/ ١١٣ – ١١٥).

(٢) هناك موضع آخر ورد فيه لفظ القلب بصيغة الجمع، والمراد به المثنى، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم: ٤]، إذ سياق الآية بلفظ التثنية، والمخاطب بها حفصة وعائشة رضي الله عنهما، تتضمن حثهما على التوبة، والمعنى: إن تتوبا إلى الله كان في ذلك الخير لكما، بعد أن صغت قلوبكما، أي مالت عن الحق، وعدلت عن الصواب، وذلك في واقعة مخصوصة ذكرها المفسرون. انظر: تفسير الطبري: (٢٨/ ١٥٥ – ١٥٨)، زاد المسير: (٨/ ٤٩ – ٥٠)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٨٦ – ٣٨٨)، أسباب النزول: (ص: ٣٧٣ –٣٧٥)، لباب النقول: (ص: ٢١٧)، والتعبير بالجمع على هذا النحو استعمال للعرب معروف، قال القرطبي: (ومن شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما، لأنه لا يشكل)، تفسير القرطبي: (١٨/ ١٢٤)، وقال الحسين بن ريان: (إنما جمع القلوب لئلا يجتمع في الكلمة الواحدة ما يدل على التثنية مرتين، لأن المضاف والمضاف إليه بمنزلة شيء واحد)، الروض الريان في أسئلة القرآن: (٢/ ٤٩٩)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٨/ ٢٩٠ – ٢٩١)، وقال ابن الجوزي: (إنما جعل القلبين جماعة لأن كل اثنين فما فوقهما جماعة)، زاد المسير: (٨/ ٥٢)، وانظر أضواء البيان: (٨/ ٣٧٥).

أفعاله في آن.

قال ابن العربي[1]: (المعنى في الآية أنه لا يجتمع في القلب الكفر والإيمان).[2]

وفي ذلك طعن وذم لأهل النفاق، الذين يجمعون بين الإسلام في الظاهر، والكفر في الباطن، وردٌّ على من زعم منهم بأن لرسول الله ﷺ قلبين، أحدهما معهم، والثاني مع أصحابه.[3]

واختار ابن جرير أن الآية تردّ على رجل من قريش كان يسمى ذا القلبين لدهائه وذكائه، وكان يزعم أن له قلبين يفهم بكل واحد منهما أفضل مما يفهم محمد ، فنزلت الآية تكذيبًا لقوله.[4]

٢ – ورد لفظ القلب مضافا إلى الملائكة أو بعض أولي العزم من الرسل عليهم السلام، وذلك في سبع آيات كريمات، أربع منهن تخاطب رسولنا

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد، أبو بكر ابن العربي، الأندلسي الأشبيلي، المالكي، إمام علامة حافظ، كان ثاقب الذهن فصيحًا بليغًا، ولي قضاء أشبيلية، من مصنفاته: أحكام القرآن، والعواصم من القواصم، توفي سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٥٣١ – ٣٥٣٣)، الأعلام: (٦/ ٢٣٠).

(٢) أحكام القرآن: (٣/ ١٥٠٤)، وانظر: روضة المحبين: (ص: ٢٠٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢١/ ١١٨)، زاد المسير: (٦/ ٨٠)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٧٨ – ٧٩)، روح المعاني: (٢١/ ١١٤)، لباب النقول: (ص: ١٧١).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢١/ ١١٩)، تفسير البغوي: (٣/ ٥٠٥ – ٥٠٦)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢١١)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٦٦)، وذكر المفسرون أنه جميل بن معمر الجمحي. انظر: أسباب النزول: (ص: ٢٩٤)، لباب النقول: (ص: ١٧١)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٨٨).

ﷺ، واثنتان في شأن إبراهيم عليه السلام، وواحدة في شأن الملائكة عليهم السلام.

يقول الله تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

تقرر الآية الكريمة أن جبريل عليه السلام هو من شرفه الله سبحانه بتنزيل القرآن على قلب رسول الله ﷺ.

ومثلها قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

والتعبير بالتنزيل على القلب فيه معنى الوعد لرسول الله ﷺ بأنه سيحفظ ما يتنزل عليه من كلام ربه جل شأنه فلا ينساه، وسيعيه بقلبه ويفهمه ويتمكن منه، مصونًا من أي تبديل أو تغيير.(١)

قال الرازي: (جعل الله الروح نازلًا به على قلبك، أي فهمك إياه، وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى).(٢)

ويقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤].

والآية الكريمة تتضمن الرد على اتهام أهل الكفر لرسول الله ﷺ

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٦)، تفسير القرطبي: (١٣/ ٩٣).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٥)، وانظر: (٣/ ٢١٨).

بالافتراء والكذب في قضية الوحي الإلهي، إذ لو كان الاتهام صحيحًا لعاقبه الله عز وجل بالختم على قلبه.

ومن ثم فإن مفهوم الآية يؤكد أن قلب رسول الله ﷺ محفوظ برعاية الله سبحانه.

والآية الرابعة قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومفهوم الآية الكريمة يفيد وصف رسول الله ﷺ بلين القلب ورقته.

وأما الآيتان في شأن إبراهيم عليه السلام فهما قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤].

تذكر الآية الأولى طلب إبراهيم عليه السلام من ربه جل وعلا مشاهدة كيفية إحياء الموتى، يبغي من وراء ذلك زيادة إيمان، ورفعة يقين.

وتثني الآية الثانية عليه ﷺ، وذلك بوصف قلبه بالسلامة من كل شر، والبراءة من كل عيب وسوء.

أما الآية في شأن الملائكة عليهم السلام فهي قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وهي مقررة لحال الملائكة من الخوف والوجل، والمهابة والتعظيم، وهم ينتظرون وحي ربهم سبحانه.

٣ – ورد لفظ القلب في مواضع من القران الكريم في سياق تقرير كمال قدرة الله جل شأنه في خلقه، وتقرير كمال علم الله جل وعلا بعباده، وإحاطته سبحانه بما يضمرونه في قلوبهم، ومن ذلك قول الله تعالى في شأن كمال القدرة الإلهية:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ (١) إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ومن ذلك أيضًا قول الله تعالى في شأن كمال العلم الإلهي:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

---

(١) أي جمعهم على الإيمان والهدى، فائتلفت القلوب بعد تفرق وبغضاء، والتأمت بعد عداوة وشتات، وهذا التأليف بين القلوب آية له ﷺ لما هو معلوم بين العرب من ثأر وعصبية، وأنفة وحمية، خصوصًا ما كان بين الأوس والخزرج من خصومة شديدة. انظر: تفسير الطبري: (١٠/ ٣٥-٣٦)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٢٣)، المفردات: (ص: ٣٠)، تفسير القرطبي: (٨/ ٢٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٢٣).

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١].

٤ – ورد لفظ القلب في سياق الحديث عن أصحابه من أهل الإيمان أو الكفر أو النفاق، وذلك في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

فمما ورد في شأن المؤمنين قول الله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ (١)﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

ومما ورد بخصوص الكافرين قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ (٢) ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

أما ما ورد في أهل النفاق فمنه قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ

---

(١) قال الراغب: (الغيظ أشد غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه)، المفردات: (ص: ٣٧١)، وانظر: تفسير البغوي: (٢/ ٢٧٣)، تفسير القرطبي: (٨/ ٥٦).

(٢) المراد بالحمية في الآية أنفة الكفر، وثوران قوة الغضب بالباطل، والمعنى: جعلوا تلك الحمية الجاهلية المؤسسة على الشرك ثابتة راسخة في قلوبهم. انظر: المفردات: (ص: ١٤٠)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٩٠)، التسهيل: (٤/ ٥٥)، فتح القدير: (٥/ ٥٦).

قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥].

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٤].

٥ - في القرآن الكريم اثنتا عشرة آية عرضت للذين في قلوبهم مرض، ومن ذلك ـ على سبيل التمثيل ـ قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٩].

٦- ورد لفظ القلب في عدة مواضع من القرآن الكريم موصوفاً بصفة مدح أو ذم.

ومن الأمثلة على المدح وصف القلب بالطمأنينة في قول الله تعالى:

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

وبالوجل في قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وبالإنابة في قول الله تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣].

وبالمقابل فإن من الأمثلة على وصف القلب بصفة ذم ما جاء في قول الله تعالى:

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢].

وفي قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ(١) مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

وكذلك في قول الله تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر: ١٤].

قال الراغب في معنى ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾: (أي متفرقة).(٢)

والمقصود اليهود والمنافقون، هم في الظاهر على ألفة واجتماع كلمة، لكن قلوبهم في الحقيقة مختلفة متباعدة، والعداواة بينهم حاصلة، لاختلاف أهوائهم، وتعدد مشاربهم في الكفر والضلال.(٣)

---

(١) قرأ أبو عمرو ابن ذكوان بتنوين (قلب) باعتبار أن ما بعده وصف له، وقرأ الباقون بالإضافة دون تنوين. انظر سراج القارئ: (ص: ٣٤٢)، حجة القراءات: (ص: ٦٣٠)، النشر: (٢/ ٤٧٣).

(٢) المفردات: (ص: ٤١١).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٨/ ٤٧)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ١٤٨)، تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٢٩٠)، تفسير القرطبي: (١٨/ ٢٤ – ٢٥).

وفي هذا التعبير القرآني تقوية لأفئدة المؤمنين، وتهوين لما يلاقونه من أنواع الحرب والعداء.

٧ – ورد لفظ القلب في سياق ما قدره الله جل شأنه من مجازاة المؤمنين والكافرين، وذلك في مواضع متعددة من كتاب الله العزيز.

ومن ذلك قول الله تعالى في سياق ثواب المؤمنين على سلوكهم طريق الخير والحق والهدى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ [الكهف: ١٤].

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١].

وفي سياق العقوبة لأهل الكفر والنفاق على سلوكهم طريق الضلال والعناد والإجرام يقول الله جل وعلا: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ [آل عمران: ١٥١].

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٧].

٨ – ورد لفظ القلب مسنداً إليه معانيه القائمة به على سبيل الثناء أو القدح.

فمن الأول قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [أنفال: ٢].

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

ومن الثاني قول الله تعالى:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٩ – ورد لفظ القلب في ثلاث آيات من القرآن الكريم سياقها الدعاء، اثنتان منها تتضمنان الدعاء للمؤمنين، هما قول الله تعالى:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

والثالثة في دعاء نبي الله موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما بلغوا الغاية في العناد والطغيان، وتبين له عليه السلام أن لا مجال لاتجاههم للخير والصلاح.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ

﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وما تضمنه الدعاء عليهم من الشد على قلوبهم هو بمعنى الطبع عليها، فلا تلين للهدى، ولا تنشرح للإيمان.(١)

١٠ – ورد لفظ القلب في أربع آيات كريمات، يعبّر سياقها عن شدة الخوف، ويصوّر مواقف الفزع والاضطراب.

إحدى هذه الآيات في الدنيا، والباقيات في شأن الآخرة.

أما الأولى فهي قول الله تبارك تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

وهو تصوير كاشف لموقف المؤمنين يوم الأحزاب، حين تكالبت عليهم جموع الكفر، فاشتد الحال، وعظم الكرب، ووقع ما أخبر الله جل وعلا ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾.

والمراد أن القلوب لعظم ما أصابها من الاضطراب والروع والخفقان، والفزع من توقع الشدائد، تحرّكت من أماكنها في الصدور.(٢)

قال ابن قتيبة: (أي كادت تبلغ الحلوق من الخوف).(٣)

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ١٥٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٢٩)، تفسير القاسمي: (٩/ ٧٣).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٥/ ١٩٨)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٩٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٧٢).

(٣) تفسير غريب القرآن: (ص: ٣٤٨)، وانظر الروض الريان في أسئلة القرآن: (٢/ ٣٢٧).

وقال القرطبي: (الأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضربانه، أي كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة).(١)

وأما الآيات الثلاث في خبر يوم القيامة فأولاها قول الله جل شأنه:

﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٨].

والمراد قلوب الكفار، يصيبها في ذلك اليوم الوجل والخوف وشدة الاضطراب.(٢)

والثانية قول الله تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وما تضمنته الآية الكريمة من تقلب القلوب وتحولها عن أماكنها هو نتيجة لما يحصل في الآخرة من الأهوال العظيمة والفزع الشديد.(٣)

قال صاحب الأضواء: (في معنى تقلب القلوب والأبصار أقوال متعددة لأهل التفسير، ذكرها القرطبي وغيره(٤)، وأظهرها عندي أن تقلب القلوب هو حركتها من أماكنها من شدة الخوف).(٥)

---

(١) تفسير القرطبي: (١٤/ ٩٥)، تفسير البغوي: (٣/ ٥١٦).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٣١/ ٣٥)، تفسير القرطبي: (١٩/ ٧٦)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٦٧).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٩٥).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢٤٩)، تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ٥ – ٦)، تفسير القرطبي: (١٢/ ١٨٥).

(٥) أضواء البيان: (٦/ ٢٤٠).

واختاره القرطبي.(١)

لكن ابن جرير اختار في تفسيره للآية أن التقلب هنا هو بين الخوف والرجاء، والطمع والحذر، قال: (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب من هوله، بين طمع بالنجاة وحذر من الهلاك).(٢)

والآية الثالثة قول الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ (٣) مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

والمعنى كما ذكر قتادة والسدي(٤) وغيرهما ـ تحركت القلوب عن أماكنها إلى الحناجر من الفزع وعظم الهول، فلا هي تخرج من أبدانهم فيموتوا، ولا ترجع إلى صدورهم فتستقر أحوالهم.(٥)

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١٢/ ١٨٥).

(٢) تفسير الطبري: (١٨/ ١٤٨)، وانظر معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٤٧).

(٣) قال البغوي: (كاظمين) مكروبين ممتلئين خوفًا وحزنًا، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به) تفسير البغوي: (٤/ ٩٥)، وفسره ابن كثير بالسكوت وعدم الكلام. انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٥)، ولا تعارض، إذ السكوت نتيجة لما هم فيه من الكرب والخوف والغم. انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٧/ ٥٠)، المفردات: (ص: ٤٣٤)، أضواء البيان: (٧/ ٨١).

(٤) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، أبو محمد السُّدِّي الحجازي ثم الكوفي، مولى قريش، من أئمة التفسير، توفي سنة سبع وعشرين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ١١٠٩)، تقريب التهذيب: (١/ ٧١ - ٧٢).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٥٢)، معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٦٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٩٤ - ٩٥)، تفسير الفخر الرازي: (٢٧/ ٥٠)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٩٧)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٥)، أضواء البيان: (٧/ ٨٠ - ٨١).

• لفظ الفؤاد ولفظ الصدر

يرد اللفظان في القرآن الكريم مرادًا بهما القلب في الغالب، ولذا تضاف إليهما المعاني المتعلقة بالقلب.(١)

أما لفظ الفؤاد فقد ذكر في القرآن ست عشرة مرة، في خمس عشرة آية، ضمن ثلاث عشرة سورة.

وأما لفظ الصدر فقد ذكر أربعًا وأربعين مرة، في إحدى وأربعين آية، ضمن ثلاثين سورة.

وفيما يلي ذكر بعض تلك الآيات الكريمات التي عبر فيها عن القلب بلفظ الفؤاد أو الصدر، وذلك على سبيل التمثيل:

١- قال الله تعالى في معرض الامتنان على عباده وإقامة الحجة عليهم:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٨، ٢٢/ ٤٥)، تفسير القرطبي: (٩/ ٢٤٤).

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٩].

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣].

والمقصود بالفؤاد في هذه الآيات القلب كما ذكر المفسرون.(١)

٢- وقال الله تعالى في معرض الامتنان على رسوله ﷺ:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠].

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

والفؤاد في الآيتين القلب، وتثبيته تقويته وتسكينه بما يتنزل على رسول الله ﷺ من كلام ربه سبحانه.(٢)

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٥٢)، المفردات: (ص: ٣٧٢)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٢٠١)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٥٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٥/ ١٥٣)، زاد المسير: (٧/ ٣٨٦)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٣٨، ٢٠٨، ١٨/ ١٤٣، ٢١٩)، التسهيل: (٣/ ٥٥)، روح المعاني: (١٥/ ٧٥، ٢٩/ ٢٠)، فتح القدير: (٥/ ٢٦٤).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٣/ ٨٤، ٤/ ٦٦)، تفسير القرطبي: (٩/ ٧٧، ١٣/ ٢١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٦٥).

٣ - وقال الله تعال في شأن الظالمين وعذابهم في الآخرة:

﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ [الهمزة: ٦ - ٧].

فالآية الأولى تبين أن أبصار الظالمين شاخصة، وقلوبهم فارغة خالية خاوية، والمراد شدة الخوف مما يرونه من أهوال يوم القيامة.(١)

وتبين الآية الثانية أن عذاب النار يستولي على الأبدان، بحيث يبلغ ألمه ويصل إحراقه إلى القلوب التي هي أخص الأعضاء وألطفها(٢)، والعياذ بالله تعالى.

٤ - وقال الله تعالى في شأن رسوله ﷺ:

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم: ١١].

والمعنى أن ما شاهده رسول الله ﷺ ليلة المعراج لم يكن تخيلًا كاذبًا، بل كان واقعًا حقًا، ولذا صدق قلبه عليه الصلاة والسلام ما رأته عيناه.(٣)

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٣٣ - ٢٣٤). زاد المسير: (٤/ ٢٧٢ - ٢٧٣)، تفسير القرطبي: (٩/ ٢٤٧ - ٢٤٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٤١ - ٥٤٢).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٣٦٢)، تفسير البغوي: (٤/ ٥٢٤)، تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ١٤٩، ٣٢/ ٩٤)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٦٢١)، التسهيل: (٤/ ٢١٧).

(٣) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٢٤٦)، تفسير القرطبي: (١٧/ ٦١ -٦٢)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٣٩)، وفي لفظ (كذب) قراءتان، الأولى بتشديد الذال، قرأ بها أبو جعفر وهشام عن ابن عامر، والثانية بالتخفيف، وبها قرأ الباقون. انظر: النشر: (٢/ ٢٨٣)، سراج القارئ: (ص: ٣٥٨)، والمعنى على التخفيف (أي صدق فؤاده الذي رأى، أي لم يكذب فيما رأى، بل رأى الحق) وعلى التشديد (صدّق الفؤاد ما رأى: لم ينكر ولم يرتب به) حجة القراءات: (ص: ٦٨٥)، والمعنى على القراءتين متقارب، وثمرته واحدة.

قال ابن جزي: (أي ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه بعينه، بل صدق بقلبه أن الذي رآه بعينه حق).(١)

٥ – وقال الله تعالى في تقرير كمال علمه جل شأنه بما يسره العبد في قلبه ويضمره:

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٢٩].

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الأنفال: ٤٣].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [النمل: ٧٤].

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص: ٦٩].

﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الحديد: ٦].

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [التغابن: ٤].

(١) التسهيل: (٤/ ٧٦)، وانظر: الشفا: (١/ ٢٣٥).

والصدور في هذه الآيات بمعنى القلوب(١)، إذ الصدر محل القلب، فقام مقامه.(٢)

والمراد بذات الصدور ما تضمره وتسره القلوب، وما تنطوي عليه وتكنه وتخفيه، من النيات والخواطر، والبواعث والصوارف، وسائر ما يحصل فيها من الأفعال خيرًا أو شرًا.

وسميت ذات الصدور (لأنها حالّة فيها مصاحبة لها).(٣)

٦ – وقال الله تعالى في شأن نعيم المؤمنين في الجنة:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧].

والمراد أن من أنواع النعيم تصفية قلوب المؤمنين، وإخراج ما فيها من الحسد والحقد، و العداوة والبغض، إذ الجنة لا كره فيها ولا غل.(٤)

٧– وقال الله تعالى تسلية لرسوله ﷺ:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧].

(١) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٢٩٢، ٣٤٥، ٣٦٤، ٢/ ١٨)، تفسير الفخر الرازي: (٨/ ٢١٥، ٢٤/ ٢١٥، ٢٧/ ٥٢)، تفسير القرطبي: (١٨/ ١٣٩)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٠٥، ٤/ ٣٩٧).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٨/ ١٥)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٤٧٠)، أضواء البيان: (٩/ ٦٧٠).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٩/ ٥٠).

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٣٣٩)، تفسير القرطبي: (١٧/ ١٣٣).

قال القرطبي: (أي قلبك، لأن الصدر محل القلب).(١)

وفي هذا المعنى يرد أيضًا قول الله تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢].

وقوله سبحانه في شأن موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢ - ١٣].

والضيق الحزن والانقباض(٢)، يعرض لرسول الله ﷺ أحيانًا، بحسب الطبيعة البشرية، فيتنزل عليه القرآن مسليًا له، مثبتًا لقلبه، داعيًا له إلى الصبر والالتجاء إلى الله جل وعلا.(٣)

٨ – وقال الله تعالى ممتنا على رسوله ﷺ:

﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾ [الشرح: ١].

تثبت الآية الكريمة ما أنعم الله تبارك وتعالى به على رسوله ﷺ من شرح صدره عليه الصلاة والسلام.

---

(١) تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٤)، وانظر تفسير البحر المحيط: (٥/ ٤٧٠).

(٢) انظر: المفردات: (ص: ٣٠٣)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٦٠).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٩/ ١٠)، تفسير البيضاوي: (٢/ ١٥١)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٦).

وقد أورد المفسرون في المراد بشرح الصدر قولين(١):

الأول: أن الشرح حسي، والمراد حادثة شق صدره ﷺ، وإخراج قلبه، وتصفيته وتنقيته، ثم ملؤه إيمانًا وحكمة.

الثاني: أن الشرح معنوي، والمراد فتح القلب لقبول الإسلام، وتوسيعه لتلقي الوحي، ومعرفة الحق، وإدراك الهدى والخير، وتليينه لنيل العلم، وتحصيل الحكمة، وإزالة ما يصدر عن ذلك من الصوارف والموانع، وجعله بهذه التوسعة منيرًا فسيحًا رحيبًا.(٢)

ولا ريب أن شرح صدره عليه الصلاة والسلام بهذا المعنى يشمل بسط القلب ليقوى على حمل أعباء الرسالة، والثبات على الدعوة، وتحمّل الأذى، والصبر على المكاره.(٣)

وهذا القول في تفسير الآية الكريمة هو اختيار أكثر المفسرين(٤)، ولذا قال الألوسي: (حمل الشرح في الآية على ذلك الشق ضعيف عند

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٣٢/ ٢ – ٣)، تفسير القرطبي: (٢٠/ ٧١)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٦٠٥)، التسهيل: (٤/ ٢٠٦)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٤٨٧)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٢٤)، تفسير أبي السعود: (٩/ ١٧٢)، روح المعاني: (٣٠/ ٢١٢).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٥٠١)، زاد المسير: (٨/ ٢٧١)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٢٤).

(٣) انظر: تفسير النسفي: (٣/ ٧٠٤)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٤٨٧)، تفسير السعدي: (٥/ ٤٣١)، أضواء البيان: (٩/ ٣٠٩).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٢٣٤)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٣٤١)، المفردات: (ص: ٢٦١)، تفسير البغوي: (٤/ ٥٠١)، زاد المسير: (٨/ ٢٧١)، تفسير النسفي: (٣/ ٧٠٤)، التسهيل: (٤/ ٢٠٦)، تفسير أبي السعود: (٩/ ١٧٢)، فتح القدير: (٥/ ٤٨١)، تفسير القاسمي: (١٧/ ١٨٤).

المحققين).[١]

غير أن بعض المفسرين جمع بين القولين باعتبار أن اللفظ يحتملهما.

يقول ابن كثير: (لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره الذي فعل بصدره ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضًا).[٢]

وقال محمد الأمين: (اختلف في معنى شرح الصدر، إلا أنه لا منافاة فيما قالوا، وكلها يكمل بعضها بعضًا).[٣]

وعلى كلٍّ فإن حادثة شق صدره عليه الصلاة والسلام ثابتة، وقد تكرر وقوعها.[٤]

ومن ذلك ما تضمنه حديث أنس بن مالك ﵁ قال: كان أبو ذر ﵁ يحدث أن رسول الله ﷺ قال: (فرج[٥] عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري[٦]، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست[٧] من ذهب،

(١) روح المعاني: (٣٠/ ٢١٤).
(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٢٤).
(٣) أضواء البيان: (٩/ ٣٠٨).
(٤) انظر فتح الباري: (٣/ ٥، ١٥/ ٥١).
(٥) بضم الفاء: أي فتح. قال ابن حجر: (يحتمل أن يكون السر في ذلك التمهيد لما وقع من شق صدره، فكأن الملك أراد بانفراج السقف والتئامه في الحال كيفية ما سيصنع به لطفًا به وتثبيتًا له والله أعلم) فتح الباري: (٣/ ٥)، وانظر: (١٥/ ٥٢).
(٦) بفتح الفاء: (أي شقه) فتح الباري: (٣/ ٥).
(٧) الطست: بفتح الطاء وكسرها وإسكان السين، وهي إناء معروف، وجاء وصف (ممتلئ) بالتذكير على المعنى، لا على اللفظ لأن الطست مؤنثة. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١٢٤)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٢١٦، ٢١٨)، فتح الباري: (٣/ ٥).

ممتلئ حكمة[١] وإيمانًا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه[٢]) الحديث.[٣]

وعن أنس بن مالك ﵁، عن مالك بن صعصعة ﵁[٤]: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به، وفيه [فشرح صدري إلى كذا وكذا[٥]، فاستخرج قلبي، فغسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حشي إيمانا وحكمة] الحديث.[٦]

ومثل هذا الحدث وقع له عليه الصلاة والسلام أيضًا زمن طفولته.

عن أنس بن مالك ﵁: (أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه[٧]، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة[٨]، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب

(١) قال ابن حجر: (أصح ما قيل في الحكمة أنها وضع الشيء في محله، أو الفهم في كتاب الله) فتح الباري: (١٥/ ٥٢)، وانظر: المفردات: (ص: ١٣٤ – ١٣٥)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٣٣).
(٢) أي غطاه وأغلقه وجمع بعضه إلى بعض. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١١٣ – ١١٤).
(٣) رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء: (١/ ١٣٥)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات: (١/ ١٤٨).
(٤) هو مالك بن صعصعة بن وهب، الأنصاري الخزرجي، من بني مازن بن النجار، سكن المدينة، روي له عن النبي ﷺ بضعة أحاديث منها حديث الإسراء والمعراج في الصحيحين. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٥٥٤)، الإصابة: (٥/ ٥٣٩).
(٥) قال قتادة: (فقلت للذي معي: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطنه) صحيح مسلم: (١/ ١٥٠).
(٦) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج: (٣/ ١٤١٠)، ومسلم - واللفظ له - في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات: (١/ ١٥٠).
(٧) أي أسقطه وجعله على الأرض. انظر النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٢٣ –٢٤).
(٨) العلقة: قطعة الدم المنعقد. انظر النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٢٩٠).

بماء زمزم، ثم لأمه[١]، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره[٢]) فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع[٣] اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط[٤] في صدره).[٥]

---

(١) بفتح اللام والهمزة، أي جمعه وأغلقه وضم بعضه إلى بعض. انظر النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٢٢٠)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٢١٦).

(٢) الظئر: بكسر الظاء وإسكان الهمزة، وهي المرضعة غير ولدها، ويطلق أيضًا على زوج المرضعة. انظر النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١٥٤)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٢١٧).

(٣) بفتح القاف، أي متغير اللون، يقال: انتُقِع لونه، أي تغير من خوف أو حزن أو ألم. انظر النهاية في غريب الحديث: (٥/ ١٠٩)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٢١٧).

(٤) بكسر الميم وإسكان الخاء وفتح الباء، وهو الإبرة. انظر النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٩٢)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٢١٧).

(٥) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات: (١/ ١٤٧).

المبحث الثالث

أهمية القلب ومكانته

أمر القلب خطير، وأثره عظيم، وفي الكتاب والسنة على ذلك أدلة وبراهين، من تأملها ظهرت له الشواهد، وبرزت له المعالم، ومن ذلك ما تتضمنه المسائل التالية:

١- المسألة الأولى:

القلب هو الأساس والباعث، وفيه تبدأ الإرادات والخواطر، وتتحرك الدواعي والصوارف، وعنه تنشأ أعمال الظاهر وأفعال الجوارح.

فقول القلب تصديقًا بالله ورسوله يترجمه اللسان نطقًا بالشهادتين، وعمل القلب محبة ورجاء وخوفًا تعبر عنه حركة الأعضاء استقامة على طاعة الله، وتنفيذا لأمره جل شأنه.

ومن ثمّ فإن أصل الاستقامة استقامة القلب[١]، كما في حديث أنس بن مالك ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه].[٢]

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ٥١١)، التبيان: (ص: ٢٥٩).

(٢) رواه أحمد في المسند: (٣/ ١٩٨)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٤٥)، وانظر: شعب الإيمان: (١/ ٤١)، الترغيب والترهيب: (٣/ ٣٥٣، ٥٢٧ – ٥٢٨)، مجمع الزوائد: (١/ ٢١٤، ٢٢٠)، المغني: الإحياء: (٣/ ١٤٣).

قال ابن رجب: (المراد باستقامة إيمانه استقامة أعمال جوارحه، فإن أعمال الجوارح لا تستقيم إلا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب أن يكون ممتلئا من محبة الله، ومحبة طاعته، وكراهية معصيته).[1]

ولذا كان القلب كالملك للأعضاء، يملك معها الأمر والنهي، ولا تملك هي إلا الاستجابة والإذعان، والطاعة والالتزام.[2]

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه النعمان بن بشير ﷺ: [ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب].[3]

تضمن هذا الحديث الشريف أن القلب أصل، تتفرع عنه كافة أعمال الجوارح، وتتأثر به صلاحًا أو فسادًا.

فمتى رسخت في قلب العبد معاني العبودية، وتحقق فيه الإيمان واليقين، فصلحت حركاته وأفعاله، وتمكنت فيه المحبة والخشية والتوكل

---

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١١)، وانظر: شجرة المعارف والأحوال للعز بن عبد السلام، طبعة بيت الأفكار: (ص: ١٢).

(٢) انظر الحديقة الأنيقة في شرح العروة الوثيقة لمحمد بحرق الشافعي، ط٢، دار الحاوي: (ص: ٥١) في شرحه للبيت من قصيدته: (فأصلح مضغة في الجسم تقوى.. على التقوى ففي الأخبار يروى.. صلاح الكل فيها كالفساد).

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه: (١/ ٢٨ – ٢٩)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات: (٢/ ١٢٢٠).

والإنابة، وامتلأ بتعظيم الله وإجلاله ورجائه والإعراض عما سواه جل وعلا، كان ذلك إيذانًا بانبعاث جوارحه إلى أعمال العبادة الظاهرة.

وحين يفسد القلب، وتستولي عليه الأهواء، والتعلق بغير الله، كانت العاقبة فساد حركات الجوارح، وانبعاث الأعضاء إلى ضد ما أمر به الله جل وعلا ورسوله عليه الصلاة والسلام.

قال ابن رجب: (حركات الجسد تابعة لحركات القلب وإرادته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده، فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله، وإن كانت حركات القلب وإرادته لغير لله تعالى، فسد وفسدت حركات الجسد، بحسب فساد حركة القلب).[1]

ويقول ابن تيمية: (المأمور به نوعان: نوع ظاهر على الجوارح، ونوع باطن في القلب) وبعد بيانه للنوع الأول قال: (النوع الثاني: ما يكون باطنًا في القلب، كالإخلاص، وحب الله ورسوله، والتوكل عليه، والخوف منه، وكنفس إيمان القلب وتصديقه بما أخبر به الرسول، فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر، فإنه محله، وهذا النوع هو أصل النوع الأول، وهو أبلغ في الخير والشر من الأول، فنفس إيمان القلب وحبه وتعظيمه لله وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه وإخلاص الدين له، لا يتم شيء من المأمور به ظاهرًا

---

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٢)، وانظر: (١/ ١٠٨ –١٠٩، ٥١٢)، رياضة النفس: (ص: ٦٦)، إحياء علوم الدين: (١/ ٣٢)، منهاج العابدين: (ص: ٦٨).

إلا بها، وإلا فلو عمل أعمالًا ظاهرة بدون هذه كان منافقًا، وهي في أنفسها توجب لصاحبها أعمالًا ظاهرة توافقها، وهي أشرف من فروعها).(١)

ولذا قال الحسن يوصي شابًا: (داو قلبك، فإن حاجة الله ﷻ إلى العباد صلاح قلوبهم).(٢)

يقول ابن رجب: (يعني أن مراده منهم و مطلوبه صلاح قلوبهم، فلا صلاح للقلوب حتى تستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه، وتمتلئ من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد).(٣)

وحين يقع العبد في دائرة المعصية الظاهرة، فإن أصل تلك المعصية خطرة في القلب، تصبح شهوة، فتصير إرادة، فتتحول إلى عزيمة جازمة، وحينئذ تتحرك الجارحة لعمل السيئة.(٤)

وقد جعل الله تعالى سلامة القلب معبرا للفوز في الآخرة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٤/ ١١٩)، وانظر: شرح الطحاوية: (ص: ٢٩١)، دستور الأخلاق في القرآن: (ص: ٤٥٤ - ٤٥٦).

(٢) التواضع لابن أبي الدنيا، ط١، دار الكتب العلمية: (ص: ٢٨٦)، وانظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١١).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١١)، وانظر: الفتح الرباني: (ص: ٩).

(٤) انظر: تفسير المعوذتين: (ص: ٦٣)، الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) لابن القيم، ط١، دار ابن خزيمة: (ص: ٣٦٧، ٣٦٩).

وما ذاك إلا لأن القلب هو المؤثر في البدن إيجابًا وسلبًا.

قال القرطبي: (خص القلب بالذكر لأنه إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت الجوارح).(١)

وقال الرازي: (فإن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن من سلم قلبه كان ناجيا، وأن لا حاجة فيه إلى سلامة اللسان واليد، جوابه أن القلب مؤثر، واللسان والجوارح تبع، فلو كان القلب سليمًا لكانا سليمين لا محالة، وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب).(٢)

كما جعل الله جل شأنه القلوب موضع التمييز والاختبار فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وذلك يشير إلى أن القلب هو المخاطب على الحقيقة، وهو الأصل المقصود بالأمر والنهي، والأعضاء متفرعة عنه، مسخرة له، ترقب إرادته، وتتحرى قراره، فإذا أطاعت فهو الممتثل قبلها، وإذا عصت فهي متابعة لقصده في المخالفة.(٣)

---

(١) تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٥١).

(٣) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٦)، تفسير البحر المحيط: (٣/ ٩٠)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤١٨)، مجموع الفتاوى: (١٤/ ١١٣ - ١١٤).

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩ - ١٠].

وتحصيل ما في الصدور بمعنى التمييز والإظهار لما تسره من الخير والشر.[١]

والآية الكريمة تخصص التحصيل بما في الصدور، مع أن العمل يوم القيامة كله مكشوف باطنه وظاهره، وفي تعليل ذلك يقول الرازي: (لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلب، فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح).[٢]

ولما كان القلب بهذه المكانة، سمى الرسول ﷺ قلب المؤمن بالكَرْم، معتبرًا إياه الأحق بهذا الاسم لما فيه من نور الإيمان والهداية.

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقولوا: كَرْم. فإن الكرم قلب المؤمن].[٣]

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٥٣٦)، المفردات: (ص: ١٢٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٥١٨).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٣٢/ ٦٩).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: [إنما الكرم قلب المؤمن]: (٥/ ٢٢٨٧)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب كراهة تسمية العنب كرما: (٢/ ١٧٦٣). وفي الحديث الشريف كراهية تسمية العنب كرما، إذ كانت العرب تطلق هذا اللفظ الحسن على العنب وعلى الخمر المتخذة منه، ولما كان اللفظ يحمل معاني طيبة، وربما إذا سمعه من كان حديث عهد بالخمر تذكرها، وتحركت نفسه إليها، كره الشرع إطلاق هذا اللفظ الحسن على العنب وشجره. انظر: غريب الحديث للخطابي (١/ ٦٦٤ -٦٦٥)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٤ - ٥)، فتح الباري: (٢٢/ ٣٧٧ - ٣٧٨).

والمقصود أن (اشتقاق الكَرْم من الكَرَم، والأرض الكريمة هي أحسن الأرض، فلا يليق أن يعبر بهذه الصفة إلا عن قلب المؤمن، الذي هو خير الأشياء، لأن المؤمن خير الحيوان، وخير ما فيه قلبه، لأنه إذا صلح، صلح الجسد كله، وهو أرض لنبات شجرة الإيمان).[١]

هذه العبودية التي تملأ القلب، وما يتبعها من عبودية الأعضاء والجوارح، هي محل نظر الله جل شأنه، لا زينة الظاهر، وجمال الشكل.

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم][٢] وأشار بأصابعه إلى صدره.

وفي الرواية الأخرى عنه ؓ أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم].[٣]

والروايتان تدلان بمجموعهما على أن الاعتبار في القرب من الله تعالى، ونيل محبته ورضاه جل شأنه، ليس هو بحسن الصورة، ولا قوة الجسد ولا كثرة المال، ولا علو الجاه أو رفعة المنصب، وإنما هو بالقلب أولًا، إذا عمره الإيمان والتقوى وإرادة الله وحده، ثم بالعمل الظاهر ثانيًا، بالاستقامة على

(١) فتح الباري: (٢٢/ ٣٧٨)، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٥).

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم... (٣/ ١٩٨٧).

(٣) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم... (٣/ ١٩٨٧).

الطاعة فعلا وتركًا، والتي تنبع من استقامة القلب، وتتبعه في ولوج دائرة التقوى.(١)

٢- المسألة الثانية:

إيمان القلب وإخلاصه أصل في قبول العمل الصالح، وبدونه لا نفع ولا ثمرة ولا قبول.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

فلابد من شرط تقدم الإيمان أولًا، والمراد إيمان القلب وتصديقه، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط، فمن لم يلتزم بقيد الإيمان القلبي يبقى غير مستحق للثمرات المذكورة.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ٥٠٠)، منهاج العابدين: (ص: ٦٧)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ١٢١)، شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد: (ص: ٢٢٣)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ٢٧٦)، فيض القدير: (٢/ ٢٧٧ – ٢٧٨).

ثم بعد ذلك لابد من إرادة صادقة تصاحب صلاح العمل، بحيث يبتغي العبد بعمله الصالح وجه ربه جل وعلا وحده.

عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى] الحديث.(١)

فالحديث الشريف يشير إلى نوع من العبادات القلبية الباطنة، إذ يقرر أن نيل القرب من الله تعالى بالطاعات يعتمد على الإخلاص في النيات والإرادات.(٢)

فإذا صلحت نية القلب كان ذلك علامة ـ بفضل الله ـ على قبول الطاعة، وإذا فسدت النية، وداخلها الرياء وإرادة غير الله، كان ذلك إيذانًا ببطلان العمل وضياعه وخسرانه، مهما صلح ظاهره.

ومن ثَمّ فإن عمل القلب هو الواسطة والوسيلة لقبول عمل الظاهر.(٣)

ذلك أن عبودية القلب حين تتعطل ـ إخلاصًا وخشوعًا وحضورًا ـ فذلك يعني أن عبودية الملك تعطلت، فلا تعني عبودية الأعضاء الظاهرة حينها شيئًا.(٤)

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النية في الأيمان: (٦/ ٢٤٦٢)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: [إنما الأعمال بالنية]: (٢/ ١٥١٥ – ١٥١٦).

(٢) انظر: شرح حديث النية (ص: ١٣ – ١٤)، إعلام الموقعين: (٣/ ١٢٣).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (١١/ ٣٨١).

(٤) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ١٠).

وفي السنة الشريفة نصوص كثيرة يؤكد فيها رسول الله ﷺ على ضرورة إخلاص القلب وصدقه ليجد العمل القبول والجزاء الحسن عند الله تبارك وتعالى.

ومن ذلك: [أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه].[1]

[ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار].[2]

[من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا[3] غفر له ما تقدم من ذنبه] .[4]

[من بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة].[5]

[مثل المجاهد في سبيل الله، والله اعلم بمن يجاهد في سبيله[6]، كمثل

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ، في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث: (١/ ٤٩).

(٢) رواه البخاري من حديث أنس ﷺ، في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا: (١/ ٥٩- ٦٠)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا: (١/ ٦١).

(٣) أي مخلصًا فيه طالبًا ثواب الله تعالى. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٨٢).

(٤)رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ، في كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان: (١/ ٢٢)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان: (١/ ٥٢٣).

(٥) رواه البخاري من حديث عثمان ﷺ، في كتاب المساجد، باب من بنى مسجدًا: (١/ ١٧٣)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل بناء المساجد والحث عليها: (١/ ٣٧٨).

(٦) (يعني الله أعلم بعقد نيته إن كانت خالصة لإعلاء كلمته، فذلك المجاهد في سبيل الله وإن كان في نيته حب المال والدنيا واكتساب الذكر بها فقد أشرك مع سبيل الله سبيل الدنيا) عمدة القاري: (١٤/ ٨٤).

الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه: أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة].[1]

[والذي نفسي بيده لا يُكْلم[2] أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله[3]، إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم، والريح ريح المسك].[4]

[من طلب الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم تصبه].[5]

[من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه].[6]

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ، في كتاب الجهاد، باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله: (٣/ ١٠٢٧).

(٢) أي لا يُجرح، من الكَلْم وهو الجرح. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ١٩٩)، عمدة القاري: (١٤/ ١٠٠).

(٣) قال ابن عبد البر في التمهيد: (١٩/ ١٤) (فيه دليل على أن ليس كل من خرج في الغزو تكون هذه حاله، حتى تصح نيته، ويعلم الله من قلبه أنه خرج يريد وجهه ومرضاته، لا رياء ولا سمعة ولا مباهاة ولا فخر).

(٤) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ، في كتاب الجهاد، باب من يجرح في سبيل الله: (٣/ ١٠٣٢)، ومسلم بنحوه في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله: (٢/ ١٤٩٦).

(٥) رواه مسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ، في كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى: (٢/ ١٥١٧).

(٦) رواه مسلم من حديث سهل بن حنيف ﷺ، في كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله: (٢/ ١٥١٧).

هذه الأحاديث الشريفة تتضمن دلالات واضحة على أن عمل الجوارح دون عبودية القلب ليس بنافع قطعًا، وفي ذلك تقرير لعظم أهمية القلب وأثره.

٣- المسألة الثالثة:

عمل القلب هو الميزان لتفاضل عبادة الظاهر.

ذلك أن ما تقوم به الجوارح من الحسنات لا يتفاضل من حيث الصورة الظاهرية، شكلًا وكثرة، حجمًا وعددًا، وإنما يتحقق التفاضل أولًا بما يحصل في القلب أثناء حركة الأعضاء، من إيمان وتقوى، وإخلاص ومحبة، ورجاء وخوف، وإنابة وخشوع، إذ القوة العلمية القلبية أقوى وأكمل من القوة العملية البدنية، باعتبار أن الثانية ليس لها أثر بدون الأولى.

إن أقوال اللسان وأفعال الجوارح قد تشتركان في الصورة الظاهرة، والشكل الخارجي، لكنها بعد ذلك يشتد تمايزها ويعظم تفاوتها، بحسب أحوال القلوب، فقد يقترن بالطاعة من الخشية والإنابة والإخلاص وغيرها من أعمال القلب ما يرفع من قدر العبادة، ويعلي مرتبتها، ويعظم منزلتها، وقد يقترن بها في المقابل من ضعف حال القلب ما يقلّل من درجتها ويصغر من قيمتها وأثرها.[1]

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٣٥، ١١/ ٦٦٠).

يقول ابن أبي العز[1]: (إن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب).[2]

ولذا قال ابن القيم: (فالعمل على القلوب لا على الأبدان، والمعوَّل على الساكن لا على الأطلال، والاعتبار بالمحرّك الأول).[3]

وعلى ذلك فقد يتماثل شخصان في العبادة الظاهرة، ويربو أحدهما على الآخر منزلة وثوابًا عند الله تعالى، بما يحصل في قلبه من زيادة عمل أثناء تلك العبادة، بل قد يتفاضلان في عمل البدن، ويكون المفضول أقرب إلى الله تعالى من الآخر، وذلك لما يعظم في قلبه من معاني الإيمان.[4]

ومن الأدلة على ذلك حديث عمار بن ياسر ﷺ[5] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته[6]، تسعها،

---

(١) هو علي بن علي بن محمد بن أبي العز، الحنفي الدمشقي، قاضي القضاة بدمشق، ثم بمصر، من مصنفاته: شرح العقيدة الطحاوية، توفي سنة اثنتين وتسعين وسبع مائة. انظر: الأعلام: (٤/ ٣١٣).

(٢) شرح الطحاوية: (٣١١).

(٣) الوابل الصيب: (ص: ١٠٣).

(٤) انظر: الإيمان لابن تيمية، ط٣، المكتب الإسلامي: (ص: ٣٢٦).

(٥) هو عمار بن ياسر بن مالك، أبو اليقظان، أمه سمية ﷺ، أسلم قديمًا، كان ممن عُذّب ليرجع إلى الكفر، شهد بدرًا والمشاهد بعدها مع رسول الله ﷺ، وسماه الطيب المطيب، روى عن الرسول ﷺ عدّة أحاديث، ولاه عمر ﷺ على الكوفة، توفي سنة سبع وثلاثين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٤٤٢-٤٤٦)، الإصابة: (٤/ ٤٧٣-٤٧٤).

(٦) (أي عشر ثوابها) عون المعبود: (٢/ ١٦٩).

ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها).(١)

فالحديث يقرر أن ثواب الصلاة ينبني بعد كمال الظاهر على عمل القلب.

قال المناوي(٢): (أراد أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، بحسب الخشوع والتدبر، ونحو ذلك مما يقتضي الكمال).(٣)

ومن الشواهد أيضًا حديث البطاقة المشهور.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله سيخلّص(٤) رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر(٥) عليه تسعة وتسعين سجلا(٦)، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة: (١/ ٥٠٣)، وأحمد في المسند: (٤/ ٣٢١)، وصححه الحافظ العراقي في المغني: الإحياء: (١/ ٢٤٠)، و السيوطي في الجامع الصغير، فيض القدير: (٢/ ٣٣٤)، وحسنه الصبابطي: عون المعبود: (٢/ ١٦٩) (الهامش)، وانظر: الترغيب والترهيب: (١/ ٣٤١).

(٢) هو محمد عبد الرؤف بن تاج العارفين بن علي الحدادي، ثم المناوي القاهري، زين الدين، عالم مصنف، من مصنفاته: فيض القدير شرح الجامع الصغير، وشرح الشمائل، عاش في القاهرة وتوفي بها سنة إحدى وثلاثين وألف. انظر: الأعلام: (٦/ ٢٠٤).

(٣) فيض القدير: (٢/ ٣٣٣).

(٤) بتشديد اللام، والمعنى: يميز، انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٦١)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٥٢).

(٥) (أي فيفتح) تحفة الأحوذي: (٧/ ٥٢).

(٦) السجل بكسر السين والجيم وتشديد اللام: الكتاب الكبير. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٤٤)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٥٢).

أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة(١) فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضُرْ وزنك، فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفّة والبطاقة في كفة، فطاشت(٢) السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء].(٣)

فهذا الرجل لما كان نطقه بالشهادتين مبنيًا على عبودية للقلب عظيمة، من الصدق واليقين والمحبة، وعلم الله تعالى حسن نيته، غفر له ورحمه، وتجاوز عن سيئاته، وخصّه بذلك مع حرمان غيره ممن نطق بالشهادتين واستحق النار لذنوبه ومعاصيه.(٤)

ولذا استدل ابن تيمية بهذا الحديث على أن: (العبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها).(٥)

---

(١) البطاقة: الرقعة الصغيرة. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٣٥)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٥٢).

(٢) أي خفت. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١٥٣)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٥٣).

(٣) رواه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله: (٥/ ٢٤ – ٢٥) وقال حديث حسن غريب، وابن ماجة في كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة: (٢/ ١٤٣٧)، وأحمد في المسند: (٢/ ٢١٣)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٤٦ – ٤٧) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني: شرح الطحاوية: (ص: ٣٣٥) (الهامش)، وانظر: مجمع الزوائد: (١٠/ ٨٩).

(٤) انظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣١١ – ٣١٢).

(٥) مجموع الفتاوى: (١١/ ٦٦٠)، وانظر: (٧/ ٤٨٨ – ٤٨٩، ١٠/ ٧٣٥).

ومن الأحاديث في هذا الباب أيضًا ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ: [أن رجلًا قتل تسعة وتسعين نفسًا، فجعل يسأل: هل له من توبة؟ فأتى راهبًا فسأله، فقال: ليست لك توبة. فقتل الراهب، ثم جعل يسأل، ثم خرج من قرية إلى قرية فيها صالحون، فلما كان في بعض الطريق أدركه الموت، فنأى بصدره(١)، ثم مات. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر. فجعل من أهلها].(٢)

فهذا الرجل أيضًا، مع عظم ما حصل منه من قتل النفوس المعصومة، امتلأ قلبه بمعاني التوبة والإنابة، وإقباله الصادق على ربه سبحانه، ورغبته المخلصة في المسارعة إلى الخير، حتى تحرك بصدره وهو في ساعات الموت، يريد الاقتراب من أهل الصلاح ليعبد الله معهم، فكان ما في قلبه من الخير سببًا في علو مرتبة حركته الظاهرة.

يقول ابن أبي العز: (تأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان، التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته وهو في تلك الحال أن جعل ينوء بصدره وهو يعالج سكرات الموت).(٣)

---

(١) نأى: أي نهض يريد القرية الصالحة. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ١٢٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء عليهم السلام، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ (٣/ ١٢٨)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله: (٣/ ٢١١٩).

(٣) شرح الطحاوية: (ص: ٣١٢)، وانظر: صحيح القصص النبوي: (ص: ٤٤٨ – ٤٤٩).

ومنها حديث أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: [غفر لامرأة مومسة(١)، مرت بكلب على رأس ركي(٢) يلهث(٣)، قال: كاد يقتله العطش، فنزعت خفها(٤)، فأوثقته بخمارها(٥)، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك].(٦)

وفي رواية أخرى [إذ رأته بغي(٧) من بغايا بني إسرائيل].(٨)

فهذه المرأة التي ركبت الفاحشة، كان لها في تلك الحال من أعمال القلوب، إيمانًا ورحمة، ولينًا ورقة، وصدقًا في النية، ما ارتفع به فضل عملها

---

(١) أي ذات فجور، والجمع مومسات. انظر: ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ٦٦٠).

(٢) الركي: بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد الياء: البئر. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٦١)، فتح الباري: (١٣/ ٢٧٧).

(٣) أي يخرج لسانه من شدة العطش والحر. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٢٨١)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٤/ ٢٤١ – ٢٤٢).

(٤) المراد ما يلبس في القدم. انظر: لسان العرب: (٢/ ١٢١٣).

(٥) الخمار: غطاء الرأس. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٨٧).

(٦) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه... (٣/ ١٢٠٦).

(٧) بفتح الياء وكسر الغين وتشديد الياء: أي زانية فاجرة، والجمع بغايا. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٤٤)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٤/ ٢٤٢)، فتح الباري: (١٣/ ٢٧٧).

(٨) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ (٣/ ١٢٧٩)، صحيح مسلم: كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها: (٢/ ١٧٦١).

الظاهر، وعلت مرتبته، وعظم ثوابه، فكان ذلك سبيلًا ـ بفضل الله ـ إلى مغفرة الله تعالى لها.[1]

٤- المسألة الرابعة:

إخلاص القلب يجعل المباح طاعة وقربة.[2]

ذلك أن كثيرًا من تصرفات المؤمن ونشاطه في الحياة يدخل في دائرة العاديّات المباحات، التي لا يثاب فاعلها كما لا يعاقب تاركها، غير أن المؤمن إذا صحح إرادته، وأخلص نيته، فجعل قصده من العمل متجهًا إلى طلب رضا الله ﷻ ومثوبته، وابتغاء القرب منه جل شأنه، تحول العمل المباح في حقه إلى عبادة مستحبة، وأصبح من عموم حسناته وطاعاته التي يتقرب بها إلى ربه سبحانه.

وهذا بلا ريب يبرز أهمية القلب، إذ عن طريقه يصبح الأكل، والشرب، والنوم، والنكاح، والسعي في طلب المعيشة، وغيرها من أنواع حركة المؤمن في حياته، كل ذلك يصبح عملًا صالحًا يرفع من درجات صاحبه في الآخرة، مع استمتاعه به في الدنيا باعتباره في الأصل من المباحات.

(١) انظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣١٢)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٤٨٩، ١٠/ ٧٣٥).

(٢) كما أن القصد السيئ يقلب المباح معصية. انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٨٩)، الموافقات: (٣/ ١٩٤ - ١٩٥، ٢١٠ - ٢١٢).

هذا المعنى تشهد له الأدلة الشرعية، ومنها ـ على سبيل التمثيل ـ ما ورد في حديث أبي ذر ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: [وفي بضع أحدكم صدقة] قالوا يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: [أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر].[1]

ومن حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ[2]، أن رسول الله ﷺ قال له: [إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في امرأتك].[3]

ومن ثم استدل ابن تيمية بهذين الحديثين الشريفين على أن (من استعان بالمباح الجميل على الحق فهذا من الأعمال الصالحة).[4]

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف: (١/ ٦٩٧-٦٩٨).

(٢) هو سعد بن مالك بن وهيب، أبو إسحاق القرشي الزّهري، أسلم قديمًا وهو ابن سبع عشرة سنة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ولي الولايات في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهما، أحد العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم موتًا، توفي سنة خمس وخمسين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٣٥٦ - ٣٦١)، الإصابة: (٣/ ٦١ - ٦٥).

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية: (١/ ٣٠)، ومسلم بنحوه في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث: (٢/ ١٢٥١).

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٣٦٩)، وانظر: فتح الباري: (١٩/ ١٢٧).

وهو مراده أيضًا حين قال: (فالمؤمن إذا كانت له نية أتت على عامة أفعاله، وكانت المباحات من صالح أعماله، لصلاح قلبه ونيته، والمنافق لفساد قلبه يعاقب على ما يظهره من العبادات رياء).[1]

وهو مقصود أبي حامد الغزالي بقوله: (ما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات، يصير بها من محاسن القربات، وينال بها معالي الدرجات).[2]

٥- المسألة الخامسة:

عبودية القلب طاعة مستقلة، ومما يلي يتضح المراد:

١ - أول ما يكلف به العبد أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن يصدق قلبه بذلك تصديقًا يقينيًا جازمًا، كما أنه مأمور بمحبة ربه سبحانه، وبرجائه وخشيته، وبالتوكل عليه والإنابة إليه، والصبر على أقداره، والرضا بقضائه، والتفكر في آياته وآلائه، والوجل من عقابه، والرحمة بعباده، والخشوع لذكره، والإخبات إلى كلامه جل شأنه.

وتلك أعمال قلبية تكتب للمؤمن، ويثاب عليها، سواء صاحبها عمل ظاهر أم لا، فإذا لم تقترن بأفعال الجوارح ساعة، كان القلب حينها مستقلًا بالعبودية.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٣٦٩)، وانظر: الموافقات: (٢/ ٤٩٣- ٥٠٠).

(٢) إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٩٠).

يقول ابن تيمية: (بل قول القلب وعمله هو الأصل، مثل تصديقه وتكذيبه، وحبه وبغضه، من ذلك ما يحصل به مدح وذم، وثواب وعقاب، بدون فعل الجوارح الظاهرة، ومنه ما لا يقترن به ذلك إلا مع الفعل بالجوارح الظاهرة إذا كانت مقدورة) وبعد أن ذكر أن: (أقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام، أحدها ما هو حسنة وسيئة بنفسه) وضّح هذا القسم فقال: (هو ما يتعلق بأصول الدين من التصديق والتكذيب، والحب والبغض، وتوابع ذلك، فإن هذه الأمور يحصل فيها الثواب والعقاب، وعلو الدرجات، وأسفل الدركات[1]، بما يكون في القلوب من هذه الأمور، وإن لم يظهر على الجوارح، بل المنافقون يظهرون بجوارحهم الأقوال والأعمال الصالحة، وإنما عقابهم وكونهم في الدرك الأسفل من النار على ما في قلوبهم من الأمراض).[2]

بل إن عبادة القلب المستقلة مقدمة على عبادة البدن المجردة عن حقائق الإيمان، المدخولة بالآفات المخلّة[3]، ولذا استدل ابن حجر بحديث رسول الله ﷺ: [أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي

---

(١) دركات النار: بفتح الراء: منازل أهلها، جمع درك بالتحريك والتسكين، والدرك إلى الأسفل، والدرج إلى الأعلى. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١١٤)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ١٧٤).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٥٨- ٧٥٩)، وانظر: (١٤/ ١٠٩).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (٢٢/ ٢٤٣).

وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني][1] على أن (العلم بالله، ومعرفة ما يجب من حقه، أعظم قدرًا من مجرد العبادة البدنية).[2]

ويؤكد ابن القيم على علوّ مرتبة العبادات القلبية فيقول: (واجبات القلوب أشدّ وجوبًا من واجبات الأبدان، و آكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس، بل هي من باب الفضائل و المستحبات: فتراه يتحرّج من ترك واجب من واجبات البدن، وقد ترك ما هو أهمّ واجبات القلوب وأَفْرَضُها، ويتحرّج من فعل أدنى المحرمات، وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشدّ تحريما وأعظم إثماً).[3]

٢ - قد تتوجه إرادة المؤمن الجازمة، وقصده الصادق، وعزمه التام، ونيته الخالصة، إلى القيام بعمل بدني صالح، لكنه بعد ذلك يعجز عن التنفيذ لعذر يمنعه، ولو توفرت له القدرة لفعل، ولو تمكن من إتمام الطاعة لما استنكف ونكص، وحينئذ يستقل القلب بالعبودية أيضًا، وينال العبد ثواب عمل الحسنة التي عجز عنها، ويعطى ـ بفضل الله ـ أجر العامل لها، وذلك لما استقر في قلبه من الحقائق الإيمانية.[4]

---

(١) رواه البخاري من حديث أنس ﷺ في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح: (٥/ ١٩٤٩).

(٢) فتح الباري: (١٩/ ١٢٧).

(٣) إغاثة اللهفان: (٢/ ٩١٠ – ٩١١).

(٤) انظر: الإيمان: (ص: ٣٢٣ – ٣٢٦)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٣١ – ٧٣٤، ١٤/ ١٢٣ – ١٢٤).

ويشهد لذلك حديث رسول الله ﷺ: [من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة].[1]

وحديثه عليه الصلاة والسلام في رجوعه من غزوة تبوك: [إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم] قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: [وهم بالمدينة، حبسهم العذر].[2]

قال الغزالي في تعليل هذه المشاركة في الأجر: (لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس، والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى، كقلوب الخارجين في الجهاد، وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب).[3]

هذه المشاركة في الأجر لا تقتضي المساواة من كل وجه بالضرورة، بل يثاب كل واحد، ويضاعف له الأجر، بحسب إخلاصه وما يقارن ذلك من أعمال القلوب، سواء منهم من خرج للجهاد، ومن منعه العذر.[4]

---

(١) رواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه ﷻ، في كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة: (٥/ ٢٣٨٠ – ٢٣٨١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة...: (١/ ١١٨).

(٢) رواه البخاري من حديث أنس ﷺ في كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر: (٤/ ١٦١٠)، ومسلم بنحوه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر: (٢/ ١٥١٨).

(٣) إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٨٦ – ٤٨٧)، وانظر: التمهيد: (١٢/ ٢٦٧).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٣١ – ٧٣٢).

قال ابن عبد البر[1]: (الآثار الصحاح تدل على أن من نوى خيرًا وهمّ به، ولم يصرف نيته عنه، وحيل بينه وبينه، أنه يكتب له أجر ما نوى من ذلك).[2]

وفي هذه المسألة يرد الحديث المروي عن رسول الله ﷺ قال: [نية المؤمن خير من عمله].[3]

---

(١) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، أبو عمر النمري الأندلسي، القرطبي المالكي، إمام علامة حافظ، شيخ الإسلام، ولي قضاء لشبونة، من مصنفاته: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، توفي سنة ثلاث وستين وأربع مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٤٢٧٢ – ٤٢٧٤)، الأعلام: (٨/ ٢٤٠).

(٢) التمهيد: (١٩/ ٢٠٤).

(٣) رواه الطبراني في الكبير، كما في مجمع الزوائد: (١/ ٢٢٨، ٣٠١)، من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ. قال الهيثمي: (فيه حاتم بن عباد بن دينار، لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات) وضعفه الحافظ العراقي في المغني، بهامش الإحياء: (٤/ ٤٨٤)، وأورده السيوطي في الجامع الصغير ولم يرمز له بشيء. فيض القدير: (٦/ ٢٩٢)، ورواه كذلك البيهقي في شعب الإيمان: (٥/ ٣٤٣)، من حديث أنس بن مالك ﷺ بلفظ (نية المؤمن أبلغ من عمله) وقال (هذا إسناد ضعيف)، وذكره ابن حجر في الفتح: (٩/ ٥١)، وضعفه أيضًا، وأورده السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٦/ ٢٩١) ورمز له بالضعف، وضعفه أيضًا في تدريب الراوي، طبعة دار الفكر: (٢/ ١٧٥)، وهو مروي كذلك من حديث النواس بن سمعان وعلي بن أبي طالب ﷺ. انظر: مسند الشهاب لأبي عبد الله القضاعي، ط٢، مؤسسة الرسالة: (١/ ١١٩)، التمهيد: (١٢/ ٢٦٥)، اللآلي المنثورة للزركشي، ط١، المكتب الإسلامي: (ص: ٣٨).
وذكر السخاوي والعجلوني وغيرهما أن له شواهد، وأن بمجموعها ـ وإن كانت ضعيفة ـ يتقوى الحديث، ولذا قال المناوي: (والحاصل أن له عدة طرق تجبر ضعفه). انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي، طبعة دار الكتاب العربي: (ص:٥٢٦ -٥٢٧)، فيض القدير: (٦/ ٢٩٢)، كشف الخفاء: (٢/ ٤٣٠)، الفوائد المجموعة للشوكاني، مطبعة السنة المحمدية: (ص: ٢٥٠).

وقد تكلم عدد من أهل العلم في مراد الحديث[1]، فذكروا في ذلك وجوها منها:

أ – أن جنس النية فاضل على جنس العمل، والدليل أن نية الخير مجردة عن العمل يمكن أن يثاب عليها العبد، بينما لا يتحقق ذلك للعمل المفتقر إلى الإخلاص، فالنية الخالصة بانفرادها تحقق ما لا يحققه العمل بانفراده.[2]

ب – أن تفاوت مقدار الثواب ومضاعفته يتأسس ـ بعد فضل الله تعالى ـ على حال العامل في إخلاص النية، وما يصاحبها من عمل القلب، وتعدد الإرادات الفاضلة في الطاعة الواحدة[3]، إذ الأعمال الصالحة مرتبطة بالنية في أصل صحتها، ثم في عظم مرتبتها، ومضاعفة أجرها وثوابها.

ج – أن مريد العمل الصالح إذا قام منه بما في مكنته واستطاعته، ثم عجز عن التمام لمانع طارئ، تحصّل له أجر العمل بتمامه، لتوفر النية الصادقة في الإتمام لو انتفى المانع.

د – أن النية تبلغ بصاحبها في الخير أو الشر، ما لا يبلغه بعمله.[4]

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٨٤ – ٤٨٦)، قوت القلوب: (٢/ ٣١٠ – ٣١١)، عمدة القاري: (١/ ٣٥)، مجموع الفتاوى: (٢٢/ ٢٤٣)، فيض القدير: (٦/ ٢٩١ – ٢٩٢).

(٢) انظر: التمهيد: (١٢/ ٢٦٥)، تنبيه الغافلين: (٢/ ٥٢٦)، الآداب الشرعية: (١/ ١٣٤).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٨٩).

(٤) انظر: الزهد لابن المبارك، ط١، دار ابن حزم: (ص: ٣٣).

ومن الأدلة على ذلك حديث أبي كبشة الأنماري(١)، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [إنما الدنيا لأربعة نفر(٢): عبد رزقه الله ما لًا وعلمًا ، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا، ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالًا وعلمًا، فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان، فهو نيته، فوزرهما سواء].(٣)

وعن البراء ﷺ(٤) قال: (أتى النبي ﷺ رجل مقنع بالحديد(٥)، فقال: يا

(١) هو سعيد بن عمر، وقيل عمير بن سعد، وقيل غير ذلك، أبو كبشة الأنماري المذحجي، له صحبة، سكن الشام، وروى عن أبي بكر الصديق ﷺ، انظر: الإصابة: (٧/ ٢٨٣).

(٢) (أي إنما حال أهلها حال أربعة) فيض القدير: (٣/ ٢٩٩).

(٣) الحديث رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر: (٤/ ٥٦٣)، وقال هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في كتاب الزهد، باب النية: (٢/ ١٤١٣)، وأحمد في المسند: (٤/ ٢٣١)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٣/ ٢٩٩)، وصححه الصبابطي في تخريج سنن الترمذي: تحفة الأحوذي: (٦/ ١٩٦) (الهامش).

(٤) هو البراء بن عازب بن الحارث، أبو عمارة الأنصاري، الأوسي الحارثي، له ولأبيه صحبة، من أعيان الصحابة ﷺ، استصغر يوم بدر، وشهد بعدها خمس عشرة غزوة مع النبي ﷺ، نزل الكوفة، توفي سنة اثنتين وسبعين. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ١١٩١ - ١١٩٢)، الإصابة: (١/ ٤١١ - ٤١٢).

(٥) أي قد غطاه السلاح وآلة الحرب. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ١١٤)، فتح الباري: (١١/ ٢٨٧). ويحتمل أن يكون هذا الرجل هو عمرو بن قيس الذي استشهد في أحد، فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة، والخبر في سنن أبي داود من رواية أبي هريرة ﷺ: كتاب الجهاد، باب فيمن يسلم ويقتل مكانه في سبيل الله ﷺ: (٣/ ٤٣)، وانظر: دلائل النبوة للبيهقي، ط١، دار الكتب العلمية: (٣/ ٢٤٧ - ٢٤٨)، فتح الباري: (١١/ ٢٨٧ - ٢٨٨)، السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري، طبعة مكتبة العلوم والحكم: (٢/ ٣٨٩ - ٣٩٠).

رسول الله، أقاتل وأسلم. قال: [أسلم ثم قاتل] فأسلم ثم قاتل فقتل، فقال رسول الله ﷺ: [عمل قليلًا وأجر كثيرًا].(١)

فهذا الصحابي المجاهد جازاه الله جل شأنه بإحسانه عظيم الأجر على يسير العمل، لما تحقق إيمانه، وسلمت إرادته، وصحت نيته في سلوك سبيل الهداية زمن حياته، وإن لم يتقدم تلك النية الصالحة إلا القليل من العمل.(٢)

هـ - أن أصل النية الصالحة ينبع من محبة الله تعالى وإرادته وابتغاء رضاه، ومن ثم لا يدخلها الفساد، بينما العمل الظاهر يمكن أن يفسد بآفات عديدة، كالرياء والعجب، وغير ذلك.

و- أن ثواب النية أعظم من ثواب العمل، باعتبار محدودية العمل زمنًا ومكنة، بينما النية ممتدة متصلة بمرور الأزمان(٣)، فالعمل يدخل في دائرة الحصر، بعكس النية، ومن ثم يترتب من الجزاء على النية ما لا يترتب على العمل.

قال ابن تيمية: (النية يثاب عليها المؤمن بمجردها، وتجري مجرى العمل إذا لم يمنع من العمل بها إلا العجز، ويمكنه ذلك في عامة أفعال الخير، وأما عمل البدن فهو مقيد بالقدرة، وذلك لا يكون إلا قليلًا، ولهذا

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب عمل صالح قبل القتال: (٣/ ١٠٣٤)، ومسلم بنحوه في كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد: (٢/ ١٥٠٩).

(٢)انظر: عمدة القاري: (١٤/ ١٠٦).

(٣)انظر: فتح الباري: (٩/ ٥١)، عمدة القاري: (١/ ٣٥)، تنبيه الغافلين: (٢/ ٥٢٦).

قال بعض السلف: قوة المؤمن في قلبه، وضعفه في بدنه، وقوة المنافق في بدنه، وضعفه في قلبه).[1]

ز – أن النية عبودية القلب، والعمل عبودية الجوارح، وفعل القلب أعظم وأشرف، إذ هو الأمير والراعي، والأعضاء رعية تابعون، والأصل مقدم على الفرع.

قال الغزالي: (.. يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح، ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل، لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير، وإرادته له).[2]

ح – واختار الغزالي أن: (ظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير) وليس ترجيحا لنية مجردة على عمل مجرد، (والمعنى أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل، وكانت النية من جملة الخيرات، وكان العمل من جملة الخيرات، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود، وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه: نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض أن للعبد اختيارًا في النية وفي العمل، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما، فهذا معناه).[3]

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٦١).

(٢) إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٨٦)، وانظر: (٤/ ٤٨٥).

(٣) إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٨٤).

وجميع هذه الأقوال في توجيه المراد من تفضيل النية على العمل صحيحة مقبولة، ولا تعارض بينها، بل هي في حقيقتها متقاربة، يتصل بعضها ببعض، والأدلة الشرعية تؤيدها، والعلم عند الله تعالى.

غير أن من المهم التنبيه إلى أن هذه الأفضلية ليست على عموم الأوقات والأحوال.

ذلك أن النية مجردة عن العمل، مع تمام القدرة وانتفاء الموانع، ليست بمحمودة، إذ العزم فيها ليس بتام، والقصد ليس بصادق.

ثم بعد تحقق الصدق في النية، والتمام في العزم، مع عدم تحقق الفعل لوجود المانع وقيام العذر، فإن ذلك أيضًا لا يجعل للنية أفضلية بإطلاق، والدليل على ذلك أن النص الشرعي جعل الهم على الحسنة بحسنة كاملة إذا لم يتمكن العبد من العمل، وجعل الهم مقرونًا بالعمل بعشر حسنات.

عن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه ﷻ: [إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة..] الحديث.[1]

والأصل في دين الله أن النية والعمل قرينان لا ينفك أحدهما عن

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة: (٥/ ٢٣٨٠-٢٣٨١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة: (١/ ١١٨).

الآخر، وما كلف به العبد من الشرائع الظاهرة كالصلاة والحج وغيرهما تجمع بين عمل القلب ولازمها من أفعال الجوارح.

ومن ثم فإن مسألة التفضيل مبنية على التفصيل، وما سبق إيراده من الوجوه في توجيه المراد يقرر ذلك ويوضحه.(١)

٦- المسألة السادسة:

القلب هو الأصل في المدح أو الذم.

يشتمل القلب على أعمال وأحوال يحمد عليها، كالخوف والرجاء، والتوكل والإنابة، والزهد والقناعة، والمحبة والتقوى، واللين والتواضع، والصبر والشكر، والإخلاص والرضا.

كما يشتمل على علل وأسقام يذم عليها، كالكبر والخيلاء، والقسوة والخيانة، والغضب والرياء، والهلع والجزع، والحسد والحقد، والغش والطمع، والسخط وكراهية الهدى.

والأولى أصل لأفعال الجوارح المحمودة، والثانية أصل لأفعالها المذمومة.

يقول الله تعالى في معرض المدح للقلوب حين تصح:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

(١) انظر: التمهيد: (١٢/ ٢٦٥ – ٢٦٦)، عمدة القاري: (١/ ٣٥).

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

ويقول تعالى في معرض الذم للقلوب حين تموت:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والنصوص في الثناء على عبادات القلب، وفي ذم أمراضه وعلله كثيرة جدًا في الكتاب العزيز والسنة الشريفة.(١)

وحين تتشابه القلوب في الأحوال تتشابه الأعضاء في الحركات والأقوال، كما قال الله جل شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

فقد جعلت الآية الكريمة محور التشابه في القلوب، مع أن التشابه في الأذهان هو ما يقع في الظاهر مكشوفًا للعيان، مما يؤكد أن الظاهر ينبعث مما رسخ في القلب.

قال الفراء: (تشابهت قلوبهم في اتفاقهم على الكفر).(٢)

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٥٥ – ٧٥٨).

(٢) معاني القرآن: (١/ ٧٥)، وانظر: تفسير ابن كثير: (١/ ١٦٢).

فلما تشابهت قلوبهم في كراهية الحق، ومعاندة الهدى، تشابهت أقوالهم وأفعالهم في مواجهة المرسلين عليهم السلام.

٧- المسألة السابعة:

القلب منبع الإيمان.

يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

والمعنى: (زينه بتوفيقه في قلوبكم، أي حسنه إليكم حتى اخترتموه).(١)

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أي جعل الإيمان في قلوبهم، وثبته فيها بتوفيقه جل شأنه.(٢)

قال القرطبي: (خص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمان).(٣)

وقال تعالى في حال المنافقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

---

(١) تفسير القرطبي: (١٦/ ٢٠٦).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٢٧٧)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٢٩)، أضواء البيان: (٧/ ٨٢٦).

(٣) تفسير القرطبي: (١٧/ ٢٠٠).

ففي الآية الكريمة تصريح بأن قلوب المنافقين خلت من الإيمان التي هي محله ومكانه.

وقال تعالى عن طائفة مخصوصة من الأعراب(١): ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

فقد أثبت لهم الإسلام، ونفى عنهم كمال الإيمان في قلوبهم.(٢)

ومن ثَمّ كان نطق اللسان غير ذي بال، إذا لم يتأسس على عقيدة صادقة

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١٦/ ٢٢٧)، أضواء البيان: (٧/ ٦٣٩).

(٢) **هذا أحد القولين في الآية الكريمة**: أن المنفي عنهم هو تمام الإيمان لا أصله، فهم مسلمون، لكن إيمانهم فيه ضعف ونقص، ولم يستحكم ويتمكن في قلوبهم.

واختار هذا القول ابن جرير الطبري في تفسيره: (٢٦/ ١٤٢ - ١٤٣)، وابن كثير في تفسيره: (٤/ ٢١٨ -٢١٩)، كما رجحه ابن رجب وابن أبي العز، مستدلين بأن سياق الآيات ليس في المنافقين، وبقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينقصكم من أجورها، وهذا يدل على أن معهم من الإيمان ما تقبل به أعمالهم، ولو كانوا منافقين لم تقبل لهم طاعة. انظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣٢٩ - ٣٣٠)، جامع العلوم والحكم: (١/ ١٠٩ - ١١٠).

والقول الثاني: أن الآية الكريمة أثبتت لهم الإسلام بمعناه اللغوي، وهو الانقياد الظاهر باللسان والجوارح دون اعتقاد القلب، ونفت عنهم حقيقة الإيمان الشرعية، وعلى ذلك فهم منافقون بالكلية.

وممن قال بهذا القول البغوي في تفسيره: (٤/ ٢١٨)، وابن الجوزي في زاد المسير: (٧/ ١٨٧)، والقرطبي في تفسيره: (١٦/ ٢٢٧)، ورجحه محمد الأمين في أضواء البيان: (٧/ ٦٣٧ - ٦٣٩).

في القلب، كما هو حال المنافقين، الذين كشفهم الله بقوله سبحانه:

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

قال القرطبي: (أي لم يضمروا في قلوبهم الإيمان كما نطقت به ألسنتهم).[1]

ولما كان القول منهم غير مبني على القلب واعتقاده، قيدته الآيات الكريمات بأنه نطق بمجرد الألسنة والأفواه، لا يقوم على أساس.[2]

ولذا أثبت الله ﷻ علمه بما تنطوي عليه بواطنهم فقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: ٦٣].[3]

هذا الإيمان الذي يحل في القلب عُبّر عنه بالخير في قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

---

(١) تفسير القرطبي: (٦/ ١١٨)، وانظر: (٤/ ١٧١، ١٦/ ١٧٨)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٢٥، ٤/ ١٨٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٠٥ – ٥٠٦).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٥/ ١٧١)، تفسير ابن كثير: (١/ ٥١٩).

قال البغوي: (أي إيمانا).[1]

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

والمراد بما في القلوب ثمرة الإيمان بالله ورسوله من الصدق والوفاء والسمع والطاعة.[2]

٨- المسألة الثامنة:

القلب محل التقوى

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

تبين الآية الكريمة أن تعظيم شعائر الله، وهي أعلام الدين ومعالم العبادة الظاهرة، من أفعال أصحاب القلوب المتصفة بالتقوى.[3]

وإضافة التقوى إلى القلوب في الآية يدل على أن أصل التقوى، وحقيقتها ومركزها، يكمن في القلب، ثم تظهر آثاره على الجوارح استقامة

---

(١) تفسير البغوي: (٢/ ٢٦٣)، وانظر تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٢٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٦/ ١٨٣)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٩١).

(٣) انظر: تفسير البغوي: (١/ ١٣٢، ٣/ ٢٨٦ – ٢٨٧)، تفسير الفخر الرازي: (٢٣/ ٣٢)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢١٩)، نظم الدرر: (١/ ٢٨٥، ٥/ ١٥١)، فتح القدير: (٣/ ٤٥٨)، تفسير السعدي: (٣/ ٣٢٠)، روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن لمحمد الصابوني، ط٣، مكتبة الغزالي: (١/ ١٣٣، ٦١٣).

على شرع الله جل شأنه.(١)

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وهذه الآية الكريمة أيضًا تشير إلى أن أصل التقوى في القلب.

ذلك أن الآية تثني على الذي يخفضون أصواتهم في مجلس رسول الله ﷺ، إجلالًا له وتوقيرًا، وتخبر أن هؤلاء هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي جعلها موضعًا ومستقرًا للتقوى، خالصة لها، مختصة بها، كما يختبر المعدن من الذهب والفضة بالنار، حتى يصير صافيًا من شوائبه، خالصًا مما يخالطه من غير أصله.(٢)

قال ابن كثير في تفسير الآية: (أي أخلصها لها وجعلها أهلًا ومحلًا).(٣)

ومن حديث أبي هريرة ﷺ، أن الرسول ﷺ قال: [المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى هاهنا] ويشير إلى صدره ثلاث مرات.(٤)

---

(١) انظر: زاد المسير: (٥/ ٢٩٤)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٣٨)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٣٩)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٠٦)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ٢٧٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ١٢٠)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٠٨)، تفسير السمعاني: (٥/ ٢١٥)، تفسير البغوي: (٤/ ٢١٠)، تفسير ابن عطية: (٥/ ١٤٥)، نظم الدرر: (٧/ ٢٢٤).

(٣) تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٠٧)، وانظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٤١٥)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠١٦)، تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ١١٥ – ١١٦)، تفسير القرطبي: (١٦/ ٢٠٣).

(٤) الحديث رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم.. (٣/ ١٩٨٦).

قال النووي: (أراد القلب).(١)

يشير الحديث الشريف إلى أن التقوى في حقيقتها لا تحصل بالأعمال الظاهرة فقط، بل تحصل قبل ذلك بما يستقر في القلب من تعظيم الله وإجلاله وخوف عقابه.(٢)

ومثله ما تضمنه الحديث القدسي: [يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا].(٣)

وهو نص يقرر أيضًا أن أصل التقوى في القلب، فإذا برّ القلب واتقى تحرّكت الأعضاء بالبر والطاعة، وتحققت بالتقوى.(٤)

٩- المسألة التاسعة:

القلب موطن الهداية.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

وهو أيضًا مقر الطهر والنزاهة من الشر والخبث.

قال الله تعالى عن أهل الكفر من المنافقين واليهود: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

---

(١) شرح الأربعين النووية: (ص: ٦٥).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ١٢١)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ٢٧٦).

(٣) رواه مسلم من حديث أبي ذر ﷺ في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم: (٣/ ١٩٩٥).

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم: (٢/ ٤٧).

﴿لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال تعالى في حق أمهات المؤمنين رضي الله عنهن: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

والمراد طهارة القلب ونقاؤه من الريبة والخواطر السيئة.(١)

وفي المقابل هو محل الزيغ والميل عن الحق والهدى.

قال الله تعالى عن اليهود المكذبين بنبي الله موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

إذا الهداية إصابة الحق والتزام الهدى، والزيغ ميل وانحراف عنها.(٢)

وهو مصدر الإثم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

والإثم الفجور(٣)، أضيف إلى القلب هنا باعتبار أن الآية الكريمة تحذر

(١) انظر: المفردات: (ص: ٣١٠)، تفسير البغوي: (٣/ ٥٤٠)، تفسير القرطبي: (١٤/ ١٤٦).

(٢) انظر: أضواء البيان: (٨/ ١٧٩ – ١٨٠).

(٣) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٢٧)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٣٢)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣٣٧).

من كتمان الشهادة، وهو أمر قلبي، وباعتبار تبعية الجوارح في أفعالها للقلب وما تتجاذبه من إرادات وصوارف.(١)

وقد أضيف لفظ الفجور إلى القلب في الحديث القدسي: [يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا].(٢)

مما يدل على أن الأصل في الفجور القلب، وحينئذ تتبعه الجوارح.(٣)

١٠- المسألة العاشرة:

القلب موضع الكفر والنفاق.

ومن الآيات الدالة على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤].

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٣٢)، تفسير القرطبي: (٣/ ٢٦٨).

(٢) رواه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم: (٣/ ١٩٩٥).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم: (٢/ ٤٧).

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الفتح: ١٢].

والمراد النفاق(١)، زينه الشيطان وحسّنه في قلوبهم.(٢)

ولذا ذكر بعض المفسرين في قول الله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٦ - ٧]، (أن سبب تخصيص الأفئدة بذلك هو أنها موطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة).(٣)

١١- المسألة الحادية عشرة:

القلب مركز الفقه والعقل والانتفاع بالعلم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١٦/ ١٧٨)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٨٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٧٨)، زاد المسير: (٧/ ١٦٤).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٣٢/ ٩٤).

فقد ذم الله جل شأنه الكافرين فوصفهم بأنهم لا ينتفعون بقلوبهم في العلم الذي يهديهم إلى توحيد الله ومعرفته، ويحقق لهم الإيمان واليقين، وفي ذلك دلالة على أن القلب محل العلم والفهم.(١)

ويدل على ذلك أيضًا تخصيص القلب بالختم ونحوه في مثل قول الله تعالى في شأن الكافرين المعاندين: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧].

قال ابن الجوزي: (إنما خصه بالختم لأنه محل الفهم).(٢)

واستدل الرازي بالآية: (على أن محل العلم هو القلب).(٣)

١٢- المسألة الثانية عشرة:

القلب محل الارتياح والسعة.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومحل الطمأنينة والسكون.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ

(١) انظر: المفردات: (ص: ٣٤٥)، تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ٦٤)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٧٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٦٨)، القواعد الحسان: (ص: ١٣٤)، أضواء البيان: (٥/ ٧١٥)، وسائل الإدراك في القرآن الكريم: (ص: ٤٣ - ٤٥).

(٢) زاد المسير: (١/ ٢٢).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٢/ ٥٣)، وانظر: تفسير البيضاوي: (١/ ٢٣).

ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهو محل القوة والثبات.

قال الله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠].

وبالمقابل فالقلب محل الانزعاج والضيق.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧].

﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ [النساء: ٩٠].

أي ضاقت صدورهم كراهة قتالكم.[١]

وهو محل الرعب والرهبة.

قال الله تعالى: ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥١].

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ١٣].

وهو مكان الحقد والحسد والعداوة.

قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ١٣٤)، المفردات: (ص: ١٢٨)، والمقصود طائفة من المشركين كرهوا قتال المسلمين يوم بدر، منهم العباس وغيره. انظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٥٣٣).

﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر: ١٠].[١]

وموقع الندم والحسرة.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

قال الراغب: (الحسرة الغم على ما فاته والندم عليه).[٢]

والمعنى: ليكون ذلك القول والظن منهم سببًا لاستقرار الغم والندامة في قلوبهم، عقوبة من الله لهم[٣]، والمقصود في الآية المنافقون.[٤]

والقلب أيضًا محل وسوسة الشيطان وإلقاءاته.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٥].

١٣- المسألة الثالثة عشرة:

القلب مستقر الحب والميل والهوى.

قال الله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم: ٤].

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ١٦٨)، المفردات: (ص: ٣٦٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢١٥).

(٢) المفردات: (ص: ١٢٥).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٤/ ١٥٩)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤١٩).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٣٦٤).

أي مالت عن الحق.(١)

وقال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام: ١١٣].

أي تميل إلى زخرف القول من الباطل.(٢)

وقال تعالى على لسان إبراهيم ﵇: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

أي تحنّ وتنزع إليهم وتريدهم وتميل إليهم.(٣)

وقال تعالى عن اليهود: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

والمراد حب عبادة العجل، تمكن من قلوبهم حتى كأنهم شربوه فخالط بواطنهم.(٤)

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٤٧٢)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ١٩٣)، المفردات: (ص: ٢٨٥).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٨٤)، تفسير البغوي: (٢/ ١٢٤)، زاد المسير: (٣/ ٧٥)، تفسير القرطبي: (٧/ ٤٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٦٧).

(٣) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٣٣)، زاد المسير: (٤/ ٢٦٩ -٢٧٠)، تفسير القرطبي: (٩/ ٢٤٥).

(٤) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٥٨)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٣٠٨ - ٣٠٩)، تفسير ابن كثير: (١/ ١٢٦).

عن قتادة قال: (أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم).(١)

وقد ورد في حديث رسول الله ﷺ أن القلب يهوى ويتمنى.

عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: [كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة. فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه].(٢)

والمراد - فيما يتعلق بالقلب - فكره وتصوره، ورغبته وميله.(٣)

وعن أبي هريرة ﵁ أيضًا، يبلغ به النبي ﷺ قال: [قلب الشيخ شابّ على حب اثنتين: حب العيش، والمال].(٤)

والمقصود أن قلب الكبير لا يزال شابًا فيما يتعلق بتمكن محبة المال في قلبه، وكذلك محبة الحياة وطول العمر.(٥)

قال النووي: (معناه أن قلب الشيخ كامل الحب للمال، محتكم في ذلك كاحتكام قوة الشاب في شبابه).(٦)

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ٤٢٢ -٤٢٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج: (٥/ ٢٣٠٤)، ومسلم - واللفظ له - في كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره: (٣/ ٢٠٤٧).

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ٢٠٦).

(٤) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر: (٥/ ٢٣٦٠)، ومسلم - واللفظ له - في كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا: (١/ ٧٢٤).

(٥) انظر: فتح الباري: (٢٤/ ١٦ - ١٧).

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ١٣٨).

الفصل الثاني :
أركان عبودية القلب وتفاوت الناس فيها
ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عبودية القلب بين الإيجاب والسلب.

المبحث الثاني: أركان عبودية القلب.

المبحث الثالث: منازل الناس في عبودية القلب.

المبحث الأول

عبودية القلب بين الإيجاب السلب

أوجد الله تعالى القلب ليكون عابدًا له سبحانه، متوجِّها إليه بالتوحيد والتعظيم والإرادة، والخوف والرجاء والمحبة، فإذا تحققت هذه الغاية الشريفة كانت وسيلة القلب إلى إدراك الصلاح ونيل الفلاح والسعادة.

ولقد كان من رحمة الله جل شأنه، أن فطر الناس على ذلك المقصود العظيم، حين جعل الأصل في قلوبهم معرفة ربهم تبارك وتعالى والإقرار به، ومحبته وعبادته والإنابة إليه، وهيأ تلك القلوب للعلم به جل وعلا، وقبول دينه، وتلقي حكمه، والاطمئنان إلى الحق في شرائعه التي جاء بها الرسل عليهم السلام تكميلا وتتميمًا للفطرة، وتقريرًا وتثبيتًا لها.

يؤكد ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

والمعنى كما يقول ابن كثير: (لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره).[١]

وقد تضمن هذا المعنى أيضًا قول رسول الله ﷺ: [ما من مولود إلا

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٣٢)، وانظر: تفسير الثعالبي: (٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣)، نظم الدرر: (٥/ ٦٢١- ٦٢٢)، أضواء البيان: (١/ ٤١٦ .

ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء(١) هل تحسون فيها من جدعاء(٢)].(٣)

والمراد بالفطرة في الحديث الإسلام(٤)، ويشهد له ما تضمنته إحدى روايات مسلم [ما من مولود يولد إلا وهو على الملة].(٥)

والمقصود: (أن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق، ودين الإسلام هو الدين الحق).(٦)

---

(١) (البهيمة الجمعاء هي السليمة، سميت بذلك لاجتماع السلامة في أعضائها) غريب الحديث لابن قتيبة، ط، مطبعة العاني: (١/ ٣٥١)، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ٢٠٩)، عمدة القاري: (١٩/ ١١١).

(٢) الجدعاء: هي مقطوعة الأذن أو الأطراف. انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (١/ ١٠١)، النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٤٦ – ٢٤٧)، قال ابن الأثير: (١/ ٢٤٧) (يعني أن البهيمة تولد مجتمعة الخلق، سوية الأطراف، سليمة من الجدع، لولا تعرض الناس إليها لبقيت كما ولدت سليمة) وانظر غريب الحديث لابن قتيبة: (١/ ٣٥١)، فتح الباري: (٦/ ٣٠٤).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب الجنائز. باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟.. (١/ ٤٥٦)، ومسلم بنحوه في كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.. (٣/ ٢٠٤٧).

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ٢٠٨)، فتح الباري: (٦/ ٣٠٣).

(٥) صحيح مسلم: كتاب القدر . باب معنى كل مولود يولد على الفطرة..(٣/ ٢٠٤٨).

(٦) فتح الباري: (٦/ ٣٠٤) وانظر: تفسير القرطبي: (١٤/ ٢٠)، شرح الزرقاني على الموطأ، ط١، دار الكتب العلمية: (٢/ ١١٩ – ١٢٠).

وتكرر المعنى أيضًا في الحديث القدسي الذي رواه عياض بن حمار(١) ﷺ عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يقول: [إني خلقت عبادي حنفاء(٢) كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم(٣) عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا].(٤)

وهذا الحديث الشريف يقرر أمرين:

أولهما: أن الأصل في القلب توحيد الله ومحبته، والميل إلى دينه وشرعه [إني خلقت عبادي حنفاء] يقول ابن تيمية: (أخبرهم أنه خلقهم حنفاء، وذلك يتضمن معرفة الرب وتوحيده ومحبته، فهذه الثلاثة تتضمن الحنيفية، وهي معنى قول (لا إله إلا الله)).(٥)

---

(١) هو عياض بن حمار بن أبي حمار بن ناجية، التميمي المجاشعي، روي له عن النبي ﷺ ثلاثون حديثًا، أحدها في صحيح مسلم، سكن البصرة وهو معدود في أهلها. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ط١، دار الجيل: (٣/ ١٢٣٢)، الإصابة: (٤/ ٦٢٥).

(٢) جمع حنيف، وهو المائل إلى الإسلام، وأصل الحَنَف الميل. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٤٥١)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ١٩٧).

(٣) اجتال الشيء أي ذهب به وساقه، والمعنى: استخفوا بهم، وأزالوهم عن الهدى، وجالوا معهم في الباطل والضلال. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣١٧)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ١٩٧).

(٤) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها. باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار: (٣/ ٢١٩٧).

(٥) مجموع الفتاوى: (١٦/ ٣٤٥).

وثانيهما: أن الشيطان هو المؤثر الرئيس في انحراف الناس عن هذا الأصل الذي هو سلامة الفطرة واتجاه القلب إلى خالقه سبحانه [وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم].

ومن مجموع النصوص السابقة يتبين أن القلب إذا ترك لأصل حاله، ومقتضى فطرته، وانتفت عنه المؤثرات والأسباب المخلّة، وسلم من الواردات والعوارض المفسدة من شياطين الجن والإنس، كان قلبًا عابدًا لله تعالى، معترفًا له بالوحدانية، مقرًا له بالألوهية، متهيئًا لقبول دينه، مائلًا إلى الحق، ملازمًا له، مستقيمًا على ما يقتضيه أصل الطبع وأساس الفطرة من معرفة الله جل شأنه ومحبته.

وكل ما يخالف الإسلام والتوحيد من الأديان الفاسدة، والمذاهب الضالة، والاتجاهات الباطلة، إنما تنتج عن آفات خارجية تعرض للقلب فتمرضه وتسقمه، أو تميته وتفسده، ومن ثَمّ يعدل بها العبد عن دين الفطرة إلى مسالك الانحراف على اختلاف صوره ومذاهبه.

وإذا بقي القلب سليم الفطرة، ثم استجاب لنداء الرسل عليهم السلام، وتقبل ما يبلّغونه عن الله سبحانه من المناهج والشرائع المتناسقة مع نداء الفطرة، والمتجاوبة معها، والمكملة لها، تمكن حينئذ من الهداية، واستكمل الصلاح، واستجمع الخير والسعادة، وأشرق بالضياء والنور، إذ تحصّل له المقصود، وتحققت الغاية التي من أجلها خلق.

ومتى انحرف القلب عن السلامة الأصلية التي فطره الله عليها من محبة الله تعالى والتذلل له، وأصبحت حركاته وأعماله منافية لتوحيد الله وإرادته والإقرار بعبوديته، وتعلّق بغيره من المعبودات الباطلة، صار حينئذ قلبًا فاسدًا خبيثًا، محجوبًا عن ربه سبحانه، يصيبه الشقاء، وتتقاذفه الأهواء، ويتمكن منه الشر والضلال.(1)

ذلك أن القلب حين لا يتحقق بالإيجابية، بالبقاء على الفطرة التي فطره الله تعالى عليها، و بتكميلها وتقريرها بقبول شرعه سبحانه، فيستكبر ويستنكف عن السير في منازل عبوديته جل شأنه، فإن القلب ولابدّ سيقف موقفًا سلبيًا من معالم التوحيد الخالص، والاستسلام لله تبارك وتعالى، وسيتجه إلى الجهة المضادة، والطريق المعاكس، طريق العبودية الباطلة المناقضة للفطرة.

تلك هي عبودية الشيطان التي تستولي وتستحوذ على القلب، حين يصبح منكوسًا فارغًا من عبودية الله رب العالمين.

وكل أنواع الكفر، وصور الشرك بالله تعالى، إنما هي نماذج ومظاهر متنوعة لعبودية الشيطان.

إذ القلب لابد أن يعبد، فإن لم يعبد الله عبد الشيطان لا محالة، في معلم

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى: (١٤/ ٢٩٥ - ٢٩٦، ١٨/ ١٦٣ - ١٦٤)، فتح الباري: (٦/ ٣٠٤)، إغاثة اللهفان: (١/ ٦٩، ٢/ ٨٧٦ - ٨٧٧).

من معالم العبودية الضالة والباطلة.

يقول ابن تيمية: (وكل من استكبر عن عبادة الله لابد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلابد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهي حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهي حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بُدّ أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبدا لذلك المراد المحبوب، إما المال وإما الجاه وإما الصور، وإما مايتخذه إلهًا من دون الله، كالشمس والقمر والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أربابًا، أو غير ذلك مما عبد من دون الله، وإذا كان عبدا لغير الله يكون مشركًا، وكل مستكبر فهو مشرك).(١)

(فكل من لم يعبد الله مخلصًا له الدين فلا بد أن يكون مشركًا عابدًا لغير الله، وهو في الحقيقة عابد للشيطان، فكل واحد من بني آدم إما عابد للرحمن، وإما عابد للشيطان).(٢)

ولذلك حذر القرآن الكريم من عبادة الشيطان وطاعته باعتبارها مضادة لعبادة الرحمن جل شأنه، وعليه تتأسس كل عبادة باطلة.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ

---

(١) العبودية : (ص : ٨٠ – ٨١) (مع اختصار يسير) ، وانظر : (ص : ٨٢) .

(٢) مجموع الفتاوى :(١٤ / ٢٨٤) .

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ -٦١].

قال ابن عطية: (عبادة الشيطان هي طاعته والانقياد لإغوائه).(١)

وكان من دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

ذلك أن عبادة الأصنام والكواكب وغيرهما هي في حقيقتها أثر من آثار طاعة الشيطان في الالتزام بدين مخالف ومنهج باطل، وذلك هو المعنى المقصود من لفظ العبادة.

قال ابن كثير: (أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به).(٢)

فإشراك الشيطان مع الله تعالى في العبادة هو شرك في الطاعة والاتباع لما يدعو إليه مما يخالف شرع الله جل وعلا.(٣)

وحتى من يعبد الصالحين والملائكة في الظاهر إنما هو في الحقيقة عابد للشيطان الذي حسّن ذلك لهم وأمرهم به، فأطاعوه من دون الله.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ

---

(١) تفسير ابن عطية: (٤/ ٤٥٩)، وانظر تفسير القرطبي: (١٥/ ٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٢٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (١١/ ٧٥)، الإيمان: (ص: ٢٧٩ – ٢٨٠) فتح المجيد لعبد الرحمن ابن حسن، طبعة دار الكتب العلمية: (ص: ١٠١)، أضواء البيان: (٤/ ٢٨٦).

كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١].

والمراد أن: (الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة، فهم كانوا يطيعون الشياطين في عبادة الملائكة).(١)

ولذا قال ابن تيمية: (وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان، وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة والأنبياء..).(٢)

وقال أيضًا: (والذين يعبدون الشيطان أكثرهم لا يعرفون أنهم يعبدون الشيطان، بل قد يظنون أنهم يعبدون الملائكة أو الصالحين، كالذين يستغيثون بهم، ويسجدون لهم، فهم في الحقيقة إنما عبدوا الشيطان).(٣)

وقد أثبت الله جل وعلا هذه الحقيقة في حكمه على المشركين وهم يعبدون غيره سبحانه، وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

قال القرطبي: (يريد إبليس، لأنهم إذا أطاعوه فيما سول لهم فقد عبدوه).(٤)

(١) تفسير البغوي: (٣/ ٥٦١)، وانظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٩٧٩)، نظم الدرر: (٦/ ١٨٩)، فتح الرحمن: (ص: ٢٧٧).
(٢) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٢٨٣).
(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٤٥٠ – ٤٥١).
(٤) تفسير القرطبي: (٥/ ٢٤٨ –٢٤٩)، وانظر: نظم الدرر: (٢/ ٣٢٠).

والمفهوم من الآية كما يقول محمد الأمين: (أن من اتبع تشريع الشيطان مؤثرًا له على ما جاءت به الرسل فهو كافر بالله عابد للشيطان، متخذ الشيطان ربًا، وإن سمى اتباعه للشيطان بما شاء من الأسماء، لأن الحقائق لا تتغير بإطلاق الألفاظ عليها كما هو معلوم).(١)

ومن أنواع العبودية السلبية للقلب، والمتفرعة عن عبودية الشيطان، عبودية أهواء النفس ومراداتها، وشهواتها ومحبوباتها، المخالفة لهدي الله سبحانه، فيطلبها القلب، ويتشبث بها، ويسعى في القصد إليها، مقدّمًا إياها على مراد الله ومرضاته.

يقول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤].

وذلك يتحقق حين يكون مراد النفس وما تستحسنه وتميل إليه، هو الإله الذي يأمر فيطاع، وينهى فيستجاب له، من دون أمر الله جل وعلا ونهيه.(٢)

(١) أضواء البيان: (١/ ٤١٤)، وانظر تفسير ابن كثير: (١/ ٥٥٦).
(٢) انظر: رياضة النفس: (ص: ٤٧)، إحياء علوم الدين: (٣/ ٦٢)، فتوح الغيب: (ص: ٦٥)، العبودية: (ص: ١٠٤)، قال ابن عطية في تفسير ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[الجاثية: ٢٣] (هذه الآية وإن كانت نزلت في هوى الكفر فهي متناولة جميع هوى النفس الأمارة) تفسير ابن عطية: (٥/ ٨٦).

ومن ثم يقول أبو حامد الغزالي عن مضمون هذه الآية ومثيلاتها: (هو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله).(١)

ولذا ذم رسول الله ﷺ من كان عبدا لشهوة المال، ودعا عليه بالبعد والتعثر والشقاء، فقال عليه الصلاة والسلام: [تعس(٢) عبد الدينار والدرهم].(٣)

فحين تتجه إرادة القلب ومحبته إلى المال، والحرص على جمعه، والسعي في طلبه، بحيث يبلغ حدًا يمنعه من عبادة الله تعالى، ويصده عن طاعته سبحانه، ويتشاغل به عما يجب عليه من فرائض الشرع، فإنه يصير بذلك عبدًا لشهوة المال والمتاع على اختلاف صوره وتعدد مظاهره.(٤)

وهذا معنى قول أبي علي الدقاق(٥): (أنت عبد من أنت في أسره دينارًا كان أو درهمًا أو امرأة أو غير ذلك)(٦)

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٧).

(٢) تعس: أي عثر وانكبّ على وجهه، ويأتي بمعنى شقي، والمراد الدعاء بالهلاك ونحوه. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: (٢/ ٢٩٨)، النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٩٠)، فتح الباري: (١٢/ ٣٦،٢٤/ ٣٢).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال: (٥/ ٢٣٦٤).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ٦١ – ٦٣)، الإيمان: (ص: ٦٩)، فتح الباري: (٢٤/ ٣٢).

(٥) هو الحسن بن علي بن محمد، أبو علي الدقاق، البغدادي الشافعي، صنف: (كتاب الضحايا)، توفي سنة خمس وأربع مائة. انظر: شذرات الذهب: (٣/ ١٨٠)، كشف الظنون: (٢/ ١٤٣٤).

(٦) حدائق الحقائق: (ص: ٨٠).

وقول ابن تيمية: (الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده).(١)

(إن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقًا مستعبدًا متيمًا لغير الله، فهذا هو الذل والأسر المحض، والعبودية لما استعبد القلب، وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب).(٢)

إن القلب حين يخلص العبودية، فيجعلها لله وحده، فإنه يستغني بذلك عن عبودية ما سواه من الكائنات، ويستشعر حريته الحقيقية، بعيدا عن أسر الشيطان، أو رق الهوى والشهوات.

قال شمس الدين الرازي(٣): (واعلم أن كمال الحرية نتيجة كمال العبودية، فمن صدقت عبوديته خلصت عن رق الكائنات حريته).(٤)

(١) العبودية: (ص: ٦٠)، وانظر: (ص: ٦٦ – ٦٧).

(٢) العبودية: (ص: ٦٧ – ٦٨).

(٣) هو محمد بن أبي بكر عبد القادر، أبو عبد الله الرازي الحنفي، شمس الدين، وقيل زين الدين، أو تاج الدين، الملقب بالصدر، فقيه لغوي مفسر، من مصنفاته: مختار الصحاح، وأسئلة القرآن وأجوبتها، توفي سنة ستين وست مائة أو نحوها. انظر: كشف الظنون: (١/ ٩٢)، الأعلام: (٦/ ٥٥).

(٤) حدائق الحقائق: (ص: ٨٣)، وانظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٩٣٣).

ويقول الجنيد: (إنك لن تكون على الحقيقة عبدًا، وشيء مما دونه لك مسترقّ، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية، وعليك من حقيقة عبوديته بقية، فإذا كنت له وحده عبدًا كنت مما دونه حرّا).(١)

ويعدّد ابن القيم أقسام الناس بهذا الاعتبار فيقول: (الناس في هذا المقام ثلاثة: عبد محض، وحر محض، ومكاتب قد أدى بعض كتابته وهو يسعى في بقية الأداء.

فالعبد المحض عبد الماء والطين، الذي قد استعبدته نفسه وشهواته، وملكته وقهرته، فانقاد لها انقياد العبد إلى سيده الحاكم عليه.

والحر المحض هو الذي قهر شهوته ونفسه وملكها، فانقادت معه، وذلت له، ودخلت تحت رقّه وحكمه.

والمكاتب من قد عُقد له سبب الحرية، وهو يسعى في كمالها، فهو عبد من وجه حرٌّ من وجه، وبالبقية التي بقيت عليه من الأداء يكون عبدًا ما بقي عليه درهم، فهو عبد ما بقي عليه حظ من حظوظ نفسه.

فالحرّ من تخلص من رق الماء والطين، وفاز بعبودية رب العالمين، فاجتمعت له العبودية والحرية، فعبوديته من كمال حريته، وحريته من كمال عبوديته).(٢)

---

(١) طبقات الصوفية: (ص: ١٥٨).

(٢) مدارج السالكين: (٣/ ٦٠).

المبحث الثاني

أركان(*) عبودية القلب

ما يقوم بالقلب من العبودية لله تعالى يمكن تقسيمه إلى قسمين، أحدهما قول القلب، والآخر عمل القلب، كما أن حركة الأعضاء تدور بين قول اللسان، وعمل الجوارح.

ويُعبّر بقول القلب عن تصديقه المبني على اعتقاد قطعي جازم، فيما يُعبّر بعمل القلب أو فعله عن ثمرات ذلك التصديق من المعاني القلبية التي تصل العبد بالله جل وعلا، كالمحبة والإنابة، والخشية والمراقبة، والرجاء والتوكل، والتعظيم والإخلاص، وغير ذلك من أعمال القلوب.(١)

فإذا أطلقت عبارة (إيمان القلب) كان المراد بها ما يجمع الأمرين، قول القلب وعمله، كما يطلق عليهما اسم (الإيمان) إذا اقترن باسم (الإسلام)، بينما إذا ذكرت حقيقة الإيمان الشرعية بإطلاق فإن المراد حينئذ يشمل بالإضافة إلى تصديق القلب وفعله قول اللسان وعمل الجوارح، وهو قول

(*) الأركان جمع ركن، وركن الشيء جانبه الأقوى الذي يُعتمد عليه وتحصل به القوة. انظر: مقاييس اللغة: (ص ٣٩٨)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٣٨٤).

(١) يطلق بعض أهل العلم لفظ (اعتقاد القلب) أو (المعتقدات والنيات) أو (علم الباطن) أو (أعمال القلب) ويريد بها ما يشمل تصديق القلب وعمله، ومن ثم يضمّن هذا اللفظ معنى التصديق وما يقارنه من أعمال القلب كالمحبة والتوكل، والخوف والرجاء.. انظر: الإيمان: (ص: ١٦٢، ١٦٣)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٠٥ - ٥٠٦، ١٣/ ٢٣٢ - ٢٣٣)، فتح الباري: (١/ ١٠٥).

أكثر أهل السنة.[١]

والعبارة المشهورة لكثير من أئمة السلف (الإيمان قول وعمل)[٢] يراد بها ما ذكر آنفًا من قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح.[٣]

وبين قول القلب وعمله علاقة وثيقة، إذ القول أصل، والعمل ثمرة تابعة له، ومن ثَمّ فإن الاعتقاد الجازم في القلب يستلزم حركة القلب محبة وتعظيمًا، وخشية وإجلالاً، ولا يتصور أن يصدق عبد بالله ورسوله فيدخل في دائرة الإيمان، دون أن يتحرك قلبه بمحبة الله جل شأنه، ومحبة رسوله ﷺ، ولا يمكن أن يكون إيمان القلب تامًا بمجرد العلم والاعتقاد، دون لازم ذلك من أعمال القلوب.[٤]

يقول ابن تيمية: (وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو حب الله ورسوله، وتعظيم الله ورسوله، وتعزير الرسول وتوقيره، وخشية الله

---

(١) انظر: الاعتقاد للبيهقي: (ص:٨٠)، لوامع الأنوار البهية للسفاريني، ط٢، مؤسسة الخافقين: (١/ ٤٠٣ - ٤٠٥، ٤٢٦)، الإيمان: (ص: ١٠ - ١١، ٢٩٢ - ٢٩٥، ٣١٣ - ٣١٤)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٢)، جامع العلوم والحكم: (١/ ١٠٤ - ١٠٨).

(٢) انظر: صحيح البخاري: (١/ ١١)، اعتقاد أهل السنة لأبي القاسم اللالكائي، طبعة دار طيبة: (٥/ ٨٨٩).

(٣) انظر: الإيمان: (ص: ١٦٣، ١٧٦ - ١٧٧)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٠٥ - ٥٠٦، ٦٧٢، ١٠/ ٢٦٨، ٢٧٢)، شرح الطحاوية: (ص: ٣١٠).

(٤) انظر: الإيمان: (ص: ٣٤٧)، طهارة القلوب لعبد العزيز الديريني، ط٢، دار الفجر: (ص: ٩ - ١٠).

والإنابة إليه، والإخلاص له والتوكل عليه، إلى غير ذلك من الأحوال، فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان، وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجاب العلة المعلول، ويتبع الاعتقاد قول اللسان، ويتبع عمل القلب عمل الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك).[١]

(فمجرد علم القلب بالحق، إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه، مثل محبة القلب له، واتباع القلب له، لم ينفع صاحبه).[٢]

وقال ابن رجب: (ويدخل في مسمى الإيمان وجل القلوب من ذكر الله، وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه، وزيادة الإيمان بذلك، وتحقيق التوكل على الله، وخوف الله سرًا وعلانية، والرضا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا..).[٣]

ولكلٌ من قول القلب وعمله أسس وأركان.

أما قول القلب المتمثل في علمه واعتقاده وتصديقه فإن شعبه وأنواعه كثيرة[٤] على التفصيل، لكن أركانه وأصوله[٥] مقررة في حديث جبريل

---

(١) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٢)، وانظر: (١٣/ ٢٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢٧١)، وانظر: (٢٧٢، ٧٥٨ - ٧٥٩).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ١١٦).

(٤) انظر: ترجمان شعب الإيمان للبلقيني، ط١، مكتبة العلوم والحكم: (ص: ٦٢ - ٦٩).

(٥) انظر: الإيمان لابن مندة ط٢، مؤسسة الرسالة: (١/ ١٢٣ - ١٢٥)، صيانة صحيح مسلم لابن الصَّلاح، ط٢، دار الغرب الإسلامي: (ص: ١٣٤)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٢)، تيسير العزيز الحميد: (ص: ٦٨٩ - ٦٩٠)، العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن الميداني، ط٥، دار القلم: (ص: ٧٨ - ٧٩)، العقيدة في الله: (ص: ١٠).

المشهور، والذي يتضمن سؤاله ﷺ رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال ﷺ: [أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره].(١)

وهذا الجواب منه عليه الصلاة والسلام يثبت للإيمان ستة أركان، تضمنها القرآن الكريم في أكثر من آية كريمة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وفيما يلي إشارة إلى المراد بكل ركن منها:

١- الإيمان بالله جل وعلا هو التصديق الجازم بأنه تبارك وتعالى إله واحد في ربوبيته وألوهيته، موصوف بصفات الكمال، منزه عن

---

(١) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الطويل في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان: (١/ ٣٦ - ٣٧).

العيب والنقص سبحانه.

٢- الإيمان بالملائكة هو التصديق الجازم بهم، وأنهم عباد لله مطيعون لأمره، قائمون بوظائفهم التي كلفهم الله جل وعلا بها.

٣- الإيمان بالكتب هو التصديق الجازم بكتبه المنزلة على رسله عليهم السلام، وأنها من كلامه تبارك وتعالى، متضمنة للحق والهدى في شرعه ودينه جل شأنه.

٤- الإيمان بالرسل عليهم السلام هو التصديق الجازم بهم دون تفريق بينهم، وبأنهم صادقون فيما أخبروا به عن ربهم سبحانه، وفيما بلغوا من كتبه ورسالاته.

٥- الإيمان باليوم الآخر هو التصديق الجازم بيوم القيامة وما يشتمل عليه من البعث والحساب والجنة والنار.

٦- الإيمان بالقدر هو التصديق الجازم بأن جميع الكائنات بقضائه وتقديره، وكل خير أو شر يحدث بإرادته وعلمه، ولا يكون شيء إلا بإذنه ومشيئته تبارك وتعالى.

هذه الأصول الستة يجب على العبد الإيمان بها على سبيل الإجمال، ثم على سبيل التفصيل فيما يصل إليه علمه من الكتاب العزيز وصحيح السنة الشريفة.(١)

---

(١) انظر: شرح الأربعين النووية لابن دقيق: (ص: ٥٠ - ٥١)، الإيمان: (ص: ٢٩٦- ٢٩٧)، جامع العلوم والحكم: (١/ ١٠٢ - ١٠٣)، فتح الباري: (٢/ ١٩٦ - ١٩٨)، الكواشف الجلية: (ص: ٥٣ - ٨٤).

وأما أعمال القلوب فان دعائمها وأركانها تتمثل في ثلاث عبادات قلبية: المحبة، والخوف، والرجاء.

ذلك أن العبادة لله تعالى تعني غاية الحب والذل وكمالهما، والتذلل لله جل وعلا يتضمن خوفه ورجاءه[1]، فإذا قارن ذلك ولازمه محبة لله سبحانه أثمر تحقيقًا للأسس والقواعد الرئيسة التي تحرك القلب في عبوديته لله تبارك وتعالى، إذ هو جل شأنه الإله الذي تألهه القلوب محبة ورجاء وخوفًا.[2]

وعلى هذه الأركان الثلاثة تنبني وتقوم كافة أعمال القلوب الأخرى، كالصبر والرضا، والزهد والشكر، والتوكل والإنابة، والحياء والإخلاص، والتضرع والخشوع، وغيرها، بل هذه الأركان هي مدار السير إلى الله تعالى بجميع مقامات الإيمان والإحسان.[3]

وبزوال هذه الأركان لا يبقى في القلب عبودية لله أصلًا.

يقول ابن تيمية: (ما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه، بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادًا لا يرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه

(١) انظر: تفسير الطبري: (١/ ٦٩)، تفسير ابن كثير: (١/ ٢٥).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (١/ ٩٥ - ١٨/ ٣١٩)، مدارج السالكين: (٣/ ٢٣).

(٣) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٣٩)، التفسير القيم لابن القيم، جمع محمد الندوي، دار العلوم الحديثة: (ص: ٢٥٦).

بحسبه).[1]

ويقول ابن القيم: (القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان، فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد كاسر) ثم قال: (فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه).[2]

وبين هذه الأركان الثلاثة ترابط كبير، وتلازم وثيق، وقد جمع الله تعالى بينها في قوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

والمقصود باسم الإشارة عيسى ابن مريم وأمه وعزير والملائكة عليهم السلام، ونحوهم ممن كان يعبدهم بعض طوائف المشركين بزعم التقرب بهم إلى الله تعالى.

والمعنى أن هؤلاء المعبودين هم أنفسهم يتجهون إلى الله تعالى بالعبادة، يبتغون القرب منه جل وعلا، ويرجون رحمته وثوابه، ويخافون سطوته وعقابه.[3]

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢١).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٣٩٢).

(٣) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ١٢٠)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٣١٦ - ٣١٧)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٨١)، تفسير النسفي: (٢/ ٢٥٣ - ٢٥٤)، نظم الدرر: (٤/ ٣٩٦ - ٣٩٧).

قال ابن القيم في تفسير الآية الكريمة: (يقول الله تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني هم عبادي، يتقربون إلي بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني، فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم، من الحب والخوف والرجاء).(١)

فالآية الكريمة تضمنت رجاء الرحمة وخوف العذاب، كما تضمنت مقامًا ثالثًا، هو طلب القرب والتوسل إليه سبحانه بالعمل الصالح، إشارة إلى وصف المحبة، فاجتمع بذلك شمل المقامات الثلاثة التي عليها بناء العبودية لله تعالى.(٢)

والأصل أن هذه الأركان الثلاثة لا ينفك بعضها عن الآخر، بل كلّ منها يمد الآخر ويقويه، وكلما تمكنت محبة الله تعالى في قلب العبد قوي خوفه واشتد رجاؤه ولابُدّ.

يقول ابن القيم: (وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء، فكل محب راج خائف بالضرورة، فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه، وكذلك خوفه، فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرد محبوبه له، وإبعاده واحتجابه عنه، فخوفه أشد خوف، ورجاؤه ذاتي للمحبة، فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه، فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء لما يحصل له به من حياة روحه ونعيم قلبه).(٣)

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠).
(٢) انظر مدارج السالكين: (٢/ ٣٥، ٣/ ٢٠).
(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠)، وانظر: (٢/ ٤٧).

هذه الأصول الثلاثة لابد من التوازن بينها مجتمعة في قلب العبد، بحيث (يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء).(١)

ذلك أن المسافر السائر في الطريق يحتاج إلى محبة تقوده وتحركه وتبعث فيه الشوق إلى السير الحثيث، وإلى رجاء يشجعه ويؤمله ويطمعه في المآل الطيب والعاقبة الحسنة للمسير، وإلى خوف يزجره عن التوقف ويمنعه من الخروج عن الطريق.

أما الغلو في أحد هذه الأركان، والإفراط فيه، بحيث يستغرق القلب فيه دون غيره، فإن لذلك أثرًا سلبيًا على العبد، قد ينزلق به إلى نوع من أنواع الضلال والانحراف عن المنهج الشرعي الصحيح.

والى هذا المعنى تتجه عبارة مكحول الدمشقي(٢) حين قال: (من عبد الله بالخوف فهو حروري(٣)، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ(٤)، ومن عبده

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٤٦)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢١)، العقيدة في الله: (ص: ٢٣٣-٢٣٤).
(٢) هو مكحول الدمشقي، أبو عبد الله، من فقهاء التابعين، عالم أهل الشام، كان مولى لهذيل، توفي سنة اثنتي عشرة ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٩٣٠ - ٣٩٣١)، طبقات الحفاظ: (ص: ٤٩).
(٣) الحرورية طائفة من الخوارج الذين تضمن مذهبهم تكفير مرتكب الكبيرة، نسبة إلى حروراء، موضع قريب من الكوفة، انحاز إليه الخوارج واجتمعوا فيه بعد صفين. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٦٦)، تاريخ الفرق الإسلامية لعلي الغرابي، ط٢، (ص: ٢٦٤).
(٤) المرجئة فرقة تتضمن عقائدهم إرجاء العمل عن الإيمان، أي تأخيره، يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فالفاسق عندهم كامل الإيمان مهما فعل من المعاصي أو ترك من الطاعات. انظر: الملل والنحل للشهرستاني، دار المعرفة، (١/ ١٣٩)، شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين، ط٢، مكتبة الإمام البخاري: (ص: ١٦٢ - ١٦٣).

بالمحبة فهو زنديق[١]، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد).[٢]

قال ابن رجب: (وسبب هذا أنه يجب على المؤمن أن يعبد الله بهذه الوجوه الثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، ولا بدّ له من جميعها، ومن أخل ببعضها فقد أخل ببعض واجبات الإيمان).[٣]

والمقصود أن تغليب المحبة على وجه الغلو والإفراط، مجردة عن الخوف، غير مقرونة بالخشية، يوصل العبد إلى الغرور، والتساهل في أمر الشرع، والتواني عن الواجبات، والخروج عن التكليف أمرًا ونهيًا، ومن ثَمّ يحصل الضرر بدل الانتفاع.

ولذا نقل أبو طالب المكي[٤] قول بعض الأئمة: (من عرف الله من طريق المحبة بغير خوف هلك بالبسط والإدلال).[٥]

---

(١) الزنديق بكسر الزاي، والاسم الزندقة، قيل هو المبطن لكفره السابق مظهر للإسلام، كالمنافق، وقيل من لا دين له، وقيل من لا يؤمن بالآخرة والربوبية، وقيل غير ذلك. انظر: ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٤٨١)، عمدة القاري: (٢٤/ ٧٩).

(٢) قوت القلوب: (١/ ٤٨٤)، إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٩)، وذكرها ابن تيمية في التحفة العراقية: (ص: ٤٤٥)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢٠٧، ١٥/ ٢١)، وابن رجب في التخويف من النار، ط١، دار البيان: (١/ ١٧)، وابن أبي العز في شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٧).

(٣) التخويف من النار: (ص: ١٧).

(٤) هو محمد بن علي بن عطية، أبو طالب المكي، من الزهاد الوعاظ المجتهدين في العبادة، سمع الحديث وروى عن غير واحد، من مصنفاته قوت القلوب، توفي سنة ست وثمانين وثلاث مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٥٨٩)، البداية والنهاية: (١١/ ٣٦٥ - ٣٦٦).

(٥) قوت القلوب: (٢/ ١١٦).

(وذلك لأن الحب المجرد ودعواه تتبسط النفوس فيه حتى تتوسع أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله).[١]

وفي المقابل فإن تغليب جانب الخوف على سبيل الإفراط ومجاوزة الحد الشرعي يؤدي بالعبد إلى اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى، وقطع الطمع في مغفرته جل وعلا، ومن ثم ترك الطاعة والتكاسل عنها، و الانهماك في المعصية واعتيادها.[٢]

كما يمكن أن يدفع العبد إلى المنهج التكفيري المغالي في التعامل مع أهل الكبائر من المسلمين، فيحكم بكفرهم، كما فعل الخوارج[٣]، ويقرر خلودهم في النار، كما قال المعتزلة[٤].[٥]

وكذلك فإن الإفراط ومجاوزة الحد في جانب الرجاء قد يوقع العبد في

---

(١) التحفة العراقية: (ص: ٤٤٥)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢٠٧، ١٥/ ٢٠ - ٢١).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٩)، تفسير النسفي: (٣/ ٢١١)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٥٧٧)، شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٦).

(٣) الخوارج هم الذين خرجوا على علي ﷺ، من عقائدهم تكفير فاعل الكبيرة وتخليده في النار، وهم فرق كثيرة. انظر: الملل والنحل: (١/ ١١٤ - ١١٥)، تاريخ الفرق الإسلامية: (ص: ٢٦٤)، ومابعدها، شرح لمعة الاعتقاد: (ص: ١٦٢).

(٤) المعتزلة هم أتباع واصل بن عطاء، الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، من عقائدهم أن الفاسق مرتكب الكبيرة مخلد في النار، خارج من الإيمان في منزلة بين منزلتين: الإيمان والكفر. انظر: الملل والنحل: (١/ ٤٣ - ٤٥)، شرح لمعة الاعتقاد: (ص: ١٦٣).

(٥) انظر: قوت القلوب: (١/ ٤٧٨ - ٤٧٩، ٢/ ١١٦).

الاغترار والأمن من مكر الله جل شأنه، والانكفاء عن الالتزام بفرائض الله تعالى وعن العمل بطاعته، وإلى التقصير والتساهل في شأن المعصية والمخالفة.[١]

بل قد يصل بالعبد إلى اعتقاد أن الموحّد لا يدخل النار أبدًا، وأن الذنب لا يضر مع الإيمان مطلقًا، كما قالت المرجئة.[٢]

وفي المسألتين التاليتين عرض لهذه الأسس الثلاثة على سبيل الإيجاز:

المسألة الأولى: المحبة.

وهي أوثق الأركان الثلاثة وأقواها، وأجلّها وأعلاها، إذ هي في مقام الأصل لأعمال القلب، والقاعدة لحركاته، والأساس لإراداته، وعنها تنشأ وتصدر كافة أفعال القلوب والجوارح في دائرة العبادة لله جل وعلا.

بل هي الغاية القصوى، والمقصد الأعلى، الذي وجد القلب لتحقيقه وبلوغه.[٣]

وإذا تحققت المحبة وتمكنت في القلب تبعها كل من الخوف والرجاء،

(١) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٨)، المسائل في أعمال القلوب والجوارح للمحاسبي: (ص: ٧٠ – ٧١)، تفسير النسفي: (٣/ ٢١١).

(٢) انظر: قوت القلوب: (١/ ٤٧٨ - ٤٧٩).

(٣) انظر: قوت القلوب: (٢/ ٩٩)، إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٨٩)، التحفة العراقية: (ص: ٣٧٣)، مجموع الفتاوى: (١/ ٩٥، ١٣٤ – ١٣٥)، مدارج السالكين: (١/ ٨٤، ٣/ ٢٣)، إغاثة اللهفان: (٨٤٠ ، ٩٣٠ - ٩٣٣)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٤٢٠).

ولازمها، وعاد إليها، وذلك باعتبار أن المحبة تجذب القلب إلى الله سبحانه، فيتقلب المحب حينئذ بين الخوف والرجاء، الخوف من فوات ما يطلبه من رضا ربه سبحانه وثوابه، والرجاء في تحقق ما يطمع فيه ويأمله من ذلك، فيفرّ من محل الخوف ومصدره لينال مرغوبه ومراده.

ومن ثم يقبل العبد على ربه تبارك وتعالى، وينبعث إلى سلوك الصراط المستقيم الموصل إلى محبوبه وهو الله جل شأنه، وعلى قدر تلك المحبة في القلب وضعفها يكون السير في طريق الاستقامة على أمر الله وشرعه ﷻ.[١]

ولذا كانت منزلة المحبة أعلى، ومقامها أرفع من منازل الخوف والرجاء.[٢]

ومن المعتبر في ذلك أن المحبة عبادة مرادة لذاتها، ولذلك تستمر وتبقى مع المؤمنين في الجنة، بينما تزول عنهم عبادة الخوف، باعتبارها وسيلة مقصودة لغيرها[٣]، كما قال الله جل وعلا: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

(١) انظر: التحفة العراقية: (ص: ٣٩٩)، العبودية: (ص: ١٠٣ - ١٠٤).

(٢) انظر: مدارج السالكين: (١/ ٣٩٠).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (١/ ٩٥)، مدارج السالكين: (١/ ٣٩٠).

وقد عرّف بعض الأئمة المحبة بأنها: (ميلك إلى الله بكليتك، وإيثارك له على نفسك وأهلك ومالك، وموافقتك له سرًا وجهرًا، ثم اعترافك بالتقصير في حبه).(١)

ومن الأقوال في تعريف المحبة أيضًا أنها: (موافقة القلب لمراد الرب).(٢)

وهو تعريف لها بلازمها ومقتضاها.

ومن ثَمَّ قال ابن القيم: (لا تُحدُّ المحبة بحدّ أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدّها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من (المحبة)، وإنما يتكلم الناس في أسبابها موجباتها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة..).(٣)

هذه المحبة لله ﷻ يحرّك بواعثها العلم بالله تبارك وتعالى، ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله، وما هو أهل له سبحانه من العظمة والجلال.

---

(١) حدائق الحقائق: (ص: ١٤٠)، وانظر: قوت القلوب: (٢/ ١١٧)، مدارج السالكين: (٣/ ١٢ – ١٦)، روضة المحبين: (ص: ٢٧٩)، شرح الطحاوية: (ص: ١١٧ – ١١٨).

(٢) حدائق الحقائق: (ص : ١٤٠) ، وانظر بصائر ذوي التمييز : (٢ / ٤١٦ – ٤١٧)، مدارج السالكين: (٣/ ١٢).

(٣) مدارج السالكين: (٣/ ١٠).

ولذا قال الحسن البصري: (من عرف الله أحبه).(١)

كما يحرّكها في القلب النظر إلى نعمه وآلائه، والتفكر في مظاهر إحسانه تبارك وتعالى.(٢)

وقد فرض الله تعالى محبته على عباده، وجعلها مقدمة على جميع المحبوبات، وتوعّد من يقدم محبة غيره على محبته جل وعلا(٣)، فقال سبحانه ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وأثنى تبارك وتعالى على عباده المؤمنين بوصف المحبة له فقال سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) الأربعين في أصول الدين لأبي حامد الغزالي، ط١، دار الكتب العلمية: (ص: ١٥٠ – ١٥١)، والقول مروي أيضا عن عتبة بن أبان البصري ، المعروف بعتبة الغلام ، من أتباع التابعين ، بلفظ (من عرف الله أحبه، ومن أحبه أطاعه) انظر: حلية الأولياء: (٦ / ٢٣٦) ، سير أعلام النبلاء: (٢ / ٢٦٤٥).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٩٨ – ٤٠٥)، الأربعين في أصول الدين: (ص: ١٥٢ – ١٥٥)، التحفة العراقية : (ص: ٤٤٩ – ٤٥٢) .

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٨ / ٦٢).

كما وصفهم بشدة المحبة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي المقابل ذم كفار مكة وأشباههم بوصف المحبة للدنيا وتقديمها على محبة الله سبحانه، وذلك على وجه الإنكار عليهم، فقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

كما ذم الله جل وعلا من يجعل مرغوبه ومحبوبه الذي يهواه إلها يطيعه، ويتبعه سائر حياته، ويقدمه على شرع الله تعالى. قال جل شأنه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وأنكر جل شأنه على اليهود الذين عكفوا على عبادة العجل، وتوجهت قلوبهم لمحبته من دون الله تعالى، ولذا وصفهم ﷻ بقوله: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

والمعنى (أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم).[1]

فلما تمكن حب العجل من قلوبهم، ولازمها وخالطها، عبدوه من دون الله تعالى.[2]

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ١٢٦).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٩٥)، تفسير القرطبي: (٢/ ٢٣)، تفسير النسفي: (١/ ٧١).

وتوجّه الذم والتوبيخ أيضًا للمشركين بالله جل وعلا في عبادة المحبة كما في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فالآية الكريمة تخبر أن هؤلاء الذين يحبون أوثانهم ومعبوداتهم المدّعاة كحبهم لله تعالى هم في الواقع جعلوها أندادًا ونظراء لله جل شأنه، ومن ثم وقعوا في دائرة الشرك به سبحانه، بالتسوية بينه وبين الأوثان في العبادة.

وفي معنى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ قولان أوردهما المفسرون[1]:

أحدهما: أن المشركين يحبون أصنامهم كما يحب المؤمنون ربهم سبحانه.

والثاني: أن المشركين يحبون آلهتهم المزعومة كما يحبون الله تعالى.

ورجح بعض أهل التفسير القول الثاني باعتبار قول الله تعالى بعد ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فالمؤمنون أعظم محبة لله تعالى، لأنها محبة خالصة كلها له ﷻ، قائمة على التوحيد له سبحانه، بينما هي ليست كذلك عند المشركين.[2]

المسألة الثانية: الخوف والرجاء.

الخوف عبادة قلبية عظيمة، بل هي من أعلى منازل عبودية القلب

(١) انظر: تفسير البغوي: (١/ ١٣٦)، تفسير القرطبي: (٢/ ١٣٧)، تفسير النسفي: (١/ ١٠٦).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٢٠٢)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٣٥٩)، التحفة العراقية: (ص: ٣٨٩ - ٣٩٠)، مدارج السالكين: (٣/ ١٨ - ١٩).

وأجلها، وأكثرها ثمرة ونفعًا، واشتمال قلب المؤمن عليها علامة على صحة ما فيه من الإيمان، كما أن مفارقته له علامة على خرابه كما قال أبو سليمان الداراني[1].[2]

وقد عُرِّف الخوف بأقوال منها:

(عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال).[3]

(توقع مكروه أو فوات محبوب).[4]

(اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف).[5]

والأقوال متقاربة المعنى.

وقد أمر الله تعالى عباده بالخوف، وأوجبه عليهم، وجعله شرطًا في صحة إيمانهم، فقال تعالى:

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد، وقيل ابن عطية، العَنْسي، أبو سليمان الداراني، من أهل (دَارَيًّا) من قرى دمشق، إمام عابد زاهد، روى عن سفيان الثوري وغيره، توفي سنة خمس عشرة ومائتين.
انظر: طبقات الصوفية: (ص:٧٥-٨٢)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٩٠٩ - ١٩١٠).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٤)، مدارج السالكين: (١/ ٣٩١)، عجائب القرآن: (ص:١٣٠-١٣١).

(٣) هو تعريف أبي حامد الغزالي. إحياء علوم الدين: (٤/ ٢٠٥)، الأربعين في أصول الدين: (ص: ٤٠).

(٤) هو تعريف شمس الدين الرازي. حدائق الحقائق: (ص: ٤٠)، وانظر: المفردات: (ص: ١٦٦)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٥٧٦).

(٥) مدارج السالكين: (١/ ٣٨٨)، وانظر تفسير القرطبي: (٧/ ١٤٥).

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وأثنى سبحانه على أهله المتصفين به فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وأمر رسوله ﷺ بإعلانه والجهر به، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥، وسورة الزمر: ١٣].

وللخوف أسبابه ومحرّكاته في قلب المؤمن، فقد يتذكر العبد ذنوبه فيخاف، وهذه مرتبة عظيمة، تؤهل المؤمن للتوبة والإنابة، وقد يتذكر العبد ربه، ويزداد علمه بأسمائه وصفاته وجلاله، فيهاب ويخاف ويخشى، وتلك مرتبة أعلى وأعظم.

يقول الغزالي: (وقد يكون ذلك الخوف من جريان ذنوب، وقد يكون الخوف من الله تعالى بمعرفة صفاته التي توجب الخوف لا محالة، وهذا

أكمل وأتم، لأن من عرف الله خافه بالضرورة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].(١)

ولا ريب أن الخوف يُحمد حين يكون له أثره في الحيلولة بين العبد وبين معصية الله تعالى، وفي نهزه إلى طاعة الله والالتزام بشرعه، والترقي في مقامات العبودية.

قال أبو سليمان الداراني: (إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوات وطرد الغفلة من القلب).(٢)

ويقول ابن القيم: (الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ﷻ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط).(٣)

وفي مقابل الخوف الرجاء، وهو بمعنى الأمل والطمع.

قال أبو طالب المكي: (الرجاء اسم لقوة الطمع في الشيء، بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشيء، ولذلك أقام الله تعالى الطمع مقام الرجاء في التسمية(٤)، وأقام الحذر مقام الخوف(٥)).(٦)

---

(١) الأربعين في أصول الدين: (ص: ١٢٠)، وانظر إحياء علوم الدين: (٤/ ٢٠٩).

(٢) طبقات الصوفية: (ص: ٨١).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٣٩٠).

(٤) وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

(٥) وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

(٦) قوت القلوب: (١/ ٤٣٤).

وقد ورد في تعريف الرجاء أقوال منها:

(النظر إلى سعة رحمة الله).(١)

(تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل).(٢)

(قرب القلب من لطف الرب).(٣)

(الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه).(٤)

والأقوال متقاربة.

ومقام الرجاء عظيم، إذ هو من أجل منازل العبودية وأشرفها وأعلاها، يحدو قلب العبد إلى ربه تبارك وتعالى، ويطيّب له السير في سبل الطاعة والإنابة، ويقوده إلى رضا الرحمن والخضوع لأمره، ويسوقه إلى منازل الآخرة ونعيمها، ويبشره بحلاوة العاقبة، ويذكّره بلذتها ومتاعها، ولولاه لما سار إلى الله أحد.(٥)

ولذا كان الرجاء وصفًا ثابتًا من أوصاف أهل الإيمان(٦)، أمرهم الله به، ومدحهم و أثنى به عليهم . يقول الله سبحانه:

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٦).

(٢) قاله شمس الدين الرازي في حدائق الحقائق: (ص: ٤٣)، وانظر تفسير القرطبي: (٧/ ١٤٥).

(٣) حدائق الحقائق: (ص: ٤٣).

(٤) مدارج السالكين: (٢/ ٣٥).

(٥) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٤٦ – ٤٧).

(٦) انظر: قوت القلوب: (١/ ٤٣٤).

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

واخبر سبحانه أن من رجاه ﷻ وقام بلازم ذلك الرجاء فإن الله تعالى سيحقق أمله، وسيوفيه ثوابه كاملاً وافيًا.(١)

قال جل وعلا: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

وفي المقابل ذم الكافرين فوصفهم بعدم الرجاء في ثواب الله، وعدم الطمع في جنته.(٢)

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٠٤)، تفسير النسفي: (٢/ ٦٧٢).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (١٧/ ٣٨).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢٧ - ٢٨].

والمؤمن في مراحل سيره في طريق العبودية في أمس الحاجة إلى تتابع رجائه لربه تبارك وتعالى، إذ يرجو غفرانا لمعصية وتجاوزا عن سيئة، أو قبول طاعة وكتب حسنة، أو إقالة عثرة وعفوا عن خطيئة، أو دوام استقامة وحسن خاتمة، أو تنزل رحمة ورفعة منزلة عند الله سبحانه.(١)

وحتى يتحقق اسم الرجاء فلا بد من العمل بأسبابه، والسعي في حصولها، وإلا أصبح الرجاء تمنيًا أو غرورًا.

يقول الغزالي: (الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظارًا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره، لأنه انتظار من غير سبب) ثم قال: (اسم

(١) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٤١).

الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات).(١)

والعلاقة بين مقامي الرجاء والخوف علاقة تكامل وتلازم وترابط وثيق، ولذلك قد يطلق لفظ الرجاء ويراد به الخوف.(٢) كما في قول الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] والمعنى (مالكم لا تخافون لله عظمة).(٣)

قال الراغب: (ووجه ذلك أن الرجاء والخوف يتلازمان).(٤)

وقال القرطبي: (والرجاء أبدًا معه خوف ولابد، كما أن الخوف معه رجاء).(٥)

وقال أبو طالب المكي: (الخوف باطنه الرجاء، والرجاء باطنه الخوف، ولذا يطلق لفظ الرجاء على الخوف).(٦)

---

(١) إحياء علوم الدين: (٤/ ١٨٨)، وانظر: الأربعين: (ص: ١٢٢)، المسائل في أعمال القلوب: (ص: ٧٠).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٥)، تفسير القرطبي: (٣/ ٣٥، ٨/ ١٩٩).

(٣) تفسير الطبري: (٢٩/ ٩٥)، وانظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٤٨٧)، حدائق الحقائق: (ص: ٤٣)، شجرة المعارف: (ص: ٧٢).

(٤) المفردات: (ص: ١٩٤).

(٥) تفسير القرطبي: (٣/ ٣٤).

(٦) قوت القلوب: (١/ ٤٣٦)، وانظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٦).

وقال أيضًا: (من لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء، ومن لم يقم في مقام الخوف لم يرفع إلى مقامات أهل الرجاء على صحة وصفاء) ثم قال: (ومن علامة صحة الرجاء في العبد كون الخوف باطنًا في رجائه، لأنه لما تحقق برجاء شيء خاف فوته لعظم المرجو في قلبه وشدة اغتباطه به، فهو لا ينفك في حال رجائه من خوف فوت الرجاء).(١)

وقال شمس الدين الرازي: (واعلم أن الرجاء لا يتحقق إلا مع الخوف، كما أن الخوف لا يتحقق إلا مع الرجاء، فهما متلازمان، لأن الرجاء بلا خوف أمن في الحقيقة، والخوف بلا رجاء قنوط في الحقيقة ويأس من رحمة الله تعالى).(٢)

ويقول أبو حامد الغزالي: (كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف، لأنهما متلازمان، فإن كل من رجا محبوبًا فلابد وأن يخاف فوته، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذًا لا يحبه، فلا يكون بانتظاره راجيًا، فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه).(٣)

---

(١) قوت القلوب: (١/ ٤٣٥)، وانظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٦).

(٢) حدائق الحقائق: (ص: ٤٣)، وانظر: المسائل في أعمال القلوب: (ص: ٧١)، مدارج السالكين: (٢/ ٤٧).

(٣) إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٤).

ولذا شبّه عدد من الأئمة هذين المقامين للمؤمن بالجناحين للطائر، لابُدّ لسلامة طيرانه من سلامتهما معًا.(١)

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تجمع وتقرن بين الرجاء والخوف، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والثواب والعقاب، والجنة والنار.

يقول الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠].

فدلت الآيتان الكريمتان على مقامي الرجاء والخوف.(٢)

يقول القرطبي: (هذه الآية وزان قوله ﷺ: [لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد](٣)).(٤)

وقد أثنى القرآن على المؤمنين بالوصفين معًا في أكثر من آية كريمة.

يقول الله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

---

(١) انظر: قوت القلوب: (١/ ٤٣٤، ٤٣٦)، إحياء علوم الدين: (٤/ ١٨٧)، مدارج السالكين: (٢/ ٣٦).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٥٣).

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه: (٣/ ٢١٠٩).

(٤) تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٣).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المعاصي، وبالرجاء يكثر من الطاعات).(١)

ويقول سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

قال النسفي: (دلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته لا عمله، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله).(٢)

كما قرن القرآن بين هاتين العبادتين الجليلتين في الأمر بهما والدعوة إليهما وذلك في قول الله جل وعلا: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال القرطبي: (أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتخوف وتأميل لله ﷻ، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر، يحملانه في

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٧).

(٢) تفسير النسفي: (٣/ ٢١١)، وانظر تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٧).

طريق استقامته، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان).(١)

هذا الاقتران بين المقامين في الآيات الكريمات يدل على أن الأصل في الخوف والرجاء أن يعتدلا في قلب العبد، بحيث يتنقل بينهما بصورة متساوية، لا يترجح أحدهما على الآخر، مثله في ذلك مثل الطائر في حاجته إلى استواء جناحيه ليصح ويتم طيرانه، فإذا وقع النقص في أحدهما حدث الخلل، وإذا انتفيا بالكلية صار الطائر إلى حتفه وموته.(٢)

وهذا القول منقول عن بعض السلف أن (أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه).(٣)

وهو المراد من قول مطرف بن عبد الله(٤) (لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا).(٥)

---

(١) تفسير القرطبي: (٧/ ١٤٥)، وانظر تفسير الطبري: (٨/ ٢٠٧).

(٢) انظر: حدائق الحقائق: (ص: ٤٣)، مدارج السالكين: (٢/ ٣٦)، الآداب الشرعية: (٢/ ٣٢).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٣٩٢)، وانظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٨)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢١٠).

(٤) هو مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، أبو عبد الله العامري البصري، إمام قدوة حجة. توفي سنة ست وثمانين، وقيل غير ذلك. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٢٢٢ – ٢٢٦)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٨٦٢ – ٣٨٦٥).

(٥) قوت القلوب: (١/ ٤٣٦)، ورواه أحمد في الزهد: (ص: ٢٩٢) بلفظ: (لو وزن رجاء المؤمن وخوفه ما رجح أحدهما صاحبه)، وانظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٧)، كشف الخفاء: (٢/ ٢١٦).

قال ابن تيمية معلقًا على قول مطرف: (وهو كلام صحيح).(١)

يقول سهل بن عبد الله:(٢) (الرجاء والخوف زمانان على الإنسان، فإذا استويا استقامت أحواله، وإذا رجح أحدهما بطل الآخر).(٣)

وفي المسألة قول ثان يجعل اعتدال الخوف والرجاء إنما هو في حق التقي المستقيم على طاعة الله تعالى، أما من غلب عليه العصيان فالأفضل في حقه تغليب جانب الخوف حتى يعود إلى طاعة الله سبحانه.

يقول أبو حامد الغزالي: (لا ينبغي أن يفرط ـ أي الخوف ـ بحيث يورث القنوط، فذلك مذموم، بل إذا غلب ينبغي أن يمزج الرجاء به، نعم ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء مادام العبد مقارفًا للذنوب، فأما المطيع المتجرد لله تعالى فينبغي أن يعتدل خوفه ورجاؤه).(٤)

ويرى بعض العلماء التفريق في ذلك بين حال الصحة وحال المرض، فالأفضل في حال الصحة والأمل في الحياة تقوية جانب الخوف وترجيحه.(٥)

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٨/ ٣٧٩)، وانظر: كشف الخفاء: (٢/ ٢١٦).

(٢) هو سهل بن عبد الله بن يونس، أبو محمد التستري، واعظ زاهد، توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين. انظر: طبقات الصوفية: (ص: ٢٠٦ – ٢١١)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٩٤٩ – ١٩٥٠).

(٣) تفسير القرطبي: (١٠/ ١٨١).

(٤) الأربعين في أصول الدين: (ص: ١٢٢)، وهو قول الرازي. انظر: عجائب القرآن: (ص: ١٤٣).

(٥) انظر: قوت القلوب: (١/ ٤٤٢)، مدارج السالكين: (١/ ٣٩٢)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢١٠).

وهو قول الغزالي(١) والقرطبي(٢) وغيرهما، واستدل له ابن كثير(٣) بتقديم الخوف على الرجاء في قول الله تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

ونقل ابن القيم عن أبي سليمان الداراني قوله: (ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد).(٤)

أما في حال المرض واقتراب الأجل فإن الأولى حينئذ تغليب جانب الرجاء باعتباره داعيًا إلى محبة الله تعالى ولقائه، باعثًا إلى حسن الظن به جل وعلا.(٥)

يقول الفضيل بن عياض: (الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحًا، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف).(٦)

ويقول أبو حامد الغزالي: (والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح

(١) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٩ – ٢٢٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٣، ٧/ ١٤٥).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٧).

(٤) مدارج السالكين: (١/ ٣٩٢)، وانظر: طبقات الصوفية: (ص: ٧٦).

(٥) انظر: قوت القلوب: (١/ ٤٤٢)، إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٩)، الأربعين في أصول الدين: (ص: ١٢٢)، تفسير القرطبي: (٧/ ١٤٥، ١٠/ ٢٣)، مدارج السالكين: (١/ ٣٩٢)، الآداب الشرعية: (٢/ ٣٢).

(٦) حلية الأولياء: (٨/ ٨٩)، وانظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٣٠٤٥).

لأنه أجلب للمحبة، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات، وأقمع لمحبة الدنيا في القلب).(١)

وقال ابن كثير: (فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه).(٢)

عن جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ قال: سمعت رسول ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: [لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ﷻ].(٣)

قال النووي: (قال العلماء: هذا تحذير من القنوط، وحث على الرجاء عند الخاتمة)(٤) و(معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا، ويكونان سواء، وقيل: يكون الخوف أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه، لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح، والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال، فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له).(٥)

(١) إحياء علوم الدين: (٤/ ٢٢٠)، وانظر: شرح الصدور للسيوطي: (ص: ٣٣ – ٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٧)، وانظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٧).

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت: (٣/ ٢٢٠٥).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢٠٩).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢١٠).

ولأبي حامد الغزالي كلام جيد يمكن اعتباره فصلًا في هذه المسألة، حيث يقول: (والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل) ثم قال: (وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل، فنقول أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي، فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه، وخفيه وجليه، فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه).(١)

---

(١) إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٧).

المبحث الثالث

منازل الناس في عبودية القلب

تتفاوت منازل الناس في عبودية القلب قربًا أو بعدًا عن الله تبارك وتعالى، وهم في ذلك درجات ومراتب بحسب ما تشتمل عليه قلوبهم من الحسنات والسيئات.

وكما يتفاضل المؤمنون في الأعمال البدنية الظاهرة، فإنهم كذلك يتفاضلون في الأعمال القلبية الباطنة، ويرتقي بعضهم إلى منزلة أعلى من منزلة غيره في السير إلى الله ﷻ حسب ما قام بقلبه من عبودية الله جل شأنه.

ذلك أن ما يقوم بالقلوب من الأعمال الصالحة ليس متساويًا ولا متفقًا، بل هو متفاوت ومتفاضل، على سبيل الإجمال في مجموع العبادات القلبية، وعلى سبيل التفصيل في أفراد العبادات، أو في الأحوال والأزمنة، فقد يجتمع من العبادات القلبية لدى بعض المؤمنين ما لا يجتمع لدى آخرين، ثم في نوع من تلك العبادات قد يفوق فيها بعضهم ويتميز عمّن سواه، بل قد تتفاضل تلك العبودية في القلب لدى المؤمن الواحد في الأزمان والأحوال المختلفة، فقد يكون قلب العبد في زمن أو حال أعظم محبة ورجاءً، أو خشية وتقوى، أو صبرًا وتوكلًا، منه في حال أو زمن آخر.

يقول ابن تيمية: (ثم أحوال القلوب وأعمالها، مثل محبة الله ورسوله،

وخشية الله، والتوكل عليه، والصبر على حكمه، والشكر، والإنابة إليه، وإخلاص العمل له، مما يتفاضل الناس فيها تفاضلًا لا يعرف قدره إلا الله ﷻ، ومن أنكر تفاضلهم في هذا فهو إما جاهل لم يتصوره وإما معاند).(١)

هذا التفاضل في عبودية القلب تؤيده وتشهد له نصوص الكتاب والسنة، كما يجده المؤمن ويشعر به ويتصوره في حال نفسه، وقوتها وضعفها، وإقبالها وفترتها في مجال الطاعة والعبادة.

يقول ابن تيمية: (وكل أحد يعلم أن ما في القلب من الأمور يتفاضل، حتى إن الإنسان يجد نفسه أحيانًا أعظم حبًا لله ورسوله، وخشية لله ورجاء رحمته، وتوكلاً عليه وإخلاصًا، منه في بعض الأوقات).(٢)

وبهذا التفاوت في عبودية القلب تتفاضل طاعات البدن وعبادات الجوارح، وبنمائها تزيد وتنمو، وبصلاحها تصلح وتربو، إذ (الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب).(٣)

وفيما يلي جملة من النصوص التي تدل على هذا التفاضل في عبودية القلب بين المؤمنين، وذلك ضمن المسائل التالية:

---

(١) الإيمان: (ص: ٣٩١).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٨/ ٢٧٨).

(٣) شرح الطحاوية: (ص: ٣١١)، وانظر مجموع الفتاوى: (١١/ ٦٦٠، ١٧/ ٦٨، ٢٥/ ٢٨٢)، الوابل الصيب: (ص: ٤١).

المسألة الأولى:

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

تشتمل الآية الكريمة على منازل المؤمنين(١) ومراتبهم باعتبار موقفهم من الحسنات والسيئات فعلًا وتركًا، فهم بين ظالم ومقتصد وسابق بالخيرات.

وللمفسرين في المراد أقوال أقربها أن من التزم الواجبات، وترك المحرمات، مقتصرًا على ذلك، فقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات، فذلك هو المقتصد، ومن بالغ في الاجتهاد أداء للفرائض واجتنابا للمعاصي، مضيفًا إلى ذلك التقرب إلى الله تعالى بالنوافل والمندوبات وترك المكروهات، فذلك هو السابق بالخيرات، ومن قصّر في الواجبات، وارتكب الذنوب والآثام، فذلك هو الظالم لنفسه.(٢)

قال القرطبي بعد إيراده عددًا من الأقوال في المسألة: (وبالجملة فهما

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ١٣٦)، تفسير البغوي: (٣/ ٥٧١ - ٥٧٢)، تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ٢٤)، التسهيل: (٣/ ١٥٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٥٤ - ٥٥٥)، مجموع الفتاوى: (١١/ ١٨٣)، أضواء البيان: (٦/ ١٦٤-١٦٥).

طرفان وواسطة، فالمقتصد اللازم للقصد، وهو ترك الميل، فلذلك كان المقتصد منزلة بين المنزلتين، فهو فوق الظالم لنفسه، ودون السابق للخيرات).(١)

وهذا التفاضل بين هذه الأصناف يشمل أعمال الجوارح من العبادات الظاهرة، كما يشمل أعمال القلوب من العبادات الباطنة، إذ يتفاوت المؤمنون فيهما بين ظالم لنفسه ومقتصد وسابق.(٢)

وقريب من هذا المعنى ما تضمنه قول الله تعالى في الحديث القدسي: [من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه..].(٣)

ففي الحديث الشريف إشارة إلى أن أولياء الله تعالى في سيرهم إلى ربهم جل وعلا بمنازل عبوديته على درجتين:

الأولى: المتقربون إلى الله سبحانه بأداء الفرائض فعلًا وتركًا.

الثانية: المتقربون إلى الله سبحانه بما هو زائد على ذلك، مضاف إليه، من نوافل الطاعات، ومستحبات العبادات، والكف عن المكروهات.(٤)

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار: (ص: ٤٥).

(٢) انظر: الإيمان: (ص: ٣٥١)، التحفة العراقية: (ص: ٢٩٠)، مجموع الفتاوى: (٢/ ٣٩٤، ١٨/ ١٨٥)، شرح الطحاوية: (ص: ٣٢٧).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب الرقاق، باب التواضع: (٥/ ٢٣٨٥).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى: (١١/ ٢٣، ١٧٩ - ١٨٠)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ٣٣٥ - ٣٣٧).

وذلك التفاضل بين الدرجتين يشمل أفعال القلوب والجوارح.(١)

يقول ابن أبي العز في معرض كلامه عن أولياء الله المتقين: (وهم قسمان: مقتصدون ومقربون، فالمقتصدون الذين يتقربون إلى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح، والسابقون الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد الفرائض).(٢)

وقد يتقلب العبد بين هذه المراتب والأصناف بحسب العبادات وتنوعها، فيكون مرة مقتصدًا، وأخرى سابقًا، وفي الثالثة ظالمًا، فقد يقتصر في عبادة على الواجب فيكون مقتصدًا، وقد ينقص عن الواجب في أخرى فيكون ظالمًا، وقد يسابق في عبادة ثالثة فيأتي بالمستحبات والمكملات البدنية والقلبية فيكون فيها من السابقين.(٣)

المسألة الثانية:

يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

تقرر الآية الكريمة أن من أخص أوصاف المؤمنين عظم محبتهم لله جل وعلا يوحدونه بها ولا يشركون فيها أحدًا سواه سبحانه.

---

(١) انظر: فتح الباري: (٢٤/ ١٤٣)، الإيمان: (ص: ٢٧).

(٢) شرح الطحاوية: (ص: ٣٤٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (١٩/ ٢٩٠).

فمحبة المؤمنين لربهم جل شأنه أكمل وأتم من محبة المشركين لأوثانهم، أو محبتهم لله تعالى، لأنها محبة قائمة على التسوية بين الخالق والمخلوق، فقاعدتها الشرك بالله تعالى، بينما المؤمنون ينشئون محبتهم على التوحيد، فهي محبة خالصة لله ﷻ.

ويرى أبو طالب المكي في لفظ: ﴿أَشَدُّ﴾ في الآية إشارة إلى تفاضل المؤمنين أيضًا في تحقيق هذا الوصف (لأن الله تعالى وصف المؤمنين بشدة الحب له فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا﴾ وفي قوله: ﴿أَشَدُّ﴾ دليل على تفاوتهم في المحبة، لأن المعنى أشد فأشد، ولم يقل شديدو الحب لله، فأشبه هذا الخطاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣]. فدل على تفاوتهم في الإكرام على قدر تفاضلهم في التقوى).(١)

والمؤمن الصادق يعمل على الترقي في مقام المحبة لله تبارك وتعالى، والتدرج في مراتبها ومنازلها، ليصل إلى كمالها وتمامها، بحيث تستولي على القلب، وتحكم على الأعضاء والجوارح(٢)، وحينئذ يتحقق الإيمان، ويجد العبد حلاوته، كما في حديث أنس ﵁، عن النبي ﷺ قال: [ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان. أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما(٣)..].(٤)

(١) قوت القلوب: (٢/ ٩٩)، وانظر مجموع الفتاوى: (١٧/ ٦٠).
(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٤/ ٢٣٣)، التسهيل: (١/ ٦٧).
(٣) قال ابن حجر: (إنما قال (مما سواهما) ولم يقل ممن ليعم من يعقل ومن لا يعقل)، فتح الباري: (١/ ١١٨-١١٩).
(٤) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان: (١/ ١٤)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان: (١/ ٦٦).

ولفظ (أحب) في الحديث يفيد أن الحب معنى يقبل التفاوت والتبعض، والكمال والنقصان، ولذا كان أهل العبودية متفاضلون فيه على درجات ومراتب.

يقول أبو طالب المكي بعد إيراده هذا الحديث وغيره: (دل على فرض الحب لله، وإن تفاضل المؤمنون في نهايات فضائله) ثم قال: (والمحبون لله على مراتب من المحبة، بعضها أعلى من بعض..).(١)

المسألة الثالثة:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

تبين الآية الكريمة أن التقوى هي ميزان التفاضل بين الناس، فمن حازها كان أرفع منزلة، وأعظم قدرًا، وكلما تمكنت التقوى من القلب، الذي هو منطلقها ومركزها، ثم ترجمتها الجوارح استقامة وامتثالًا، واجتهد العبد في تحقيق ذلك، كانت العاقبة لصاحبها نيلًا لمرتبة أعظم وأجل، وحصولاً على مقام أعلى وأكرم عند ربه تبارك وتعالى.(٢)

وقد استدل أبو طالب المكي بلفظ: ﴿أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ على حصول التفاوت في التقوى بين العباد، لأن الآية عبرت باسم التفضيل ﴿أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، ولم

(١) قوت القلوب: (٢/ ١٠٠).
(٢) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٢١٧)، تفسير القاسمي: (١٥/ ١٣٧)، مجموع الفتاوى: (١١/ ١٧٥).

تقل: إن الكرام المتقون، وعلى قدر التفاضل في التقوى يكون التفاوت في الإكرام.(١)

هذا المعنى ورد أيضًا ضمن حديث أبي هريرة ﵁ (قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: [أتقاهم]).(٢)

ولما كان أصل التقوى وجذرها في القلب(٣) أضيفت إليه في الحديث القدسي [يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا].(٤)

ولفظ (أتقى) و(أفجر) يدلان على تفاوت ما في قلوب الناس من التقوى أو الفجور، وأن المؤمنين في تقوى القلوب منازل ومراتب بعضها أعلى وأكمل من بعض، كما أن الكافرين في فجور القلوب درجات ودركات بعضها أشد من بعض.

(١) انظر: قوت القلوب: (٢/ ٩٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء عليهم السلام، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾: (٣/ ١٢٢٤)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل يوسف عليه السلام: (٢/ ١٨٤٦).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم: (٢/ ٤٧).

(٤) رواه مسلم من حديث أبي ذر ﵁ في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم: (٣/ ١٩٩٥).

ولا ريب أن رسول الله ﷺ أكمل المؤمنين في تحقيق التقوى، ولذلك كان أكرم العباد منزلة ومقامًا عند الله جل شأنه.

عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول ﷺ: [ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية].(١)

وفي رواية للبخاري(٢) [إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا].(٣)

ومن حديث عائشة ﵂ أيضًا، أن رسول الله ﷺ قال: [والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي].(٤)

ومن حديث أنس ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: [أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له].(٥)

ومن حديث عمر بن أبي سلمة(٦)، أن رسول الله ﷺ قال: [أما والله إني

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب: (٥/ ٢٢٦٣)، ومسلم بنحوه في كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته: (٢/ ١٨٢٩).

(٢) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبد الله البخاري، إمام أهل الحديث في عصره، رحل في طلب الحديث، وسمع من نحو ألف شيخ، من أشهر مصنفاته الجامع المسند الصحيح المعروف بصحيح البخاري، توفي سنة ست وخمسين ومائتين. انظر: البداية: (١١/ ٣٠ – ٣٣)، الأعلام: (٦/ ٣٤).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: [أنا أعلمكم بالله].. (١/ ١٦).

(٤) رواه مسلم في كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب: (١/ ٧٨١).

(٥) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح: (٥/ ١٩٤٩).

(٦) هو عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسود، أبو حفص القرشي المخزومي، ربيب النبي ﷺ، أمه أم المؤمنين أم سلمة ﵂، ولد بالحبشة، روى عن النبي ﷺ أحاديث، استعمله علي ﵁ على فارس والبحرين، توفي سنة ثلاث وثمانين. انظر: الاستيعاب: (٣/ ١١٥٩ – ١١٦٠)، الإصابة: (٤/ ٤٨٧).

لأتقاكم لله وأخشاكم له].[1]

ففي هذه الألفاظ دليل على أن عبودية القلب من الإيمان بالله والعلم به وخشيته وتقواه درجات ومراتب، وأنها قابلة للتفاوت والتبعيض، والزيادة والنقصان، وأن التفاضل في ذلك حاصل بين المؤمنين، وان رسول الله ﷺ حائز على أعلى المنازل في تلك المعاني والصفات.[2]

فقد بلغ عليه الصلاة والسلام درجة الكمال الإنساني، إذ جمع بين القوة العلمية، بالمعرفة بالله والعلم بصفاته وأحكامه، والقوة العملية، في الخشية والتقوى، فهو أشد الناس خشية وتقوى، وأكثرهم علماً، وأكملهم إيماناً.[3]

المسألة الرابعة:

عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه[4] قال: [كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: [لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك] فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال

(١) رواه مسلم في كتاب الصيام، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته: (١/ ٧٧٩).

(٢) انظر: فتح الباري: (١/ ١٣٢).

(٣) انظر: فتح الباري: (١/ ١٣٤، ٢٢/ ٣١٣).

(٤) هو عبد الله بن هشام، القرشي التيمي، له ولأبيه صحبة، سكن المدينة، أدرك النبي ﷺ وهو صغير، عاش إلى خلافة معاوية رضي الله عنه. انظر: الاستيعاب: (٣/ ١٠٠٠)، الإصابة: (٤/ ٢١٧ – ٢١٨).

النبي ﷺ: [الآن يا عمر].[1]

في هذا الحديث الشريف إشارة إلى أن ما في القلب من المحبة الشرعية يتفاوت ويتفاضل[2]، إذ لا يكفي أن يكون قدر محبة العبد لرسول الله ﷺ بمقدار محبته لنفسه، بل ينبغي أن تعظم وترتفع المحبة القلبية لرسول الله ﷺ لتكون أعلى من محبة النفس، وبذلك يقدم المؤمن ما جاء به عليه الصلاة والسلام على أهواء نفسه ومحبوباتها.

يقول ابن حجر: (جواب عمر أولاً كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه، لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار، ولذلك حصل الجواب بقوله: [الآن يا عمر] أي الآن عرفت فنطقت بما يجب).[3]

ويرد في هذا المعنى حديث أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: [لا يؤمن[4] أحدكم حتى أكون أحب[5] إليه من والده وولده والناس أجمعين].[6]

(١) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ: (٦/ ٢٤٤٥ – ٢٤٤٦).

(٢) انظر: عمدة القاري: (١/ ١٤٤).

(٣) فتح الباري: (٢٥/ ١٤ – ١٥)، وبذلك يكتمل الإيمان، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام (الآن) (يعني كمل إيمانك) عمدة القاري: (٢٣/ ١٦٩)، وانظر: المواهب اللدنية: (٢/ ٦١٧ – ٦١٨).

(٤) المقصود الإيمان الكامل. انظر: فتح الباري: (١/ ١١٤).

(٥) قال ابن حجر: (المراد بالمحبة هنا حب الاختيار لا حب الطبع) فتح الباري: (١/ ١١٥).

(٦) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان: (١/ ١٤)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ.. (١/ ٦٧).

فلفظ (أحب) في الحديث، وهو اسم تفضيل، يدل على حصول التفاوت في المحبة القلبية، ولذلك كان من كمال الإيمان أن تكون محبة المؤمن لرسول ﷺ زائدة في القدر على محبته للناس جميعًا، بما فيهم الأقربون كالأب والأبناء.

والمؤمنون في تحقيق هذا المستوى الإيماني متفاضلون في الواقع بحسب ما يحصل لهم من التفكر أو الغفلة عن منزلة رسول الله ﷺ، وما حصل بسببه من النفع العظيم في الانتقال من ظلمة الكفر إلى نور الهداية.

(وكل من آمن بالنبي ﷺ إيمانًا صحيحًا لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى، كمن كان مستغرقًا في الشهوات، محجوبًا في الغفلات، في أكثر الأوقات).[1]

المسألة الخامسة:

عن حذيفة ﷺ قال: (حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر: (أن الأمانة نزلت في جذر[2] قلوب الرجال، ثم علموا من

---

(١) فتح الباري: (١/ ١١٦).

(٢) أي في أصل القلوب، والجذر، بفتح الجيم وكسرها: أصل الشيء. انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (٤/ ١١٨)، النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٥٠)، والمعنى أن الأمانة نزلت في قلوبهم بحسب الفطرة التي فطرهم الله عليها ثم حصلت لهم وتقوّت وتأكّدت بما علموه من القرآن والسنة. انظر: عمدة القاري: (٢٣/ ٨٤).

القرآن، ثم علموا من السنة).

وحدثنا عن رفعها قال: (ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت[1]، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل[2]، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا[3] وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده[4]، وما في قلبه مثقال حبة خردل[5] من إيمان).[6]

---

(١) بفتح الواو وسكون الكاف جمع وكتة، وهي الأثر اليسير في الشيء كالنقطة من غير لونه. انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (٤/ ١١٨)، النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٢١٨)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٦٨).

(٢) بفتح الميم وسكون الجيم، وهو ما يحصل في اليد من التنفط عقب العمل بها في أشياء صلبة أو خشنة، إذ يظهر ما يشبه البثور فيها ماء قليل. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٣٠٠)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٦٩)، فتح الباري: (٢٤/ ١٢٨).

(٣) نفط: بفتح النون وكسر الفاء، أي صار منتفطًا، وهو بمعنى المنتبر، يقال: انتبر الجرح وانتفط إذا ورم وامتلأ ماء، والمنتبر في الأصل المرتفع. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٧)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٦)، فتح الباري، ط دار الفكر: (١٣/ ٣٩).

(٤) أي ما أقواه، من الجلد بفتح اللام: وهو القوة والصبر. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٨٤).

(٥) نوع من الحبوب. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٣٢٥)، هدي الساري مقدمة فتح الباري: (١/ ١٠٢)، وقيل إنه الحبة السوداء. انظر تحفة الأحوذي: (٥/ ٤٠٧).

(٦) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة: (٥/ ٢٣٨٢ - ٢٣٨٣)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان عن بعض القلوب: (١/ ١٢٦ - ١٢٧).

يفيد هذا الحديث الشريف أن الأمانة أساسها ومصدرها في القلب، وبحسب قوتها أو ضعفها فيه تتحرك الجوارح، وتتصرف الأعضاء.

والمراد بالأمانة جملة التكليف الذي شرعه الله جل وعلا لعباده أمرًا ونهيًا[١]، وهي شاملة لأمانة التعامل بين الناس بيعًا وشراءً ونحوهما - ولا ريب - كما يدل عليه آخر الحديث، إلا أنها غير مقتصرة عليه.

ومن ثم فالأمانة ثمرة للإيمان، لازمة له.[٢]

كما يدل الحديث على أن تلك الأمانة القلبية مما يتفاوت فيه الناس، ويتفاضل فيه المؤمنون، بحسب ما يحصل في قلوبهم منها كمالاً ونقصانًا، وأن من الناس من تذهب الأمانة من قلبه، وتضعف شيئًا فشيئًا بحسب ما يعتريه من الخلل في دينه، بحيث تتناقص فلا يبقى منها في القلب إلا الأثر الموصوف في الحديث، وهكذا حتى تزول وترتفع.[٣]

قال ابن حجر: (وحاصل الخبر أنه أنذر برفع الأمانة، وأن الموصوف بالأمانة يسلبها حتى يصير خائنًا بعد أن كان أمينًا).[٤]

المسألة السادسة:

عن عمار بن ياسر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها،

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٦٨).

(٢) انظر: الإيمان لابن منده: (١/ ٤٦٥)، فتح الباري: (٢٤/ ١٢٨).

(٣) انظر: فتح الباري، ط دار الفكر: (١٣/ ٤٠)، عمدة القاري: (٢٣/ ٨٤).

(٤) فتح الباري، ط دار الفكر: (١٣/ ٤٠).

خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها].[١]

يشير هذا الحديث إلى أن عمل القلب في الصلاة من الخشوع والحضور، والتدبر والتفهم، يختلف ويتفاوت، ويتفاضل فيه المصلون، ويتأسس على ذلك تفاوت أجر الصلاة وثوابها وكمالها، فكلما كان حضور القلب وخشوعه لله سبحانه أعظم، كان قدر ما يناله العبد من ثواب الصلاة أكثر وأكبر.[٢]

وهكذا سائر الطاعات تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من معاني العبودية.

يقول ابن القيم بعد ذكره للحديث: (وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى، فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الإيمان، والإخلاص، والمحبة، وتوابعها).[٣]

وفي هذا الباب يرد صبر القلوب عند نزول المصائب.

عن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: [الصبر عند الصدمة[٤] الأولى].[٥]

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة: (١/ ٥٠٣)، وأحمد في المسند: (٤/ ٣٢١)، وصححه الحافظ العراقي في المغني: الإحياء: (١/ ٢٤٠)، والسيوطي في الجامع الصغير، فيض القدير: (٢/ ٣٣٤)، وحسنه الصبابطي: عون المعبود: (٢/ ١٦٩) (الهامش)، وانظر: الترغيب والترهيب: (١/ ٣٤١).

(٢) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٩)، فيض القدير: (٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤).

(٣) الوابل الصيب: (ص: ٤١).

(٤) الصّدم: ضرب الشيء الصلب بمثله، ثم استعير لشدة أثر المصيبة الواردة على القلب. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١٩)، فتح الباري: (٦/ ١٨١).

(٥) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب الصبر عند الصدمة الأولى: (١/ ٤٣٨)، ومسلم في كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى: (١/ ٦٣٧).

ففي هذا الحديث الشريف إشارة إلى أن الصبر على المصائب يتفاوت في القلوب، وأن المؤمنين فيه يتفاضلون، فأعلاهم منزلة من يحصل منه الصبر لأول وهلة إثر وقوع المصيبة، وزمن قوتها وشدتها، فيثبت به القلب في مواجهة معاني الجزع والهلع.

قال ابن حجر: (والمعنى: إذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع، فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر).(١)

وقال النووي: (معناه الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر الجزيل، لكثرة المشقة فيه).(٢)

المسألة السابعة:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر: ٣١].

(١) فتح الباري: (٦/ ١٨١)، وانظر عمدة القاري: (٨/ ٦٨).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/ ٢٢٧)، وانظر فيض القدير: (٤/ ٢٣٤).

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤].

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

هذه الآيات الكريمات وما يماثلها في القرآن الكريم تدل صراحة على أن ما في القلب من الإيمان يتفاوت ويتفاضل، ويزيد وينقص، ويقوى ويضعف، بحسب أحوال المؤمنين.(١)

وهو قول جماهير أهل العلم من السلف والخلف.(٢)

قال ابن كثير في تفسيره لآية التوبة المصرحة بزيادة الإيمان: (هذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل حكى غير واحد الإجماع على ذلك).(٣)

(١) انظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣٢٠ – ٣٢١).

(٢) انظر: التوحيد لابن خزيمة: (٢/ ٧٠٣)، الإيمان: (ص: ٢٩٢ – ٢٩٥)، اعتقاد أهل السنة: (٥/ ٨٩٠ – ٨٩٤، ٩٤١ – ٩٦٠)، الاعتقاد للبيهقي: (ص: ٨٠)، شعب الإيمان: (١/ ٧٠، ٧٧ – ٧٩)، لوامع الأنوار: (١/ ٤١١)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١/ ١٤٦ – ١٤٨)، فتح الباري: (١/ ٩٤ – ٩٥)، روح المعاني: (٩/ ١٦٥ – ١٦٦).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٠٢)، وانظر: (٣/ ٧٤، ٤٧٥)، اعتقاد أهل السنة: (١/ ١٧٤)، التمهيد: (٩/ ٢٥٢ – ٢٥٣)، الدر المنثور: (٢/ ٣٨٩، ٤/ ١٢)، لوامع الأنوار: (١/ ٤١٢).

وقال في تفسيره لآية الفتح: (وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب).[1]

هذا الاستدلال من البخاري ورد في صحيحه ضمن باب الإيمان بعد تقريره أن الإيمان (قول وفعل، ويزيد وينقص).[2]

قال ابن حجر: (شرع المصنف يستدل لذلك بآيات من القرآن مصرحة بالزيادة، وبثبوتها يثبت المقابل، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة).[3]

ولذا بوب البخاري في كتاب الإيمان فقال: (باب زيادة الإيمان ونقصانه) مستدلاً بجملة من نصوص الكتاب والسنة.[4]

يقول محمد الأمين: (هذه الآيات المذكورة نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد، ومفهومها أنه ينقص أيضًا، كما استدل البخاري رحمه الله تعالى على ذلك، وهي تدل عليه دلالة صريحة لاشك فيها، فلا وجه معها للاختلاف في زيادة الإيمان ونقصه كما ترى، والعلم عند الله تعالى).[5]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٨٤)، وانظر: (٢/ ٢٨٥).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب الإيمان: (١/ ١١).

(٣) فتح الباري: (١/ ٩٥).

(٤) انظر: صحيح البخاري: (١/ ٢٤).

(٥) أضواء البيان: (٤/ ٢٩)، وانظر: (٢/ ٣٤٦)، الغُنْية: (١/ ٦٢)، تفسير السعدي: (٢/ ١٨٩).

ومسألة تفاضل الإيمان في القلوب تتضح من خلال وجوه عدة منها:

١. أن إيمان القلب يزداد بزيادة العمل الصالح، ويستوي في ذلك القول بأن الأعمال الظاهرة داخلة في مسمى الإيمان، وهو قول الأئمة الثلاثة وغيرهم، أو القول بأنها لازمة لإيمان القلب، وهو قول أبي حنيفة[1]، وهما قولان مشهوران لأهل العلم في تحديدهم لدائرة الإيمان.[2]

يقول عمر بن عبد العزيز[3]: (إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان).[4]

ذلك أن تفاضل المؤمنين في الأعمال الظاهرة للجوارح مبني على تفاوت ما في قلوبهم من الأعمال الباطنة، ومن المعلوم أن عدم تحقق اللازم يؤثر على قوة الملزوم فيضعفه.

---

(١) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت، التيمي الكوفي، إمام الفقهاء، عالم العراق، كان قوي الحجة، امتنع عن القضاء مرارًا، انقطع للتدريس والإفتاء، توفي سنة خمسين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٥٨١ – ١٥٨٥)، الأعلام: (٨/ ٣٦).

(٢) انظر: الاعتقاد للبيهقي: (ص: ٨٠)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٧٥)، شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٩)، لوامع الأنوار: (١/ ٤٢٦).

(٣) هو الخليفة الزاهد العابد عمر بن عبد العزيز بن مروان، أبو حفص القرشي الأموي، إمام حافظ مجتهد، توفي سنة إحدى ومائة. انظر: طبقات ابن سعد: (٥/ ٣٣٠ - ٤٠٨)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٩٠٦ - ٢٩١٥).

(٤) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب الإيمان: (١/ ١١).

ومن ثم فإن: (العلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به)(١) و(تفاضل الناس في الأعمال الظاهرة يقتضي تفاضلهم في موجب ذلك ومقتضيه).(٢)

وكلما كان التصديق في القلب جازمًا، والعبودية فيه متمكنة، كان العبد حازمًا في مواجهة الشبهة، قويًا في معارضة الشهوة.

يقول ابن أبي العز: (ولاشك أن من قام بقلبه التصديق الجازم، الذي لا يقوى على معارضته شهوة ولا شبهة، لا تقع معه معصية، ولولا ما حصل له من الشهوة والشبهة أو أحدهما لما عصى، بل يشتغل قلبه ذلك الوقت بما يواقعه من المعصية، فيغيب عنه التصديق والوعيد فيعصي، ولهذا - والله أعلم - قال ﷺ: [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن](٣) الحديث، فهو حين يزني يغيب عنه تصديقه بحرمة الزنا، وإن بقي أصل التصديق في قلبه، ثم يعاوده، فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فإذا لم يبصر بقي قلبه في عمى، والشيطان يمده في غيه، وإن كان التصديق

(١) شرح الطحاوية: (ص: ٣١٢).

(٢) مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٦٣)، وانظر: إحياء علوم الدين: (١/ ١٦٩ - ١٧٠).

(٣) الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ في كتاب المظالم، باب النُّهبى بغير إذن صاحبه: (٢/ ٨٧٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي.. (١/ ٧٦).

في قلبه لم يكذب، فذلك النور والإبصار، وتلك الخشية والخوف تخرج من قلبه، وهذا كما أن الإنسان يغمض عينه فلا يرى وإن لم يكن أعمى، فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق، وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر).(١)

وعلى ذلك يتفاوت الناس في إيمانهم بمقدار التزامهم بالشرائع والتكاليف الدينية، أو تفريطهم فيها، وبحسب سلامتهم من اقتراف الذنوب وارتكاب الفواحش، أو وقوعهم فيها (فليس إيمان السارق والزاني والشارب كإيمان غيرهم، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثل دين هذا وبره وتقواه، بل هذا أفضل دينًا وبرًا وتقوى، فهو كذلك أفضل إيمانًا).(٢)

وهذا هو التفاضل في إيمان القلوب من جهة العبد فيما يفعله من امتثال أمر الرب سبحانه، وتنفيذ ما أوجبه، واجتناب ما حرمه.

٢. أن إيمان القلب يزداد بزيادة العلم والمعرفة، فكلما علم العبد شيئًا من دين الله تعالى، أو بلغه نصّ من كتاب الله جل شأنه، أو حديث الرسول ﷺ، يتضمنان أمرًا أو خبرًا، وصدق بذلك واستيقنه، وعزم على الموافقة والانقياد، عن محبة وخوف ورجاء، قوي بذلك إيمانه، وارتفعت في ذلك

(١) شرح الطحاوية: (ص: ٣١٣ - ٣١٤ (مع حذف يسير).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٣/ ٥٥)، وانظر: (٧/ ٥٦٢ - ٥٦٣، ١٣/ ٥١).

مرتبته ومنـزلته، وازداد بذلك تصديقًا إلى تصديق، ويقينًا إلى يقين.[1]

ولا ريب أن الإيمان على سبيل التفصيل أعلى درجة من الإيمان بالله ورسوله وما ورد عنهما على وجه الإجمال.

قال ابن أبي العز: (وأما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره).[2]

ثم قال: (وأيضًا فمن وجب عليه الحج والزكاة مثلًا يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به، ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره الإيمان به إلا مجملًا، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل.

وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان).[3]

وهذا تفاضل في الإيمان من جهة أمر الله جل وعلا إجمالا وتفصيلًا، فإن الناس وإن كانوا متساوين في ضرورة الإيمان والإقرار المجمل، لكنهم

---

(١) انظر: فتح الباري: (١/ ١٧٧).

(٢) شرح الطحاوية: (ص: ٣١٢).

(٣) شرح الطحاوية: (ص: ٣١٣).

يتمايزون بعد ذلك فيما أمروا به من شرع الله تفصيلًا، وقد يجب على بعضهم من التصديق والإقرار والعمل ما لا يجب على الآخرين.

يقول ابن تيمية: (إنه وإن وجب على جميع الخلق الإيمان بالله ورسوله، ووجب على كل أمة التزام ما يأمر به رسولهم مجملًا، فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغ غيره، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها، لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطنًا وظاهرًا، ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمنًا بما وجب عليه من الإيمان، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع عنه مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها، بل إيمان هذا أكمل وجوبًا ووقوعًا، فإن ما وجب عليه من الإيمان أكمل، وما وقع منه أكمل).[1]

هذا من جهة الأمر الإلهي، وهو كذلك من جهة العباد، فإنه كلما زاد العلم وعظمت المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ﷻ، وبشرعه وقدره، وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، مع التصديق الجازم، والمحبة الخالصة، والتقلب بين الخوف والرجاء، وعزم القلب على الامتثال والانقياد، كان ذلك العلم عاملاً في ازدياد نسبة الإيمان في القلب.

---

(١) الإيمان: (ص: ٢١٩)، وانظر: مجموع الفتاوى: (٧/ ٥١٨ - ٥١٩، ١١/ ١٨٧ - ١٨٨، ١٣/ ٥١ - ٥٣).

يقول ابن تيمية: (فكلما علم القلب ما أخبر به الرسول فصدقه، وما أمر به فالتزمه، كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك، وإن كان معه التزام عام وإقرار عام، وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها فآمن بها، كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء، بل آمن بها إيمانًا مجملًا، أو عرف بعضها، وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته كان إيمانه به أكمل).[١]

٣. أن تصديق القلب في ذاته قابل للتفاوت والتفاضل[٢]، بحيث يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت عن الشك، وأبعد عن الريب. ذلك أن مراتب اليقين تتفاوت مع سلامتها كلها من الشك[٣]، مع التسليم بأن للتصديق حدًّا أدنى لا يمكن النزول عنه، وهو ما يعبر عنه بأصل التصديق.[٤]

وهو معنى قول ابن تيمية: (أما أصل الإيمان الذي هو الإقرار بما جاءت به الرسل عن الله تصديقًا به وانقيادًا له، فهذا أصل الإيمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن).[٥]

---

(١) الإيمان: (ص: ٢٢٠).

(٢) انظر: الإيمان: (ص: ٢٣٤)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٦٥، ١٨/ ٢٧٨)، لوامع الأنوار: (١/ ٤١٩)، روح المعاني: (٩/ ١٦٧)، اختلاف المفسرين: (ص: ٣٠٠).

(٣) انظر: لوامع الأنوار: (١/ ٤٣١).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين: (١/ ١٦٩ - ١٧٠)، فتح الباري: (١/ ١٧٧).

(٥) مجموع الفتاوى: (١٢/ ٤٧٥).

ولعل ذلك ما يقصده أبو جعفر الطحاوي[١] حين قال: (والإيمان واحد وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى، وملازمة الأولى).[٢]

يقول ابن أبي العز في شرحه لمقالة الطحاوي: (يشير إلى أن التساوي إنما هو في أصله، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه، بل تفاوت درجات نور (لا إله إلا الله) في قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى، فمن الناس من نور (لا إله إلا الله) في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علمًا وعملًا، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم، أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته، بحيث إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنبًا إلا أحرقه، وهذه حال الصادق في توحيده، فسماء إيمانه قد حرس بالرجوم من كل سارق).[٣]

---

(١) هو أحمد بن محمد بن سلامة، أبو جعفر الطحاوي الحنفي، إمام حافظ، محدّث مصر وفقيهها، من مصنفاته: معاني الآثار، توفي سنة إحدى وعشرين وثلاث مائة. انظر: البداية والنهاية: (١١/ ١٩٨)، سير أعلام النبلاء: (١/ ٩٧٩ - ٩٨٠).

(٢) شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٧ - ٣٠٨).

(٣) شرح الطحاوية: (ص: ٣١٠).

ولا ريب أن ما في القلب من التصديق واليقين لدى الفسّاق ليس كمرتبته لدى أولياء الله المتقين.

يقول ابن رجب: (.. وهذا مبني على أن التصديق القائم بالقلوب متفاضل، وهذا هو الصحيح، وهو أصح الروايتين عن أحمد، فإن إيمان الصديقين الذين يتجلّى الغيب لقلوبهم حتى يصير كأنه شهادة، بحيث لا يقبل التشكيك ولا الارتياب، ليس كإيمان غيرهم ممن لم يبلغ هذه الدرجة بحيث لو شُكِّك لدخله الشك، ولهذا جعل النبي ﷺ مرتبة الإحسان أن يعبد العبد ربه كأنه يراه، وهذا لا يحصل لعموم المؤمنين).[1]

قال النووي: (الأظهر والله أعلم أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم، بحيث لا تعتريهم الشبه، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة، وإن اختلفت عليهم الأحوال، وأما غيرهم من المؤلفة قلوبهم ومن قاربهم ونحوهم، فليسوا كذلك[2]، فهذا مما لا يمكن إنكاره، ولا يتشكك

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ١١٣ – ١١٤)، وانظر: عمدة القاري: (١/ ١٠٨).

(٢) ومما يشهد لذلك حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: [يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار] رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة.. (١/ ١٩)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه.. (١/ ١٣٣) والمعنى ـ كما ذكر النووي ـ أعطي من أخاف عليه لضعف إيمانه أن يكفر ويرتد عن الإسلام، وأترك آخرين هم أحبّ إليّ، لما أعلمه من=

عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق ﷺ لا يساويه تصديق آحاد الناس).[1]

وقال في موضع آخر: (المختار أن نفس التصديق يزيد وينقص، لا نقص تردد وشك، بل زيادته بمعنى بعده عن قبول الشك والتزلزل والشبهة، ونقصه تطرق ذلك إليه).[2]

ويقول أبو السعود: (الأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة، وهي التي عبر عنها بالزيادة، للفرق النير بين يقين الأنبياء ويقين آحاد الأمة).[3]

= طمأنينة قلوبهم وصلابة إيمانهم، فأكلهم إلى ما جعله الله في قلوبهم من النور وتمام الإيمان وكماله، بحيث لا يتزلزل ولا يضطرب. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٨٢، ٧/ ١٤٨ – ١٤٩)، فتح الباري: (١/ ١٤٥)، ومثله حديث عمرو بن تغلب ﷺ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: [أما بعد، فوالله إني لأعطي الرجل، وأدع الرجل، والذي أدع أحب إليّ من الذي أعطي، ولكن أعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير] رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء، أما بعد: (١/ ٣١٢–٣١٣)، وفي رواية: [إني لأعطي قومًا أخاف ظلعهم وجزعهم، وأكل أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغناء) كتاب الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم.. (٣/ ١١٤٦) والظلع: بفتح الظاء واللام، وأصله الميل والاعوجاج، وأطلق هنا ـ كما ذكر ابن حجر ـ على مرض القلب وضعف اليقين. انظر: فتح الباري: (١٢/ ٢٣٧، ١٣/ ٥١١).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (١/ ١٤٨ – ١٤٩)، وانظر: مجموع الفتاوى: (٦/ ٤٧٩- ٤٨٠، ١٣/ ٥٢)، عمدة القاري: (١/ ١٠٨ – ١٠٩)، روح المعاني: (٩/ ١٦٥).

(٢) فتاوى الإمام النووي: (المسائل المنثورة)، ط٣، دار السلام: (ص: ٣٠٤).

(٣) تفسير أبي السعود: (٤/ ٤) (مع اختصار يسير).

ولذا قال ابن أبي مليكة[1]: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل).[2]

قال ابن حجر: (أي لا يجزم أحد منهم بعدم عَرُوضِ النفاق لهم، كما يجزم بذلك في إيمان جبريل، وفي هذا إشارة إلى أن المذكورين كانوا قائلين بتفاوت درجات المؤمنين في الإيمان، خلافًا للمرجئة القائلين بأن إيمان الصديقين وغيرهم بمنزلة واحدة).[3]

وباعث هذا الخوف من النفاق، من الصحابة رضوان الله عليهم، وهم أعظم الناس إيمانًا، إنما هو شدة حرصهم على بلوغ درجة التقوى، فيخشون أن يشوب عملهم من علل القلوب ما يؤثر على مرتبة الكمال.[4]

ولقد كان قلب الصديق أبي بكر ﷺ أعظم قلوب هذه الأمة إيمانًا بعد رسول الله ﷺ، حتى وإن لم يكن أكثر الأصحاب عملًا.

---

(١) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُلَيكة، القرشي التيمي، إمام حجة حافظ، ولاّه ابن الزبير ﷺ قضاء الطائف، توفي سنة سبع عشرة ومائة. انظر: طبقات ابن سعد: (٥/ ٤٧٢)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٤٢٣ – ٢٤٢٤).

(٢) رواه البخاري تعليقًا في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر: (١/ ٢٦).

(٣) فتح الباري: (١/ ١٨٧).

(٤) انظر: فتح الباري: (١/ ١٨٧).

يقول ابن القيم: (ما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل، وقد كان منهم من هو أكثر صيامًا وحجًا وقراءة وصلاة منه، ولكن بأمر آخر قام بقلبه، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه).[1]

٤. أن دائرة إيمان القلب لا تقتصر على التصديق فقط، بل تتعداه إلى ما يقتضيه التصديق ويوجبه من أعمال القلب وأحواله.

إذ الإيمان يشمل قول القلب واللسان، كما يشمل عمل القلب والجوارح، وقول القلب يستلزم قول اللسان، كما أن عمل القلب يستلزم عمل الأركان.

ويتمثل قول القلب في التصديق الجازم بالله ورسوله وما ورد عنهما، ويتمثل عمل القلب فيما يقوم بالقلب من معان وأحوال تحرّكه إلى ربه جل شأنه، وتعلقه وتصله به سبحانه، كالمحبة والخوف والرجاء والصبر

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٣٢). روى البيهقي وغيره عن عمر ﷺ قال: (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم) شعب الإيمان: (١/ ٦٩)، فضائل الصحابة: (١/ ٤١٨ – ٤١٩)، اللآلي المنثورة: (ص: ١٢٣)، كشف الخفاء: (٢/ ٢١٦)، الفوائد المجموعة: (ص: ٣٣٥)، قال الذهبي: (مراد عمر ﷺ أهل أرض زمانه) سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٤٧٥)، وروى أحمد في فضائل الصحابة: (١/ ١٤١) عن بكر بن عبد الله المزني قال: (إن أبا بكر لم يفضل الناس بأنه كان أكثرهم صلاة وصومًا، وإنما فضلهم بشيء كان في قلبه). وذكره ابن القيم من كلام أبي بكر بن عياش الأسدي بلفظ: (ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة وإنما سبقكم بشيء وقر في صدره) نقد المنقول، ط١، دار القاري: (١٠٤)، وانظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ١١٤).

والتوكل والإنابة والإخلاص، وغير ذلك من الأفعال القلبية، وكل ذلك داخل ولا ريب في إيمان القلوب.

يقول ابن تيمية: (فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ) ثم قال: (وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو حب الله ورسوله، وتعظيم الله ورسوله، وتعزير الرسول وتوقيره، وخشية الله والإنابة إليه والإخلاص له والتوكل عليه، إلى غير ذلك من الأحوال، فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان، وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد).[1]

ولا يتصور تصديق للقلب مجردًا بالكلية عن هذه الأعمال القلبية، إذ هو بهذا التجريد لا يعبر عن حقيقة الإيمان الشرعي الذي أراده الله تبارك وتعالى وفرضه على عباده، ولا يتميز حينئذ عن تصديق إبليس وفرعون وأمثالهما.

ذلك أن العبد يمكن أن يصدق بقلبه، ويكون مع ذلك كافرًا بالله ورسوله، باعتبار عداوته وبغضه ومخالفته، وبذلك يتقرر الارتباط العميق والتلازم الوثيق بين تصديق القلب وأعماله التي تحركه وتبعثه إلى رضا الله جل وعلا وموافقة أمره.

(١) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٢)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١/ ١٤٧).

يقول ابن تيمية: (إن المسلم المستحق للثواب لابد أن يكون مصدقًا، وإلا كان منافقًا، لكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الأحوال الإيمانية الواجبة، مثل كمال محبة الله ورسوله، ومثل خشية الله والإخلاص له في الأعمال والتوكل عليه، بل قد يكون الرجل مصدقًا وهو مع ذلك يرائي بأعماله، ويكون أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله) ثم قال: (فمن لم تقم بقلبه الأحوال الواجبة في الإيمان فهو الذي نفى عنه الرسول الإيمان وإن كان معه التصديق، والتصديق من الإيمان، ولابد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله، وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيمانًا البتة، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس).[1]

ومن ثم فإن الإيمان القلبي يتضمن - إضافة إلى التصديق الجازم - موافقة القلب ومواطأته لمراد الله ﷻ، وموالاته له، وانقياده لأمره، عن محبة وإنابة، وتذلل وخشية، ورغبة ورجاء.

ولما كانت الأعمال القلبية جزءًا من إيمان القلب، لا تنفك عنه، وهي مما يقبل التفاوت والتفاضل، والناس فيها منازل ومراتب، كان ذلك جانبًا ظاهرًا، يزيد مسألة التفاضل في عبودية القلب وإيمانه كشفًا وبيانًا.

ولذا قال البخاري مستدلًا على زيادة الإيمان ونقصانه بعد سرد الآيات

(١) الإيمان: (ص: ٢٩١ - ٢٩٢)، وانظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣١٦ - ٣١٧).

الدالة على ذلك: (والحب في الله والبغض في الله من الإيمان).(١)

قال ابن حجر: (استدل بذلك على أن الإيمان يزيد وينقص، لأن الحب والبغض متفاوتان).(٢)

يقول ابن تيمية: (الوجه الثاني في زيادة الإيمان ونقصه: وهو زيادة أعمال القلوب ونقصها، فإن من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه والتوكل عليه والإخلاص له، وفي سلامة القلوب من الرياء والكبر والعجب ونحو ذلك، والرحمة للخلق والنصح لهم، ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية).(٣)

ولا ريب أن من امتلأ قلبه بتلك الأعمال الإيمانية الدينية التي يحبها الله ويرضاها أكمل إيمانًا ممن هم دون ذلك، إذ (التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق، ورسوله حق، والجنة حق، والنار حق، وهذا علمه أوجب له محبة الله، وخشيته، والرغبة في الجنة، والهروب من النار، والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول أكمل، فإن قوة المسبب دل على قوة السبب، وهذه

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب الإيمان: (١/ ١١).

(٢) فتح الباري: (١/ ٩٥).

(٣) مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٦٣)، وانظر: (٧/ ٥٠٦، ٥٦٦ – ٥٧١، ١٣/ ٢٣٥)، فتح الباري: (١/ ٩٤)، فتح الرحمن: (ص: ٣٣٥).

الأمور نشأت عن العلم، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم).(١)

ومما يذكر في هذا المقام أن بعض الآيات التي سبق إيرادها، والمصرحة بزيادة الإيمان، أشار بعضها، كآيتي الأنفال والتوبة، إلى أن نزول آيات القرآن وتلاوتها أو سماعها سبب في حصول الزيادة والقوة والكمال الإيماني، غير أن بعض المفسرين اعتبر أن المقصود بهذه الزيادة في الإيمان هو اتساع دائرة العلم، وزيادة التصديق اللاحق إلى ما سبق لدى المؤمن من التصديق، مقتصرًا في المعنى المراد على ذلك.(٢)

والذي يظهر أن مسألة الزيادة في الإيمان بتلاوة الآيات أو سماعها لا يقتصر على زيادة التصديق فحسب، بل يراد بالزيادة الإيمانية أيضًا ما يحصل للآيات من أثر في القلوب، يزيدها خشية وخشوعًا، ومحبة وإنابة، وطمأنينة ويقينًا، ورغبة ورهبة، وعزمًا على التسليم والخضوع، والموافقة والانقياد، وتصبح تلك المعاني أحوالاً لها وصفات، ترتقي بها في منازل الكمال الإيماني.

يقول ابن تيمية: (والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ

(١) الإيمان: (ص: ٢٢١)، وانظر: (ص: ٢٢٢، ٣٩١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٧٨، ١١/ ٧٢)، معاني القرآن الزجاج: (٢/ ٤٠١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٣٣)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٨٥).

ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢].

وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات، أي وقت تليت، ليس هو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمر يجده المؤمن، إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذه زيادة في الإيمان، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو، لم تكن عند آية نزلت، فازدادوا يقينًا وتوكلًا على الله، وثباتا على الجهاد، وتوحيدًا بأن لا يخافوا المخلوق، بل يخافون الخالق وحده.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥]

وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها، بل زادتهم إيمانًا بحسب مقتضاها، فإن كانت أمرًا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة، وإن كانت نهيًا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه، ولهذا قال: ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ والاستبشار غير

مجرد التصديق).(١)

٥. أن إيمان القلب يزداد بزيادة الأدلة والبراهين، فكلما تضافرت الدلائل القاطعة، وتوالت البراهين الواضحة، كان ذلك أدعى لقوة المدلول عليه، مما يثمر في القلب زيادة في الطمأنينة، ورسوخًا في اليقين، وقوة في الثبات على الحق.(٢)

قال النسفي في تفسيره لآية الأنفال: (﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ ازدادوا بها يقينًا وطمأنينة، لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه).(٣)

وذكر النووي: (أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة).(٤)

ولعل هذا المعنى هو مراد نبي الله إبراهيم عليه السلام حين طلب مشاهدة كيفية الإحياء، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومن ثم استدل البخاري بهذه الآية ضمن جملة أدلة في مسألة زيادة الإيمان.(٥)

---

(١) الإيمان: (ص: ٢١٥ – ٢١٦)، وانظر: (ص: ٢١٦ – ٢١٧، ٢٢٣ – ٢٢٤)، شرح الطحاوية: (ص: ٣٢١).

(٢) انظر: فتح الباري: (١/ ١٧٧، ٢٤/ ٢٧٧).

(٣) تفسير النسفي: (١/ ٦٠١)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٤/ ٤).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم: (١/ ١٤٨).

(٥) انظر: صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب الإيمان: (١/ ١١)، شعب الإيمان: (١/ ٧٩).

ذلك أن (المخبر وإن جزم بصدق المخبر، فقد لا يتصور المخبر به في نفسه، كما يتصوره إذا عاينه، بل يكون قلبه مشغولا عن تصور المخبر به، وإن كان مصدقًا به، ومعلوم أنه عند المعاينة يحصل له من تصور المخبر به ما لم يكن عند الخبر، فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق).(١)

قال في الفتح: (كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل، حتى إنه يكون في بعض الأحيان أعظم يقينًا وإخلاصًا وتوكلاً منه في بعضها، وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها).(٢)

فكلما كان التصديق في القلب ثابتًا، والعلم متمكنًا، متعددة دلائله، ظاهرة حججه، قوية براهينه، بحيث يبلغ بذلك مرتبة اليقين الذي لا يضعفه ريب، ولا يؤثر فيه شبهة، كان ذلك أدعى لكمال الإيمان في القلب وزيادته، وأبعد له عن ضعفه ونقصانه، وكان صاحبه أعلى مقامًا ومنزلة ممن هو دون ذلك في قوة اليقين، بحيث يقبل الشك وتخالجه الريبة لأول شبهة تعترض.

يقول ابن تيمية وهو يعرض جهات التفاضل في تصديق القلب: (ومنها أن التصديق نفسه يتفاضل كنهه، فليس ما أثنى عليه البرهان، بل تشهد له الأعيان، وأميط عنه كل أذى وحسبان، حتى بلغ أعلى الدرجات،

(١) الإيمان: (ص: ٢٢١ – ٢٢٢)، وانظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣١٣).

(٢) فتح الباري: (١/ ٩٤).

درجات الإيقان، كتصديق زعزعته الشبهات، وصرفته الشهوات، ولعب به التقليد، ويضعف لشبه المعاند العنيد، وهذا أمر يجده من نفسه كل منصف رشيد، ولهذا كان المشائخ وأهل المعرفة والتحقيق، السالكون إلى الله أقصر طريق، متفقين على الزيادة والنقصان في الإيمان والتصديق، كما هو مذهب أهل السنة والحديث، في القديم والحديث).(١)

٦. أن إيمان القلب يزيد إذا استمر العبد على ذكر المصدق به، وداوم على استحضاره، ولم يذهل عنه أو يغفل.

يقول الديريني(٢): (الإيمان يزيد وينقص، ويظهر تفاوته بالتفاوت في ثمراته، ويرجح بقدر اليقظة والذكر، ويخف بقدر نسيان القلب وغفلاته).(٣)

ولذا أجاب عمير بن حبيب ﷺ(٤) حين سئل عن زيادة الإيمان ونقصانه بقوله: (إذا ذكرنا ربنا وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه).(٥)

(١) مجموع الفتاوى: (٦/ ٤٨٠ – ٤٨١)، وانظر: (٧/ ٥٦٥ – ٥٦٦).

(٢) هو عبد العزيز بن أحمد بن سعيد، الدميري، المعروف بالديريني، نسبة إلى (ديرين) في الغربية بمصر، فقيه شافعي زاهد، من مصنفاته: التيسير في علم التفسير، وطهارة القلوب، توفي سنة أربع وتسعين وست مائة. انظر: الأعلام: (٤/ ١٣).

(٣) طهارة القلوب: (ص: ١٠).

(٤) هو عمير بن حبيب بن خُماشة، الأنصاري الخَطْمي، مدني له صحبة، كان فيمن بايع تحت الشجرة. انظر: الاستيعاب: (٣/ ١٢١٣)، الإصابة: (٤/ ٥٩٢ – ٥٩٣).

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان: (١/ ٧٧)، وانظر: اعتقاد أهل السنة: (٥/ ٩٤٩).

ومن كلام معاذ بن جبل ﷺ لبعض أصحابه: (اجلس بنا نؤمن ساعة)(١) يعني نذكر الله ﷻ.

وكان عمر ﷺ يقول لأصحابه: (هلموا نزدد إيمانًا) فيذكرون الله ﷻ.(٢)

وذلك باعتبار أن ذكر الله جل شأنه سبب في زيادة الإيمان.(٣)

ومن ثم فإن من أدام ذكر الله بقلبه ولسانه، مستحضرًا ما علمه وصدقه وآمن به من شرع الله وخبره، متعاهدًا ذلك، غير غافل ولالاه عنه، مجددًا المتابعة والموافقة والانقياد، كان أكمل دينًا، وأعظم إيمانًا ويقينًا، وأعلى منزلة وحالًا ممن آمن بالله ورسوله وأمرهما وخبرهما، لكنه غافل عما علمه، ساه عما آمن به وصدقه.(٤)

المسألة الثامنة:

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء].(٥)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه تعليقًا: (١/ ١١)، وانظر: اعتقاد أهل السنة: (٥/ ٩٤٣).

(٢) اعتقاد أهل السنة: (٥/ ٩٤١)، وانظر: شعب الإيمان: (١/ ٧٨).

(٣) انظر: فتح الباري: (١/ ٩٧).

(٤) انظر: الإيمان: (ص: ٢٢٠، ٢٢٢)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٦٦).

(٥) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه: (١/ ٩٣).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: [يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير(١) ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة(٢)، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة(٣)].(٤)

ومن حديث أنس ﷺ أيضًا، عن رسول الله ﷺ، في حديث الشفاعة الطويل، وفيه [فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل] ثم يؤذن له في الشفاعة ثانية [فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل] وفي الثالثة: [فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه أدنى، أدنى، أدنى مثقال حبة خردل(٥) من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل].(٦)

---

(١) المراد بالخير إيمان القلب وتصديقه. انظر: التوحيد لابن خزيمة: (٢/ ٦٩٩، ٦١٣ – ٦١٤).

(٢) بضم الباء وفتح الراء المشددة، واحدة القمح. انظر: هدي الساري: (١/ ٨٧).

(٣) بفتح الذال والراء المشددة، وهي النملة الصغيرة، أو الهباء الذي يظهر في شعاع الشمس، وقيل غير ذلك. انظر: هدي الساري: (١/ ١١٩)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ٦١).

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٦/ ٢٦٩٦).

(٥) الخردل: بفتح الخاء: نوع من النبات، واحدته خردلة، يشبه به الشيء البالغ القلة، والمعنى: (يدخل الجنة من كان في قلبه أقل قدر من الإيمان) عمدة القاري: (١/ ١٧٠)، وانظر: ترتيب القاموس: (٢/ ٣٤).

(٦) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم: (٦/ ٢٧٢٧ - ٢٧٢٨)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها: (١/ ١٨٣).

تدل هذه الأحاديث الشريفة على تفاوت ما في القلب من عبودية الله تعالى وتفاضله، وأن ذلك قابل للتجزئة والتبعض، ولذلك يخرج في كل مرة من النار من هم أعلى درجة في عبودية القلب، بالنسبة لمن يخرج في المرة التالية، كما هو مصرح في بعض تلك الأحاديث.

كما تدل على أن هؤلاء المستحقين للنار، والذين يخرجون منها بالشفاعة على مراحل، معهم مقدار من الإيمان أهّلهم للخروج من النار ودخول الجنة بفضل الله ورحمته.(١)

ذلك أن هذه الأحاديث نصّت على تفاوت الإيمان القائم بالقلب، وجعلت مقاديره متفاضلة، كالتفاضل القائم بين أوزان الشعيرة والبرة والخردلة والذرة.(٢)

قال ابن تيمية بعد إيراده بعض تلك الأحاديث الشريفة: (فعلم أن الإيمان يقبل التبعيض والتجزئة، وأن قليله يخرج الله به من النار من دخلها).(٣)

---

(١) انظر: الإيمان: (ص: ٢٨٩-١٩٠)، اعتقاد أهل السنة: (٥/ ٨٩٢)، مجموع الفتاوى: (١٢/ ٤٩٢،١٨/ ٢٧٠).

(٢) انظر: التوحيد لابن خزيمة: (٢/ ٧٠٣ – ٧٠٤)، فتح الباري: (١/ ١٧٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٣٤).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٢/ ٤٧٤)، وانظر: شرح حديث النية: (ص: ٣٦).

ومن ثم استدل بها أهل العلم على تقرير التفاضل في الإيمان.

قال النووي: (قوله ﷺ [مثقال حبة] هو على ما تقدم وتقرر من زيادة الإيمان ونقصانه).(١)

وقال في حديث الشفاعة: (في هذا الحديث دلالة لمذهب السلف وأهل السنة ومن وافقهم من المتكلمين، في أن الإيمان يزيد وينقص، ونظائره في الكتاب والسنة كثيرة).(٢)

وقال ابن القيم: (هذه النصوص صحيحة صريحة لا تحتمل التأويل في أن نفس الإيمان القائم بالقلب يقبل الزيادة والنقصان، وبعضه أرجح من بعض).(٣)

بل اعتبر ابن أبي العز جملة هذه الأحاديث نصًا حاسمًا في تفاضل منازل الناس في عبودية القلب، إذ قال بعد إشارته إلى حديث الشفاعة ونحوه (فكيف يقال بعد هذا أن إيمان أهل السماوات والأرض سواء، وأن التفاضل بينهم بمعان أخر غير الإيمان).(٤)

وكذلك فعل أبو حامد الغزالي حيث قال: (أي معنى لاختلاف

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٩١).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ٦٣).

(٣) تهذيب سنن أبي داود لابن القيم: (٧/ ٥٦ – ٥٧).

(٤) شرح الطحاوية: (ص: ٣٢٢).

المقادير إن كان ما في القلب لا يتفاوت).[1]

والمراد مما سبق تقرير التفاضل بين المؤمنين في عبودية القلب، وأن العبد مأمور بأن يهتم بصلاح ظاهره وباطنه، وتعاهدهما، بحيث يرتقي في منازل العبودية لله جل وعلا.

(١) إحياء علوم الدين: (١/ ١٧١).

الفصل الثالث:

لوازم عبودية القلب وثمراتها والمؤثرات فيها.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: لوازم عبودية القلب ومقتضياتها.

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في حياة القلب.

المبحث الثالث: ثمرات عبودية القلب.

المبحث الأول
لوازم عبودية القلب ومقتضياتها

إن عبودية القلب تقتضي عبودية الجوارح وتستلزمها ولاريب.

تلك قضية واضحة في دين الله تعالى، والدلائل عليها كثيرة في القرآن الكريم والسنة الشريفة.

إذ لا يمكن أن يكون القلب مؤمنًا بالله تعالى، موقنًا بالآخرة، مصدقًا برسول الله ﷺ، يمتلئ محبة لله تعالى وتقوى، ورجاء وخوفًا، وإنابة وتوكلًا، وصبرًا وخشوعًا، ثم لا يظهر لتلك الأعمال القلبية أثر في ظاهر عمل الإنسان وما تفعله جوارحه، لا يتصور ذلك أبدًا ما دامت المكنة قائمة، والموانع منتفية.

إن الإيمان في القلب يقتضي العمل الصالح، وإرادة الآخرة تستدعي السعي لها، والمحبة تستلزم الاتباع، والرجاء يبعث على الطاعة، والخوف يصد عن المعصية، وما في القلب من الخشوع يظهر على البدن، وما فيه من التقوى يُثمِر تقوى الجوارح، وهكذا القول في جميع أعمال القلوب.

ولذا جعل رسول الله ﷺ صلاح القلب أساسًا لصلاح الجوارح فقال ﷺ: [ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب].(١)

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه: (١/ ٢٩)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات: (٢/ ١٢٢٠).

فالقلب هو المركز لعمل البدن، وما يفعله البدن أو يتركه فأصله مستقر بالقلب، ثم تظهر آثاره على الجوارح عملا بمقتضاه خيرًا أو شرًا .

فإذا صلح القلب واستقام، وسلم من الأمراض والآفات، انبعثت الأعضاء إلى الطاعة، وتحركت الجوارح بالصالح من العمل، وتباعدت عن السيئات، إذ الأعضاء جنود مطيعة للقلب، تنفذ أمره ولا تخالفه.(١)

قال ابن رجب: (حركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده، فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله تعالى فسد، وفسدت حركات الجسد بحسب فساد حركة القلب).(٢)

ثم يقول أيضًا مبينًا استلزام صلاح القلب لصلاح الجوارح: (ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح، فإذا كان القلب صالحًا ليس فيه إلا إرادة الله، وإرادة ما يُريده، لم تنبعث الجوارح إلا فيما يريده الله، فسارعت إلى ما فيه رضاه، وكفت عما يكرهه).(٣)

ومن ثم فإن عبودية الجوارح هي اللازم والمقتضى لعبودية القلب، إذ أنّ ما يستقر في القلب من الصلاح والاستقامة لابد أن يظهر مقتضاه على

(١) انظر: شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد: (ص: ٧٩)، شجرة المعارف: (ص: ٦٤)، جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٠)، فتح الباري: (١/ ٢١٢).

(٢) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٢).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٣).

الأعضاء، وأن يؤثر في استقامة حركتها بصورة أو بأخرى.(١)

يقول ابن تيمية: (القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب)(٢) وبعد أن ذكر الحديث الوارد آنفًا ذكر القول المروي عن أبي هريرة ﷺ: (القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طاب جنوده، وإذا خبث الملك خبث جنوده) ثم قارن بين الحديث الوارد والأثر فقال: (وقول أبي هريرة تقريب، وقول النبي ﷺ أحسن بيانًا، فإن الملك وإن كان صالحًا فالجند لهم اختيار وقد يعصون به ملكهم وبالعكس، فيكون فيهم صلاح مع فساده، أو فساد مع صلاحه، بخلاف القلب، فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي ﷺ: [إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد]، فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًا، لزم ضرورة صلاح الجسد..).(٣)

فالدليل على ذوق القلب طعم الإيمان، ووجده حلاوته، وتصديق ذلك، يتمثل في تقلب الجوارح في عبودية الله جل شأنه.

عن الحسن قال: (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلّي(٤)، ولكن ما

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢٧٢ - ١٤/ ١٢١ - ١٨/ ٢٧٢)، العقيدة في الله: (ص: ١٦ - ١٨).

(٢) الإيمان: (ص: ١٧٦).

(٣) الإيمان: (ص: ١٧٦).

(٤) أي التزيّن. فيض القدير: (٥/ ٣٥٥).

وقر[١] في القلب، وصدقه العمل).[٢]

وفي المسائل التالية جملة من آيات الكتاب العزيز التي تشير إلى اقتضاء عبودية القلب عبودية الجوارح:

المسألة الأولى:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[البينة: ٧].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩].

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

قال ابن كثير: (صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة).[٣]

و يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

---

(١) أي سكن وثبت. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٢١٣).

(٢) ذكره ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود: (٧/ ٥٩) وصححه من كلام الحسن البصري، ورواه أحمد بنحوه عن الحسن في الزهد: (ص: ٣١٩)، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٢١٩)، والخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل: (ص: ٤٢ – ٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير: (١ / ٦٢)، وانظر: تفسير الطبري: (١/ ١٧٠)، تفسير المنار: (١/ ٢٣٠).

قال ابن كثير: (أي من لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله).[١]

فهذه الآيات الكريمات، ومثلها كثير في القرآن الكريم، يقترن فيها العمل الصالح بالإيمان، ويتصل به، للدلالة على العلاقة الوثيقة بينهما، وأن أحدهما لا ينفك ولا ينفصل عن الآخر، فلا يكفي إيمان القلب حتى يجتمع معه مقتضاه من العمل الصالح، وبهما معا ينال المؤمن الجنة برحمة الله جل وعلا. فالإيمان أصل، والعمل الصالح لازم له، به يتحقق صدق عبودية القلب، إذ يمتنع أن يكون الإنسان مؤمنًا بقلبه إيمانًا كاملًا، مصدقًا تصديقًا تامًا، ثم لا يكون لذلك أثر في الظاهر، يتمثل في عمل الصالحات، وأداء الواجبات بالجوارح الظاهرة، إذ أن ما يستقر في القلب من الإيمان لا يمكن أن يتخلف موجبه ومقتضاه من صلاح الظاهر.

ولذا قال ابن تيمية: (من كان معه إيمان حقيقي فلابد أن يكون معه من هذه الأعمال بقدر إيمانه وإن كان له ذنوب).[٢]

وقال أيضًا: (ومن قال بحصول الإيمان الواجب بدون فعل شيء من الواجبات، سواء جعل فعل تلك الواجبات لازما له أو جزءًا منه، فهذا نزاع لفظي، كان مخطئًا خطأً بينًا).[٣]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٥٩).

(٢) التحفة العراقية: (ص: ٢٩٤)، وانظر: الإيمان: (ص: ١٨٦ – ١٨٧، ٣٤٧).

(٣) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٢١)، وانظر: (١٠/ ٢٦٩، ١٨/ ٢٧٢).

المسألة الثانية:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

والمعنى: إن كنتم من أهل الإيمان حقيقة فصدقوا ذلك الإيمان بالقيام بمقتضياته من طاعة الله سبحانه، وطاعة رسوله ﷺ، إذ الإيمان يستلزم تلك الطاعة.(١)

ولما كان انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم نفى الله تعالى الإيمان عمن أعرض عن طاعة الله ورسوله.

يقول جل وعلا: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧].

يقول ابن تيمية: (نفى الإيمان عمن يتولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الإيمان).(٢)

وقد رد الله تعالى دعوى الإيمان في حق من يرفض شريعة الله، ويأبى الانقياد لها والالتزام بأحكامها.

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١١٦)، نظم الدرر: (٣/ ١٨٤)، تفسير المنار: (٩/ ٥٨٨)، تفسير السعدي: (٢/ ١٨٧).

(٢) الإيمان: (ص: ٢٠٩).

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ [النساء: ٦٠].

قال ابن كثير: (هذا إنكار من الله ﷻ على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله).(١)

ولذا قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

فالآيات تستدل بعمل الظاهر من التحاكم إلى شرع الله تعالى على عمل الباطن من الإيمان بالله جل شأنه، والخضوع لأمره، والاستسلام لحكمه، وذلك يشير إلى أن استقامة القلب تقتضي استقامة الجوارح، وأن الإيمان موجب للعمل مستلزم له، وأن ترك القيام بالواجبات الظاهرة يدل على خلل في عبودية القلب ضعفًا ونقصانًا، أو عدمًا وانتفاءً بالكلية.

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٥١٩)، وانظر: إعلام الموقعين: (١/ ٥٠-٥١)، المواهب اللدنية: (٢/ ٦٣٤-٦٣٥)، تفسير السعدي: (١/ ٣٦٣)، تفسير ابن عاشور: (٥/ ١١١).

المسألة الثالثة:

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

تدل هذه الآية الكريمة دلالة واضحة صريحة على أن محبة الله تعالى، وهي من ركائز عبودية القلب، تقتضي اتباع رسول الله ﷺ.

ذلك أن الآية تفيد أن اتباع شريعته عليه الصلاة والسلام، والانقياد لأمره، والاحتراز عن مخالفته، شرط لتحقيق محبة العبد لله جل شأنه.

فعلامة ما في القلب من محبة صادقة لله ورسوله، هي طاعة الجوارح لله سبحانه، وتنفيذها لما جاء به رسول الله ﷺ من الأحكام والشرائع.

يقول ابن كثير: (هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله).[١]

ولذا قال أبو يعقوب النهرجوري[٢]: (كل من ادعى محبة الله ﷻ ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطل).[٣]

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٥٨)، وانظر: تفسير الطبري: (٣/ ٢٣٣)، شجرة المعارف: (ص: ٥٩)، المواهب اللدنية: (٢/ ٦٣٦).

(٢) هو إسحاق بن محمد، أبو يعقوب النهرجوري، من أصحاب الجنيد، جاور بمكة، وتوفي بها سنة ثلاثين وثلاثمائة. انظر: طبقات الصوفية: (٣٧٨ – ٣٨١)، سير أعلام النبلاء: (١/ ١٠٧٣).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٣).

ومن ثم فإن هذه الآية الكريمة تمتحن دعوى محبة الله تعالى، كما قال أبو سليمان الداراني: (لما ادعت القلوب محبة الله أنزلها محنة).[١]

إذ تقرير الآية أنه: (ما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية).[٢]

يقول ابن رجب: (جعل الله علامة الصدق في محبته اتباع رسوله، فدل على أن المحبة لا تتم بدون الطاعة والموافقة).[٣]

وقال البقاعي: (فمن ادعى محبته وخالف سنة رسول الله ﷺ فهو كذاب، وكتاب الله سبحانه وتعالى يكذبه).[٤]

ذلك أن المحبة توجب موافقة المحبوب، ومواطأة القلب لمراده، وتتبع مراضيه، وفعل محبوباته، والصّدّ عن مكروهاته.

يقول ابن القيم نظمًا:

شرط المحبة أن توافق من تحب على محبته بلا عصيان

فإذا ادعيت له المحبة مع خلا فك ما يحب فأنت ذو بهتان[٥]

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٩)، وانظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٣٥٨)، جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٢).

(٢) مدارج السالكين: (٣/ ٢٠)، وانظر: فتوح الغيب: (ص: ١٥٤)، الشفا: (٢/ ٣٧١، ٣٨٦ – ٣٨٧).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٢)، وانظر: مجموع الفتاوى: (٢/ ٤٥٤).

(٤) نظم الدرر: (٢/ ٦٣).

(٥) القصيدة النونية: (٢/ ١٣٦).

ولذا عرّف بعض الأئمة المحبة بموجبها ولازمها.

قال سهل بن عبد الله في حدّ المحبة: (معانقة الطاعة ومباينة المخالفة).[١]

وهو تفسير للمحبة بمقتضاه، من التزام الطاعات، والمباعدة عن السيئات، وذلك هو أثر المحبة إذا تأصلت في القلب، وحينئذ تتحقق ثمرتها كما قال ابن القيم: (إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسقيت بماء الإخلاص، ومتابعة الحبيب، أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها).[٢]

ومن ادعى المحبة احتاج إلى إبراز البينة، التي هي اللازم والمقتضى.

يقول ابن القيم: (وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولذا جعل تعالى اتباع رسوله ﷺ علمًا عليها، وشاهدًا لمن ادّعاها فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٢).

(٢) مدارج السالكين: (٣/ ١٠)، وانظر: قوت القلوب: (٢/ ١٠٧).

لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم، بدون المتابعة لرسوله ﷺ).[١]

فما في القلب من عبودية المحبة يستلزم حركة الجوارح في طاعته سبحانه، والمشتملة على طاعة رسوله ﷺ.

قال ابن عطية: (محبة العبد لله تعالى يلزم منها ولابد أن يطيعه).[٢]

وقال ابن تيمية: (الحب التام مع القدرة يستلزم حركة البدن بالقول الظاهر والعمل الظاهر ضرورة) (وإذا قام بالقلب التصديق به، والمحبة له، لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة، والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله).[٣]

ولذا قال الجنيد لما سئل عن قوله في المحبة: (عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله).[٤]

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٨٤)، وانظر: (٣/ ٣٢)، روضة المحبين: (ص: ١٨٤ – ١٨٥، ٢٠٣).

(٢) تفسير ابن عطية: (١٠/ ٤٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٤١)، وانظر: (١٠/ ٧٥٤).

(٤) مدارج السالكين: (٣/ ١٦)، وانظر: روضة المحبين: (ص: ٢٨٠).

وهذه العبارات تشتمل على الملزوم وهو قوة المحبة، وعلى اللازم المتمثل في استسلام الجوارح لأمر الله، ولذلك أثنى ابن القيم على هذا الكلام في المحبة فقال: (وهذا من أجمل ما قيل فيها).[١]

ومما يدل أيضًا على اقتضاء المحبة عمل الظاهر قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾[المائدة: ٥٤].

فقد تضمنت الآية الكريمة عدداً من صفات المؤمنين الصادقين، باعتبارها علامات على صحة محبتهم لله جل وعلا، وصدقهم في دعواها، وعلى تحققها منهم بحصول موجبها ومقتضاها.[٢]

المسألة الرابعة:

يقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

تقرر الآية الكريمة أن علامة صحة الرجاء في قلب المؤمن هو العمل الصالح، والسلامة من الشرك في عبادة الله سبحانه.

ويأتي الرجاء في اللغة بمعنى الطمع والأمل وتوقع ما فيه سرور ومنفعة، ويستعمل توسعًا في معنى الخوف مما فيه مضرة.[٣]

---

(١) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ١٦).

(٢) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ٢٠).

(٣) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٢٤)، لسان العرب: (٣/ ١٦٠٤)، تفسير البغوي: (٣/ ١٨٧)، روح المعاني: (١٦/ ٥٣ – ٥٤)، أضواء البيان: (٤/ ٢٠٠).

ومن ثّم كان للمفسرين في المراد بالرجاء في هذه الآية قولان[١]:

الأول: أن الرجاء على بابه بمعنى الطمع والأمل في ثواب الله تعالى ورؤيته سبحانه.

وبه قال الواحدي، وابن كثير، وأبو السعود، والشوكاني.[٢]

قال أبو حيان: (وحمل الرجاء على بابه أجود).[٣]

وقال الألوسي: (وتفسير الرجاء بالطمع أولى).[٤]

الثاني: أن المراد بالرجاء هنا الخوف من الله جل وعلا.

قال ابن قتيبة: (أي يخاف لقاء ربه).[٥]

واختاره البغوي، والسمرقندي.[٦]

والمعنيان متلازمان، فإن المؤمن إذا رجا ثواب الله تعالى خاف عقابه أيضًا، والعكس صحيح.[٧]

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري: (٢/ ٧٠٠)، معاني القرآن للزجاج: (٣/ ٣١٦)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٣٠٢)، زاد المسير: (٥/ ١٤٢).

(٢) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٦٧٤)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٠٨)، تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٥١)، فتح القدير: (٣/ ٣٢٢).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٦/ ١٦٩).

(٤) روح المعاني: (١٦/ ٥٤).

(٥) تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٧١).

(٦) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ١٨٧)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٣٦٥)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٤٥).

(٧) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٣/ ٣١٦)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٣٠٢)، أضواء البيان: (٤/ ٢٠٠).

ولذا جمع بعض المفسرين بينهما، واعتبر اللفظ دالا عليهما جميعًا.

قال القرطبي: (أي يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه).(١)

وقال محمد الأمين: (قوله في هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يشمل كونه يأمل ثوابه ورؤية وجهه الكريم يوم القيامة، وكونه يخشى عقابه، أي فمن كان راجيًا من ربه يوم يلقاه الثواب الجزيل والسلامة من الشر، فليعمل عملًا صالحًا).(٢)

وعلى كلا المعنيين فالمقصود بيان دلالة الآية على أن مقتضى اتصاف القلب بالرجاء حركة الجوارح بالطاعة، وانبعاثها إلى العمل الصالح.

ويفهم من الآية أن الذي يشرك في عبادة الله سبحانه، ولا يعمل الصالحات، لا يرجو لقاء ربه على سبيل الحقيقة.(٣)

ذلك أن عبادة القلب بالرجاء لا بد أن يقارنها عمل بالجوارح يصدقها، إذ الرجاء الحقيقي هو ما كان باعثًا على الطاعة، دافعًا إلى الاستقامة، لأن من رجا شيئًا طلبه، وسعى لتحصيله، وبغير ذلك يصبح الرجاء في الواقع مجرّد تمنّ لا ثمرة له.(٤)

(١) تفسير القرطبي: (٤٧١١)، وانظر: تفسير الطبري: (١٦/ ٣٩).

(٢) أضواء البيان: (٤/ ١٩٩).

(٣) انظر: أضواء البيان: (٤/ ١٩٩).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ١٨٨)، عجائب القرآن: (ص: ١٤٢)، المسائل في أعمال القلوب: (ص: ٧٠ – ٧١)، الروح: (ص: ٣٠٤ – ٣٠٦).

ومثل هذه الآية قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦].

فالآيتان الكريمتان تفيدان أن ثمرة رجاء ثواب الله تعالى وخوف عذابه جل وعلا، ولازم ذلك ومقتضاه، هو التأسي والاقتداء برسول الله ﷺ، والتزام شرعه، والتأسي بالخليل إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، في الثبات على عبادة الله جل شأنه، والبراءة من الشرك وأهله.(١)

وقد أثنى الله جل شأنه على قوم بوصف الرجاء لرحمة الله وثوابه، بعد أن ذكر سبحانه ما به استحقوا هذا الوصف من التقرب إلى الله تعالى بصالح العمل، وذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢١/ ١٤٣، ٢٨/ ٦٤)، تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٣٠٢)، زاد المسير: (٦/ ١٩٠)، نظم الدرر: (٦/ ٩١)، تفسير ابن عاشور: (٢١/ ٣٠٣، ٢٨/ ١٤٩)، الشفا: (٢/ ٣٧١).

﴿رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

يقول ابن القيم: (طوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء) ثم قال: (وعلامة الرجاء الصحيح أن الراجي يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها، بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها).(١)

ولذا قال مالك بن دينار(٢): (إذا عرف الرجل من نفسه علامة الخوف وعلامة الرجاء فقد تمسك بالأمر الوثيق. أما علامة الخوف فاجتناب ما نهى الله عنه، وأما علامة الرجاء فالعمل بما أمر الله به).(٣)

المسألة الخامسة:

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

تفيد هذه الآية الكريمة أن الخوف من الله تعالى يقتضي طاعته والعمل بشرعه سبحانه أمرًا ونهيًا.

---

(١) الروح: (ص: ٣٠٤)، وانظر: شجرة المعارف: (ص: ٨٥)، عجائب القرآن: (ص: ١٤٣)، الأربعين: (ص: ١٢٢)، شرح الطحاوية: (ص: ٣٠١، ٣٠٦).

(٢) هو أبو يحي مالك بن دينار، تابعي ثقة، عالم زاهد، توفي سنة سبع وعشرين ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٢٧٣ - ٢٨٨)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣١٦٧ - ٣١٦٨).

(٣) تنبيه الغافلين: (٢/ ٤١٧)، وانظر: الداء والدواء: (ص: ٧٧، ١١٤)، قوت القلوب: (١/ ٤٤٠ - ٤٤١).

ذلك أن الآية الكريمة ذكرت الملزوم: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ والمقصود لازم ذلك من ترك التعرض للصيد حال التلبس بالإحرام، مهما كان الصيد سهلًا وقريبًا.

قال ابن كثير: (يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًا وجهرًا، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره).(١)

وفي قصة ابني آدم عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[المائدة: ٢٨].

فقد جعل التقيّ منهما العلة المانعة له من قتل أخيه هي عبادة القلب المتمثلة في الخوف من رب العالمين جل وعلا.(٢)

ومثل ذلك قول الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٩٨)، وانظر: تفسير الطبري: (٧/ ٤٠)، تفسير الزمخشري: (١/ ٧١٠)، تفسير أبي السعود: (٣/ ٧٨)، روح المعاني: (٧/ ٢٧)، تفسير ابن عاشور: (٦/ ٤٠ - ٤١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٩٢)، تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٦٣)، نظم الدرر: (٢/ ٤٤٦)، تفسير أبي السعود: (٣/ ٢٧)، روح المعاني: (٦/ ١١٣)، تفسير ابن عاشور: (٦/ ١٧٠).

فخوفهم من عذاب الله يوم القيامة أنشأ لديهم طاعة لله تبارك وتعالى.[١]

وكذلك قول الله جل شأنه في وصف الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧ - ١٠].

فالباعث لهم إلى عمل الصالحات هو خوفهم من الله جل وعلا.

قال ابن كثير: (أي يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر، ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها، خيفة من سوء الحساب يوم القيامة).[٢]

ولذا جمع القرآن بين الخوف ومجانبة الهوى، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠].

فخشية الله جل شأنه تمنع من اتباع الهوى، وتستلزم طاعة الله سبحانه بامتثال أمره واجتناب نهيه.[٣]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ١٤٨)، نظم الدرر: (٥/ ٢٦٧)، تفسير السعدي: (٣/ ٤٠٣ - ٤٠٤)، تفسير ابن عاشور: (١٨/ ٢٤٩، ٢٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٥٤)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٩/ ٢١١)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٦٩)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٥٥٢)، تفسير أبي السعود: (٩/ ٧٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٤٨)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٤، ١٤/ ٤٨٠)، في ظلال القرآن: (٦/ ٣٨١٨ - ٣٨١٩).

المبحث الثاني

العوامل المؤثرة في حياة القلب

إذا كان للبدن حياة حسية يتحرك بها وينتفع، وله غذاؤه الذي يعيش به وينمو، ويشترك معه في ذلك الحيوان والنبات، على تفاوت في الحياة والنمو والغذاء[١]، فإن للقلب حياة معنوية خاصة به، هي أصل صلاحه وكماله ونعيمه.

وغذاء تلك الحياة المختصة بالقلب، وأصل وجودها، وسبب نمائها، يتمثل في إخلاص العبودية لله تعالى، والتجرد في توحيده والإيمان به جل وعلا.

ذلك أن المؤمن إذا سلك طريق الهداية بتوفيق الله ولطفه، استنار قلبه واستضاء، فصار منشرحًا للإسلام، مطمئنًا بالإيمان، متسعًا لقبول الهدى، منفسحًا لإجابة الحق، فرحًا متلذذًا بتلك الحياة[٢]، كما قال سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال ﷻ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

هذا الانشراح بالإسلام، والاستنارة بوحي الله تعالى وهداه، هو علامة

---

(١) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ٢٠٠ - ٢٠١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٨/ ٢٦، ٢٣/ ٢٠٩)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٠ - ١٦١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٧٤ - ١٧٥)، تفسير الثعالبي: (١/ ٥٥٧).

الحياة للقلب بعد أن كان في جملة الأموات.

يقول الله جل وعلا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا[1] يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

قال ابن كثير: (هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا، أي في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ووفقه لاتباع رسله).[2]

هذه الحياة القلبية تؤثر فيها جملة من العوامل، يمكن عرض بعضها في المسائل التالية:

المسألة الأولى: العلم

يراد بالعلم ما أوصل إلى الإيمان بالله تعالى، وعبادته وحده سبحانه، ويشمل ذلك مصدرين:

المصدر الأول: الوحي المسموع المنزل من عند الله سبحانه، قرآنًا أو سنة، والذي يعرف به العبد ربه بأسمائه وصفاته جل وعلا، ويدرك المسلك الصحيح الذي يعبده به جل شأنه، ويعلم الوعد المترتب على الطاعة والاهتداء، والوعيد المترتب على المعصية والضلال.

(١) فُسر النور في الآية بالقرآن، وبالإسلام، وبالهدى والإيمان. قال ابن كثير: (والكل صحيح) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ص: ١٥٩)، معاني القرآن للفراء: (١/ ٣٥٣)، تفسير القرطبي: (٧/ ٥٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٧٢)، نظم الدرر: (٢/ ٧٠٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ١٧٢)، وانظر: تفسير الطبري: (٨/ ٢٢ – ٢٣)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٤٩، ١٩/ ٩٤- ١٠/ ١٠٠)، مدارج السالكين: (٣/ ١٩٨ – ١٩٩)، إغاثة اللهفان: (١/ ٦٣).

المصدر الثاني: الآيات الكونية المشهودة التي يدل التأمل والتفكر والنظر فيها على عظمة الله وقدرته، وعلى عزه وسلطانه، وعلى استحقاقه للعبودية وحده دون سواه.

إن اتصاف العبد بوصف العلم من هذين الطريقين يضفي على قلبه حياة ونورًا وإشراقًا، ويثمر فيه خشية وإنابة وحبًّا.[1]

إذ العلم قوت القلب وغذاؤه، يحسّ به كما يحسّ الجسم بالطعام والشراب.[2]

وبالمقابل فإن من يفقد هذا العلم من أهل الجهل بالله ودينه محكوم عليه بموت القلب، وإن كان الجسد والبدن معدودًا في دائرة الأحياء.[3]

ولذا قال الله ﷻ مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

فالكافرون موصوفون بموت القلب، وذلك بفقدهم الإحساس والحركة بالعلم الحقيقي بالله وشرعه، وثمرة ذلك من الإيمان والاهتداء، وهم في هذا الموت القلبي أشباه لأهل القبور في عدم الانتفاع.

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٣/ ٣٣٣).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (٤/ ٤١).

(٣) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ٢٠١)، إغاثة اللهفان: (١/ ٦٥).

قال القرطبي: (أي هم بمنزلة أهل القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه).(١)

ولما كان القرآن وعاء للعلم الذي تحيا به القلوب وتستضيء به سمّاه الله تعالى نورًا في أكثر من آية في الكتاب العزيز.

يقول الله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

والمراد بالنور المبين القرآن كما ذكر عامة المفسرين.(٢)

قال الزجاج: (يعنى به ـ والله أعلم ـ القرآن، لأن النور هو الذي يبين الأشياء حتى ترى، ومثل الله ﷻ ما يعلم بالقلب علمًا واضحًا لما يرى بالعين رؤية منكشفة بينة).(٣)

ويقول تبارك وتعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

قال السمرقندي(٤): (سمي القرآن نورًا لأنه يهتدى به في ظلمة الجهالة

---

(١) تفسير القرطبي: (١٤/ ٢١٧)، وانظر تفسير الطبري: (٢٢/ ١٢٨ – ١٢٩).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٣٨٦)، تفسير الواحدي: (١/ ٣٠٤)، تفسير السمعاني: (١/ ٥٠٧)، تفسير البغوي: (١/ ٥٠٣)، تفسير ابن عطية: (٢/ ١٤١)، تفسير القرطبي: (٦/ ١٩)، نظم الدرر: (٢/ ٣٧٩).

(٣) معاني القرآن: (٢/ ١٣٦)، وانظر: زاد المسير: (٢/ ٢٢٧).

(٤) هو نصر بن محمد بن إبراهيم، أبو الليث السمرقندي الحنفي، إمام فقيه، محدث زاهد، من مصنفاته: تنبيه الغافلين، وتفسيره المسمّى (بحر العلوم)، توفي سنة خمس وسبعين وثلاث مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٤٠٢٤)، الأعلام: (٨/ ٢٧).

والضلالة، ويعرف به الحلال والحرام).(١)

ويقول جل شأنه: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال ابن الجوزي (النور الذي أنزل معه القرآن سماه نورًا لأن بيانه في القلوب كبيان النور في العيون).(٢)

ويقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد أضافت هذه الآية الكريمة إلى وصف القرآن الكريم بأنه نور وصفه بأنه روح(٣)، إشارة إلى حاجة القلب إليه، واعتماده في حياته عليه، كما تعتمد حياة الأجساد على بقاء الأرواح، فإذا أقفل العبد باب العلم الذي تضمنه الوحي الإلهي، فقد أغلق على قلبه منافذ الحياة، وأوجب له موتًا وظلمة ووحشة.(٤)

---

(١) تفسير السمرقندي: (٣/ ٤٣٤)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٥/ ١٨٠)، تفسير السمعاني: (٥/ ٤٥١)، تفسير البغوي: (٤/ ٣٥٣)، تفسير ابن عطية: (٥/ ٣١٩)، تفسير القرطبي: (١٨/ ٩٠).

(٢) زاد المسير: (٣/ ١٨٥)، وانظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٥٦٩)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٠٦)، تفسير القرطبي: (٧/ ١٩٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٥/ ٤)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٢٢)، إغاثة اللهفان: (١/ ٦٥ – ٦٦).

(٤) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ١٢٧، ١٩٩).

قال القرطبي: (سماه روحًا لأن فيه حياة من موت الجهل).[١]

ويقول ابن القيم في تسمية القرآن بالروح والنور في الآية الكريمة: (سماه روحًا لما يحصل به من الحياة الطيبة والعلم والقوة، وجعله نورًا لما يحصل به من الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح وجدت الإضاءة والاستنارة، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح فهو ميت مظلم، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل).[٢]

ومن الآيات التي تشير إلى أثر العلم في حياة القلب قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

فقد بينت الآية الكريمة أن المتصفين بالعلم يوقنون بأن القرآن[٣] المنزل على رسول الله ﷺ هو الحق الظاهر بلاشك أو ريب فيعظم إيمانهم به، وثمرة ذلك إخبات قلوبهم لما يتضمنه الوحي الإلهي من البيان والهدى، اطمئنانًا به، وخشوعًا وانقيادًا له.

(١) تفسير القرطبي: (١٦/ ٣٧)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٩/ ٩٤).

(٢) التفسير القيم: (ص: ٤٣٤).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٩)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٩)، التسهيل: (٣/ ٤٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٣٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١٤).

وبين الله ﷻ في آية أخرى أن العلم سبيل إلى خشيته سبحانه.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال الواحدي: (أي من كان عالمًا بالله اشتدت خشيته).[١]

ذلك أن مدار الخوف والتعظيم والخشية على العلم بالله تعالى، ومعرفته بأسمائه وصفاته، وآثار عظمته وقدرته، وملكه وعزه وسلطانه، ووعده ووعيده، من جهة تدبر الآيات التنزيلية، ومن جهة التفكر في الآيات الكونية.[٢]

يقول ابن كثير: (أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم، الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر).[٣]

فالعلم بالله جل شأنه يوجد في القلب حياة، ويوجب خشية، وثمرة ذلك حياة الجوارح وامتثالها، فعلًا للحسنات وتركًا للسيئات.[٤]

ويشير إلى ذلك أيضًا قول الله تعالى معلّمًا نبيه موسى ؊ كيف يخاطب

(١) تفسير الواحدي: (٢/ ٨٩٣)، وانظر: الأربعين: (ص:١٢٠ –١٢١).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (٣/ ٩٩)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٤٣٧)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٢١٩)، تفسير القاسمي: (١٤/ ٥١ – ٥٢).

(٣) تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٥٣)، وانظر: تفسير النسفي: (٣/ ١٢٢)، شجرة المعارف: (ص: ٥٠).

(٤) انظر: منهاج العابدين: (ص: ١٦)، مجموع الفتاوى: (١٤/ ٢٩٢ – ٢٩٤، ١٦/ ١٧٨ – ١٧٩).

فرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[النازعات:١٨ - ١٩].

فإذا تحقق للعبد الاهتداء إلى ربه جل شأنه، والعلم به سبحانه، كان سببًا في استقرار الخشية والخشوع في القلب إذ (الخشية تابعة للعلم).(١)

قال الفضيل بن عياض: (رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى).(٢)

ويقول ابن تيمية: (العلم سبب الخشية فإن كان تامًا أوجب الخشية).(٣)

وقد ضرب الله جل وعلا مثلًا لأثر الوحي الإلهي المتضمن للعلم والهدى في حياة القلب وضيائه وصلاحه، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

ففي تفسير الآية الكريمة يرى عدد من المفسرين(٤) أنها مشتملة على

---

(١) تفسير ابن عطية: (٥/ ٤٣٣)، وانظر: تفسير الفخر الرازي، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٤٢١)، تفسير النسفي: (٣/ ٦٤٧)، تفسير أبي السعود: (٩/ ٩٩).

(٢) أدب الدنيا والدين: (ص: ١١٣ - ١١٤)، وانظر: مدارج السالكين: (١/ ٣٨٩).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٧)، وانظر إحياء علوم الدين: (٤/ ٢٠٦).

(٤) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٢٢٢)، تفسير الواحدي: (١/ ٥٦٩)، تفسير السمعاني: (٣/ ٨٧)، تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ٣٥)، تفسير النسفي: (٢/ ١٤٤ - ١٤٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٠٨)، تفسير السعدي: (٢/ ٤٦٥)، تفسير ابن عاشور: (١٣/ ١١٧)، عجائب القرآن: (ص: ٨٣ - ٨٦).

تشبيه للعلم الذي تحيا به القلوب وتستضيء، بالماء النازل من السماء تحيا به الأرض والأبدان، وتشبيه للقلوب التي هي أوعية للعلم ومحل له، بالأودية التي هي محل الماء.(١)

يقول ابن القيم: (شبه الله الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كواد صغير، فسالت أودية بقدرها، واحتملت قلوب من الهدى بقدرها، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومرّ عليها احتمل غثاء وزبدًا، فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات، ليقلعها ويذهبها، كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه، فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه إنما أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها، وهكذا يضرب الله الحق والباطل.

ثم ذكر المثل الناري فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد، فتخرجه النار وتميزه، وتفصله من الجوهر الذي ينتفع به، فيرمى ويطرح ويذهب جفاء، وكذلك الشهوات والشبهات يرميها العلم والهدى من قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها، كما يطرح السيل والنار

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٩/ ٩٤ - ٩٥).

ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستسقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره).[1]

ويؤيد هذا التأويل للآية الكريمة - كما ذكر أبو حيان[2]- ما تضمنه حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: [مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية[3] قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب[4] الكثير، وكانت منها أجادب[5] أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها

(١) إعلام الموقعين: (١/ ١٥٢ - ١٥٣) وانظر: الوابل الصيب: (ص: ١١٤)، مفتاح دار السعادة: (١/ ١٥٢).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط: (٥/ ٣٨١)، مجموع الفتاوى: (٤/ ٤١، ٩/ ٣١٤ - ٣١٥)، تفسير ابن عاشور: (١٣/ ١١٧).

(٣) من النقاء، وفي رواية مسلم (طائفة طيبة)، والمعنى واحد. انظر: فتح الباري: (١/ ٢٧٤)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٤٧).

(٤) الكلأ والعشب من أسماء النبات، غير أن الكلأ يطلق على اليابس والرطب، بينما يختص العشب بالرطب منه. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٢٣٨، ٤/ ١٩٤)، فتح الباري: (١/ ٢٧٤)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٤٦).

(٥) الأجادب جمع جدب، وهي الأرض الصلبة التي تمسك الماء فلا تشربه سريعًا. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٤٢)، فتح الباري: (١/ ٢٧٤)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٤٦ - ٤٧).

طائفةأخرى، إنما هي قيعان[1] لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به].[2]

فهذا الحديث الشريف مشتمل على تشبيه ما بعث به نبي الله ﷺ من ربه تبارك و تعالى بالغيث النازل حال شدة حاجة الناس إليه، فكما أن المطر يحي الأرض الميتة، فكذلك أثر الوحي الإلهي في حياة القلب.

ويفهم من هذا الحديث أيضًا أن الناس في تلقي قلوبهم للعلم وانتفاعهم به على ثلاثة أصناف:

أولها: من يتلقى الوحي المتضمن للعلم والهدى فيقبله ويفهمه، ويلتزمه ويعمل به، وينشره ويدعو إليه، فهو عالم عامل معلّم، منتفع به في ذاته، ويتعدى نفعه لغيره.

وثانيها: من يتلقاه ويقبله، ويعمل به في الأركان والواجبات دون المكملات، وفي الفرائض دون النوافل، ومن حفظه ووعاه، دون تمكّن من الفقه فيه، لكنه أداه لغيره، ونفع به من هو أوعى وأفقه.

(١) القيعان هي الأرض المستوية الواسعة الملساء التي لا تنبت، واحدها قاع. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ١٣٢ - ١٣٣)، فتح الباري: (١/ ٢٧٥)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٤٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب فضل من علم وعلّم: (١/ ٤٢)، ومسلم بنحوه في كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم: (٢/ ١٧٨٧ - ١٧٨٨).

وثالث تلك الأصناف: من تلقى الوحي بسمعه، لكنه أباه ورفضه وتجاهله، علمًا وعملًا وتعليمًا، فلم يكن قلبه محلًا قابلًا للعلم، ولا منتفعًا بما ورد عليه منه.

وهذا الصنف الأخير هو المذموم المبتلى بموت القلب، أما الصنفان الأولان فهما محمودان، على تفاوت بينهما في درجات العبودية، ومراتب الانتفاع، ومنازل الثواب.(١)

يقول النووي في شرح هذا الحديث: (أما معاني الحديث ومقصوده فهو تمثيل الهدى الذي جاء به ﷺ بالغيث، ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع، وكذلك الناس، فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر فيحيا بعد أن كان ميتًا، وينبت الكلأ، فتنتفع بها الناس والدواب والزرع وغيرها، وكذا النوع الأول من الناس يبلغه الهدى والعلم، فيحفظه، فيحيا قلبه، ويعمل به، ويعلمه غيره، فينتفع وينفع، والنوع الثاني من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة، وهي إمساك الماء لغيرها، فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم أهل للنفع والانتفاع، فيأخذه منهم فينتفع به،

---

(١) انظر: فتح الباري: (١/ ٢٧٥).

فهؤلاء نفعوا بما بلغهم، والنوع الثالث من الأرض السباخ التي لا تنبت ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء، ولا تمسكه لينتفع به غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس ليست لهم قلوب حافظة، ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به، ولا يحفظونه لنفع غيرهم).(١)

المسألة الثانية: الاستقامة على الطاعة.

حين يستجيب المؤمن لله تعالى ورسوله ﷺ، فيلتزم بالتكاليف الشرعية، فعلاً لما يؤمر به من الطاعات، وتركاً للمحرم من الشهوات، وتتقلب أعضاؤها وجوارحه في أنواع العبودية لربه سبحانه، فإن ذلك العمل الصالح له أثره المحمود على القلب، نورًا وضياءًا، وإشراقًا وصفاءًا، وقوة وثباتًا، وانشراحًا وطمأنينة، يطيّب حياته، ويلمّ شعثه، ويزيل كدره، ويطهره من الدنس، ويحميه من أن يكون مرتعًا للشيطان وكيده.

وفي المقابل فإن الانهماك في المعصية يؤثر في القلب سوادًا ودنسًا.(٢)

إذ للحسنة نور في القلب، وللسيئة ظلمة، كما روي من كلام ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.(٣)

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٤٧ - ٤٨)، وانظر: الوابل الصيب: (ص: ١١٥- ١١٩)، القواعد الحسان: (ص: ٥٦).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ١٥ - ١٨، ٥٠)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٣٩٦، ١٥/ ٣٩٢- ٣٩٣، ٤٢٥)، مدارج السالكين: (١/ ٣٢٢، ٣/ ٧٧، ١٩٩ - ٢٠٣)، الآداب الشرعية: (١/ ١٧٠).

(٣) انظر: حلية الأولياء: (٣/ ٣٠)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٠٤)، الوابل الصيب: (ص: ٧٢)، مدارج السالكين: (١/ ٣٢٢).

ومن قول عبد الله بن المبارك[(١)] شعرًا:

ركوب الذنوب يميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها[(٢)]

والمقصود أن ما تقوم به الجوارح له تأثير في القلب، إذ هي سبل موصلة إليه، وإن كان القلب هو الأصل المؤثر في البدن الذي هو فرع له، إلا أن التأثير بينهما متبادل، والآثار متداخلة يفضي بعضها إلى بعض[(٣)]، إذ (الفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه)[(٤)] (والشجرة كلما قوي أصلها وعرق وروي قويت فروعها، وفروعها أيضًا إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها).[(٥)]

فالعين والأذن -على سبيل المثال- رسولان للقلب في المرئيات والمسموعات، يلقيان للقلب ويبعثان إليه ما يقابلانه، فبقاؤهما في دائرة المباح يقفل باب الحرام أصلًا.

---

(١) هو عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظلي التركي، ثم المروزي، إمام عصره، محدث حافظ حجة، مناقبه كثيرة، توفي سنة إحدى وثمانين ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٤/ ١٣٤ - ١٤٧)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٤٦٧ - ٢٤٧٩).

(٢) تاريخ دمشق: (٣٢/ ٤٦٧)، وانظر: شعب الإيمان: (٥/ ٤٦٤)، حلية الأولياء: (٨/ ٢٧٩)، مدارج السالكين: (٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١٣٢)، ذم الهوى: (ص:٧٤)، اقتضاء الصراط المستقيم:(ص: ١١).

(٤) مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٤١)، وانظر: إحياء علوم الدين: (١/ ١٦٩ - ١٧٠، ٣/ ١٥ - ٣٥، ٤/ ٤٨٥).

(٥) مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٤٢).

يقول ابن العربي عن العين باعتبارها محلًا لتقوى الله تعالى: (المحل الأول: العين، فإنها رائد القلب وربيئته[(١)]، فما تطلع عليه أرسلته إليه، فهو يفصل منه الجائز مما لا يجوز، وإذا جللتها بحجاب التقوى لم ترسل إلى القلب إلا ما يجوز، فيستريح من شغب ذلك الإلقاء).[(٢)]

ثم أنشد عن بعض مشايخه[(٣)]:

إذا لمت عينيّ اللتين أضرتا ... بجسمي وقلبي قالتا لم القلب
فإن لمت قلبي قال عيناك جرتا ... عليّ الرزايا ثم لي تجعل الذنبا

وقال آخر في هذا المعنى:

قلبي يقول لطرفي: هِجْت لي سقما ... والعين تزعم أن القلب أبكاها
والجسم يشهد أن العين كاذبة ... هي التي هيجت للقلب بلواها[(٤)]

وفي كتاب الله العزيز ما يشير إلى أثر العمل الصالح في حياة القلب، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

---

(١) الربيئة: العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١٧٩)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٢٨٢).

(٢) أحكام القرآن: (٢/ ٨٤٩)، وانظر: ذم الهوى: (ص: ١٠٣ - ١٠٨)، إغاثة اللهفان: (١/ ١٠٤- ١٠٥).

(٣) هو عطاء المقدسي. أحكام القرآن: (٢/ ٨٤٩).

(٤) رواه ابن الجوزي عن الدولابي. ذم الهوى: (ص:١٠٩)، وانظر روضة المحبين:(ص: ٧٨-٨١).

فالآية الكريمة تتضمن وعدًا لمن عمل الصالحات بأن يحييه الله حياة طيبة، وقد ذكر المفسرون في المقصود بالحياة الطيبة أقوالًا عدّة[1]، منها السعادة، والانشراح بالعبادة، والتلذذ بحلاوة الطاعة، والقناعة، والرضا بالقضاء، والرزق الحلال، والعافية، وغير ذلك.

والظاهر أن اللفظ في الآية عام يحتمل جميع تلك الأقوال.

يقول ابن كثير: (والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت).[2]

وبعد أن أورد عددا من الأقوال المروية عن بعض الصحابة والتابعين قال: (والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله).[3]

ولا شك أن أعظم معالم الحياة الطيبة حياة القلب، سعادة وسرورًا، وطمأنينة وسكونًا، ورضا وقوة يقين، وحلاوة إيمان.

بل ذلك هو أساس الحياة الطيبة وجوهرها، فإذا أضيف إليه سعة رزق، وتمام صحة، وغير ذلك من متاع الحياة وشهواتها المباحة، كان ذلك تكميلًا لا تأسيسًا.[4]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٧١)، زاد المسير: (٤/ ٣٥٧)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١١٥)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٥٣٤)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٨٥)، نظم الدرر: (٤/ ٣٠٩)، أضواء البيان: (٣/ ٣٥٣ - ٣٥٦).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٨٥).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٨٥).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤١٩)، تفسير القاسمي: (١٠/ ١٥٦)، تفسير السعدي: (٣/ ٨٣).

يقول ابن القيم: (فسرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا، والرزق الحسن، وغير ذلك، والصواب أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره، بالإيمان ومعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة).[1]

ومن الآيات التي تشير إلى أثر العمل الصالح في حياة القلب أيضًا قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

فالآية الكريمة تبين أن عاقبة التقوى فرقانًا يهبه الله تعالى للعبد.

والفرقان ما يحصل به الفرق بين الحق والباطل.[2]

عن ابن إسحاق[3] في تفسير الآية قال: (أي فصلًا بين الحق والباطل).[4]

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٩٩)، وانظر: الداء و الدواء: (ص: ٤٣٦ - ٤٣٧، ٤٦٥).

(٢) انظر: المفردات: (ص: ٣٧٩ - ٣٨٠)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ١٨٦)، فتح القدير: (٢/ ٢٩٩).

(٣) هو محمد بن إسحاق بن يسار، القرشي المدني، مولى قيس المطلبي، محدث، عالم بالتفسير، إمام في السيرة والمغازي، توفي ببغداد سنة إحدى وخمسين ومائة. انظر: تهذيب التهذيب: (٩/ ٣٤ - ٤٠)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ١٩).

(٤) تفسير الطبري: (٩/ ٢٢٦)، وانظر: تفسير البغوي: (٢/ ٢٤٣)، زاد المسير: (٣/ ٢٣٥)، التسهيل: (٢/ ٦٤)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٠١ - ٣٠٢).

وهو قول ابن زيد(١)، ورجحه محمد الأمين.(٢)

والمقصود أن من ثمرات التقوى إعمار قلب المؤمن بالهدى، وتسديده بالعلم، بحيث تتحقق له رؤية الحق فيتبعه، وتمييز الباطل فيجتنبه، ووضوح الشبهة فلا تلتبس عليه، ومن ثَمّ يستنير طريقه، ويستبين له السبيل.

يقول الراغب(٣) في تفسير الفرقان: (أي نورًا وتوفيقًا على قلوبكم يفرق به بين الحق والباطل).(٤)

ولذا استدل ابن جزي بالآية: (على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة).(٥)

وهذا المعنى المختار لا يتعارض مع بقية المعاني التي أوردها المفسرون بيانًا للفظ الفرقان في هذه الآية الكريمة(٦)، إذ هي معان متقاربة(٧)، واللفظ

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢٢٦)، زاد المسير: (٣/ ٢٣٥)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٥٢)، فتح القدير: (٢/ ٣٠٠).

(٢) انظر: أضواء البيان: (٢/ ٣٤٩).

(٣) هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني)، المعروف بالراغب، علاّمة محقّق، من مصنفاته: المفردات في غريب القرآن، والذريعة إلى مكارم الشريعة. توفي سنة اثنتين وخمس مائة، وقيل غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ١٥١٣ - ١٥١٤)، الأعلام: (٢/ ٢٥٥).

(٤) المفردات: (ص: ٣٨٠)، وانظر: تفسير الثعالبي: (٢/ ٩٣)، روح المعاني: (٩/ ١٩٦).

(٥) التسهيل: (٢/ ٦٤)، وانظر: نوادر الأصول: (١/ ٢٤٠) فتح القدير: (٢/ ٢٩٩)، تفسير السعدي: (٢/ ١٩٨)، في ظلال القرآن: (٣/ ١٤٩٩).

(٦) من معاني الفرقان التي أوردها المفسرون: المخرج، البيان، النصر، النجاة. انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢٢٤ - ٢٢٥)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤٣)، زاد المسير: (٣/ ٢٣٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٠١)، نظم الدرر: (٣/ ٢٠٨).

(٧) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢٢٤).

مطلق يحتملها، ويمكن اجتماعها دون تعارض.(١)

يقول ابن كثير: (وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم، وهو يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أوامره، وترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة).(٢)

وقد فسّر عدد من أهل التفسير(٣) هذه الآية بالآية الأخرى في سورة الحديد، وهي قول الله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وذلك باعتبار أن النور المذكور في هذه الآية هو الفرقان المذكور في الآية السابقة.

والمعنى: علما وهدى تفرقون به بين الحق والباطل.

قال القاسمي في تفسير النور: (هو ما يبصر من عمى الجهالة والضلالة، ويكشف الحق لقاصده).(٤)

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١٥٣ - ١٥٤)، روح المعاني: (٩/ ١٩٦)، تفسير ابن عاشور: (٩/ ٣٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٠٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٣١٧)، تفسير القاسمي: (١٦/ ٦٢)، أضواء البيان: (٢/ ٣٤٩ - ٣٥٠).

(٤) تفسير القاسمي: (١٦/ ٦٢).

ويقول السعدي: (أي يعطيكم علمًا وهدى ونورًا تمشون به في ظلمات الجهل).(١)

ومن الآيات في هذا المعنى كذلك قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والمراد بالحياة في هذه الآية الكريمة حياة القلوب وسعادتها، واستنارتها وضياؤها، ونجاتها من الشقاء، وسلامتها من ظلمة الجهل وعمى البصيرة.(٢)

وسبيل هذه الحياة هو الاستجابة لله ورسوله، وطاعتهما، وذلك بالتزام مضامين القرآن والسنة، امتثالًا للأمر ومجانبة للنهي.(٣)

قال السعدي: (وقوله ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب

---

(١) تفسير السعدي: (٥/ ١٨٨)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢٨٢)، التفسير القيم: (ص: ٤٨٦).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ١٥)، أحكام القرآن لابن العربي: (٢/ ٨٤٥)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١)، مجموع الفتاوى: (١٠ / ١٠٠)، نظم الدرر: (٣/ ٢٠)، تفسير السعدي: (٢/ ١٩٦).

(٣) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ١٥)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٧)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١).

والروح بعبودية الله تعالى، ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام).(١)

ويقول ابن القيم: (الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله ولرسوله ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء بالأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول).(٢)

وقد أورد المفسرون في المراد بالاسم الموصول في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أقوالا(٣) منها: الإيمان، والقرآن، والحق، والجهاد.

وكل هذه الأقوال داخلة ضمن دائرة الطاعة لأمر الله ورسوله.

ولذا قال القرطبي: (والصحيح العموم كما قال الجمهور).(٤)

---

(١) تفسير السعدي: (٢/ ١٩٦).

(٢) الفوائد: (ص: ١١٩ – ١٢٠)، و انظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٦٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٣ – ٢١٤)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤٠)، زاد المسير: (٢/ ٢٣٠).

(٤) تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٧)، وانظر: أحكام القرآن لابن العربي: (٢ / ٨٤٥)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١)، تفسير القاسمي: (٨/ ٣٤). وقد رجح ابن جرير أن المراد: إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق، معتبرا أن الأقوال الأخرى داخلة تحت هذا المعنى. انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٤) ولا تعارض أيضًا، لأن ما جاء به الله تعالى ورسوله ﷺ هو الحق الذي تجب طاعته.

وقال ابن القيم: (وهذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة، وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهرًا وباطنًا).[١]

وبعد أن ذكر قول بعض المفسرين بأن المراد بالحياة الحياة الطيبة الدائمة في الجنة قال: (والآية تتناول هذا كله، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة، والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة، وهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة).[٢]

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ فقد أورد ابن الجوزي[٣] وغيره[٤] من أهل التفسير في المعنى المراد عدة أقوال، ومنها مايلي:

١. أن معنى ذلك أن الله جل شأنه قريب من قلب عبده، محيط به، مطلع عليه، لا يخفى عليه شيء من أمره، أعلنه وأظهره، أو أسره وأضمره.

وعلى هذا فالمعنى مشابه للمعنى الوارد في قول الله سبحانه: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

---

(١) الفوائد: (ص: ١٢٠).

(٢) الفوائد: (ص: ١٢١).

(٣) انظر: زاد المسير: (٣/ ٢٣١).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٥ – ٢١٧)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٩)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٧ – ٢٤٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٧ – ٢٩٨)، فتح القدير: (٢/ ٢٩٦).

وهذا القول مروي عن قتادة[١]، واختاره الألوسي.[٢]

والمقصود على هذا القول حث المؤمنين على خشية الله تبارك وتعالى، ومراقبته سبحانه.[٣]

يقول ابن القيم: (كان هذا أنسب بالسياق، لأن الاستجابة أصلها بالقلب، فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه، فيعلم هل استجاب له قلبه، وهل أضمر ذلك، أو أضمر خلافه).[٤]

٢. أن المعنى يحول بين المرء وقلبه بالموت[٥]، وذلك باعتبار أن الأجل إذا حان لا يمكن للإنسان تدارك ما فات.

قال ابن عطية: (لما أمرهم بالاستجابة في الطاعة حضهم على المبادرة والاستعجال فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ بالموت والقبض، أي فبادروا بالطاعات. ويلتئم مع هذا التأويل قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٧)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٩)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٩٨)، تفسير القاسمي: (٨/ ٣٦).

(٢) انظر: روح المعاني: (٩/ ١٩١).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤).

(٤) الفوائد: (ص: ١٢٢).

(٥) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٩)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٨)، فتح القدير: (٢/ ٢٩٦).

تُحْشَرُونَ ﴾ أي فبادروا بالطاعات، وتزودوها ليوم الحشر).[١]

٣. أن المعنى ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فيبدل الخوف أمنًا، والجبن جرأة وشجاعة.[٢]

والمقصود على هذا القول تغليب الرجاء لدى المؤمنين بأن الله سبحانه قادر على تبديل ما في قلوبهم من الخوف من كثرة عدد خصومهم، وعظم عدّتهم، فيربط عليها، ويبث فيها الأمن والسكون، والشجاعة والثبات، والعكس بالنسبة لعدوهم فيجعل ثباتهم ضعفًا، وأمنهم خوفًا، وشجاعتهم جبنًا وخورًا.[٣]

٤. أن المعنى يحول بين المرء وعقله بمرض أو آفة، فيصبح منتفي العقل لا يدري ما يعمل، ومن ثَمّ فلا يقدر على فعل الخير، عقوبة له على عناده.

وهذا القول مروي عن مجاهد.[٤]

وهو مبني على أن القلب هنا يراد به العقل.[٥]

(١) تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٢/ ٢٤١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٨)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨٢)، فتح القدير: (٢/ ٢٩٦).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٩ – ٤١٠)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ١٤٥)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٦)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٨)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٨).

(٥) انظر: تفسير القرطبي: (٧/ ٤٨١)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٢٤٨).

والمقصود الحث على المبادرة إلى الاستجابة، لأن المرء لا يأمن زوال عقله فلا يتمكن من العمل.[١]

وقريب من هذا القول ما نقله الراغب من أن المراد: (أن يهمله ويرده إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئًا).[٢]

٥. أن المعنى يحول بين المرء وما يتمناه قلبه ويشتهيه ويهواه.[٣]

وهو قول يتجه إلى العموم، ويظهر أن أبا حيان اعتمد عليه في تفسير الآية الكريمة حيث قال: (المعنى أنه تعالى هو المتصرف في جميع الأشياء، والقادر على الحيلولة بين الإنسان وبين ما يشتهيه قلبه، فهو الذي ينبغي أن يستجاب له إذا دعا، إذ بيده تعالى ملكوت كل شيء وزمامه، وفي ذلك حض على المراقبة، والخوف من الله تعالى، والبدار إلى الاستجابة له).[٤]

٦. أن المعنى يحول بين المرء وقلبه فلا يقدر على الإيمان أو الكفر إلا بإذن الله تعالى ومشيئته.

وهذا القول مروي عن السدي[٥]، واختاره الواحدي.[٦]

(١) انظر: زاد المسير: (٣/ ٢٣١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٨).

(٢) المفردات: (ص: ١٤٣).

(٣) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ١٧٨)، زاد المسير: (٣/ ٢٣١).

(٤) تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٦ – ٢١٧)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ١٤٥)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٨)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٨).

(٦) انظر: تفسير الواحدي: (١/ ٤٣٦).

ولهذا القول تعلّق واتصال بالقول التالي، ومآلهما واحد.

٧. أن المعنى يحول بين المؤمن والكفر إن أراد هدايته، ويحول بين الكافر والإيمان إن أراد ضلالته، ويحول بين أهل الطاعة والمعصية، ويحول بين أهل المعصية والطاعة.

وهذا القول هو المشهور في تفسير الآية، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والضحاك، وسعيد بن جبير(١)، وغيرهم.(٢)

واختاره الفراء(٣)، وعزاه ابن القيم إلى جمهور المفسرين.(٤)

وعلى هذا القول فالمقصود(٥) التخويف والتهديد من ترك الاستجابة لله تعالى والرسول ﷺ، وأن مآل مجانبة الطاعة عدم الأمن من نزول العقاب الإلهي بالحول بين المرء وقلبه، كما جرى للمعاندين من أهل الكفر.

---

(١) هو سعيد بن جبير بن هشام، الأسدي مولاهم الكوفي، إمام حافظ، مقرئ مفسر، من تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهما، روى عنه فأكثر وجوّد، وقرأ عليه القرآن، قتله الحجاج سنة خمس وتسعين.
انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٧٧ – ٨٦)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٧٩٥ – ١٨٠١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٥ – ٢١٦)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ١٤٤)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٧ – ٢٤٨)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٧ – ٢٩٨)، نظم الدرر: (٣/ ٢٠٢)، تفسير القاسمي: (٨/ ٣٥)، الاعتقاد: (ص: ١٥٤)، عمدة القاري: (٢٣/ ١٦١).

(٣) انظر: معاني القرآن: (١/ ٤٠٧).

(٤) انظر: الفوائد: (ص: ١٢٢).

(٥) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤).

وهذا المعنى يناسب الآيتين السابقتين على هذه الآية، وهما قول الله جلا وعلا: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ - ٢٣].

ووجه المناسبة -كما يقول ابن القيم-: (إنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة، وأبطأتم عنها، فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة، عقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١].

ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب وإن استجاب بالجوارح.

وفي الآية سر آخر، وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به وهو الاستجابة، وبين القدر والإيمان به. فهي كقوله: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩] وقوله: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٥ - ٥٦] والله اعلم).(١)

---

(١) الفوائد: (ص: ١٢٢ – ١٢٣)، وانظر: (ص: ١٦٨).

وقد جعل البخاري الآية الكريمة عنوانًا لأحد أبواب كتاب القدر في صحيحه فقال: (باب (يحول بين المرء وقلبه))(١)، وأورد فيه حديث ابن عمر ﷺ قال: (كثيرًا مما كان النبي ﷺ يحلف [لا، ومقلب القلوب].(٢)

قال ابن حجر: (كأنه أشار إلى تفسير الحيلولة التي في الآية بالتقلب الذي في الخبر).(٣)

إذ يفيد الحديث أن الله جل وعلا يصّرف قلوب عباده، ويغيّر ما يعتريها من الأحوال والأعراض والإرادات حسب مشيئته وحكمته سبحانه.(٤)

قال ابن حجر: (معنى الحديث أن الله يتصرف في قلوب عباده بما شاء لا يمتنع عليه شيء منها ولا تفوته إرادة).(٥)

وقال نقلًا عن بعض العلماء في مناسبة الحديث للباب: (مناسبة حديث ابن عمر للترجمة أن الآية نص في أن الله خلق الكفر والإيمان، وأنه يحول بين قلب الكافر وبين الإيمان الذي أمره به، فلا يكسبه إن لم يقدره عليه، بل أقدره على ضده وهو الكفر، وكذا في المؤمن بعكسه، فتضمنت الآية أنه

(١) صحيح البخاري: (٦/ ٢٤٤٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب القدر، باب (يحول بين المرء وقلبه): (٦/ ٢٤٤٠).

(٣) فتح الباري: (٢٤/ ٣٤٨)، وانظر: عمدة القاري: (٢٣/ ١٦١).

(٤) انظر: فتح الباري: (٢٥/ ١٢)، المفردات: (ص: ٤١٢).

(٥) فتح الباري، ط دار الفكر: (١٣/ ٣٧٧).

خالق جميع أفعال العباد خيرها وشرها، وهو معنى قوله: (مقلب القلوب) لأن معناه تقليب قلب عبده عن إيثار الإيمان إلى إيثار الكفر، وعكسه، قال: وكل فعل الله عدل فيمن أضله وخذله، لأنه لم يمنعهم حقًا وجب لهم عليه).(١)

وممن فسّر الآية بالحديث أيضًا الراغب حيث قال: (وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ فإشارة إلى ما قيل في وصفه: يقلب القلوب، وهو أن يلقي في قلب الإنسان ما يصرفه عن مراده لحكمة تقتضي ذلك).(٢)

وقد ورد هذا المعنى أيضًا في حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء] ثم قال رسول الله ﷺ [اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك].(٣)

قال البيهقي: (أراد به كون القلب تحت قدرة الرحمن).(٤)

وقد أورد ابن كثير هذا الحديث بروايات متعددة، معتبرًا إياها مناسبة

(١) فتح الباري: (٢٣/ ٣٤٨–٣٤٩)، وانظر: تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٧–٢٤٨).

(٢) المفردات: (ص: ١٤٢–١٤٣).

(٣) رواه مسلم في كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء: (٣/ ٢٠٤٥). وانظر: مجموع الفتاوى: (٣/ ٤٥).

(٤) الاعتقاد: (ص: ١٥٢).

للآية الكريمة، على عادته في تفسير القرآن بالسنة.(١)

مما يشير إلى ميله إلى أن تقليب الله جل شأنه للقلوب وتصريفه لها الوارد في الحديث، هو الحول بين المرء وقلبه الوارد في الآية.

واعتبر القاسمي هذه الأحاديث أدلة مؤيدة لهذا القول الأخير في تفسير الآية الكريمة.(٢)

ومع أن هذا القول هو أقرب الأقوال في تفسير الحول بين المرء وقلبه، إلا أن لفظ الآية محتمل لجميع تلك الأقوال.(٣)

ولذا قرر الشوكاني: (أنه لا مانع من حمل الآية على جميع تلك المعاني).(٤)

يقول ابن جرير: (وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال: إن ذلك خبر من الله ﷻ أنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئًا من إيمان أو كفر، أو أن يعي به شيئًا، أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته، وذلك أن الحول بين الشيء والشيء إنما هو الحجز بينهما، وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبه إدراكه سبيل، وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك قول من قال: يحول بين المؤمن والكفر

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٨)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤١).
(٢) انظر: تفسير القاسمي: (٨/ ٣٥)، روح المعاني: (٩/ ١٩١).
(٣) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٧)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤)، تفسير القاسمي: (٨/ ٣٤).
(٤) فتح القدير: (٢/ ٢٩٦)، وانظر: روح المعاني: (٩/ ١٩١ - ١٩٢).

وبين الكافر والإيمان، وقول من قال: يحول بينه وبين عقله، وقول من قال: يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه، لأن الله ﷻ إذا حال بين عبد وقلبه، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه وبينه، ما منع إدراكه به على ما بينت.

غير أنه ينبغي أن يقال: إن الله عمّ بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ الخبر عن أنه يحول بين العبد وقلبه، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئًا دون شيء، والكلام محتمل كل هذه المعاني، فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له).(١)

المسألة الثالثة: الذكر والاستغفار والتوبة.

لاريب أن ذكر الله جل شأنه سبب مؤثر في حياة القلوب، إذ هو قوتها الذي تتغذّى به، ودواؤها الذي تسلم به من ضعف المرض، وشفاؤها الذي تبرأ به من وهن الاعتلال، إذا فارقها انتكست وبارت، وإذا اشتملته أنست وسعدت، وكان لها جلاء وصقالا.(٢)

(١) تفسير الطبري: (٩/ ٢١٧).
(٢) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٣٣٧)، الوابل الصيب: (ص: ٩٢). وأعلى مراتب الذكر وأكملها ما تواطأ عليه القلب واللسان، وأوسطها ما انفرد به القلب، وأدناها الذكر اللساني المجرد.
وهو وإن كان في أصله عبودية قلبية لسانية، غير أن علاقته وثيقة بعبودية الجوارح، فذكر القلب لا يستغنى عنه في كافة أعمال الجوارح، إخلاصًا للنية، وتجريدًا للباعث، واستحضارًا لمعاني العبودية، أما الذكر اللساني فإن معظم عبادات الجوارح مشتمل عليه.
ومن الذكر القلبي التفكر في آيات الله المشهودة، والاستدلال بها على عظمة الله وقدرته سبحانه، واستحضار آلائه ونعمه، وتذكر أسمائه وصفاته ووعده ووعيده، وتعظيم أمره ونهيه، ونحو ذلك.
انظر: تفسير القرطبي: (٩/ ٢٠٧)، المفردات: (ص: ١٨٤)، فتح الباري: (٢٣/ ٢٤٥ - ٢٤٦)، مدارج السالكين: (٢ / ٣٤٣)، الرسالة القشيرية: (ص: ٣١٢)، الوابل الصيب: (ص: ١٦٢ - ١٦٥)، الفوائد: (ص: ٢٣٣).

وقد أشار القرآن العزيز إلى أثر الذكر في حياة القلب، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

فالآية الكريمة تقرر أن ذكر الله[1] سبحانه يثمر في القلب طمأنينة ورضا، وسرورًا وأنسًا، فيسكن ويستقر، ويرتفع عنه الاضطراب، ويزول القلق.[2]

وذلك نوع من أنواع حياة القلب، ولون من ألوانها.

قال ابن جرير في معنى ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾: (تسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله).[3]

وقال ابن كثير: (أي تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيرًا).[4]

يقول الألوسي: (سبب الطمأنينة نور يفيضه الله تعالى على قلوب

---

(١) في ذكر الله في الآية قولان: (أحدهما: أنه القرآن، والثاني: ذكر الله على الإطلاق) زاد المسير: (٤/ ٢٤١)، والقول الثاني هو الأقرب في المراد، والقول به يعمّ الأول، والعلم عند الله تعالى. انظر: نظم الدرر: (٤/ ١٤٩ – ١٥٠)، فتح القدير: (٣/ ٨٤).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٣١١)، مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٤ – ٤٠٥)، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٠٦٠).

(٣) تفسير الطبري: (١٣/ ١٤٥)، وانظر: الدر المنثور: (٤/ ٦٤٢).

(٤) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥١٢).

المؤمنين بسبب ذكره، فيذهب ما فيها من القلق والوحشة ونحو ذلك).[1]

وقد ورد هذا المعنى في حديث رسول الله ﷺ: [لا يقعد قوم يذكرون الله ﷻ إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده].[2]

والسكينة بمعنى الطمأنينة.[3]

وإذا استقرت الطمأنينة في القلب كان ذلك إيذانًا بفتح باب السعادة والأنس، ولذا قال الحسن البصري: (تفقدوا الحلاوة في الصلاة وفي القرآن وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق).[4]

وقال مالك بن دينار: (ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله ﷻ، فليس شيء من الأعمال أخف مؤونة منه، ولا أعظم لذة، ولا أكثر فرحة وابتهاجًا للقلب).[5]

---

(١) روح المعاني: (١٣/ ١٥٠)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ٤٩ – ٥٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر: (٣/ ٢٠٧٤).

(٣) ذكر النووي هذا القول واستحسنه. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢١).

(٤) حلية الأولياء: (١٠/ ١٤٦)، وانظر: شعب الإيمان: (٥/ ٤٤٧)، الرسالة القشيرية: (ص: ٣١٥)، مدارج السالكين: (٢/ ٣٣٧).

(٥) الوابل الصيب: (ص: ١٥٢)، والعبارة الأولى في شعب الإيمان: (١/ ٤٥٦)، وذكرها ابن رجب في جامع العلوم والحكم: (٢/ ٥٢٠)، وهي في صفة الصفوة: (٣/ ٢٧٣) بلفظ (ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله تعالى).

وقد أوصى الله تعالى نبيه ﷺ بأن يكون من الذاكرين المصلين، ليكون الذكر والصلاة زادًا يعينه على تحمل الأذى، وسبيلًا إلى سلامة قلبه من عوالق الضيق والانقباض، فينكشف الغم، ويزول الهم والحزن، في مقابل ما يثيره زعماء الكفر من الشبهات، وما يواجهونه به من صور المجابهات.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٨].

قال محمد الأمين: (ترتيبه جل وعلا الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره ﷺ دليل على أن الصلاة والتسبيح سبب لزوال ذلك المكروه).(١)

وذكر الله تعالى يحرك القلوب إلى خالقها جل وعلا، ويوثق علاقتها وصلتها ببارئها سبحانه(٢)، فيزيد إيمانها، ويربو خشوعها، وتزول قسوتها، ويعظم إخباتها، وذلك علامة حياتها.

عن الشعبي قال: (إن الذكر ينبت الإيمان في القلب، كما ينبت الماء الزرع).(٣)

---

(١) أضواء البيان: (٣/ ٢٠٤ – ٢٠٥)، وانظر: تفسير الطبري: (١٤/ ٧٣)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٧٦)، تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ٢١٥ – ٢١٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٦٠)، نظم الدرر: (٤/ ٢٤١)، تفسير أبي السعود: (٣/ ٩٣).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (١/ ٩٥ – ٩٦).

(٣) تعظيم قدر الصلاة للمروزي: (٢/ ٦٣٦)، وهو مروي عن ابن مسعود ﷺ أيضًا. انظر: الفرقان: (ص: ٣٥)، مجموع الفتاوى: (١١/ ٢١٦).

وعن الحسن البصري، وقد شكا إليه رجل قسوة قلبه، قال: (أذبه بالذكر).(١)

قال ابن القيم: (لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله ﷻ).(٢)

ولما كان الذكر عاملًا في حياة القلب شبه رسول الله ﷺ من يذكر ربه بالحي، ومن عدم هذا الذكر بالميت.

فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: [مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت].(٣)

وفي رواية مسلم: [مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت].(٤)

قال ابن القيم: (جعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت، وهو القبر.

---

(١) الوابل الصيب: (ص: ١٣٦)، روضة المحبين: (ص: ١١٩)، وهو في شعب الإيمان: (١/ ٤٥٦) بلفظ (أدبه بالذكر)، وفي رواية أحمد في الزهد: (ص: ٣٢٢) بلفظ (أدنه من الذكرى) وهي ألفاظ متقاربة الرسم والمعنى.

(٢) الوابل الصيب: (ص: ١٣٦).

(٣) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله ﷻ: (٥/ ٢٣٥٣).

(٤) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد: (١/ ٥٣٩).

وفي اللفظ الأول جعل الذاكر بمنزلة الحي، والغافل بمنزلة الميت.

فتضمن اللفظان أن القلب الذاكر كالحي في بيوت الأحياء، والغافل كالميت في بيوت الأموات، ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، كما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور)[1]

إن المؤمن إذا ذكر ربه سبحانه، كان ذلك داعيًا له إلى المحاسبة، وباعثًا إلى التفكر والتبصر بقلبه، كما قال الله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قال البغوي: (أي يبصرون مواقع خطاياهم بالتذكر والتفكر).[2]

ومن ثم يصدون كيد الشيطان، ويزيلون ما مسّهم من إغرائه، فيبقى لقلوبهم صفاؤها وحياتها.

ولهذا استدل الغزالي بالآية الكريمة على: (أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر، وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا).[3]

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٤٢-٣٤٣)، وانظر: فتح الباري: (٢٣/ ٢٤٧).

(٢) تفسير البغوي: (٢/ ٢٢٥)، وانظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٥٧-١٥٩)، التسهيل: (٢/ ٥٩)، نظم الدرر: (٣/ ١٧٦)، مصائب الإنسان: (ص: ٦٣).

(٣) إحياء علوم الدين: (٣/ ١٧)، وانظر: الغنية: (١/ ١٠١)، مصائب الإنسان: (ص: ٦٣).

ومن ثمرات هذا الذكر لله تعالى المبادرة إلى التوبة، واللجوء إلى الاستغفار مما قد يقع فيه المؤمن من نوع إثم أو تقصير، فتحدث التوبة أثرها في صقل القلب وجلائه من صدأ الهوى والغفلة، ومن قذارة المعصية والخطيئة.

عن أبي هريرة ﵁، عن رسول الله ﷺ قال: [إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة[1] سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع[2] واستغفر صقل[3] قلبه] الحديث.[4]

والمعنى أن التوبة والاستغفار تزيل ما أصاب القلب من أثر المعصية، فتجلوه، وتعيد إليه صفائه ونوره ونقائه، ويبقى محفوظًا بإذن الله من السواد

(١) (أي أثر قليل كالنقطة) النهاية في غريب الحديث: (٥/ ١١٤)، وانظر: تحفة الأحوذي: (٨/ ٣٣٢)، بلوغ الأماني: (١٩/ ٣٣٥).

(٢) نزع: أي كف وأقلع وانتهى عن الذنب. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٤١)، مقاييس اللغة: (ص: ٩٨٥).

(٣) صقل الشيء، صَقْلًا، وصِقالا: أي جلاه ونظفه وأزال ما عليه من وسخ أو سواد. انظر: مقاييس اللغة: (ص:٥٤٧)، لسان العرب: (٤/ ٢٤٧٣)، تحفة الأحوذي: (٨/ ٣٣٢)، بلوغ الأماني: (١٩/ ٣٣٥).

(٤) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ويل للمطففين: (٥/ ٤٣٤)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة، واللفظ له، في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب: (٢/ ١٤١٨)، وأحمد في المسند: (٢/ ٢٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان: (٥/ ٤٤٠)، والحاكم في المستدرك: (٢/ ٥٦٢)، وصححه، ووافقه الذهبي. وانظر: الترغيب والترهيب: (٤/ ٩٢)، وحسنه غير واحد من المعاصرين. انظر: تحفة الأحوذي: (٨/ ٣٣٢) (الهامش)، ذم الهوى: (ص: ٧٩) (الهامش).

المتابع، المفضي إلى موت القلب وظلمته، والعياذ بالله تعالى.

عن أبي الدرداء(١) ﷺ قال: (إن لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله ﷻ).(٢)

قال ابن القيم: (لا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدئ، فإذا ذكر الله جلاه، وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر).(٣)

ولقد كان من هدي رسولنا ﷺ كثرة الاستغفار واستمراره، وذلك لشدة حرصه عليه الصلاة والسلام على صيانة قلبه الشريف.

يقول ﷺ: [إنه ليغان(٤) على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة

(١) هو عويمر بن عامر، على اختلاف في اسمه واسم أبيه، أبو الدرداء الأنصاري الخزرجي، أسلم يوم بدر، وشهد أحدًا والمشاهد بعدها، ولاه معاوية ﷺ قضاء دمشق في خلافة عمر ﷺ، من علماء الصحابة وفضلائهم، توفي سنة اثنتين وثلاثين. انظر: الاستيعاب: (٣/ ١٢٢٧ – ١٢٣٠)، الإصابة: (٤/ ٦٢١ – ٦٢٢).

(٢) شعب الإيمان: (١/ ٣٩٦).

(٣) الوابل الصيب: (ص: ٨٩)، وانظر: الفتح الرباني: (ص: ١٠٦)، إغاثة اللهفان: (١/ ١٠٣).

(٤) الغين والغيم: السحاب، والكلمتان في الأصل تدلان على ستر شيء لشيء، يقال: غين على الرجل: غطي عليه، وكل شيء يغشى شيئا: فقد غين عليه. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤٠٣)، مقاييس اللغة: (ص: ٧٨٠)، لسان العرب: (٥/ ٢٣٣٠)، قال النووي في شرح صحيح مسلم: (١٧/ ٢٣) (الغين والغيم بمعنى، والمراد هنا ما يتغشى القلب)، و انظر الشفا: (٢/ ٤٦٥).

مرة].(١)

قال ابن الأثير: (أراد ما يغشاه من السّهو الذي لا يخلو منه البشر، لأن قلبه أبدًا كان مشغولًا بالله تعالى، فإن عرض له وقتًا ما عارض بشري يشغله من أمور الأمة والملة ومصالحهما، عدّ ذلك ذنبًا وتقصيرًا، فيفزع إلى الاستغفار).(٢)

وقال المناوي: (والمراد أنه يقول هذا تصفية للقلب، وإزالة للغاشية، وهو وإن لم يكن له ذنب، لكنه يجب أن يكون دائم الحضور، فإذا التفتت نفسه إلى ما هو صورة حظ بشري، كأكل وشرب ونحو ذلك مما قد يخل بكمال الحضور، عدّه ذنبًا، واستغفر الله منه).(٣)

يقول ابن تيمية: (أخبر أنه يستغفر الله استغفارًا يزيل الغين عن القلب، فلا يصير نكتة سوداء، كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لا تصير رينا).(٤)

وبالاستغفار الدائم والتوبة المستمرة يصفو القلب مما يمكن أن يصيبه من خلل أو فساد.

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، من رواية الأغر المزني ﷺ: (٣/ ٢٠٧٥).

(٢) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤٠٣)، وانظر أقوالا أخرى في توجيه المراد في شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢٣ – ٢٤)، فتح الباري: (٢٣/ ١١٩).

(٣) فيض القدير: (٦/ ٣٥٩)، وانظر: الشفا: (٢/ ٤٦٥)، بلوغ الأماني: (١٤/ ٢٣١).

(٤) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢٨٣).

يقول ابن القيم: (القلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته، وهو الإيمان وأوراد الطاعات، وإلى حمية عن المؤذي الضار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات).[1]

المسألة الرابعة: التعلق بالقرآن الكريم.

سمّى الله تبارك وتعالى القرآن روحًا، فقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وهو تقرير إلهي بأن القرآن سبب في حياة القلوب، يوجب نورها وأنسها وسعادتها.[2]

ذلك أن المؤمن حين يتصل بالقرآن بصدق فإن آياته البينات تهديه سواء السبيل، وتضيء له معالم الطريق، (فتريه الحق حقًا والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال، والغيّ والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعة وانشراحًا، وبهجة وسرورًا).[3]

وقد أخبرنا الله جل شأنه أن القرآن الكريم ـ تلاوة وترتيلًا، سماعًا وإدراكًا، تأملًا وتدبرًا، فهمًا واتعاظًا، استجابة وقبولا - شفاء للقلوب: يداويها من عللها وأدوائها، ويعالجها من أمراضها وأسقامها، ويضيء لها

---

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٥٧).

(٢) انظر: نظم الدرر: (٦/ ٦٥٢)، مدارج السالكين: (٣/ ١٩٩).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٣٤٣)، وانظر: (١/ ٣٦٦ – ٣٦٨).

ظلمتها، ويبصرها من عماها، ويهديها بنوره من الضلالة، ويرتفع بها عن الجهالة، فلا تتأثر بالشبهة، ولا تتدنّس بالمنكر من الشهوة.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

قال السمعاني: (المراد من الشفاء هو الشفاء من الجهل بالعلم، ومن الضلالة بالهدى، ومن الشك باليقين).[1]

وقال ابن كثير: (أي يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله).[2]

فإذا برئت القلوب من أمراضها، وشفيت من أدوائها، وسلمت من وحشتها وظلمتها، تمتعت حينئذ بطيب الحياة، ونور العلم، ولذة الهداية، وذاقت طعم الإيمان، ووجدت حلاوته.

وقد أخبرنا الله تعالى أيضًا أن القرآن ينمّي الخشوع:

---

(١) تفسير السمعاني: (٣/ ٢٧٢)، وانظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٩٥٧)، تفسير ابن عطية: (٣/ ١٢٦، ٤٨٠)، نظم الدرر: (٤/ ٤١٨، ٦/ ٥٨٢)، إغاثة اللهفان: (١/ ٥٢).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٩)، وانظر: (٢/ ٤٢١)، تفسير البغوي: (٣/ ١٣٣)، تفسير القرطبي: (٨/ ٢٢٦)، الداء و الدواء: (ص: ٣٧)، إغاثة اللهفان: (١/ ٩٩ – ١٠٢).

﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].(١)

ويلين القلوب:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

ويزيد في الإيمان واليقين:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

والمقصود أن المؤمن كلما سمع آية صدق بها، وتقبّلها، فيربو بذلك إيمانه، ويعظم يقينه.

ولذا قال جندب بن عبد الله ﷺ(٢): (تعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ١٨١)، تفسير البغوي: (٣/ ١٤١)، زاد المسير: (٥/ ٦٩)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٦٨).

(٢) هو جندب بن عبد الله بن سفيان، أبو عبد الله البجلي، روى عدة أحاديث، سكن الكوفة ثم البصرة، كان يلقب بجندب الخير، وجندب الفاروق. انظر: الاستيعاب: (١/ ٢٥٦ - ٢٥٧)، الإصابة: (١/ ٦١٣ - ٦١٤).

القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا).(١)

وذلك باعتبار أن (القرآن يعطي العلم المفصل فيزيد الإيمان).(٢)

وحين يقرأ المؤمن القرآن، أو يستمع إليه، عن إيمان ويقين، وانقياد وقبول، فيهتدي به في ظلمة الأهواء المخالفة، ويدفع به الشبهات والآراء المعارضة، ويزيل به عن نفسه الشكوك والريبة، أثمر ذلك طمأنينة في القلب وسكينة.(٣)

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة..].(٤)

وعن البراء بن عازب ﷺ قال: (بينما رجل من أصحاب النبي ﷺ

---

(١) رواه ابن ماجة في المقدمة، باب في الإيمان: (١/ ٢٣)، والبيهقي: شعب الإيمان: (١/ ٧٦)، وانظر: الإيمان لابن منده: (١/ ٣٧٠)، اعتقاد أهل السنة: (٥/ ٩٤٦ - ٩٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى: (٤/ ٣٨)، وانظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٢)، نظم الدرر: (٣/ ١٨٤، ٤٠٤).

(٣) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٥، ٤٠٧).

(٤) الحديث رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر: (٣/ ٢٠٧٤) وقد نقل النووي تفسير السكينة هنا بالطمأنينة والوقار، واستحسن هذا القول. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢١).

يقرأ[1]، وفرس له مربوط في الدار ، فجعل ينفر ، فخرج الرجل فنظر فلم ير شيئًا، وجعل ينفر، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: [السكينة تنزلت للقرآن]).[2]

أما المعرض عن كتاب الله العزيز فقد توعده الله جل شأنه بالمعيشة الضنك، المشتملة على موت القلب وشقائه.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

والذكر في الآية القرآن[3]، والمعنى: أعرض عن الذكر الذي أنزلته، وهو القرآن المشتمل على الحق والهدى.

---

(١) جاء في بعض الروايات أنه يقرأ سورة الكهف. انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (٣/ ١٣٢٣)، وكتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف: (٤/ ١٩١٤)، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن: (١/ ٥٤٧ – ٥٤٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤/ ١٨٣١)، ومسلم بنحوه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن: (١/ ٥٤٧ – ٥٤٨).

وقد اختار النووي في معنى السكينة هنا (أنها شيء من مخلوقات الله تعالى، فيه طمأنينة ورحمة، ومعه الملائكة) شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/ ٨٣)، وانظر: فتح الباري: (١٩/ ٦٩).

(٣) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢٣٥)، تفسير النسفي: (٢/ ٣٨٤)، تفسير القاسمي: (١١/ ٢٠١ – ٢٠٢)، مفتاح دار السعادة: (١/ ٥٥)، مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٥).

والضنك: الضيق.[1]

وللمفسرين في المراد بهذا العيش الضيق أقوال[2] متقاربة، لا يكذب بعضها بعضا، و يمكن أن تشملها الآية الكريمة كما يقول محمد الأمين وغيره.[3]

وفي مقدمة أنواع العيش الضنك ضيق القلب ونكده، واضطرابه وقلقه، وافتقاده إلى اللذة والسعادة، والسكون والطمأنينة.

فإن المرء إذا أعرض عن القرآن وجفاه وجانب هديه، كان بمعزل عن الإيمان الصحيح، واليقين الصادق، وما يثمره ذلك من معاني الصبر والرضا، والتوكل والقناعة، متلبسًا بالشكوك والأوهام، ملتصقًا بالحرص على المتاع والشهوة، قلقًا على العاقبة الدنيوية والمآل القريب، فلا يجد بذلك الحياة الرضيّة، ولا يذوق المعيشة الهانئة.[4]

يقول ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: (﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله،

---

(١) انظر: غريب القرآن لليزيدي: (ص: ٢٥٢)، المفردات: (ص: ٣٠٣).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢٣٥)، تفسير القرطبي: (١١/ ١٧١)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٦٨ – ١٦٩).

(٣) انظر: تفسير الثعالبي: (٣/ ٤٢)، أضواء البيان: (٤/ ٥٤٧ – ٥٤٨).

(٤) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ١٣٠)، تفسير القرطبي: (١١/ ١٧١)، تفسير النسفي: (٢/ ٣٨٥)، تفسير القاسمي: (١١/ ٢٠٣ – ٢٠٨)، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣٥٥).

وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة).[1]

ومما يدل على هذا المعنى أيضًا حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلبي[2]، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا] قال: فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: [بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها].[3]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٦٨).

(٢) قال البنا: (أي أسألك أن تجعل القرآن كالربيع الذي يرتع فيه الحيوان، وكذلك القرآن ربيع القلوب، والمراد أن يجعل قلبه مرتاحًا إلى القرآن، مائلًا إليه، راغبًا في تلاوته وتدبره، منورًا لبصيرته) بلوغ الأماني: (١٤/ ٢٦٣)، وقال ابن الأثير: (جعله ربيعًا له لأن الإنسان يرتاح قلبه في الربيع من الأزمان ويميل إليه) النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١٨٨)، وانظر: شفاء العليل: (ص: ٥١٥)، الفوائد: (ص: ٥٢).

(٣) رواه أحمد في المسند: (١/ ٣٩١)، وابن حبان في صحيحه: (٣/ ٢٥٣)، وابن السني في عمل اليوم والليلة: (ص: ٣٠١)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٦٩٠) وقال: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه من أبيه)، ورواه أيضًا الطبراني والبزار وأبو يعلى كما في مجمع الزوائد: (١٠/ ١٩٦) قال الهيثمي: (رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان)، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٥٣٥).

فالحديث الشريف يتضمن تقريرًا بأن في القرآن العظيم غذاء للقلوب ونورًا وانشراحًا، به تحيا وتستضيء، وبه تجد السعادة والطمأنينة والسكون.

المسألة الخامسة: الالتجاء إلى الله تعالى والتضرع إليه بالدعاء.

من دواعي حياة القلب أن يديم المؤمن التوجّه إلى الله جل وعلا بالدعاء أن يشرح صدره، ويثبت قلبه، ويسلّمه من مرض الشبهة والشهوة.

ومن الدعاء الوارد في هذا الباب ما تضمنته الآية الكريمة: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

ففي هذه الآية تعليم للمؤمنين دعاء ربهم سبحانه أن يثبت قلوبهم على الحق والهدى، وأن يحفظها من الانحراف إلى سبل الضلال والباطل.[1]

قال ابن كثير: (أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه).[2]

وأثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الذين يسألون ربهم سلامة قلوبهم.

يقول الله جل شأنه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

---

(١) انظر: معاني القرآن للنحاس: (١/ ٣٥٥)، تفسير ابن عطية: (١/ ٤٠٤)، تفسير القرطبي: (٤/ ١٥)، روح المعاني: (٣/ ٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٨)، وانظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٨٧)، تفسير البغوي: (١/ ٢٨١)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٩٢).

فهم يدعون بأن يجعل الله تعالى قلوبهم خالية من العداوة والبغضاء، صافية من الحقد والغش والحسد لإخوانهم من المؤمنين.[١]

وكان من دعاء نبي الله موسى عليه السلام حين بعثه الله تعالى إلى فرعون ما تضمنته الآية الكريمة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ [طه: ٢٥].

وشرح الصدر بمعنى بسطه وفسحه وتوسعته ليكون قابلًا للحق، مستنيرًا بالإيمان واليقين، متحليًا بالصبر والثبات، معمورًا بالسكينة والطمأنينة، والثقة والتوكل.[٢]

وفي هذا الدعاء من موسى عليه السلام إبراز لمعنى عبوديته لربه جل وعلا، وافتقاره إلى عونه، واضطراره إلى رعايته تبارك وتعالى.

وكان من دعاء رسولنا ﷺ: [اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك][٣]، كما كان يكثر عليه الصلاة والسلام أن يقول: [يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك].[٤]

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ٢٣)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٨١)، المفردات: (ص: ٣٦٥)، والمراد بالذين جاءوا من بعدهم: التابعون من بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة. انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٣٢٠).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط: (٦/ ٢٣٩)، المفردات: (ص: ٢٦١)، روح المعاني: (١٦/ ١٨١ – ١٨٢).

(٣) رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء: (٣/ ٢٠٤٥).

(٤) رواه الترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه وغيره في كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن: (٤/ ٤٤٨)، وفي كتاب الدعوات: (٥/ ٥٣٨)، وأحمد في المسند: (٣/ ١١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان: (١/ ٤٧٥)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٧٠٧) وصححه، ووافقه الذهبي، قال الألباني: (هو على شرط مسلم) مشكاة المصابيح للتبريزي: (١/ ٣٧).

فرسول الله ﷺ، وهو أتقى الناس وأكثرهم لله خشية، يلجأ إلى الله جل شأنه بالدعاء أن يصرف قلبه إلى الطاعة والإنابة، وأن يثبته على الحق والهدى، وفي ذلك تعليم منه عليه الصلاة والسلام لأصحابه رضي الله عنهم، ولأمته من بعده.

قال ابن حجر: (خص نفسه بالذكر إعلامًا بأن نفسه الزكية إذا كانت مفتقرة إلى أن تلجأ إلى الله سبحانه، فافتقار غيرها ممن هو دونه أحق بذلك).[١]

وكان من دعائه ﷺ أيضًا طلب سلامة القلب: [اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا] الحديث.[٢]

ويطلب من ربه سبحانه نقاء القلب وصفائه: [اللهم اغسل قلبي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس[٣]] الحديث.[٤]

ويسأله جل شأنه نور القلب وضيائه: [اللهم اجعل في قلبي نورًا]

(١) فتح الباري: (١٣/ ٣٧٧).

(٢) رواه الترمذي من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه في كتاب الدعوات، باب ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام: (٥/ ٤٧٦)، والنسائي – واللفظ له – في كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر: (٣/ ٥٤)، وأحمد في المسند: (٤/ ١٢٣)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٦٨٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٤٨١).

(٣) الدنس بفتح النون القذر والوسخ. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٣٧).

(٤) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب التعوذ من فتنة الفقر: (٥/ ٢٣٤٤).

الحديث.(١)

ويستعيذ به جل وعلا من غفلة القلب وقسوته: [اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها].(٢)

ويسأله تبارك وتعالى أن يحلّي قلبه ويملأه بمعاني العبودية، ويجمّله بزينة الطاعة والتقوى: [رب اجعلني لك شكّارًا، لك ذكّارًا، لك رهّابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، إليك أوّاها(٣) منيبًا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي(٤)، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدّد لساني، واسلل سخيمة(٥) صدري].(٦)

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل: (٥/ ٢٣٢٨)، ومسلم بنحوه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه: (١/ ٥٢٦).

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل: (٣/ ٢٠٨٨).

(٣) أي متضرعًا. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٨٢).

(٤) الحوبة الإثم، والمعنى امح وأزل إثمي وخطيئتي. انظر: غريب الحديث للخطابي: (١/ ٦٠٧)، بلوغ الأماني: (١٤/ ٢٨٥).

(٥) السخيمة الحقد والحسد ونحوها، وسلها إخراجها وتصفية القلب منها. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٥١)، بلوغ الأماني: (١٤/ ٢٨٥).

(٦) رواه أبو داود من حديث ابن عباس ﷺ، في كتاب الوتر، باب ما يقول الرجل إذا سلم: (٢/ ١٧٥ – ١٧٦)، والترمذي – واللفظ له – في كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ: (٥/ ٥٥٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي: عمل اليوم والليلة: (ص:٣٩٥)، وابن ماجة في كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ: (٢/ ١٢٥٩)، وأحمد في المسند: (١/ ٢٢٧)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٧٠١)، وصححه، ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد: (ص: ٢٢٩)، وصححه ابن القيم: الوابل الصيب: (ص: ٢٥٣)، والألباني في تخريج الأدب المفرد: (ص: ٢٢٩)، وانظر: مشكاة المصابيح: (٢/ ٧٦٦).

فهذا الحديث الشريف يشتمل على مجموعة من العبادات القلبية، يسأل رسول الله ﷺ ربه سبحانه وتعالى أن يوفقه لتحقيقها والعمل بها، ومن ذلك الشكر، والذكر، والرهبة، والانقياد، والإخبات، والتضرع، والإنابة، والتوبة، وسلامة القلب من أنواع الغل.

وفي حديث آخر يجمع ﷺ بين سؤال الخشية التي تحجز عن المعصية، وسؤال اليقين الذي يخفف أثر المصيبة: [اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا].(١)

إن ما سبق من دعائه عليه الصلاة والسلام يؤكد حرص رسول الله ﷺ على تحقيق معاني العبودية لله سبحانه، وكمالها في شخصه الشريف عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك صدق اللجوء إلى ربه جل وعلا، والاحتماء بجنابه العظيم، والتضرع إليه في هداية قلبه، وتسديد لسانه، وحفظ جوارحه ﷺ.

كما يتضمن تعليما منه عليه الصلاة والسلام لأصحابه رضوان الله عليهم ولأمته من بعده أن يلوذوا بربهم جل شأنه في طلب الحفظ والرعاية والهداية.

(١) الحديث رواه الترمذي وحسنه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد: (٥/ ٥٢٨)، والنسائي: عمل اليوم والليلة: (ص: ٣١٠)، والحاكم: المستدرك: (١/ ٧٠٩) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٧٠)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٢/ ١٣٣)، وصححه بعض المعاصرين، انظر: الوابل الصيب: (ص: ٢٣٣)، تحفة الأحوذي: (٩/ ١٨).

المسألة السادسة: إغلاق منافذ الشيطان والاستعاذة بالله منه.

أكد الله جل وعلا في أكثر من موضع في كتابه العزيز على عظم عداوة الشيطان للإنسان، ومن ذلك قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومن عداوة الشيطان الظاهرة دأبه على إضلال المؤمنين وإغوائهم، وتزيين الكفر والمعصية في قلوبهم، والوسوسة بالشر في صدروهم، ومحاولته المتجدّدة في الاستحواذ عليهم، وإيقاعهم في حبائله وأباطيله، فيصدهم عن عبودية الله جل شأنه، وينأى بهم عن الاستقامة على شرعه ودينه، لتصبح قلوبهم محلًا للغفلة، ومقرًا للشبهة، ومرتعًا للشهوة، ناسية للحق، تاركة للهدى، غافلة عن الذكر.

يقول الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ(١)﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٢)﴾ [الحجر: ٣٩].

---

(١) المعنى: يخوفكم الفقر حال الإنفاق في الخير، ويأمركم بالفحشاء، وهو كل ما فحش ذكره وعظم قبحه من الأقوال والأفعال، والمراد عموم المعاصي. انظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٣٦٤)، المفردات: (ص: ٣٧٦).

(٢) تعهد إبليس أن يزين لبني آدم الباطل، ويحسّن لهم الشهوة والمعصية، وأن يعمل على إضلالهم. انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٦٢)، زاد المسير: (٤/ ٢٩٣)، المفردات: (ص: ٢٢٢).

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ(١) فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥].

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ(٢) ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ(٣) وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧].

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا(٤) كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢].

وقد أوضح رسول الله ﷺ خطورة الشيطان على قلب العبد، وسريان وساوسه وخطراته إليه، وإحاطته به من جميع جوانبه(٥)، وذلك في قوله

---

(١) أصل الوسوسة الهمس والكلام والصوت الخفي. انظر: المفردات: (ص: ٥٣٧)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٣٨١)، التسهيل: (٤/ ٢٢٧)، تفسير المعوذتين: (ص: ٥٦ – ٥٧).

(٢) أي غلب على قلوبهم على وجه التملك والاستيلاء. انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٤٥٨)، تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٨١)، المفردات: (ص: ١٤٢)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٢٨).

(٣) أي الشياطين يصدّون الكافرين عن طريق الهدى. انظر: زاد المسير: (٧/ ٩٨).

(٤) في هذا اللفظ ثلاث قراءات: ١ – جِبِلًّا: بكسر الجيم والباء مع تشديد اللام، وبها قرأ نافع وعاصم. ٢ – جُبْلا: بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام، وبها قرأ أبو عمرو وابن عامر. ٣ – جُبُلا: بضم الجيم والباء مع تخفيف اللام، وبها قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي. والمعنى على اختلاف القراءات واحد: الخلق الكثير أو الجماعة العظيمة. انظر: سراج القارئ: (ص: ٣٣٢ – ٣٣٣)، حجة القراءات: (٦٠١ – ٦٠٢)، زاد المسير: (٦/ ٢٧٧)، تفسير القرطبي: (١ / ٣٢ – ٣٣)، المفردات: (ص: ٩٤)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٧٦).

(٥) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٨)، تفسير المعوذتين: (ص: ٦٣ – ٦٤).

عليه الصلاة والسلام لرجلين من الأنصار: [إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم[1]، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءا. أو قال: شيئًا].[2]

وفي قوله ﷺ: (إن للشيطان لمة[3] بابن آدم و للملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، و أما لمة الملك فإيعاد بالخير و تصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، و من وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء).[4]

---

(١) في المراد قولان: أحدهما: أن الكلام على ظاهره، وأن الله تعالى جعل للشيطان قدرة على ذلك. والثاني: أن المقصود الإعلام بخطورة الشيطان، وكثرة وسوسته، وشدة إغوائه، وأنه يشترك مع الدم في عدم المفارقة للإنسان. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٤/ ١٥٧)، فتح الباري: (٩/ ١٢٣، ١٣/ ٦٩)، والقول الأول أقرب. انظر: منهاج العابدين: (ص: ٤٤ – ٤٦)، تفسير المعوذتين: (ص: ٦٢)، فيض القدير: (٢/ ٣٥٨).

(٢) رواه البخاري من رواية صفية بنت حيي ﵂ في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده: (٣/ ١١٩٥)، ومسلم بنحوه في كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤى خاليا بامرأة...: (٢/ ١٧١٢).

(٣) اللمّة: بمعنى الدنو والقرب. انظر: غريب الحديث لابن الجوزي: (٢/ ٣٣٢)، والمراد القرب من قلب العبد بالخطرات والهمات، فما كان من الخير فهو من الملك ويسمى إلهامًا، وما كان من الشرّ فهو من الشيطان ويسمى وسوسة. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٢٧٣)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٤١٤)، إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٦)، مدارج السالكين: (١/ ٤٤–٤٦)، و انظر وجوه الفرق بين إلهام الملك و إلقاء الشيطان في الروح: (ص : ٣١٧).

(٤) رواه الترمذي من رواية ابن مسعود ﵁ في كتاب تفسير القرآن، باب و من سورة البقرة: (٥/ ٢١٩–٢٢٠) وقال: (هذا حديث حسن غريب)، والطبري: (٣/ ٨٨)، والبيهقي: شعب الإيمان: (٤/ ١٢)، وابن حبان في صحيحه: (٣/ ٢٧٨)، وصححه الألباني في تخريج إغاثة اللهفان: (١/ ٢٠٧).

هذه المعالم للحرب الشيطانية حين تتكشّف للمؤمن الصادق، ويلحظها بقلبه، أفاد من ذلك في إعلان العداوة للشيطان، ومبارزته بالمجاهدة والمباينة والمخالفة، كما أمر الله تعالى ووصّى، فيستعدّ لوساوسه، ويتنبّه لكيده، ويتأهب لإلقاءاته، ويحترز من حبائله وغوائله، ويحذر من الانقياد لإغوائه وخطواته، ويقضي عمره متوجّسًا من أسر الشيطان لقلبه في عقبة من عقبات الطريق، فيميته أو يسقمه.[1]

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ - ١٦٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

---

(١) انظر: المسائل في الزهد: (ص: ٢٦ – ٢٧)، إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٩)، مدارج السالكين: (١/ ١٧٥–١٧٨)، مصائب الإنسان: (ص:٨٢).

وخطوات الشيطان سبله ومسالكه في الإغواء والإضلال، وتزيين الباطل، والحض على المعصية.

فالآيات الكريمة تتضمن نهيا للناس عمومًا، والمؤمنين خصوصًا، عن طاعة الشيطان، وقبول خطراته ووساوسه، وتنفيرًا عن سلوك سبيله، والسير في طريقه الذي يدعو إليه، وتحذيرًا من متابعته فيما يأمر به من السوء، أو الاستجابة لما ينهز إليه من الضلال.(١)

ومن المهمّ لمراغمة الشيطان وحماية القلب من كيده، العمل على سدّ منافذه على القلب، وإغلاق الأبواب التي تفتح له طريقا إليه.

إذ (مثال القلب مثال حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن، فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله، ومواضع ثلمه(٢)).(٣)

ولذا أمر الله تعالى بالكلمة الطيبة والخطاب الحسن، ومجانبة الكلام الخشن الغليظ، حتى لا يجد الشيطان ثغرة لإلقاء العداوة بين المؤمنين، ومدخلًا للإفساد بينهم، وتهييج الشر، وإثارة الخصومة.(٤)

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٢٣٧)، تفسير القرطبي: (٢/ ١٤٠، ١٢/ ١٣٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٧٥)، تلبيس إبليس لابن الجوزي: (ص: ٣٢ – ٣٣).

(٢) جمع ثلمة بضم الثاء، وهي فرجة المكسور والمهدوم من البناء وغيره. انظر: المشوف المعلم: (١/ ١٣٦)، ترتيب القاموس المحيط: (١/ ٤١٦).

(٣) إحياء علوم الدين: (٣/ ٤٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ١٠٢)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ١٦٥)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٨٠)، المفردات: (ص: ٤٩٠)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٥).

يقول الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومن أهم العوامل المؤثرة في إغلاق مداخل الشيطان على القلب تقوى الله جل وعلا وذكره تبارك وتعالى.

ذلك أن القلب إذا تكدّر أو خبث بغلبة المعصية من جهة، وبالغفلة عن ذكر الله تعالى من جهة أخرى، أصبح محلًا قابلًا لإغواء الشيطان ووسوسته، وكان التجافي عن التقوى، والغفلة عن الذكر، من دواعي الهجوم الشيطاني على القلب، بالاعتقادات الباطلة، والإرادات الفاسدة، بغية إسقامه أو إماتته بالكلية.(١)

والشهوات هي سلاح الشيطان يقاتل به المؤمن للاستيلاء على قلبه، والاستحواذ عليه، وهي المرعى الذي يجد الشيطان فيه مجالًا خصبًا لرعيه وقوته وكسبه، فإذا طهرت القلوب من الشهوات، وما تتلبّس به من ذميم الصفات، وعمرتها التقوى، وأنارها الذكر، نجت وسلمت من أن تكون مستقرًا للشيطان، ينشر فيها إلقاءاته، ويبسط فيها سلطانه.(٢)

وهذا مراد الغزالي في قوله: (القلب الخالي عن الهوى لا يدخله

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ١٢، ١٥)، مجموع الفتاوى: (٤/ ٣٤).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ٤٩، ٥٠)، إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٦٩)، مصائب الإنسان: (ص: ٥٩ – ٦٠).

الشيطان، ولذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله، ولذلك سلط الله عليه الشيطان).(١)

وقال إبراهيم بن مفلح(٢): (والله ﷻ لم يجعل للشيطان على العبد سلطانًا حتى جعل له العبد سبيلًا بطاعته، فجعل الله حينئذ له عليه سلطانًا وقهرًا).(٣)

وبعد أن ذكر العبودية الاختيارية قال: (وهذه العبودية قد يخلو الإنسان منها تارة فيتسلط عليه الشيطان).(٤)

ويعتبر الغزالي العلاقة بين الذكر والتقوى كالعلاقة بين الدواء والحمية، فلابد من تقديم الاحتماء بالتقوى، ثم إردافه بدواء الذكر، فيفر الشيطان عن القلب.

يقول الغزالي: (الذكر: الدواء، والتقوى احتماء، وهي تخلي القلب عن الشهوات، فإذا نزل الذكر قلبًا فارغًا عن غير الذكر اندفع الشيطان، كما

---

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٧).

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن مفلح، أبو إسحاق الدمشقي، الراميني الأصل، شيخ الحنابلة في عصره، من مصنفاته: طبقات أصحاب الإمام أحمد، وشرح المقنع، توفي سنة ثلاث وثمان مائة. انظر: الأعلام: (١/ ٦٤).

(٣) مصائب الإنسان: (ص: ٥٩).

(٤) مصائب الإنسان: (ص: ٦٠).

تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الأطعمة).(١)

فإذا تعامى العبد عن ذكر الله تعالى تهيأت للشيطان على القلب ثغرة، وانفتح له باب ومدخل، يلج خلاله إلى القلب فيفسد.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

فالآية الكريمة تقرر أن من أعرض عن ذكر ربه تبارك وتعالى، وتغافل عن وعده ووعيده، فلم يتقلّب بين خوف العقاب ورجاء الثواب، وتجاهل هديه المنزل أمرًا ونهيًا، فلم يمتثل ولم يخضع، كان ذلك الإعراض والتجاهل سببًا في تمكين الشيطان وتسليطه على العبد، إضلالًا وإغواء وصدًا عن السبيل.(٢)

وبالمقابل فإذا ذكر العبد ربه كفّ الشيطان وانجفل، إذ الذكر هو الضدّ الذي يعالج وسوسته، ويطارده كما يطارد النور الظلام.(٣)

قال ابن القيم: (بالذكر يصرع العبد الشيطان، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان).(٤)

---

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٥٠).

(٢) انظر: التسهيل: (٤/ ٢٨ – ٢٩)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ١٥)، المفردات: (ص: ٣٣٨)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٢٨).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٨).

(٤) مدارج السالكين: (٢/ ٣٣٧)، وانظر: (٢/ ٣٣٨).

ولذا وصف الشيطان بالخنوس في قول الله جل وعلا: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ(١) ﴾ [الناس: ٤].

فالوسواس والخناس وصفان متقابلان للشيطان بحسب حال القلب، فإذا غفل العبد عن ذكر الله تعالى كان وسواسًا بالنسبة إليه، وإذا ذكر العبد ربه كان خنّاسًا بالنسبة إليه.(٢)

عن ابن عباس ﵄ قال: (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس).(٣)

وعن مجاهد وقتادة نحوه.(٤)

قال ابن قتيبة في تفسير الآية الكريمة: (إبليس يوسوس في الصدور والقلوب، فإذا ذكر الله خنس: أي أقصر وكفّ).(٥)

---

(١) الخناس صيغة مبالغة من خنس يخنس خنسًا وخنوسًا، إذا انقبض وتوارى، وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور، وأصله التأخر إلى الوراء. قال الراغب: (أي الشيطان الذي يخنس، أي ينقبض إذا ذكر الله تعالى) المفردات: (ص: ١٦٥)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٣٨١)، تفسير المعوذتين: (ص: ٦١)، مصائب الإنسان: (ص: ١٣)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ١١٧).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٥٤٠)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٧٥)، تفسير المعوذتين: (ص: ٦٠).

(٣) تفسير الطبري: (٣٠/ ٣٥٥)، وانظر: الدر المنثور: (٨/ ٦٩٤)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٧٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٣٥٥ – ٣٥٦)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٧٥).

(٥) تفسير غريب القرآن: (ص: ٥٤٣).

ويقول ابن القيم: (إن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وانبسط عليه، وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها(١)، فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به انخنس وانقبض، كما يخنس الشيء ليتوارى، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضًا تجمع ورجوع، وتأخر عن القلب إلى خارج، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء).(٢)

ويعصم الله تبارك وتعالى قلوب عباده المتقين من أن يتمكن الشيطان منها استحواذًا وتملّكًا، بسبب ذكرهم لربهم سبحانه.

يقول الله جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ

---

(١) ذكر ابن القيم في موضع آخر أن الآية وصفت الشيطان: (بأعظم صفاته، وأشدها شرًا، وأقواها تأثيرًا، وأعمها فسادًا، وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية، فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنّيه ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها، ويخيلها له في خياله، حتى تميل نفسه إليها، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل له ويخيل ويمني ويشهي، وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددا لهم وعونًا، فإن فتروا حركهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة، فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة) تفسير المعوذتين: (ص: ٦٣ – ٦٤) مع اختصار يسير، وانظر: مصائب الإنسان: (ص: ١٣).

(٢) تفسير المعوذتين: (ص: ٦١)، وانظر: الوابل الصيب: (ص: ٨٣).

﴿...الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فالآية الكريمة تخبر أن الملازمين للتقوى حين ترد على قلوبهم وساوس الشيطان وإغراءاته، تذكروا وعد الله ووعيده، وتفكروا في عظمته وقدرته وآلائه، واستحضروا ما يجب عليهم من الامتثال لأمره ونهيه، وعرفوا أن ما ألمّ بهم هو من كيد الشيطان وتلبيسه، فيحصل لهم بذلك التذكر بصيرة في قلوبهم، يبصرون بها الهدى، ويميزون بها الحق، ويحدّدون مواطن الرجس و الزلل، ومن ثَمّ لا تجد تلك الخطرات والوساوس لديهم قبولًا، ولا تتحول إلى عزيمة تتبعها حركة وعمل في دائرة المعصية.[1]

ومن أهم السبل أيضًا في صيانة القلب من وساوس الشيطان اللجوء إلى الله سبحانه، وطلب النجاة منه، والاعتصام والاستعاذة به، والامتناع بقدرته وقوته جل وعلا.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٥٧ - ١٥٩)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٢٢)، التسهيل: (٢/ ٥٩)، تفسير أبي السعود: (٣/ ٣٠٩)، تفسير القاسمي: (٧/ ٣٢٧)، تفسير المنار: (٩/ ٥٤٣).

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ[1] الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ - ٩٨].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٦].

ففي هذه الآيات الكريمة تعليم للمؤمنين بأن يتجهوا إلى الله جل وعلا بالدعاء، أن يسلّمهم من وساوس الشيطان وهمزاته وحضوره إليهم بالسوء، ووصية لهم باللجوء إلى ربهم سبحانه، استعاذة واعتصامًا به من نزغات الشيطان ومداخله وإفساده، إذ هو تبارك وتعالى المتصف بكمال الربوبية للثقلين، خلقًا وقدرة وملكًا وسلطانًا، ومن ثَمّ فهو جل شأنه من يملك حفظ قلوب أهل العبودية من حضور الشياطين واستحواذهم، وهو القادر على كف شرورهم، وردّ كيدهم وإغوائهم.[2]

(١) همزات جمع همزة، وأصل اللفظ النخس والدفع والطعن، والمراد بهمزات الشياطين دفع الإنسان بالإغواء إلى سبل الضلال، فهو في معنى الوساوس والنزغات. انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٠٠)، معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٢١)، زاد المسير: (٥/ ٣٣٣)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٩٩)، التسهيل: (٣/ ٥٦)، بصائر ذوي التمييز: (٥/ ٣٧، ٣٤٣)، مصائب الإنسان: (ص: ٢٢)، إغاثة اللهفان: (١/ ١٨٧).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٤٨٩)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٤٩١)، زاد المسير: (٥/ ٣٣٣)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٠١).

وقد علم رسول الله ﷺ أصحابه أن يواجهوا عداوة الشيطان بذكر الله تبارك وتعالى، وبالاستعاذة به سبحانه من كيد الشيطان وشره.

يقول عليه الصلاة والسلام في حديث طويل: [إن الله أمر يحيي بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات، أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها] وفيه: [وآمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سِرَاعًا، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز[1] نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله].[2]

قال الشوكاني: (في الحديث دليل على أن الذكر يحرز صاحبه من الشيطان، كما يحرز الحصن الحصين من لجأ إليه من العدو، فالذاكر في أمان من تخبط الشيطان ووسوسته إليه، وإضلاله إياه، ومن سلم من الشيطان الرجيم فقد كفي من أخطر الخطرين، وهما الشيطان والنفس).[3]

---

(١) أحرز الشيء: أي حفظه وصانه عن الأخذ. انظر: غريب الحديث للخطابي: (٢/ ١٥)، النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٦٦).

(٢) رواه الترمذي من حديث الحارث الأشعري ﷺ في كتاب الأدب، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة: (٥/ ١٤٨ – ١٤٩) وقال هذا حديث حسن صحيح غريب، وأحمد في المسند بنحوه: (٤/ ٢٠٢)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٢٠٤ – ٢٠٥) وصححه. قال ابن كثير في تفسيره: (١/ ٥٨): (هذا حديث حسن)، وانظر: الترغيب والترهيب: (١/ ٣٦٩)، الدر المنثور: (١/ ٤٤٠)، تعظيم قدر الصلاة: (١/ ١٧٨)، وقد صحح الحديث أيضًا غير واحد من المعاصرين. انظر: الوابل الصيب: (ص: ٥٣) (الهامش)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٢٧٩) (الهامش).

(٣) تحفة الذاكرين: (ص: ١٩)، وانظر: الغنية: (ص: ٩٨ – ١٠١)، مكاشفات القلوب: (ص: ٣٥٧)، تلبيس إبليس: (ص: ٤٦ – ٤٧).

عن أبي هريرة ﷺ: (أن أبا بكر الصديق ﷺ[1] قال: يا رسول الله: مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت قال: [قل: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه[2]] قال: [قلها إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك].[3]

ففي الحديث الشريف توجيه باللجوء إلى الله ﷻ والاستعاذة بجنابه من شر العدوين: النفس والشيطان.

---

(١) هو عبد الله بن عثمان بن عامر، أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، القرشي التيمي، خليفة رسول الله ﷺ، وأفضل الأمة بعده عليه الصلاة والسلام، أول من أسلم، شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، مناقبه عظيمة مشهورة، توفي سنة ثلاث عشرة. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٢٣٥ – ٢٦٧)، الإصابة: (٤/ ١٤٤ – ١٥٠).

(٢) في اللفظ وجهان: أحدهما بكسر الشين وسكون الراء، والمعنى ما يدعو إليه الشيطان ويزيّنه من الشرك بالله تعالى، والثاني بفتح الشين والراء، أي حبائله ومصائده. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٤٦٧)، تحفة الذاكرين: (ص: ٦٣).

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح: (٥/ ٣١١)، والترمذي بنحوه في كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى: (٥/ ٤٦٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي: عمل اليوم والليلة: (ص: ٤٦٥)، وأحمد في المسند: (١/ ١٠ – ١١)، والدارمي في سننه: (٢/ ٦٠٠ – ٦٠١)، وابن حبان في صحيحه: (٣/ ٢٤٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة: (١/ ٦٦١، ٦٦٢)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٦٩٤ – ٦٩٥) وصححه، ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في تخريجه: (ص: ٤٤١، ٤٤٢)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٥٢٤ – ٥٢٥).

المبحث الثالث

ثمرات عبودية القلب

لعبودية القلب ثمرات عظيمة الشأن، وعواقب جليلة القدر، ونتائج كبيرة الأثر، في حياة المؤمن العاجلة والآجلة.

والقرآن الكريم مليء بالدلائل والشواهد والإشارات إلى تلك الثمرات المباركات، أذكر بعضها في المطلبين التاليين:

المطلب الأول: الثمرات الأخروية.

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: النجاة من النار وأهوال القيامة.

أخبر الله سبحانه بأن من أخلص العبادة له ﷻ سينجو من عذاب النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٣٨ - ٤٠].

فعباد الله المخلصون[1] الذين أخلصوا قلوبهم لله فيما يفعلونه من أنواع الطاعات لا يذوقون العذاب، بل هم ناجون سالمون منه.[2]

---

(١) القراءة بكسر اللام (المخلِصين) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر. انظر: سراج القارئ: (ص: ٢٥٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٥/ ٥٢)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٦).

ووجل القلوب وخشيتها من ربها سبحانه، ورقتها وخشوعها له جل وعلا، سبب في الوقاية من النار.

قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٧].

فمن نعيم أهل الجنة لقاؤهم وتساؤلهم فيما بينهم، وتذاكرهم عن أحوالهم في الدنيا وما حصل لهم فيها.(١)

ومن ذلك ما اشتملت عليه الآيات الكريمات من تقريرهم بأن العلة في نجاتهم من العذاب هو ما اتصفوا به في حياتهم من الإشفاق، الذي هو أعلى مراتب الخوف وأقواها(٢): ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (أي كنا في دار الدنيا ونحن بين أهلينا نخاف من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه).(٣)

ومن ثم جازاهم الله تعالى بأن أسبغ عليهم رحمته ومغفرته، وأجارهم من النار، وحال بينهم وبين العذاب: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧].(٤)

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤١٥)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٦٤).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ١٩٠)، أضواء البيان: (٧/ ٦٩٠).

(٣) تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٤٣)، وانظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ٤٧)، زاد المسير: (٧/ ٢٢٠).

(٤) أي عذاب جهنم، وأصل السموم بفتح السين الريح الحارة التي تنفذ في المسام. انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤١٥)، المفردات: (ص: ٢٥٠)، التحفة القليبية: (ص: ١٣٦).

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على عباده الأبرار، فوصفهم بتصفية نياتهم وإخلاصها لله جل وعلا، وبالخوف منه سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٥ - ١٠].

تضمنت هذه الآيات الكريمات أن الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي منتشرًا فاشيًا ممتدًا(١)، والمقصود يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظيمة.

كما تضمنت الآيات أنهم يعملون ما يعملونه من أنواع البر لسببين:

الأول: قصد ثواب الله تعالى، وطلب مرضاته، فنياتهم خالصة عن شوائب إرادة الدنيا.

الثاني: الخوف من المقام بين يدي الله ﷻ يوم القيامة ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾.

وأصل العبوس قطوب الوجه من الضيق(٢)، وصف به يوم القيامة لأن

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٥٠٢)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٢٨)، المفردات: (ص: ٣١٥).

(٢) انظر: المفردات: (ص: ٣٢٣).

الوجوه تعبس فيه.[١]

والقمطرير: الشديد الصعب الغليظ.[٢]

وفي اجتماع الوصفين دلالة على شدة ما يحصل في ذلك اليوم من الأهوال والأمور العظام، وهو ما يخافه ويخشاه الأبرار.

قال ابن كثير: (أي إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير).[٣]

ولما كان الخوف من الله تعالى وصفًا لأولئك الأبرار، كان جزاؤهم بسبب ذلك أن يقيهم ربهم شر ذلك اليوم الذي كانوا يخشونه، وأن يدفع عنهم ما فيه من الشدائد والأهوال، وأن يحفظهم من عذاب النار[٤] -رحمة منه جل وعلا-: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين الوقاية والتخلية من الشر، وبين العطاء والتحلية بحسن الوجوه وبياضها وجمالها، وفرح القلوب وبهجتها

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٢٥٩)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٥٠٤)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٢٩)، تفسير القرطبي: (١٩/ ٨٨).

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٥٠٢)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٢٥٩)، تفسير الواحدي: (٢/ ٥٨)، المفردات: (ص: ٤١٣)، التحفة القلبية: (ص: ١٩١).

(٣) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٥٥).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٤٢٩)، تفسير أبي السعود: (٩/ ٧٢)، روح المعاني: (٢٩/ ١٩٧)، تفسير القاسمي: (١٧/ ٩).

وسرورها.[١]

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة إشارة إلى عظم شأن عبودية القلب، وأثرها في النجاة من المتاعب والمشاق، والشرور والمكاره التي تقع في ذلك اليوم العظيم.

عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال: [سبعة يظلهم الله تعالى في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه].[٢]

فالحديث الشريف يعد أصنافًا سبعة -تمييزًا لهم وتخصيصًا، وتشريفًا لهم وتكريما- بالأمن يوم الخوف، وذلك بالاستظلال في ظل عرش الله جل شأنه[٣]، حين يقف الناس للحساب، وتدنو منهم الشمس، فيشتد الكرب،

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٩/ ٢١٢ - ٢١٣)، تفسير السمعاني: (٦/ ١١٧)، زاد المسير: (٨/ ١٤٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين: (٢/ ٥١٧)، ومسلم بنحوه في كتاب الزكاة، فضل إخفاء الصدقة: (١/ ٥١).

(٣) رجح ذلك ابن حجر في الفتح: (٤/ ٢٦) مستدلًا برواية أخرى حسن إسنادها، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ١٢١)، عمدة القاري: (٥/ ١٧٧)، سبل السلام: (٢/ ١٤٠).

ويعظم الخطب.

ومن تلك الأصناف: [رجل قلبه معلق في المساجد].

يقبل على المساجد، ويحضر الجماعات، يغادرها ببدنه، لكن قلبه معلق بها، ملازم لها حبا وشوقا[1]، ينتظر متى يعود، فكينونته بالمسجد وارتباطه بها مستمر ومتحقق في الحالين، ولذا ورد في رواية أخرى لمسلم: [ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه].[2]

وتلك عبودية للقلب عظيمة لمن وفقه الله جل وعلا.[3]

ومنهم أيضًا: [رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه].

اجتمعا بسبب الحب في الله، وصدق كل منهما في محبة صاحبه ابتغاء ثواب الله، وداوما على التآخي الصادق، والمحبة الخالصة، دون أن يؤثر عليها شيء من حظوظ الدنيا .

قال ابن حجر: (والمراد أنهما داوما على المحبة الدينية، ولم يقطعاها بعارض دنيوي، سواء اجتمعا حقيقة أم لا، حتى فرق بينهما الموت).[4]

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ١٢١)، فتح الباري: (٤/ ٢٧)، عمدة القاري: (٥/ ١٧٨).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، فضل إخفاء الصدقة: (١/ ٧١٦).

(٣) انظر: فتح الباري: (٤/ ٢٥).

(٤) فتح الباري: (٤/ ٢٧)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ١٢١)، عمدة القاري: (٥/ ١٧٩).

وتلك أيضًا عبودية للقلب خالصة[1] ويسيرة، وجزاؤها لمن هداه الله إليها عظيم.

ومنهم أيضا: [رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله].

والمراد أنها دعته إلى فاحشة الزنا، وهي تجمع بين الحسب والنسب، والجاه والمال، والجمال والحسن، ومن ثم توفر عاملان يهيئان سبيل الفاحشة، أولهما أنها هي التي دعته، فلا يحتاج الأمر إلى طلب ومراودة، وثانيهما أنها متصفة بما يرغّب في النساء عادة.

ومع تلك المغريات أبى ولم يطاوع، ينهزه إلى هذا الامتناع خوف وخشية [قال إني أخاف الله]، وسواء قال ذلك بلسانه اعتذارًا لها وزجرًا، وهو الظاهر[2]، أو قالها بقلبه لينهى نفسه عن هواها[3]، فإن صبره يدل على ما استولى على قلبه من العبودية خوفًا وإشفاقًا وتقوى، فأثابه الله تعالى بأن جعله في ظل عرشه آمنًا يوم القيامة.

ومن يظلهم الله جل شأنه أيضًا: [رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه].

---

(١) انظر: فتح الباري: (٤/ ٢٥).

(٢) انظر: فتح الباري: (٤/ ٢٧).

(٣) قال المناوي: (ولا مانع من الجمع) فيض القدير: (٤/ ٨٩).

والمقصود وصفه بالمبالغة في إخفاء الصدقة[1]، إشارة إلى عظم ما في قلبه من العبودية المتمثلة في إرادة الله تعالى وحده بصلاح العمل، وإخلاص النية والقصد عن شوائب الرياء وإرادة الثناء.

ومنهم أيضا: [رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه].

ويبرز هنا جانبان من عبودية القلب:

أولهما: خشية الله تعالى، والخوف من وعيده وعقابه، والذي تسبّب في فيضان العين بالبكاء، ويستوي في ذلك كون الذكر المراد هنا لسانيًا أو قلبيًا.

وثانيهما: الإخلاص وصدق المقصد، بالحرص على أن يكون العمل خفيًا عن أعين الناس.[2]

ولذا قال النووي: (فيه فضيلة البكاء من خشية الله تعالى، وفضل طاعة السر لكمال الإخلاص فيها).[3]

وحين يدخل بعض المسلمين النار بذنوبهم وخطاياهم، فإن ما في قلوبهم من الإيمان والعبودية يكون سببًا في خروجهم منها برحمة رب العالمين.

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ١٢٢)، فتح الباري: (٤/ ٢٩)، عمدة القاري: (٥/ ١٧٩).

(٢) انظر: فتح الباري: (٤/ ٢٩ – ٣٠).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ١٢٣).

فمن حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: [يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة].[1]

ومن حديث أنس ﷺ أيضًا، عن رسول الله ﷺ، في شأن الإذن له عليه الصلاة والسلام بالشفاعة يوم القيامة، وفيه: [فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال[2] شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل] ثم يؤذن له عليه الصلاة والسلام في الشفاعة ثانية: [فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل] وفي الثالثة: [فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى[3] مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل] الحديث.[4]

قال ابن تيمية: (هذا وأمثاله من النصوص المستفيضة عن النبي ﷺ يدل أنه لا يخلد في النار من معه شيء من الإيمان والخير وإن كان قليلًا).[5]

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٦/ ٢٦٩٦).

(٢) أي المقدار من الوزن. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢١٧)، عمدة القاري: (١/ ١٦٩).

(٣) (التكرار للتأكيد) فتح الباري: (١٣/ ٤٧٥).

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم: (٦/ ٢٧٢٧ – ٢٧٢٨)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها: (١/ ١٨٣).

(٥) مجموع الفتاوى: (١٢/ ٤٩٢)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ٣١)، عمدة القاري: (١/ ١٧٠).

المسألة الثانية: الفوز بالجنة ونعيم الآخرة.

قرر القرآن الكريم أن الذين ينتفعون في الآخرة فيدركون سعادتها هم أصحاب القلوب السليمة، التي خلصت مما يعارض العبودية لله جل وعلا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

والمتصفون بإخلاص العبادة هم الموعودون بالجنة وما فيها من العطايا والكرامة والنعيم.

قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الصافات: ٤٠ - ٤٣].[2]

ووُعد بالجنة أيضًا من تذكر وقوفه بين يدي الله يوم القيامة للسؤال والحساب[3]، فأوجد ذلك في قلبه خوفًا وخشية، أثمرت انتهاء عن المعصية، وإقبالًا على الطاعة.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

(١) انظر: تفسير ابن عاشور: (١٩/ ١٤٩ – ١٥٠).

(٢) انظر: تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ١١١).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٧/ ١٤٥، ٣٠/ ٤٨)، تفسير ابن عطية: (٥/ ٤٣٥)، تفسير القرطبي: (١٩/ ١٣٥)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٦٩)، فتح الرحمن: (ص: ٣٣٥).

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وزيادة في التكريم تقرب الجنة للمتقين، أصحاب القلوب الوجلة المنيبة، التائبة المخلصة المقبلة على الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

وتضمنت الآيات الكريمات وصفهم بخشية الرحمن بالغيب.

وقد ذكر بعض المفسرين في المراد بهذا الوصف أنهم يخافون الله ويخشونه وهم لم يروه جل وعلا[1]، إشارة إلى عظم إيمانهم.

وذكر آخرون أن المراد خشيتهم لله ﷻ في السر والخلوة، حين لا تراهم أعين الناس[2]، إشارة إلى عظم إخلاصهم.

وكلا القولين محتمل، والجمع بينهما ممكن.

هؤلاء الخائفون المنيبون جازاهم الله تبارك وتعالى بالخلود في الجنة، سالمين من العذاب والآفات، آمنين من العوارض والهموم، يلقون فيها من النعيم ما يشتهون، ويجدون فوق ما يطلبون ويأملون، مما لا يخطر لهم على بال.[3]

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٣)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٢٥)، تفسير القرطبي: (١٧/ ١٥).

(٢) انظر: التسهيل: (٤/ ٦٥)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٢٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٣)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٢١)، مدارج السالكين: (١/ ٣٢٩).

قال تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴾ [ق: ٣٤ - ٣٥].

وخشية الله جل شأنه هي الطريق الموصلة إلى ما هو أعظم جزاء من خلود الجنان: رضا الرحمن سبحانه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ (٧) جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٧ - ٨].

يقول ابن عاشور[١]: (والإشارة إلى الجزاء المذكور في قوله: ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ يعني أن السبب الذي أنالهم ذلك الجزاء هو خشيتهم الله).[٢]

وقال ابن كثير: (أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأن يراه، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه).[٣]

---

(١) هو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة، عضو المجمع العربي بدمشق والقاهرة، من مصنفاته: التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ومقاصد الشريعة الإسلامية، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاث مائة وألف. انظر: الأعلام: (٦/ ١٧٤).

(٢) تفسير ابن عاشور: (٣٠/ ٤٨٦)، وانظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٢٦٥)، روح المعاني: (٣٠/ ٦٤).

(٣) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٣٨).

أما الصابرون على الالتزام بأمر الله، فقد وعدهم الله سبحانه بحسن الجزاء، وطيب العاقبة، وتحية الملائكة عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

قال ابن كثير: (أي تدخل عليهم الملائكة من ههنا وههنا، للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين، مهنئين بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام).[١]

والباء في ﴿ بِمَا صَبَرۡتُمۡ ﴾ سببية، أي هذا الجزاء بسبب صبركم.[٢]

يقول أبو حيان: (لما كان الصبر هو الذي نشأ عنه تلك الطاعات السابقة ذكرت الملائكة أن النعيم السرمدي إنما هو حاصل بسبب الصبر).[٣]

وقال تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴾ [الإنسان: ١٢].

يقول ابن كثير: (أي بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوأهم جنة وحريرًا، أي منزلًا رحبًا، وعيشًا رغدًا، ولباسًا حسنًا).[٤]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥١٠)، وانظر: تفسير االقرطبي: (٩/ ٢٠٥)، زاد المسير: (٤/ ٢٤٠).
(٢) انظر: تفسير أبي السعود: (٥/ ١٨)، تفسير ابن عاشور: (١٣/ ١٣٢).
(٣) تفسير البحر المحيط: (٥/ ٣٨٧).
(٤) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٥٥).

وذكر جل وعلا أن الصابرين على المكاره والابتلاء والأذى في سبيل الله وإقامة شرعه، هم الفائزون في الآخرة بالكرامة والنعيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩ - ١١١].(١)

ولما أورد القرآن الكريم صفات عباد الرحمن قرر في ختامها أن صبرهم على مشقة تلك التكاليف، وتحملهم عناء فعل الصالحات وترك الشهوات المحرمات، هو السبب في نيلهم المنازل الرفيعة، والدرجات العالية في الجنة.(٢)

---

(١) قرأ الكسائي بكسر الهمزة في ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ وقرأ الباقون بفتحها. انظر: سراج القارئ: (ص: ٣٠١)، النشر: (٢/ ٢٤٧).

وعلى الفتح فالمعنى: جزيتهم بصبرهم الفوز، وعلى الكسر فالمفعول الثاني محذوف و﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ استئناف على سبيل المدح لهم والتقرير بفوزهم. انظر: حجة القراءات: (ص: ٤٩٢ – ٤٩٣)، زاد المسير: (٥/ ٣٣٦)، أضواء البيان: (٥/ ٨٢٩)، ولا تعارض في المعنى بين القراءتين.

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٩/ ٥٤)، تفسير القرطبي: (١٣/ ٥٦ – ٥٧)، روح المعاني: (١٩/ ٥٣ – ٥٤)، تفسير ابن عاشور: (١٩/ ٨٤).

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥ - ٧٦].

وفي حديث رسول الله ﷺ ما يبرز عظم شأن عبودية القلب، وأثرها في بلوغ الجنة ونيل نعيمها.

ومن ذلك حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [.. فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة].(١)

قال النووي: (معناه أخبرهم أن من كانت هذه صفته فهو من أهل الجنة).(٢)

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا: (١/ ٦٠).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ٢٣٧)، ولابن رجب تعليق جيد على معنى هذا الحديث وما في معناه، ومن ذلك قوله: (قال طائفة من العلماء: إن كلمة التوحيد سبب مقتض لدخول الجنة وللنجاة من النار، لكن له شروط، وهي الإتيان بالفرائض، وموانع، وهي إتيان الكبائر.

وقالت طائفة: هذه النصوص المطلقة جاءت مقيدة بأن يقولها بصدق وإخلاص، وإخلاصها وصدقها يمنع الإصرار معها على معصية.

فإن تحقق القلب بمعنى: (لا إله إلا الله) وصدقه فيها، وإخلاصه بها، يقتضي أن يرسخ فيه تأله الله وحده، إجلالًا وهيبة ومخافة ومحبة ورجاء وتعظيمًا وتوكلًا، ويمتلئ بذلك، وينتفي عنه تأله ما سواه من المخلوقين، ومتى كان كذلك لم يبق فيه محبة ولا إرادة ولا طلب لغير ما يريده الله ويحبه ويطلبه، وينتفي بذلك من القلب جميع أهواء النفوس وإراداتها ووساوس الشيطان. =

وعن أنس ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [إذا كان يوم القيامة شفعت، فقلت: يارب أدخل الجنة من كان في قلبه خردلة، فيدخلون، ثم أقول: أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء].(١)

وذلك ضمن شفاعته عليه الصلاة والسلام في إخراج أهل التوحيد من النار، وإدخالهم الجنة.(٢)

والمراد: (أنه يدخل الجنة من كان في قلبه أقل قدر من الإيمان).(٣)

ومن تلك الأحاديث التي تشير إلى ثمرة عبودية القلب أيضًا حديث أنس بن مالك ﷺ قال: (كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء،

= ومن أحب لهواه وأبغض له فإلهه هواه، وكذلك من أطاع الشيطان في معصية الله فقد عبده.

فتبين بهذا أنه لا يصح تحقيق معنى قول: (لا إله إلا الله) إلا لمن لم يكن في قلبه إصرار على محبة ما يكرهه الله، ولا على إرادة ما لا يريده الله، ومتى كان في القلب شيء من ذلك، كان ذلك نقصًا في التوحيد، وهو من نوع الشرك الخفي.

وأن من دخل النار من أهل هذه الكلمة فلقلة صدقة في قولها، فإن هذه الكلمة إذا صدقت طهرت من القلب كل ما سوى الله، فمن صدق في قول: (لا إله إلا الله) لم يحب سواه، ولم يرج إلا إياه، ولم يخش أحدًا إلا الله، ولم يتوكل إلا على الله، ولم تبق له بقية من آثار نفسه وهواه، ومتى بقي في القلب أثر لسوى الله، فمن قلة الصدق في قولها) جامع العلوم والحكم: (١/ ٥٢٢ – ٥٢٦ مختصرًا).

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم: (٦/ ٢٧٢٧).

(٢) انظر: فتح الباري: (٢٤/ ٢٥٧، ٢٧٧).

(٣) عمدة القاري: (١/ ١٧٠).

فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم في الصلاة فقرأ بها، افتتح بقل هو الله أحد، حتى يفرغ منها، ثم يقرأ بسورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى، قال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بها فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرونه أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر. فقال: [يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك، وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة؟] فقال: يا رسول الله إني أحبها. فقال رسول الله ﷺ: [إن حبها أدخلك الجنة].(١)

فحبّ هذا الصحابي ﷺ لتلك السورة الجليلة، وهو عمل قلبي، كان سببا في البشارة بالجنة.

قال ابن حجر: (عبر بالفعل الماضي في قوله: [أدخلك] وإن كان دخول الجنة مستقبلًا تحقيقًا لوقوع ذلك).(٢)

(١) رواه البخاري تعليقًا في كتاب صفة الصلاة، باب الجمع بين السورتين في الركعة..: (١/ ٢٦٨ – ٢٦٩)، و الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة الإخلاص: (٥/ ١٦٩ – ١٧٠)، وقال حديث حسن صحيح، وابن خزيمة في صحيحه: (١/ ٢٦٩)، وابن حبان في صحيحه: (٣/ ٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان: (٢/ ٥٠٦)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٣٦٧) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه عصام الصبابطي في تخريج أحاديث الترمذي: تحفة الأحوذي: (٧/ ٣١٩) (الهامش).

(٢) فتح الباري: (٤/ ١٦٩).

المسألة الثالثة: عظم الثواب واستمراره.

وعد الله جل شأنه أهل الخشية والإخبات، والتوكل والصبر، وغيرها من أعمال القلوب، بالثواب والأجر العظيم، وذلك في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٤ - ٣٥].

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١ - ٤٢].

﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩].

ومن أبرز أعمال القلب المؤثرة في الأجر: إخلاص النية لله وحده، فإن هذا الإخلاص فاعل في استمرار الثواب، حتى في حال تأثر العمل الظاهر

بعارض يؤثر على تمامه وكماله، مما هو خارج عن إرادة العبد.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

قال ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: (أي من يخرج من منزله بنية الهجرة، فمات في أثناء الطريق، فقد حصل عند الله ثواب من هاجر).[1]

وعلى الهجرة يقاس كل عمل صالح، يحبس المؤمن عن القيام به عذر مانع، فإن الله تعالى برحمته يبلغه أجر العاملين، بصلاح نيته وصدق مقصده.

عن أنس بن مالك ﵁: (أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك، فدنا من المدينة، فقال: [إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم] قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: [وهم بالمدينة، حبسهم العذر].[2]

وفي رواية لمسلم: [إلا شركوكم في الأجر].[3]

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٥٤٣)، وانظر: تفسير الطبري: (٥/ ٢٣٨)، القواعد الحسان: (ص: ١٣٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر: (٤/ ١٦١٠)، ومسلم بنحوه من حديث جابر بن عبد الله ﵄ في كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر: (٢/ ١٥١٨).

(٣) صحيح مسلم: (٢/ ١٥١٨).

قال النووي: (في هذا الحديث فضيلة النية في الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات، فعرض له عذر منعه، حصل له ثواب نيته).[1]

وقال ابن حجر: (فيه أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العذر عن العمل).[2]

فالعاجز ببدنه عن العمل الصالح، مع توفر النية الخالصة والإرادة الصحيحة، هو بمنزلة العامل، فضلًا من الله سبحانه.

وفي هذا المعنى أيضًا يرد حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا].[3]

قال ابن حجر: (هو في حق من كان يعمل طاعة فمنع منها، وكانت نيته لولا المانع أن يدوم عليها).[4]

وحديث عائشة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: [ما من امرئ تكون له صلاة بليل فغلبه عليها نوم إلا كتب الله له أجر صلاته، وكان نومه صدقة

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ٥٧)، وانظر: التمهيد: (١٢/ ٢٦٧).

(٢) فتح الباري: (١٢/ ٣١٣)، وانظر: تفسير القرطبي: (٨/ ١٨٥)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٣٤٠، ١٠/ ٤٤١).

(٣) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب: يكتب للمسافرين مثل ما كان يعمل في الإقامة: (٣/ ١٠٩٢).

(٤) فتح الباري: (١٢/ ١٠١)، وانظر: عمدة القاري: (١٤/ ٢٤٧).

عليه].[1]

قال ابن عبد البر: (في هذا الحديث ما يدل على أن المرء يجازى على ما نوى من الخير وإن لم يعمله كما لو أنه عمله، وأن النية يعطى عليها كالذي يعطى على العمل إذا حيل بينه وبين ذلك العمل، وكانت نيته أن يعمله، ولم تنصرف نيته حتى غلب عليه بنوم أو نسيان أو غير ذلك من وجوه الموانع، فإذا كان ذلك كتب له أجر ذلك العمل وإن لم يعمله، فضلًا من الله ورحمة، جازى على العمل، ثم على النية إن حال دون العمل حائل).[2]

ويدل لذلك حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [من طلب الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم تصبه].[3]

---

(١) رواه أبو داود في كتاب التطوع، باب من نوى القيام فنام: (٢/ ٧٦)، والنسائي ـ واللفظ له ـ في كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب من كان له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم: (٣/ ٢٥٧)، وأحمد في المسند: (٦/ ٧٢).

وصححه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٥/ ٤٧٢)، وصححه من المعاصرين عصام الصبابطي في تخريج سنن أبي داود: عون المعبود: (٣/ ١١٩) (الهامش)، قال الحافظ العراقي في المغني: (في طريقه أبو جعفر الرازي: قال النسائي: ليس بالقوي، ورواه النسائي وابن ماجة من حديث أبي الدرداء نحوه بسند صحيح) الإحياء: (١/ ٤٩٧).

ونص حديث أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: [من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح كتب له ما نوى صدقة عليه من ربه ﷻ).

رواه النسائي في كتاب قيام الليل: (٣/ ٢٥٨)، وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة: (١/ ٤٢٧).

(٢) التمهيد: (١٢/ ٢٦٤)، وانظر: رياضة النفس: (ص: ٦٨)، حاشية السندي على النسائي: (٣/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى: (٢/ ١٥١٧).

وحديث سهل بن حنيف رضي الله عنه[١]، أن النبي ﷺ قال: [من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه].[٢]

ففي الحديثين أن المؤمن: (إذا سأل الشهادة بصدق أعطي من ثواب الشهداء وإن كان على فراشه).[٣]

ويدل لذلك أيضًا حديث أبي كبشة الأنماري، عن رسول الله ﷺ، وفيه (إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالًا وعلمًا فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء).[٤]

فقد جعل ﷺ في هذا الحديث الراغب في البرّ المريد للخير، مع العجز عن العمل وعدم توفر القدرة عليه، له أجر الفاعل حقيقة، لما كان صادقًا في إرادته وتمنيه، مخلصًا في مقصده ونيته.

---

(١) هو سهل بن حنيف بن واهب، الأنصاري الأوسي، شهد بدرًا، وثبت يوم أحد، وكان ينفح عن رسول الله ﷺ بالنبل، وشهد أيضًا الخندق والمشاهد كلها، ولآه علي رضي الله عنه البصرة، توفي سنة ثمان وثلاثين. انظر: الاستيعاب: (٢/ ٦٦١ – ٦٦٢)، الإصابة: (٣/ ١٦٥ – ١٦٦).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى: (٢/ ١٥١٧).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ٥٥).

(٤) الحديث رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر: (٤/ ٥٦٣)، وقال هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في كتاب الزهد، باب النية: (٢/ ١٤١٣)، وأحمد في المسند: (٤/ ٢٣١)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٣/ ٢٩٩)، وصححه الصابطي في تخريج سنن الترمذي: تحفة الأحوذي: (٦/ ١٩٦) (الهامش).

قال ابن تيمية: (لما استويا في عمل القلب، وكان أحدهما معذور الجسم، استويا في الجزاء).[١]

وفي هذا الباب أيضًا حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: [كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال : نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق، حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم. فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد. فقبضته ملائكة الرحمة].[٢]

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢/ ٣٩٥)، وانظر: (٧/ ٣٤١، ١٠/ ٧٣٣ – ٧٣٤، ٢٢/ ٢٤٣ – ٢٤٤)، مدارج السالكين: (١/ ٣٤٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب حديث الغار: (٣/ ١٢٨٠)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله: (٣/ ٢١١٨).

وفي رواية أخرى: [فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، قال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له].[1]

فهذا الرجل لما جاء مريدًا بقلبه التوبة، صادقًا فيها، نادمًا على فعله، مخلصًا في نيته، مقبلًا على الله سبحانه، أناله الله جل وعلا رحمته وفضله، ومغفرته ورضوانه، مع عجزه عن الوصول ببدنه إلى من يعبد الله معهم من أهل الخير والصلاح، وذلك لما قام بقلبه من حقائق الإيمان.

يشهد لهذا المعنى حديث ابن عباس ﵄ عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه ﷻ، قال: [إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم[2] بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة] الحديث.[3]

والعزم على الحسنة، وإرادة فعلها إرادة جازمة، وتوطين النفس على ذلك، هو عمل من أعمال القلب، ونوع من عبوديته، ولذا يؤجر عليه المؤمن.

قال ابن تيمية: (إذا هم العبد بحسنة فلم يعملها كان قد أتى بحسنة، وهي الهم بالحسنة، فتكتب له حسنة كاملة، فإن ذلك طاعة وخير).[4]

(١) ضمن رواية البخاري: (٣/ ١٢٨٠)، وهي بنحوها في صحيح مسلم: (٣/ ٢١١٩).

(٢) الهم: العزم على الفعل، وترجيح قصده. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٢٧٤)، فتح الباري: (٢٤/ ١١٥)، عمدة القاري: (٢٣/ ٧٩).

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة: (٥/ ٢٣٨٠ – ٢٣٨١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة..: (١/ ١١٨).

(٤) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٣٧)، وانظر: (٢٢/ ٢٤٣)، الزهد لابن المبارك: (ص: ١٢٢ – ١٢٥)، المقاصد السنية: (ص: ١٤٧).

وإخلاص النية لله تعالى يجعل المباح قربة وطاعة، ويحوّل العادة إلى عبادة، يجد المؤمن فيها الأجر، ويحصّل المثوبة.[1]

ومما يدل على ذلك ما ورد في حديث أبي ذر ﵁، عن رسول الله ﷺ قال: [.. وفي بضع[2] أحدكم صدقة] قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: [أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر].[3]

فالأصل في النكاح أنه عادة مباحة، لكنه يتحول إلى وسيلة للثواب، إذا قصد به المؤمن غرضًا شرعيًا، يريد به التقرب إلى الله جل وعلا، والاستعانة به على الطاعة، بالعدول فيما يحتاج إليه عما حرم الله سبحانه، والاشتغال عنه بطريق الحلال.

قال النووي: (وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة، ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف الزوجة، ومنعهما جميعًا من النظر إلى حرام، أو الفكر فيه، أو الهم به،

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٧/ ٤٣ – ٤٤، ٤٨).

(٢) البُضْع: بضم الباء وسكون العين، ويطلق على الجماع كما يطلق على الفرج (وكلاهما تصح إرادته هنا) انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٣٣)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ٩٢).

(٣) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف: (١/ ٦٩٧ – ٦٩٨).

أو غير ذلك من المقاصد الصالحة).(١)

ومما ورد في هذا المعنى أيضًا حديث أبي مسعود ﷺ(٢)، عن النبي ﷺ قال: [إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها(٣) كانت له صدقة].(٤)

فهذا الحديث الشريف يفيد أن ثواب النفقة إنما يحصل إذا قصد به المنفق القربة، ناويًا رضا الله تعالى، طالبًا ثوابه.(٥)

قال ابن حجر: (ويستفاد منه أن الأجر لا يحصل بالعمل إلا مقرونًا بالنية).(٦)

ومن حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال له: [إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في في امرأتك].(٧)

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ٩٢)، و انظر تهذيب الآثار: (٢/ ١٢٢).

(٢) هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة، أبو مسعود الأنصاري، المعروف بالبدري لشهوده بدرًا أو لأنه سكن بها، شهد بيعة العقبة، وشهد أحدًا وما بعدها، سكن الكوفة، واستخلفه علي ﷺ عليها، توفي سنة إحدى وأربعين. انظر: الاستيعاب: (٤/ ١٧٥٦ – ١٧٥٧)، الإصابة: (٤/ ٤٣٢).

(٣) أي يريد بها وجه الله تعالى، ويقصد ثوابه. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٨٢)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ٨٨)، فتح الباري: (٢٠/ ١٨٥).

(٤)رواه البخاري في كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل: (٥/ ٢٠٤٧)، ومسلم بنحوه في كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين..: (١/ ٦٩٥).

(٥)انظر: فتح الباري: (١/ ٢٢٢).

(٦) فتح الباري: (٢٠/ ١٨٥).

(٧) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية..: (١/ ٣٠)، ومسلم بنحوه في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث: (٢/ ١٢٥١).

وهذا الحديث أيضًا يشترط صلاح النية لحصول الثواب على العمل، واجبًا كان في أصله أو مباحًا، والنفقة مثال لسائر أنواع المباحات، التي تصير قربات وطاعات، بما في القلب من عبودية وإخلاص.(١)

قال ابن حجر: (لأن المباح إذا قصد به وجه الله صار طاعة، وقد نبه على ذلك بأقل الحظوظ الدنيوية العادية، وهو وضع اللقمة في فم الزوجة، إذ لا يكون ذلك غالبًا إلا عند الملاعبة والممازحة، ومع ذلك فيؤجر فاعله إذا قصد به قصدًا صحيحًا، فكيف بما هو فوق ذلك).(٢)

ويقول النووي: (ويتضمن ذاك أن الإنسان إذا فعل شيئًا أصله على الإباحة، وقصد به وجه الله تعالى، يثاب عليه، وذلك كالأكل بنية التقوي على طاعة الله تعالى، والنوم للاستراحة ليقوم إلى العبادة نشيطًا..).(٣)

وهذا مراد معاذ بن جبل ﷺ، لما قال مخاطبًا أبا موسى الأشعري ﷺ، وهما يتذاكران قيام الليل: (أما أنا فأنام وأقوم، وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي).(٤)

---

(١) انظر: فتح الباري: (١١/ ٢٠٣).

(٢) فتح الباري: (١١/ ٢٠٥)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١١/ ٧٧ – ٧٨).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: (١١/ ٧٨).

(٤) رواه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم: (٦/ ٢٥٣٨)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها: (٢/ ١٤٥٧).

فمعاذ ﷺ يرجو الأجر ويطلب الثواب في ترويح نفسه بالنوم، ليجد النشاط عند القيام للصلاة والقراءة، وذلك باعتبار أن الاستعانة بالراحة على العبادة سبيل إلى الثواب أيضًا.[1]

قال النووي: (معناه أني أنام بنية القوة وإجماع النفس للعبادة، وتنشيطها للطاعة، فأرجو في ذلك الأجر، كما أرجو في قومتي، أي صلواتي).[2]

وذلك يفيد - كما ذكر ابن حجر - (أن المباحات يؤجر عليها بالنية إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة أو المندوبة، أو تكميلا لشيء منها).[3]

ومن ثَمّ فإن الأجر مقرون بما اشتمل عليه القلب من العبودية، ومؤسّس على الإرادة الجازمة لوجه الله سبحانه، وبذلك يصبح مجرد الطلب لرضا الله تعالى، وقصد الاستعانة بالمباح على الحق والخير، عملًا صالحًا ينال به المؤمن الثواب.

يقول ابن تيمية: (فالمؤمن إذا كانت له نية أتت على عامة أفعاله، وكانت المباحات من صالح أعماله، لصلاح قلبه ونيته).[4]

---

(١) انظر: فتح الباري: (١٦/ ١٨٠، ٢٦/ ١٠٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٢/ ٢٠٩)، وانظر: الزهد لابن المبارك: (ص: ٣٤).

(٣) فتح الباري: (٢٦/ ١٠٧).

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٣٦٩).

ولذا قال عبد الله بن المبارك: (رب عمل صغير تكثّره النية، ورب عمل كثير تصغّره النية).[1]

وقال عبد القادر الجيلاني: (اجتهد أن لا تأكل، ولا تمشي خطوة، ولا تعمل شيئاً في الجملة، إلا بنية صالحة، تصلح للحق ﷻ، إذا اتضح لك هذا فكل عمل تعمله يكون له لا لغيره).[2]

وفي وصية أحمد لابنه لما طلبه الوصية، قال: (يا بني انو الخير، فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير).[3]

قال ابن مفلح المقدسي[4]: (هذه وصية عظيمة سهلة على المسؤول، سهلة الفهم والامتثال على السائل، وفاعلها ثوابه دائم مستمر لدوامها واستمرارها، وهي صادقة على جميع أعمال القلوب المطلوبة شرعًا، سواء تعلقت بالخالق أو بالمخلوق، وأنها يثاب عليها، ولم أجد في الثواب عليها خلافًا).[5]

---

(١) سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٤٧٣).

(٢) الفتح الرباني: (ص: ١٥٠).

(٣) رواه ابن الجوزي عن عبدالله بن أحمد، قال: قلت لأبي يومًا: أوصني يا أبه.. مناقب الإمام أحمد: (ص: ٢٦٠).

(٤) هو محمد بن مفلح بن محمد، شمس الدين، أبو عبد الله المقدسي، الراميني ثم الصالحي، أعلم أهل عصره بمذهب الإمام أحمد، من مصنفاته: كتاب الفروع، والآداب الشرعية، توفي بصالحية دمشق سنة ثلاث وستين وسبع مائة. انظر: الأعلام: (٧/ ١٠٧).

(٥) الآداب الشرعية: (١/ ١٣٣).

ومن أنواع عبودية القلب التي تزيد من ثواب المؤمن، وتعلي منزلته، محبة أهل الصلاح والتقوى لأجل صلاحهم وتقواهم.

عن ابن مسعود ﷺ قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: [المرء مع من أحب].[1]

وعن أنس ﷺ: (أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: [ما أعددت لها؟] قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة[2]، ولكني أحب الله ورسوله. قال: [أنت مع من أحببت].[3]

وفي رواية أخرى للحديث قال أنس: (فما فَرِحْنا بشيء فَرَحَنا بقول النبي ﷺ:[أنت مع من أحببت] قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم).[4]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله ﷻ: (٥/ ٢٢٨٣)، ومسلم بنحوه في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب: (٣/ ٢٠٣٤).

(٢) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم: (١٦/ ١٨٧): (أي غير الفرائض، معناه ما أعددت لها كثير نافلة من صلاة ولا صيام ولا صدقة).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله ﷻ: (٥/ ٢٢٨٣)، ومسلم بنحوه في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب: (٣/ ٢٠٣٣).

(٤) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ: (٣/ ١٣٤٩)، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب: (٣/ ٢٠٣٢ – ٢٠٣٣).
قال النووي: (لا يلزم من كونه معهم أن تكون منزلته وجزاؤه مثلهم من كل وجه) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ١٨٦)، وانظر: فتح الباري: (٢٢/ ٣٦٦).

المطلب الثاني: الثمرات الدنيوية.

وفيه سبع مسائل:

المسألة الأولى: العصمة من إغواء الشيطان وتسلّطه.

يأمر الشيطان بالكفر، ويزين المعصية، ويحض على الفجور، ويلقي بالشبهة ليلبّس[1] على الإنسان، فيفتنه عن الحق، ويجذبه إلى الشر والضلال والباطل.

لكن القلب العابد لله تعالى، وقد عمره الإيمان الجازم، والتوكل الواثق، يبقى محفوظًا بإذن ربه من الاستسلام لتسلط الشيطان واستيلائه، والاستجابة لوساوسه وإلقاءاته، والتأثر بشبهات وإغراءاته.

يدل على ذلك قول الله جل وعلا: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٨ - ٩٩].

(فالذين يتوجهون إلى الله وحده، ويخلصون قلوبهم لله، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم مهما وسوس لهم، فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه، وينقادوا إليه، وقد يخطئون، لكنهم لا يستسلمون، فيطردون الشيطان عنهم، ويثوبون إلى ربهم من قريب).[2]

---

(١) (التلبيس إظهار الباطل في صورة الحق) تلبيس إبليس: (ص: ٤٦)، وأصل اللبس اختلاط الأمر وتداخله. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩١٢)، المشوف المعلم: (٢/ ٦٩٠).

(٢) في ظلال القرآن: (٤/ ٢١٩٤)، وانظر: تفسير البيضاوي: (١/ ٥٥٧)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٥٣٥)، روح المعاني: (١٤/ ٢٣٠)، إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٧)، مصائب الإنسان: (ص: ٦٠)، مجموع الفتاوى: (١٤/ ٣٣٢)، إغاثة اللهفان: (١/ ١٩٢ – ١٩٣).

ذلك أن التقوى حين تعمر قلب المؤمن تبعثه إلى التذكر لوعد الله ووعيده، والتفكر في أمره ونهيه، فيبصر الحق والهدى، ويدرك كيد الشيطان، فيقطع عليه حبائله، ويلحظ طيفه ولمته فيردها، ويميز خطراته وخطواته فيتباعد عنها.

يشهد لهذا المعنى(١) قول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ولذا قال سهل بن عبد الله: (من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان).(٢)

يقول أبو حامد الغزالي: (القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله، ولذلك سلط الله عليه الشيطان).(٣)

وقد اعترف إبليس بأن لا قدرة له على إضلال عباد الله المخلصين، أو استيطانهم والتمكن منهم، أو سوقهم والتلاعب بهم، فقال ما حكاه القرآن: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٥٧ - ١٥٩)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٢٥)، إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٨)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٢٢٢).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٦)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٥٤٢).

(٣) إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٧)، وانظر: إغاثة اللهفان: (١/ ١٩٧).

والمعنى على القراءة بكسر اللام (المخلِصين)(١): أي الذين أخلصوا قلوبهم لله سبحانه، بحيث صفت عبادتهم من كل توجّه لغير الله جل شأنه.(٢)

ومن كانت هذه صفتهم فليس للشيطان عليهم من سبيل في الإغواء، بتزيين شهوة، أو إلقاء شبهة.

يقول ابن القيم: (لما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيّن له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن الطريق، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى والتعرض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه، وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبّس به الإنسان، ليحصل له الدخول في ضمان: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام في لفظ: ﴿ الْمُخْلَصِينَ ﴾ في كل القرآن، وقرأ الباقون بفتح اللام، على معنى: أخلصهم الله تعالى لطاعته. انظر: النشر: (ص: ٢٢١)، سراج القارئ: (ص: ٢٥٧)، حجة القراءات: (ص: ٣٥٨ - ٣٥٩).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٠)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٣٨).

لرب العالمين، وإشعار القلب بإخلاص العلم ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين، وشمله استثناء: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].(١)

المسألة الثانية: التباعد عن الآثام والإقبال على الطاعات.

ذلك أثر آخر من آثار التزام القلب بعبودية الله سبحانه، وتنقّله في منازلها، يتمثل في توفيق الله تبارك وتعالى لعبده المؤمن، في دائرة المعصية إدبارًا وكرهًا ومباعدة، وفي دائرة الطاعة إقبالًا ومحبة ومسارعة.

ومما يشهد لذلك ما أخبر الله تعالى به من صرف المعصية عن نبيه يوسف ﷺ حين أخلص العبادة لله سبحانه، فأخلصه الله تعالى لطاعته واصطفاه.

يقول جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

والمعنى أن تحقيق يوسف ﷺ للإخلاص في عبوديته لربه سبحانه كان علة لصرف السوء والفحشاء عنه ﷺ.(٢)

وهذه الآية الكريمة وإن كانت في شأن نبي الله يوسف ﷺ إلا أنها تتضمن دلالة عامة على أن العبد إذا أخلص الدين لله سبحانه، كان ذلك حافظًا له يمنعه من ضد ذلك من الذنوب والمعاصي.

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٣٧ – ٣٨).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: (٤/ ٢٦٧)، تفسير المنار: (١٢/ ٢٨٠)، الآداب الشرعية: (٣/ ١١٣).

يقول ابن تيمية: (ذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له، لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره)(١)(ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج).(٢)

كذلك أخبر القرآن بأن هناك أعمالًا جليلة لا يوفّق لها إلا من غمر الصبر قلوبهم وتمكّن منها.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت: ٣٤ – ٣٥].

والمقصود أن هذه الصفة الكريمة لا يعطاها ولا يوفق لها إلا أهل الصبر.(٣)

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢١٥)، وانظر: (١٠/ ١٦١، ١٤/ ٣٣٢)، الآداب الشرعية: (٣/ ١١٣).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٨٨)، وانظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٩٣٤).

(٣) انظر: زاد المسير: (٧/ ٦٣)، تفسير النسفي: (٣/ ٢٧٥).

قال أبو حيان: (كأن هذه الخصلة الشريفة غائبة، فما يصادفها ويلقيها الله إلا لمن كان صابرًا على الطاعات، صارفًا عن الشهوات).[1]

ومثل هذه الآية في الدلالة قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].[2]

والمعنى: لا يوفق لها و يعطاها ويرزقها غير الصابرون.[3]

والضمير يعود إلى الصفات التي تضمنتها الآية الكريمة، أي الإيمان والعمل الصالح.[4]

وقد أثنى الله جل شأنه على من اجتمعت في قلوبهم معاني الإيمان والإخلاص، والخشية والإشفاق، والوجل واليقين، وأخبر أن المتصفين بذلك يسارعون إلى الخيرات، وينشطون للطاعات، ويبادرون إلى الأعمال الصالحات.

---

(١) تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٩٨).

(٢) الآية في سياق قصة قارون.

(٣) انظر: زاد المسير: (٦/ ١١٤)، نظم الدرر: (٥/ ٥٢١)، عدة الصابرين: (ص: ٥٩).

(٤) انظر: تفسير القرطبي: (١٣/ ٢١٠)، التسهيل: (٣/ ١١٢) وقال بعض المفسرين بعود الضمير إلى نفس القول الوارد في الآية، يقول ابن جرير: (أي لا يوفق لقيل هذه الكلمة، وهي قوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾..) تفسير الطبري: (٢٠/ ١١٦)، وانظر: زاد المسير: (٦/ ١١٤).

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].[1]

وفي دعاء رسول الله ﷺ: (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك)[2] ما يشير إلى أن خشية الله تعالى إذا استقرت في القلب كانت حجابًا يحجز العبد عن المعصية.

قال المناوي: (لأن القلب إذا امتلأ من الخوف أحجمت الأعضاء جميعها عن ارتكاب المعاصي، و بقدر قلة الخوف يكون الهجوم على المعاصي).[3]

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه[4] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يعجب

---

(١) انظر: نظم الدرر: (٥/ ٢٠٩).

(٢) الحديث رواه الترمذي وحسنه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد: (٥/ ٥٢٨)، والنسائي: عمل اليوم والليلة: (ص: ٣١٠)، والحاكم: المستدرك: (١/ ٧٠٩) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٧٠)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٢/ ١٣٣)، وصححه بعض المعاصرين، انظر: الوابل الصيب: (ص: ٢٣٣)، تحفة الأحوذي: (٩/ ١٨).

(٣) فيض القدير: (٢/ ١٣٢)، وانظر: مكاشفة القلوب: (ص: ٢٦٤).

(٤) هو عقبة بن عامر بن عَبْس الجهني، روى عن النبي ﷺ كثيرًا، كان عالمًا فقيهًا، فصيحًا شاعرًا كاتبًا، من أحسن الناس صوتًا بالقرآن، ولاه معاوية رضي الله عنه على مصر، توفي سنة ثمان وخمسين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٦٩٨ – ٢٦٩٩)، الإصابة: (٤/ ٤٢٩ – ٤٣٠).

ربكم من راعي غنم في رأس شظيّة[1] بجبل يؤذن بالصلاة ويصلي، فيقول الله ﷻ: انظروا إلى عبدي هذا يؤذن ويقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة].[2]

فهذا العبد المؤمن لما عظمت عبادة الخوف والخشية من الله في قلبه، أنشأت له حرصًا واهتمامًا على أداء ما افترضه الله عليه، وكانت سببًا في أن يتفضل الله عليه برحمته، فيثني عليه، ويرفع من قدره ومنزلته، ويعظم من مرتبته ومكانته، ويشرفه بإضافته إلى عبوديته، ويجزل جزاءه ومثوبته، فيحكم جل شأنه بمغفرة ذنوبه، ودخوله الجنة.[3]

المسألة الثالثة: الرعاية والكفاية والتأييد.

وعد الله تعالى من توكل عليه بالرعاية والكفاية فقال جل شأنه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، والحسب بمعنى الكفاية[4]، أي فهو كافيه.[5]

---

(١) بفتح الشين وكسر الظاء وتشديد الياء، وهي القطعة المرتفعة في رأس الجبل، مشتقة من التشظّي، وهو التشعّب، لأنها شعبة من الجبل. انظر: الفائق في غريب الحديث: (٢/ ٢٤٧)، شرح السيوطي على النسائي: (٢/ ٢٠ – ٢١) المقاصد السنية: (ص: ٣٠٦-٣٠٧).

(٢) رواه أبو داود في كتاب صلاة السفر، باب الأذان في السفر: (٢/ ٩)، والنسائي في كتاب الأذان، باب الأذان لمن يصلي وحده: (٢ / ٢٠)، قال المنذري: (رجال إسناده ثقات) مختصر سنن أبي داود: (٢ / ٥٠)، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ١٤١).

(٣) انظر: عون المعبود: (٣/ ٣٣).

(٤) انظر: المفردات: (ص: ١٢٤)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٤٦٢ – ٤٦٣).

(٥) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ١١٠٧)، تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٢٤)، مكاشفة القلوب: (ص: ٣٣٩).

فالآية الكريمة تشتمل على شرط وجزاء.

أما الشرط فهو تحقيق التوكل من العبد على ربه سبحانه، وثقته به، وتفويض أموره إليه، وإخلاء القلب من الاعتماد على سواه.

وأما الجزاء فهو أن يكلأ الله تبارك وتعالى عبده المؤمن، ويقضي حاجته، ويكفيه ما أهمّه - فضلًا منه سبحانه ورحمة -.

كما وعد جل وعلا الصابرين على مشقة التكليف وألم الابتلاء بالمعية الخاصة، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال سبحانه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وهي معية الله لعبده بالحفظ والإعانة، والنصر والتأييد والرعاية.[1]

وقرن سبحانه بين الصبر والتقوى، وجعلهما شرطا لتنزل النصر والعون الإلهي، وذلك في قوله جل شأنه: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢/ ٣٨، ٦٢٤)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٤٤٨)، تسلية أهل المصائب: (ص: ١٨٤).

قال ابن عطية: (ذكر تعالى الشرط الذي يقع معه الإمداد، وهو الصبر والتقوى).(١)

كما ضمن سبحانه لمن يحقق الصبر والتقوى بالحماية من كيد المنافقين، والسلامة من الضرر المترتب على مكرهم، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قال القرطبي: (شرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى).(٢)

وقد أنجز الله تبارك وتعالى وعده لبني إسرائيل بالنصر والتمكين في الأرض، لـمّا صبروا على التمسك بدين الله سبحانه، وعلى الاستجابة لدعوة نبي الله موسى عليه السلام، في مواجهة فرعون وكيده وأذاه.

يقول الله ﷻ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ(٣) رَبِّكَ

(١) تفسير ابن عطية: (١/ ٥٠٤)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٣/ ٥١).

(٢) تفسير القرطبي: (٤/ ١١٨)، وانظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٣٩٩)، نظم الدرر: (٢/ ١٤٢)، في ظلال القرآن: (١/ ٤٤٧)، عدة الصابرين: (ص: ٥٨).

(٣) ذكر عدد من المفسرين بأن المراد بالكلمة ما تضمنه قول الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ - ٦]. انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٤٤)، تفسير الزمخشري: (٢/ ١٤٠)، تفسير القرطبي: (٧/ ١٧٣)، أضواء البيان: (٢/ ٣٣١).

الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

(والمعنى نفذت كلمة الله ومضت على بني إسرائيل تامة كاملة، بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه).(١)

وقد اشتملت قصص الأنبياء في القرآن على إعلان الرسل عليهم السلام توكلهم على الله وحده، وصبرهم على كيد الظالمين وإيذاء المستكبرين: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فأحكم الله جل شأنه وعده لرسله عليهم السلام بالنصر والتأييد وإهلاك الظالمين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

وتتضمن هاتان الآيتان تقريرا بأن اتصاف المؤمنين بوجل القلوب من ربها سبحانه، وخوفها وخشيتها من عقابه، سبب للنصر والمعونة والتأييد من الله جل وعلا لعباده المؤمنين: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

(١) تفسير المنار: (٩/ ١٠١)، وانظر: تفسير الطبري: (٩/ ٤٣ - ٤٤)، تفسير الزمخشري: (٢/ ١٤٠)، تفسير الفخر الرازي: (١٤/ ٢٢٢)، زاد المسير: (٣/ ١٧١)، تفسير أبي السعود: (٣/ ٢٦٧).

والإشارة في (ذلك) إلى ما اشتملت عليه الآية من الوعد بإهلاك الظالمين والتمكين للمؤمنين.(١)

قال ابن جرير في تفسير الآية الكريمة: (يقول جل ثناؤه: هكذا فعلي لمن خاف مقامه بين يدي وخاف وعيدي، فاتقاني بطاعته، وتجنب سخطي، أنصره على من أراد به سوءا، أوبغاه مكروها من أعدائي، أهلك عدوه وأخزيه، وأورثه أرضه ودياره).(٢)

وفي ارتباط النصر والرعاية الإلهية بالصبر والتوكل يقول الرسول ﷺ: [واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا].(٣)

والمقصود أن النصر ملازم للصبر لاينفك عنه، فإذا صبر المؤمنون على التكاليف الشرعية أمرًا ونهيًا، وصبروا على قضاء الله وبلائه، فهم

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٣/ ١٩٢)، تفسير أبي السعود: (٥/ ٣٨)، تفسير القاسمي: (١٠/ ١٨).

(٢) تفسير الطبري: (١٣/ ١٩٢)، وانظر: نظم الدرر: (٤/ ١٧٨).

(٣) رواه أحمد في المسند من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (١/ ٣٠٧-٣٠٨)، والبيهقي في شعب الإيمان: (٢/ ٢٧، ٧/ ٢٠٣)، والحاكم في المستدرك: (٣/ ٦٢٤، ٦٢٥)، وحسنه العجلوني في كشف الخفاء: (١/ ٣٦٦)، وصححه شعيب الأرنؤوط: الآداب الشرعية: (٢/ ١٧٧) (الهامش)، وأصل الحديث في سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، قال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح) (٤/ ٦٦٧)، وحسنه كذلك ابن رجب في جامع العلوم والحكم: (١/ ٤٦٢)، وانظر الدر المنثور: (١/ ١٥٩ – ١٦٠).

موعودون بالنصر في مواجهة الهوى والشيطان، وفي مواجهة من يقاتلهم من أعداء الإسلام.(١)

وأما تلازم الفرج مع الكرب فالمقصود أن المؤمن الصادق حين يشتد الكرب يتمحّض في قلبه التوكل على ربه، والثقة فيه، والاعتماد عليه، والانطراح والانكسار بين يديه، فيكفيه الله ما أهمّه، ويفرّج عنه كربته.

يقول ابن رجب: (ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر: أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين، وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه).(٢)

وخبر أصحاب الغار المشهور يؤكد أن لعبودية القلب من الصدق مع الله تعالى، والإخلاص له، والخشية منه، أثرًا عظيمًا في رعاية الله لعبده، وفي معونته وحفظه له.

يقول رسول الله ﷺ: [بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون، إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار، فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه]

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ٤٩٠).

(٢) جامع العلوم والحكم: (١/ ٤٩٣).

فدعا أحدهم ببره والديه، والآخر بتركه للزنا بعد التمكن والقدرة، ودعا ثالثهم بأمانته وأدائه حقوق أجيره مع نمائها، وكل منهم يختم دعائه بقوله: (فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا).[١]

فاستجاب الله جل وعلا دعاءهم، وفرّج كربتهم.

فهؤلاء الثلاثة توكلوا على الله وحده، وتوسلوا إليه سبحانه بصالح أعمالهم، مما خلصت فيه نياتهم ومقاصدهم، وصدق فيه توجههم ومرادهم، مع خوف وخشية ووجل، فنزلت عليهم رحمة الله تعالى وعنايته.

المسألة الرابعة: محبة الله تعالى وثناؤه.

أخبر الله جل وعلا أنه يحب المتصفين بالصبر على أداء الفرائض والطاعات، والصبر عن المعاصي والسيئات، والصبر على المصائب والابتلاءات.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وأخبر سبحانه أنه يحب من اعتمد عليه، ووثق به، وفوض أموره إليه، ورضي بحكمه، واستسلم لقضائه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) الحديث بطوله رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾: (٣/ ١٢٧٨ - ١٢٧٩)، ومسلم بنحوه في كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال: (٣/ ٢٠٩٩ - ٢١٠٠).

وقرن سبحانه بين الصبر والتوكل في سياق الثناء على المؤمنين المتصفين بهما.

قال تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩].

وأثنى سبحانه على من غشيت قلوبهم معاني الخشية والإيمان، والوجل والإشفاق، واليقين والإخلاص، ووصفهم بالمسارعة والسبق إلى الخيرات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

كما أثنى تبارك وتعالى على الخاشعين الموقنين، الذين ذلت قلوبهم الله سبحانه، وخضعت له واستكانت، وآمنت بلقائه، وصدقت بوعده ووعيده، فخففت في حقهم التكاليف، وسهلت عليهم سبل الطاعة.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦].

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ يعود إلى الصلاة كما قال عدد من المفسرين[١]

(١) انظر: تفسير الطبري: (١/ ٢٦١)، تفسير البحر المحيط: (١/ ١٨٥)، تفسير ابن كثير: (١/ ٨٧)، روح المعاني: (١/ ٢٤٩)، شجرة المعارف: (ص: ٤٧).

والمعنى أن الصلاة ثقيلة إلا على من خشع قلبه، وأيقن بأنه راجع إلى ربه وملاقيه للحساب والجزاء.

وفي ذلك ثناء بالغ على أهل الخشوع واليقين.

وحين يستشعر القلب حبّ الله تعالى وصفاته جل شأنه كان ذلك سبيلا إلى محبة الله سبحانه لعبده.

عن عائشة ﷺ: (أن النبي ﷺ بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: [سلوه لأي شيء يصنع ذلك] فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: [أخبروه أن الله يحبه].[1]

وفي موقف آخر يثني عليه الصلاة والسلام على رجل، مع تكرر المعصية منه، وذلك بما اشتمل عليه قلبه من العبودية المتمثلة في حب الله ورسوله، والباعثة على الخشية والندم.

عن عمر بن الخطاب ﷺ: (أن رجلًا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبدالله[2]، وكان يلقب حمارًا، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: (٦/ ٢٦٨٦)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: (١/ ٥٥٧).

(٢) قيل هو عبد الله بن النعمان أوالنعيمان بن عمرو ﷺ، الأنصاري، من بني مالك بن النجار، له صحبة، معدود في أهل المدينة. انظر: الاختلاف في خبره وخبر أبيه في الإصابة: (٤/ ٢١٤، ٦/ ٣٦٥ – ٣٦٧)، وانظر: الاستيعاب: (٣/ ١٠٠٢).

قد جلده في الشراب، فأتي به يومًا، فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به. فقال النبي ﷺ: [لا تلعنوه، فوالله ما علمت. إلا أنه يحب الله ورسوله].[1]

فقد نهى رسول الله عليه الصلاة والسلام عن لعنه لكونه يحب الله ورسوله، وتلك شهادة له بما يحمله قلبه من حقائق الإيمان، في مقابل ما استحقه من العقوبة على ما ارتكبه من الذنب.[2]

المسألة الخامسة: الإمامة والقيادة.

هذه الثمرة من ثمرات عبودية القلب مستفادة من قول الله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

والضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى بني إسرائيل، والمعنى[3]: جعلنا منهم قادة ورؤساء يُقتدي بهم في الخير، يدعون إلى شريعة التوراة المنزلة على نبي الله موسى ﷺ، ويكونون سببًا في هداية الناس إلى دين الله سبحانه.

(١) رواه البخاري في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج عن الملة: (٦/ ٢٤٨٩). وانظر: فتح الباري: (٢٥/ ٢١٣).

(٢) انظر: الشفا: (٢/ ٣٨٧)، فتح الباري: (٢٥/ ٢١٣)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ٣٢٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ١١٢ – ١١٣)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٦ – ٣٧)، تفسير الواحدي: (٢/ ٨٥٥)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٢٣)، تفسير النسفي: (٣/ ٤٥)، الدر المنثور: (٦/ ٥٥٦).

ثم ذكرت الآية الكريمة أن توفيقهم لذلك المقام الرفيع والمرتبة العالية كان لاتصافهم بأمرين[1]:

الأول: الصبر: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾[2]، وهو يشمل الصبر على تكاليف الشرع أمرًا ونهيًا، كما يشمل الصبر على أقدار الله وبلائه، ومن ذلك تحمل الأذى في سبيل الدعوة إلى دين الله تعالى.

الثاني: اليقين: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾، والمراد التصديق الجازم بما نزل من عند الله سبحانه من الحق، والعلم التام الذي لا يداخله شك ولا ريب.

ومع نزول هذه الآية في شأن بني إسرائيل، لكن مضمونها ودلالتها عامة[3]، تقرر أن الالتزام بالصبر، والثبات على اليقين، سببان يهيئان المؤمن ليكون من أئمة الهدى والخير، الذين يقتدي بهم الناس ويهتدون.

قال النسفي: (وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس).[4]

---

(١) انظر: نظم الدرر: (٦/ ٦٣).

(٢) قرأ حمزة والكسائي ورويس عن يعقوب بكسر اللام وتخفيف الميم: أي لأجل صبرهم، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم: أي حين صبروا، والقراءتان متقاربتان في المعنى. قال ابن عطية: (وفي القراءتين معنى المجازاة، أي جعلهم أئمة، جزاء على صبرهم عن الدنيا، وكونهم موقنين بآيات الله..). انظر: سراج القارئ: (٣٢٢ – ٣٢٣)، النشر: (٢/ ٢٦٠)، تفسير الطبري: (١١/ ١١٣)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٣٦٥)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٧٣).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٢٣).

(٤) تفسير النسفي: (٣/ ٤٥).

وقال ابن تيمية: (فمن أعطي الصبر واليقين، جعله الله إمامًا في الدين).[1]

والصبر يتفرع عن اليقين. ذلك أن المؤمن بحاجة إلى علم يقيني ينشئ الطمأنينة، وعلى تلك القاعدة من اليقين يتأسس الصبر على تكاليف ما تيقنه واطمأن له.

ولذا يقول ابن تيمية: (ولا يمكن للعبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ويتنعم به ويتغذى به، وهو اليقين).[2]

وإذا استقر الصبر واليقين في قلب المؤمن وتمكنا فيه نجا بإذن الله من فتنة الشهوة والشبهة، إذ بالصبر يدفع الشهوة، وباليقين يحارب الشبهة، فسلامة الدين بتوفيق الله تعالى منوطة باقتران الأمرين في القلب.[3]

المسألة السادسة: السرور والطمأنينة.

إن القلب إذا استقرت فيه عبودية الله تعالى كان ذلك طريقًا له إلى الطمأنينة والسرور.

وكلما تمكنت تلك العبودية في القلب وازدادت كلما انتقل المؤمن إلى درجة أعلى من الشعور بالفرح والأنس والارتياح.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٦/ ٢١٥)، وانظر: (٢٨/ ١٥٣)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٦٣)، عدة الصابرين: (ص: ٥٨)، إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٩٠)، تفسير السعدي: (٤/ ١٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٥٣).

(٣) انظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٩٠)، إعلام الموقعين: (١/ ١٣٧).

وتلك نعمة ربانية وتوفيق إلهي.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

عن السدي في تفسير الآية قال: (وسع صدره بالإسلام للفرح به والطمأنينة إليه).[1]

وقال الراغب: (شرح الصدر أي بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله تعالى).[2]

ذلك أن (الإيمان إذا باشر القلب، وخالطته بشاشته، لا يسخطه القلب، بل يحبه ويرضاه، فإن له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه، والناس متفاوتون في ذوقه).[3]

وهذا المعنى هو ما استدل به هرقل[4] ملك الروم على صحة نبوة

---

(١) تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦١)، فتح القدير: (٤/ ٤٥٦)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٥٠)، تفسير السعدي: (٤/ ٣١٧)، تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ٣٨٠).

(٢) المفردات: (ص: ٢٦١)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٣٠٧).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٦٤٨).

(٤) هرقل: بكسر الهاء وسكون القاف، اسم علم لملك الروم الذي كتب إليه النبي ﷺ، قال الزمخشري: (كان من ملوك الروم، وهو أول من ضرب الدنانير) الفائق في غريب الحديث: (٤/ ١٠٢)، وانظر: نزهة الألباب في الألقاب لابن حجر: (٢/ ١٠٦)، المغني: (ص: ٢٦٩ – ٢٧٠).

رسول الله ﷺ[1]، حيث قال لأبي سفيان رضي الله عنه[2] ضمن حديث طويل: [وسألتك أيرتد أحد سخطة[3] لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته[4] القلوب).[5]

ولذا يجد المؤمنون في آيات القرآن سرورًا ونعيمًا قلبيًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

أي يسرون ويفرحون.[6]

---

(١) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ٧١).

(٢) هو صخر بن حرب بن أمية، أبو سفيان القرشي الأموي، أسلم عام الفتح، شهد حنينًا، وكان رضي الله عنه قبل ذلك رأس المشركين يوم أحد و الأحزاب، توفي سنة أربع وثلاثين. انظر الإصابة: (٣/ ٣٣٢ – ٣٣٥).

(٣) بسكون الخاء وفتح السين، أي كراهية له وعدم رضا به. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٥٠)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٢/ ١٠٥).

(٤) البشاشة الفرح والانبساط والأنس. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٣٠)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٢/ ١٠٦).

(٥) الحديث بطوله رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ: (١/ ٧ – ١٠)، ومسلم بنحوه في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام: (٢/ ١٣٩٣ – ١٣٩٧).

(٦) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٩٩)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٨٧)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٤٠)، المفردات: (ص: ٥٨).

والمراد أنهم يجدون في كلام الله تعالى بغيتهم، ويدركون فيه محبوبهم، فيحصل لهم بذلك لذة ونعيم وفرح وسرور.[1]

قال ابن تيمية: (أخبر سبحانه أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن، والاستبشار الفرح والسرور، وذلك لما يجدونه في قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله).[2]

وما في القلوب من الصدق والإخلاص يستوجب لها الطمأنينة بفضل من الله سبحانه.

ذلك ما تضمنه قول الله تعالى في سياق الثناء على الصحابة ﷺ، والذين بايعوا رسول الله ﷺ يوم الحديبية على القتال والثبات: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨].

أي علم ما في قلوبهم من الصدق والصبر والإخلاص، والطاعة والعزم على الوفاء، فربط على قلوبهم وأنزل عليها الطمأنينة والثبات، والسكون والاستقرار.[3]

(١) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ١٢٣ – ١٢٤)، الروح: (ص: ٣٠٧).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٦٤٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٨٨)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٤٢)، تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ٩٥)، زاد المسير: (٧/ ١٦٧)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٨٣)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٩)، نظم الدرر: (٧/ ٢٠٤).

وقد بين رسول الله ﷺ أن للإيمان طعمًا وحلاوة، يجدها ويذوقها من وفقه الله تعالى للرضا والمحبة الإيمانية، التي هي من أبرز أعمال القلب ومظاهر عبوديته.[1]

عن العباس بن عبد المطلب ﷺ[2]، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا].[3]

فهذا الحديث الشريف يقرر أن من رضي بهذه الأصول الثلاثة العظيمة على سبيل اليقين، قانعًا مكتفيًا، مستغنيًا بها عما يخالفها، ذاق طعم الإيمان، وخلصت حلاوته إلى قلبه، ونال الطمأنينة والسكون، واستشعر اللذة والسرور، وهو يقوم بمقتضى ذلك من توحيد الله جل وعلا، والإخلاص له، وتنفيذ شرعه، والالتزام بسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وحينئذ فلا شيء عند القلب أطيب من ذلك الطعم، ولا أحلى من تلك اللذة.[4]

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٢/ ٤٥٣)، مدارج السالكين: (٣/ ٧١ – ٧٢).

(٢) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم، أبو الفضل القرشي الهاشمي، عم رسول الله ﷺ، وولد قبله بسنتين، كان رئيسًا في قريش وواليًا على السقاية، أظهر إسلامه يوم فتح مكة أو قبله بقليل، وثبت يوم حنين، كان رسول الله ﷺ يكرمه ويجلّه، عُرف بالجود والفضل والصلة وحسن الرأي، توفي سنة اثنتين وثلاثين. انظر: الاستيعاب: (٢/ ٨١٠ – ٨١٧)، الإصابة: (٣/ ٥١١ – ٥١٢).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر: (١/ ٦٢).

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٢)، مجموع الفتاوى: (٢/ ٤٥٣، ١٠/ ١٨٧)، مدارج السالكين: (٢/ ٥٩ – ٦٠، ٣/ ٧٢ – ٧٣).

وبمعنى هذا الحديث[1] أيضًا حديث أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: [ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار].[2]

والحديث مشتمل على ثلاث عبادات قلبية: محبة الله ورسوله وتقديمها على كل محبة، والمحبة في الله سبحانه، وكراهية الكفر، أخبر ﷺ أن ثمرة الاتصاف بهذه الخصال الثلاثة هي وجد حلاوة الإيمان.[3]

ولذا بوب البخاري لهذا الحديث فقال: (باب حلاوة الإيمان).[4]

قال ابن حجر: (مقصود المصنف أن الحلاوة من ثمرات الإيمان).[5]

والمراد بحلاوة الإيمان ما يجده المؤمن من اللذة والمتعة، والنعيم والسرور، في طاعة ربه سبحانه ورضاه، وإيثار ذلك على هواه، متحملًا ما يقابله من الصعوبات، صابرًا على ما يلقاه من المشاق.[6]

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٣ - ١٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان: (١/ ١٤)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان: (١/ ٦٦).

(٣) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ٥٦).

(٤) صحيح البخاري: (١/ ١٤).

(٥) فتح الباري: (١/ ١١٦).

(٦) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٣ - ١٤)، فتح الباري: (١/ ١١٦ - ١١٧).

يقول ابن تيمية: (بين ﷺ أن ذوق طعم الإيمان لمن رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وأن وجد حلاوة الإيمان حاصل لمن كان حبه لله ورسوله أشد من حبه لغيرهما، ومن كان يحب شخصًا لله لا لغيره، ومن كان يكره ضد الإيمان، كما يكره أن يلقى في النار، فهذا الحب للإيمان، والكراهية للكفر، استلزم حلاوة الإيمان، كما استلزم الرضا المتقدم ذوق طعم الإيمان، وهذا هو اللذة، وليس هو نفس التصديق والمعرفة الحاصلة في القلب، ولا نفس الحب الحاصل في القلب، بل هذا نتيجة ذاك وثمرته ولازم له، وهي أمور متلازمة، فلا توجد اللذة إلا بحب وذوق، وإلا فمن أحب شيئًا ولم يذق منه شيئًا لم يجد لذة، كالذي يشتهي الطعام ولم يذق منه شيئًا، ولو ذاق ما لا يحبه لم يجد لذة، كمن ذاق ما لا يريده، فإذا اجتمع حب الشيء وذوقه حصلت اللذة بعد ذلك).[1]

إن هذا الوجد لحلاوة الإيمان، والذوق لطعمه، يمثل غاية السعادة القلبية للمؤمن، وهو جنته ونعيمه في الدنيا قبل نعيم الآخرة.

قال ابن تيمية: (ليس عند القلب أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان، المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاصه الدين له).[2]

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٣٢٧ - ٣٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢١٥).

وقال أيضًا: (فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة).(١)

ويقول ابن القيم: (فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم الآجلة، فله جنتان، لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى).(٢)

ذلك أن (في القلب شعثًا(٣) لا يلمّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٩٤)، الروح: (ص: ٢٧٨).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٣٤٤ – ٣٤٥)، روضة المحبين: (ص: ١١٨).

(٣) الشعث: بفتح الشين والعين: التفرق والانتشار، يقال: لمّ الله شعثكم، أي ما تفرق من أمركم. انظر: مقاييس اللغة: (ص:٥٠٦)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٧١٨).

هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدًا).(١)

المسألة السابعة: الاهتداء والانتفاع بالمواعظ.

حين يكون العبد مؤمنًا بالله، موقنًا باليوم الآخر، وحين تنمو في قلبه معاني الخوف والرهبة، والصبر والإنابة، وغيرها من أعمال القلوب، فإن من عواقب ذلك إكرام الله جل شأنه لعبده بالهداية والتسديد، والتوفيق لقبول الحق، والاستجابة للمواعظ، والتأثر بالدلائل، والانتفاع بالتذكير.

هذا ما يشير إليه القرآن الكريم في مواضع كثيرة.

ومن ذلك قول الله تعالى في سياق تقرير بعض الأحكام:

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [الطلاق: ٢].

تبين الآيتان الكريمتان أن الذي يمتثل للأحكام، ويأتمر بها، ويتفاعل معها، ويرضى بمضمونها، هو من آمن قلبه بالله جل وعلا، وصدق بشرعه، وأيقن بالبعث، وخاف حساب الآخرة.

ومن ثم فإن المتصفين بذلك هم المنتفعون حقيقة بالآيات القرآنية، يتقبلونها، وتخشع قلوبهم لها، ويتعظون بمحتواها، ويسارعون إلى الاحتكام

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٢٨)، وانظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٩٣٢ – ٩٣٣).

لما تشتمل عليه من شرائع الله سبحانه، إجلالًا له، وخوفًا من عقابه تبارك وتعالى.[1]

قال الرازي: (لما كان المؤمن هو المنتفع به حسن تخصيصه).[2]

وقال أبو حيان: (خص المؤمنين لأنه لا ينتفع بالوعظ إلا المؤمن، إذ نور الإيمان يرشده إلى القبول).[3]

ذلك أن المؤمنين ذوي القلوب الحية، الوجلة المنيبة، هم الذين تجدي فيهم أساليب التذكير، وتؤثر فيهم أدواته ووسائله، كما قال جل وعلا مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وما تضمنته هذه الآية من تخصيص المؤمنين بالتذكير هو باعتبار أنهم المنتفعون بالذكرى، القابلون لها، المستفيدون منها، الذين تزيد بالموعظة بصيرتهم، ويقوى بالتذكير يقينهم.[4]

قال ابن كثير: (أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة).[5]

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٢٨٢، ٤/ ٣٧٩)، تفسير المنار: (٢/ ٤٠٤ – ٤٠٥)، تفسير السعدي: (٥/ ٢٦١)، في ظلال القرآن: (١/ ٢٤٧، ٦/ ٣٦٠١).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٦/ ١٢٣)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٨/ ٢٦١)، روح المعاني: (٢٨/ ١٣٥).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٢/ ٢١١)، وانظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ١٠٥)، تفسير البيضاوي: (١/ ١٢٤، ٢/ ٥٠٢)، تفسير النسفي: (١/ ١٥١، ٣/ ٥٤٣).

(٤) انظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ٣٧).

(٥) تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٣٨).

ويقول السعدي: (أخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعها).[1]

ولا يتعارض ذلك مع كون الرسول ﷺ مكلّفًا في الأصل بالتذكير العام، المتمثل في تبليغ الرسالة إلى الناس جميعًا، والذي تضمنه آيات كثيرة من الكتاب العزيز، إذ التذكير المراد هنا هو التذكير الخاص، الذي تتحقق فيه الفائدة، وتتأكد الثمرة.[2]

ولا يتعارض ذلك أيضًا مع احتمال تأثر الكافر بالموعظة فيؤمن، وتذكره بالتذكير فيهتدي.[3]

يقول ابن تيمية: (حيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به، وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا).[4]

وضمن هذا التذكير الخاص يخبر الله تعالى في أكثر من موضع أن الذي يقبل التذكير، ويستجيب للوعظ، وينتفع بالتبليغ، هو من غمرت قلبه

---

(١) تفسير السعدي: (٥/ ١٠٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٥٧، ١٦٩)، إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٩٥ – ٨٩٧).

(٣) انظر: تفسير ابن عاشور: (٢٧/ ٤٤).

(٤) مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٥٦)، وانظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: (ص: ٢٤٩، ٢٧٣).

خشية الله سبحانه، واليقين بلقائه، والخوف من عذابه.

قال تعالى: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٢ - ٣].

(أي ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة، أي لأجل التذكرة لمن يخشى الله ويخاف عذابه، والتذكرة الموعظة التي تلين لها القلوب فتمتثل أمر الله وتجتنب نهيه، وخص بالتذكرة من يخشى دون غيرهم لأنهم هم المنتفعون بها).[1]

وقال سبحانه: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠].

في هذه الآية الكريمة دلالة على أن الخشية مستلزمة للتذكر والاتعاظ.[2]

عن قتادة في هذه الآية قال: (والله ما خشي الله عبد قط إلا ذكره).[3]

---

(١) أضواء البيان: (٤/ ٤٠١)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ٤)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٤)، تفسير السعدي: (٣/ ٢٢٣).

(٢) ولا يعني ذلك أن التذكر لا يكون سببًا للخشية، فقد يتذكر الإنسان، فيثمر ذلك التذكر خشية لله تعالى، ولكن ذلك ليس على إطلاقه، إذ قد يتذكر المرء دون أن يوجد ذلك في قلبه خشية، وذلك لعدم انتفاء الموانع، وعلى هذا فإن التذكر والخشية كل منهما قد يكون سببًا للآخر، لكن الخشية مستلزمة للتذكر دون العكس، والعلم عند الله تعالى. انظر: مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٧٣ -١٧٤، ١٧٧، ١٨٢).

(٣) تفسير الطبري: (٣٠/ ١٥٥)، تفسير ابن أبي حاتم: (١٠/ ٣٤١٧)، الدر المنثور: (٨/ ٤٨٤).

يقول أبو حيان في تفسير الآية: (أي لا يتذكر بذكراك إلا من يخاف، فإن الخوف حامل على النظر في الذي ينجيه مما يخافه، فإذا نظر أداه النظر والتذكر إلى الحق، وهؤلاء هم العلماء والمؤمنون، كل على قدر ما وفق له).[1]

وهذا المعنى هو المفهوم أيضًا من مثل قول الله تعالى مخاطبًا رسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥].

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ [فاطر: ١٨].

ففي هذه الآيات تخصيص لمن ينفعه الإنذار ويتأثّر به.[2]

قال ابن الجوزي: (المعنى إنما تنفع بإنذارك أهل الخشية، فكأنك تنذرهم دون غيرهم لمكان اختصاصهم بالانتفاع).[3]

وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم يبين الله سبحانه أن المتصفين بالإنابة والخشية ونحوهما يتأثرون بالدلائل ويتعظون بالآيات الكونية والقرآنية.

---

(١) تفسير البحر المحيط: (٨/ ٤٥٩)، وانظر: تفسير القرطبي: (٢٠/ ١٥)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٠٠)، نظم الدرر: (٨/ ٣٩٨)، قوت القلوب: (١/ ٤٥٥) إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٣)، في ظلال القرآن: (٦/ ٣٨٩٣).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ٤٤٨)، المجيد في إعجاز القرآن المجيد: (ص: ٩٦) نظم الدرر: (٦/ ٢١٥، ٨/ ٣٢١).

(٣) زاد المسير: (٦/ ٢٥١)، وانظر: (٦/ ٢٦٤، ٨/ ١٧٨)، تفسير الطبري: (٢٢/ ١٢٧ - ١٢٨)، معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٢٦٧)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٩٨)، تفسير الواحدي: (٢/ ٨٩٧)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٤٣٥)، تفسير الفخر الرازي: (٣١/ ٥٣)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٢١٦، ١٩/ ١٣٦)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٣١).

يقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦ - ٨].

فهذه الآيات تتضمن جملة من دلائل قدرة الله جل وعلا ووحدانيته، وفي خاتمتها بيان بأن في هذه الدلائل عبرة وعظة، وبصيرة وذكرى، يستفيد منها ويتعظ بها أهل الإنابة.

قال ابن كثير في تفسيره للآيات: (أي ومشاهدة خلق السماوات والأرض وما جعل فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أي خاضع خائف وجل رجاع إلى الله ﷻ).(١)

يقول ابن القيم: (فالتبصرة آلة البصر، والتذكرة آلة الذكر، وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة، لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر، فاستدل بها على ما هي آيات له، فزال عنه الإعراض بالإنابة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة، لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلة عنها، فترتبت المنازل الثلاثة أحسن ترتيب، ثم إن كلا منهما يمد صاحبه ويقويه ويثمره).(٢)

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٢٢)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ١٥٧)، نظم الدرر: (٧/ ٢٥١)، تفسير السعدي: (٥/ ٨٢)، مدارج السالكين: (١/ ٣٣٤).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٣٣٥).

وفي هذا المعنى أيضًا يقول الله جل وعلا: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ: ٩].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣].

قال ابن القيم: (أخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة).(١)

ذلك أن الإنابة إلى الله تعالى، محبة وإقبالًا، وتوبة وإخلاصًا، تثير في صاحبها معنى التذكر والتيقظ والتفكر، فيتعظ بما يشاهده من الآيات الكونية، ويستدل على عظمة ربه سبحانه، ومن ثمّ تثمر الآيات في حقه تذكرًا حقيقيًا مؤثرًا، وبصيرة نافعة هادية.

قال القرطبي: (خص المنيب بالذكر لأنه المنتفع بالفكرة في حجج الله وآياته).(٢)

وقال السعدي: (فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله كان انتفاعه بالآيات أعظم، لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره فصار قريبًا من ربه، لا هم له إلا

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٢٩)، وانظر الفوائد: (ص: ١٦٦ – ١٦٨).

(٢) تفسير القرطبي: (١٤/ ١٧٠)، وانظر: تفسير النسفي: (٣/ ٨٩)، تفسير السعدي: (٤/ ٣٥٣).

الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غير نافعة).(١)

وفي شأن انتفاع أهل الخشية بما يرد عليهم من الدلائل يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

والإشارة هنا إلى ما سبق إيراده في السورة الكريمة من أخبار المكذبين في الأمم السابقة ممن أهلكهم الله تعالى، وأخذهم بعقابه سبحانه.

والمعنى أن في تلك القصص عبرة عظيمة، وموعظة بليغة، للمتصفين بخشية الله تعالى، وخوف عذابه في الآخرة، ينشأ عنها في نفوسهم تأثر واعتبار، ويحصل لهم بها دافع الى تقوى الله، وزاجر عن مخالفة أمر الله، حتى لا يتعرضوا لعذابه جل شأنه في الدنيا والآخرة.(٢)

ولما ذكر الله تعالى خبر إهلاك المجرمين من قوم لوط عليه السلام قال سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧].

والمراد أن الله تبارك وتعالى جعل قراهم المدمرة عبرة للناس يتعظون

(١) تفسير السعدي: (٤/ ١٨٠)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٤٩)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٥٠)، تفسير الفخر الرازي: (٢٧/ ٤٢)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٣)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٧٠)، في ظلال القرآن: (٥/ ٣٠٧٣)، أضواء البيان: (٧/ ٧٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٢/ ١١٤)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٢٦١)، نظم الدرر: (٣/ ٥٧٦)، روح المعاني: (١٢/ ١٣٧-١٣٨)، في ظلال القرآن: (٤/ ١٩٢٩)، الفوائد: (ص: ١٦٧).

بها(١)، لكن المنتفعين بتلك الآية على الحقيقة، بحيث تتم لهم بها العبرة، وتتأكد العظة، هم ذوو القلوب الرقيقة الوجلة من ربها سبحانه، الخائفة من أليم عذابه.(٢)

ومثل هذا المعنى جاء أيضًا في سياق خبر فرعون وإهلاكه، إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦].

والمقصود أن الذي يخشى الله تعالى ويخافه هو الذي ينتفع بذلك الخبر، فيعتبر وينزجر، ويبتعد عن أسباب الهلاك.(٣)

يقول صاحب الظلال: (فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه، أما الذي لا يعرف قلبه التقوى، فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب).(٤)

والقلب يحيا بعبودية الله سبحانه، وكلما تنقل في منازلها نمت حياته، واتسعت دائرة وعيه واتعاظه بما يرد عليه من الدلائل والآيات، وأصبح محلًا قابلا للذكرى، ينتفع بها ويتأثر ويتذكر، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٧/ ٢).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٠٥)، تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ٢١٩)، تفسير القرطبي: (١٧/ ٣٣)، تفسير النسفي: (٣/ ٤١٩)، نظم الدرر: (٧/ ٢١٨)، تفسير أبي السعود: (٨/ ١٤١).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٤٣)، تفسير السعدي: (٥/ ٣٦٨).

(٤) في ظلال القرآن: (٦/ ٣٨١٦).

ذَٰلِكَ [1] لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [2]﴾[ق: ٣٧].

والمراد: (القلب الحي الذي يعقل عن الله) كما قال ابن القيم[3]، وهو مروي عن قتادة.[4]

(فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر).[5]

والمقصود[6] أن من كان له قلب مشتمل على حياة، فإن له حظًا من التذكر والتأثر بالآيات، والانتفاع بمواعظها، أما المحروم من ذلك فهو ميت القلب، ليس له من الاتعاظ والذكرى نصيب، وهو والعدم سواء.

---

(١) الإشارة إلى ما تقدم في السورة الكريمة من الدلائل والمواعظ. انظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ١٧)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٢٤)، الفوائد: (ص: ٢٣)، وذكر بعض المفسرين أن الإشارة إلى ما اشتملت عليه الآية السابقة على هذه الآية، من إهلاك المكذبين في الأمم الماضية. انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٧)، تفسير ابن عطية: (٥/ ١٦)، زاد المسير: (٧/ ٢٠٠).

(٢) قال ابن قتيبة في معنى ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: (استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه) تفسير غريب القرآن: (ص: ٤١٩).

(٣) الفوائد: (ص: ٢٣)، وانظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٦٥)، فتح الرحمن: (ص: ٣٢٤).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٧).

(٥) الفوائد: (ص: ٢٤).

(٦) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ١٦٧)، تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ١٨٢ – ١٨٣)، نظم الدرر: (٧/ ٢٦٤)، مدارج السالكين: (١/ ٣٣٥ – ٣٣٦).

عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم

رسالة دكتوراه

إعداد

د. عبدالرحمن بن محمد البرادعي

قسم الدراسات القرآنية في جامعة أم القرى ـ كلية المعلمين سابقاً

المجلد الثاني

دار طيبة الخضراء

مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

الطَّبعة الثانية

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

دار طيبة الخضراء

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٥٥٨٩٠٢٧ - فاكس: ٥٥٨٩٧٨٠ - ص.ب: ٦٩٥٨

الباب الثالث:

أنواع القلوب وأوصافها في القرآن الكريم.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: القلوب الصحيحة.

الفصل الثاني: القلوب الميتة.

الفصل الثالث: القلوب المريضة.

الفصل الأول:

القلـوب الصحيـحة

ويشتمل على سبعة مباحث:

المبحث الأول: القلوب السليمة.

المبحث الثاني: القلوب المطمئنة.

المبحث الثالث: القلوب الوجلـة.

المبحث الرابع: القلوب المخبتة.

المبحث الخامس: القلوب المنيبة.

المبحث السادس: القلوب اللينـة.

المبحث السابع: القلوب المربوط عليها.

المبحث الأول

القلوب السليمة

لفظ السلامة يعني البراءة من العيوب، والتعرّي من الآفات، وهو بهذا المعنى مرادف للفظ الصحة والعافية.(١)

وقد ورد وصف القلب بالسلامة في آيتين كريمتين:

الأولى: تتضمن ثناء على نبي الله إبراهيم ﷺ، إذ وصفه الله جل وعلا بسلامة القلب فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣ - ٨٤].

والثانية: على لسان إبراهيم ﷺ، يدعو ربه جل وعلا: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ۝٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩].

وللمفسرين في المراد بسلامة القلب أقوال(٢)، يمكن عودها إلى قولين رئيسين:

القول الأول: أن المراد سلامة القلب من الكفر والشرك، وخلوصه من الشكوك المؤثرة في جناب التوحيد وقضايا الإيمان.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٦٥)، المفردات: (ص: ٢٤٥)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٢٥٢).

(٢) انظر: زاد المسير: (٦/ ٤٢).

وذلك باعتبار أن المعاصي والذنوب لا يكاد ينجو منها أحد.(١)

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: (شهادة أن لا إله إلا الله).(٢)

وعن قتادة قال: (سليم من الشرك)(٣)، وبمثله عن الحسن ومجاهد والسدي.(٤)

وعن مجاهد قال: (ليس فيه شك).(٥)

وعن ابن زيد قال: (سليم من الشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد).(٦)

وعن ابن سيرين(٧) أنه سئل: ما القلب السليم؟ فقال: (أن يعلم أن الله

---

(١) انظر: تفسير السمعاني: (٤/ ٥٥)، تفسير البغوي: (٣/ ٣٩٠)، تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨).
(٢) تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٨٣)، الدر المنثور: (٦/ ٣٠٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٩، ٤/ ١٢)، فتح القدير: (٤/ ١٠٩)، الزهد: (ص: ٢٦).
(٣) تفسير الطبري: (١٩/ ٨٧-٢٣/ ٧٠)، تفسير الصنعاني: (٣/ ٧٤، ١٥٠)، الدر المنثور: (٦/ ٣٠٨-٧/ ١٠٠)، تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨).
(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٧٠)، تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٨٣)، الدر المنثور: (٦/ ٣٠٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٩، ٤/ ١٢).
(٥) تفسير الطبري: (١٩/ ٨٧، ٢٣/ ٧٠)، تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٨٣، ١٠/ ٣٢١٩)، الدر المنثور: (٧/ ١٠٠).
(٦) تفسير الطبري: (١٩/ ٨٧)، تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٨٣)، وانظر: تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨).
(٧) هو محمد بن سيرين، أبو بكر الأنصاري البصري، مولى أنس بن مالك رضي الله عنه، تابعي ثقة، إمام في التفسير والحديث والفقه وتعبير الرؤيا، معروف بالزهد والورع، توفي سنة عشر ومائة. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ١٥٢ - ١٥٤)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٤٤٩ - ٣٤٥٣).

حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور).(١)

وهذا القول أيضًا هو قول جماعة من المفسرين منهم ابن جرير(٢)، وابن قتيبة(٣)، والواحدي(٤)، والسمعاني(٥)، والبغوي(٦)، ونسبه القرطبي والسمعاني إلى أكثر المفسرين.(٧)

القول الثاني: أن المراد سلامة القلب من آفات الكفر وأدناس المعصية.

وهو قول الزمخشري(٨)، وابن عطية(٩)، وابن العربي(١٠)، والرازي(١١)، والبيضاوي(١٢)، وابن الجوزي(١٣)، وأبي حيان(١٤)، وابن القيم(١٥)، وغيرهم.(١٦)

---

(١) تفسير الطبري: (١٩/ ٨٧)، تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٨٣)، الدر المنثور: (٦/ ٣٠٨)، تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٩، ٤/ ١٢).
(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٩/ ٨٧، ٢٣/ ٦٩).
(٣) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٣١٨).
(٤) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٧٩١، ٩١١).
(٥) انظر: تفسير السمعاني: (٤/ ٤٠٣).
(٦) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٣٩٠، ٤/ ٣٠).
(٧) تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨)، تفسير السمعاني: (٤/ ٥٥)، وانظر: تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٩).
(٨) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ٣٢٦، ٤/ ٥٠).
(٩) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ٢٣٥، ٤/ ٤٧٨).
(١٠) انظر: أحكام القرآن: (٣/ ١٤٣٧).
(١١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٥١).
(١٢) انظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ١٥٨ - ١٥٩).
(١٣) انظر: زاد المسير: (٦/ ٣٠٠).
(١٤) انظر: تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢٧، ٧/ ٣٦٥).
(١٥) انظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٤١ - ٤٣).
(١٦) انظر: تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨)، نظم الدرر: (٥/ ٣٧١)، تفسير أبي السعود: (٧/ ١٩٧)،=

والفرق بين القولين أن الأول يتّجه إلى الخصوص، بينما يتجه القول الثاني إلى العموم.

وهذا القول الذي يعتمد التعميم هو الذي يترجّح - والعلم عند الله تعالى - إذ أن وصف القلب بالسلامة في الآيتين مطلق لا قيد فيه، فيبقى على إطلاقه، ليشمل البراءة من أمراض القلب المتعلقة بالشكوك الكفرية، والآفات الشركية، كما يشمل الطهارة مما دون ذلك من الأمراض والنقائص التي تعتري القلب، كالكبر والحسد وشهوة المعصية والفجور.

ولذا قال الزمخشري: (ولا معنى للتخصيص، لأنه مطلق، فليس بعض الآفات أولى من بعض، فيتناولها كلها)[١]، وكذا قال أبو حيان.[٢]

ونقل القرطبي قول الضحاك في تفسير القلب السليم بالخالص[٣] ثم قال: (وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه، وهو حسن، أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة، والله أعلم).[٤]

= روح المعاني: (٢٣/ ١٠٠)، الشفا: (٢/ ٤٦٨)، شجرة المعارف والأحوال: (ص: ٨٠)، وانظر: قول عروة بن الزبير في تأويل الآية في تفسير الطبري: (٢٣/ ٧٠)، تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٨٤)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٤٧٨)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٦٢)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٢).

(١) تفسير الزمخشري: (٤/ ٥٠).

(٢) تفسير البحر المحيط: (٧/ ٣٦٥)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ١٤٦).

(٣) روى ابن جرير عن الضحاك في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: هو الخالص. تفسير الطبري: (١٩/ ٨٧).

(٤) تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨).

ومع أن سلامة القلب من الكفر والشرك تأتي في المقام الأول، وهي الأعظم والأهمّ، لكن لفظ (القلب السليم) في معناه العام يراد به السالم الذي ثبتت له صفة السلامة[١]، ويقابله القلب المريض الذي أصابه السقم واجتاحته العلل، وتلك دائرة واسعة تحتمل الكفر، كما تحتمل ما دون ذلك من العلل والأدواء.

ولذا قال ابن العربي تعليقًا على القول بالتخصيص: (والذي عندي أنه لا يكون القلب سليمًا إذا كان حقودًا حسودًا معجبًا متكبرًا).[٢]

يقول ابن القيم: (اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله ﷺ)[٣] ثم قال في نهاية كلامه: (وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص، وهوى يعارض الاتباع، فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة).[٤]

هذا القول بالتعميم في معنى القلب السليم غير متعارض مع المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

(١) انظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٤١).

(٢) أحكام القرآن: (٣/ ١٤٣٧).

(٣) إغاثة اللهفان: (١/ ٤١)، وانظر: مدارج السالكين: (٢/ ٦٠، ٣/ ٣٨١).

(٤) إغاثة اللهفان: (١/ ٤٣)، وانظر: الروح: (ص: ٣٠٢).

بـ (شهادة أن لا إله إلا الله)، إذ أن القلب حين يتألّه الله جل شأنه، ويعبده ويتوجه إليه وحده لا شريك له، فإن ذلك يستلزم سلامته من إرادة ما يبغضه سبحانه من سائر الآثام والذنوب.

ولذا قال ابن تيمية في معنى القلب السليم: (هو سلامة القلب من الاعتقادات الفاسدة، والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك).(١)

ولشدّة حاجة المؤمن إلى سلامة القلب كان من دعاء رسول الله ﷺ الذي علمه أصحابه رضوان الله عليهم سؤال الله جل وعلا: [قلبًا سليمًا ولسانًا صادقًا].(٢)

قال ابن رجب في بيان المقصود من سلامة القلب في الحديث: (القلب السليم هو السالم من الآفات والمكروهات كلها، وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة الله وما يحبه الله، وخشية الله، وخشية ما يباعد منه).(٣)

وقال المناوي: (أي خاليًا من العقائد الفاسدة والميل إلى اللذات والشهوات العاجلة، ويتبع ذلك الأعمال الصالحة، إذ من علامة سلامة

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٣٣٧).

(٢)رواه الترمذي من حديث شداد بن أوس ﷺ في كتاب الدعوات، باب ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام: (٥/ ٤٧٦)، والنسائي ـ واللفظ له ـ في كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر: (٣/ ٥٤)، وأحمد في المسند: (٤/ ١٢٣)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٦٨٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٤٨١).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١١).

القلب تأثيرها في الجوارح).(١)

وقال الشوكاني: (أي غير عليل بكدر المعصية، ولا مريض بالاشتمال على الغل، والانطواء على الإحن(٢)).(٣)

وكلام هؤلاء الأئمة في تفسير القلب السليم هنا يعمّ الوجهين المذكورين في تفسير القلب السليم في الآيتين الكريمتين، أي صفاء القلب من الشرك، ونقاؤه مما دون ذلك مما يبغضه الله ولا يرضاه جل شأنه.

وقد وصف رسول الله ﷺ قلب المؤمن بأنه: [قلب أجرد] وهو وصف قريب الصلة بوصف السلامة.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه مثل السراج يزهر] وفيه: [فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراجه فيه نوره].(٤)

---

(١) فيض القدير: (٢/ ١٣١).

(٢) الإحن: بكسر الهمزة وفتح الحاء: الأحقاد، جمع إحنة بكسر الهمزة وسكون الحاء. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٧).

(٣) نيل الأوطار: (٢/ ٣٣٣).

(٤) رواه أحمد في المسند: (٣/ ١٧)، قال ابن كثير في تفسيره: (١/ ٥٧) (هذا إسناد جيد حسن)، وانظر: (٣/ ٢٩٣)، وجوّد السيوطي إسناده كذلك في الدر المنثور: (١/ ٢١٥)، ورواه الطبراني كما في مجمع الزوائد: (١/ ٢٣١)، قال الهيثمي: (وفي إسناده ليث بن أبي سُليم) قال العراقي: (مختلف فيه)، المغني: الإحياء: (١/ ١٧٣)، وضعفه الألباني مرفوعًا، إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨) (الهامش)، وصححه من حديث حذيفة ﷺ بنحوه موقوفًا عليه، وحديث حذيفة رواه ابن جرير في تفسيره: (١/ ٤٠٦)، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٢٠٥)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ٢٧٦)، وغيرهم.انظر: الدر المنثور: (١/ ٢١٤)، وصححه ابن القيم في إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨).

قال ابن الأثير: (أي ليس فيه غل ولا غش، فهو على أصل الفطرة، فنور الإيمان فيه يزهر).(١)

ففي الحديث الشريف دلالة على أمرين متعلقين بقلب المؤمن:

أولهما: التجرد، وهذا اللفظ في أصله اللغوي يدل على تخلية(٢)، لكنها في الاتجاه الإيجابي الممدوح، إذ هي تخلية عن الشر، وتجرد عن الباطل، والمقصود سلامة القلب من الشبهات المضللة، والشهوات المفسدة.

وثانيهما: الإزهار، وهو لفظ يدل أصله في اللغة على الحسن والضياء والصفاء(٣)، كما أن لفظ السراج يتضمن أيضًا معنى الحسن والضياء والزينة والجمال(٤)، والمراد استنارة القلب بما يستقر فيه من قوة الإيمان وصدق اليقين، وهو المعبّر عنه في الحديث بالسراج.(٥)

يقول ابن القيم: (قوله [قلب أجرد] أي متجرد عما سوى الله ورسوله، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق، [فيه سراج يزهر] وهو مصباح الإيمان: فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي، وبحصول

(١) النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٥٦).

(٢) قال أهل اللغة: ارض جرداء أي لا نبات فيها ولا يسترها شيء، وتجرد عن الثياب: تعرّى عنها. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٦٥)، ترتيب القاموس: (١/ ٤٧٠).

(٣) انظر: مقاييس اللغة: (٤٤١).

(٤) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٩٣).

(٥) انظر: نوادر الأصول: (١/ ٢٧٦).

السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان).(١)

هذا القلب المتّسم بالسلامة والتجرد والنقاء يؤهل صاحبه لشرف المنزلة وعلو المكانة والمرتبة.

عن عبدالله بن عمرو ﷺ قال: [قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: [كل مخموم القلب، صدوق اللسان] قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: [هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد].(٢)

وتفسير رسول الله ﷺ للقلب المخموم(٣) واضح بيّن، يقرر معنى القلب الأجرد ويؤكده ويزيده كشفًا وبيانًا.

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨).

(٢) رواه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب الورع والتقوى: (٢/ ١٤٠٩ - ١٤١٠)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ١٨٣)، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب: (٣/ ٥٥١)، والألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٣٧).

(٣) أصل الخمّ التنقية، والمخموم الذي حصل له ذلك، ولذا يقال خمّ البيت: أي كنسه. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٢٨٧)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ١١١)، غريب الحديث لابن قتيبة: (٣/ ٧٣٠)، شرح السيوطي على ابن ماجة: (١/ ٣١١).

المبحث الثاني

القلوب المطمئنة

الطمأنينة والاطمئنان مصدران للفعل: اطمأن.

يقال: اطمأن الرجل أي سكن، وطمأنته: أي سكّنته، واطمأنت الأرض: أي انخفضت.(١)

قال الراغب: (الطمأنينة والاطمئنان: السكون بعد الانزعاج).(٢)

ومن ثَمّ فإن اطمئنان القلوب يعني سكونها، وسلامتها من الاضطراب.

قال ابن القيم: (الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه).(٣)

وقد أسند الاطمئنان إلى القلوب في عدة مواضع من كتاب الله العزيز.

١. يقول الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

تقرر الآية الكريمة أن الطمأنينة تحصل للمؤمنين بسبب ذكر الله

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٥٩٩)، لسان العرب: (٤/ ٢٧٠٧).

(٢) المفردات: (ص: ٣١٠)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٥١٦).

(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٤)، وانظر: الآداب الشرعية: (٣/ ١١٣).

سبحانه، فتسكن قلوبهم وترضى، وتستأنس وتسرّ، بما يستقر فيها من الإيمان، ويثبت من اليقين، وفي المقابل ينتفي عنها القلق، ويزول الاضطراب.(١)

عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: (سكنت إلى ذكر الله واستأنست به).(٢)

يقول الألوسي: (إن سبب الطمأنينة نور يفيضه الله تعالى على قلوب المؤمنين بسبب ذكره، فيذهب ما فيها من القلق والوحشة ونحو ذلك).(٣)

ولا ريب أن المؤمن كلما كان متصلًا بذكر الله تعالى، متعلقًا بكلامه جل وعلا، متأثرًا بما يتضمنه من الهدى، فإنه يصل في منزلة الطمأنينة إلى مرتبة عالية(٤)، يجد فيها قلبه راحة وسكونًا، وأنسًا وسرورًا، إذ القلوب مفطورة على (أنه ليس في محبوباتها ومرادها ما تطمئن إليه إلا الله وحده).(٥)

وفي المراد بذكر الله في الآية عبارات للمفسرين مرجعها إلى قولين(٦):

(١) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٢٢٦)، تفسير السمعاني: (٣/ ٩٢)، تفسير البغوي: (٣/ ١٧)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣١١)، تفسير النسفي: (٢/ ١٤٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥١٢).

(٢) تفسير الطبري: (١٣/ ١٤٥)، الدر المنثور: (٤/ ٦٤٢).

(٣) روح المعاني: (١٣/ ١٥٠).

(٤) انظر درجات الطمأنينة في مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٧ - ٤١١).

(٥) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٢)، وانظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ٦١)، الروح: (ص: ٢٧٥ - ٢٧٨).

(٦) ذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير: (٤/ ٢٤١)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٢/ ٤٩٧)، تفسير القرطبي: (٩/ ٢٠٧)، روح المعاني: (١٣/ ١٤٩).

الأول: أن المراد ذكر الله مطلقًا.(١)

الثاني: أن المراد بالذكر هنا القرآن.(٢)

والقول الأول يشمل الثاني ويتضمنه، إذ القرآن أفضل الذكر وأعلاه.

لكن ابن القيم اختار القول الثاني فقال: (وفي ذكر الله ها هنا قولان:

أحدهما: أنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله.

والقول الثاني: أن ذكر الله ههنا القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، وبه طمأنينة قلوب المؤمنين، فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به، وهذا القول هو المختار).(٣)

وقد تكرر الفعل (تطمئن) مسندًا إلى القلوب في الآية الكريمة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ تأكيدًا لمضمونها، وحضًا على الإيمان،

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٣/ ١٤٥)، تفسير الواحدي: (١/ ٥٧٢)، تفسير السمعاني: (٣/ ٩٢)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣١١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥١٢).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ١٧)، تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٠)، روح المعاني: (١٣/ ١٤٩)، تفسير ابن عاشور: (١٣/ ١٣٧).

(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٥) مختصرًا.

وحثًا على ذكر الله تعالى.

قال ابن عاشور: (واختير المضارع في ﴿تَطۡمَئِنُّ﴾ مرتين للدلالة على تجدد الاطمئنان واستمراره، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد).(١)

٢. يقول الله جل وعلا:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

٣. ويقول تبارك وتعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

والآيتان الكريمتان في قصة بدر(٢)، حين أمدّ الله تعالى رسوله ﷺ بجند من الملائكة عليهم السلام.

والضمير في قوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ يعود إلى ذلك الإمداد الإلهي.(٣)

(١) تفسير ابن عاشور: (١٣/ ١٣٨)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٠)، روح المعاني: (١٣/ ١٤٩)، تفسير القاسمي: (٩/ ٣٦٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٤/ ٧٦)، زاد المسير: (٢/ ٢٤)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٠١)، دلائل النبوة: (٣/ ٧٩ - ٨١)، السيرة النبوية لابن هشام: (٢/ ٢٠٧).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٣)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ١٣٤)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٣٤)، تفسير الزمخشري: (١/ ٤٤٠، ٢/ ١٩٢)، تفسير الفخر الرازي: (٨/ ٢٣٠)، زاد المسير: (٢/ ٢٦)، نظم الدرر: (٢/ ١٥٠).

والمراد أن الله تبارك وتعالى جعل إمداد عباده المؤمنين بالملائكة لأجل أمرين:

أولهما: البشارة للمؤمنين بنصر الله جل شأنه.

والثاني: تحقيق الطمأنينة في قلوب المؤمنين، فتستقر وتقوى، وتطيب وتسكن إلى وعد الله سبحانه، وتوقن به فتثبت، وينتفي عنها الجزع والفزع من عدوها وعدده وعدّته.(١)

وكما طمأن الله قلوب المؤمنين، فقد ألقى جل شأنه الرعب في قلوب أعدائهم من المشركين واليهود.

يقول الله سبحانه:

﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

والآيتان في المشركين، الأولى منهما في شأنهم يوم بدر.(٢)

والثانية في حالهم بعد غزوة أحد.(٣)

(١) انظر: تفسير الطبري: (٤/ ٨٤، ٩/ ١٩٢ - ١٩٣)، تفسير السمرقندي: (١/ ٢٦٩، ٢/ ١٠)، تفسير السمعاني: (٢/ ٢٥١)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥٠٥)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٠٢)، نظم الدرر: (٣/ ١٩١)، إملاء ما منّ به الرحمن: (١/ ١٤٩)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٨٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٩٧ - ١٩٨)، زاد المسير: (٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤)، دلائل النبوة: (٣/ ٨٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٤/ ١٢٤)، زاد المسير: (٢/ ٣٩)، فتح القدير: (١/ ٣٩٣)، دلائل النبوة: (٣/ ٣١٢ - ٣١٧)، أسباب النزول: (ص: ١٠٦ - ١٠٧).

ويقول عز وجل:

﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢].

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وهاتان الآيتان في شأن اليهود، الأولى منهما في يهود بني النضير[1]، والثانية في يهود بني قريظة.[2]

والرعب هو شدة الخوف.[3]

قال الراغب: (الرعب: الانقطاع من امتلاء الخوف).[4]

والمراد أن الله تعالى ملأ قلوبهم فرقًا وفزعًا.

وقد عبرت بعض هذه الآيات بإلقاء الرعب، وبعضها الآخر بقذف

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٨/ ٢٧ – ٢٩)، زاد المسير: (٧/ ٣٣١ – ٣٣٢)، فتح القدير: (٥/ ٢٠١-٢٠٢)، دلائل النبوة: (٣/ ٣٥٤ – ٣٥٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢١/ ١٥٠ – ١٥٤)، زاد المسير: (٦/ ١٩٣ – ١٩٤)، فتح القدير: (٤/ ٢٧٤-٢٧٥)، دلائل النبوة: (٤/ ٩ – ١٥).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٣٣)، لسان العرب: (٣/ ١٦٦٧)، تفسير الطبري: (٤/ ١٢٤).

(٤) المفردات: (ص: ٣٠٢)، وانظر: مقاييس اللغة: (ص: ٣٨٩ – ٣٩٠)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٨٦).

الرعب، والمعنى متقارب، والمقصود إثبات الخوف في القلوب.[1]

٤. يقول الله جل وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

والآية الكريمة تذكر أن نبي الله إبراهيم ﷺ طلب من ربه ﷻ تمكينه من رؤية كيفية إحياء الموتى، وأنه عليه السلام علل ذلك الطلب بتحقيق الاطمئنان القلبي.

فهل كان إبراهيم عليه السلام في حال شك حتى يبحث عن اليقين المستلزم للاطمئنان؟

والجواب بلا ريب أن الخليل عليه السلام لم يكن شاكًا، بل كان موقنًا بقدرة الله سبحانه على كل شيء، ومن ذلك إحياء الموتى.

لكنه ﷺ كان يرغب في زيادة الإيمان واليقين وسكون القلب، وذلك بالرؤية المباشرة، فينتقل من علم اليقين بالخبر والاستدلال، إلى عين اليقين[2] بالمعاينة والشهود، والنفوس تتطلع ـ عادة ـ إلى مشاهدة ما يردُها عن طريق

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٩٨، ٢١/ ١٥٤)، زاد المسير: (٢/ ٣٩)، نظم الدرر: (٧/ ٥١٢)، فتح القدير: (٥/ ٢٠٢).

(٢) انظر في علم اليقين وعين اليقين: التعريفات للمناوي: (ص: ٢٠١، ٢٠٦)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ٦٤٥-٦٤٦)، مدارج السالكين: (١/ ٣٥٩).

الخبر والسماع(١)، وحينئذ يكون تصور المخبر به أقوى، والتصديق به أعظم وأكمل.(٢)

عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: (لأزداد إيمانا مع إيماني).(٣)

---

(١) انظر: تفسير السمعاني: (١/ ٢٦٦)، تفسير ابن عطية: (١/ ٣٥٢)، الشفا: (٢/ ٤٥٩ – ٤٦٠)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣١٥)، نظم الدرر: (١/ ٥١٣)، تفسير المنار: (٣/ ٥٣ – ٥٤)، تفسير القاسمي: (٣/ ٣٣١)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٨٤)، شرح سنن ابن ماجة: (١/ ٢٩١).

وقد رجح ابن جرير أن سؤال إبراهيم عليه السلام مبني على شك سببه عارض شيطاني لم يستقر ولم يؤثر في ثبات الإيمان، فسأل رؤية كيفية الإحياء لإزالة ذلك الإلقاء الشيطاني.

انظر: تفسير الطبري: (٣/ ٤٩ – ٥٠).

وقد ردّ عليه ابن عطية بقوله: (وما ترجم به الطبري عندي مردود، وما أدخل تحت الترجمة متأوّل) وأثناء تفصيل الرد قال: (فالشك يبعد على من تثبت قدمه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخلّة، والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعًا) انظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٣٥٢ – ٣٥٣).

ونقل القرطبي رد ابن عطية ثم قال: (هذا ما ذكره ابن عطية، وهو بالغ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث، وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل..) انظر: تفسير القرطبي: (١٩٣ – ١٩٥)، تفسير القاسمي: (٣/ ٣٣٢ – ٣٣٤).

(٢) انظر: الإيمان: (ص: ٢٢١ – ٢٢٢)، شرح الطحاوية: (ص: ٣١٢ – ٣١٣).

(٣) تفسير الطبري: (٣/ ٥١)، شعب الإيمان: (١/ ٧٩)، الدر المنثور: (٢/ ٣٤)، فتح الباري: (١/ ٩٦).

وعن قتادة قال: (أراد نبي الله إبّراهيم: ليزداد يقينا إلى يقينه).(١)

ونحو ذلك عن الربيع بن أنس والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم.(٢)

وعن الحسن قال: (إن كان إبراهيم لموقنًا أن الله يحي الموتى، ولكن لا يكون الخبر كالعيان).(٣)

قال ابن قتيبة: (تأويل قول إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي يطمئن بيقين النظر، واليقين جنسان: أحدهما يقين السمع، والآخر يقين البصر، ويقين البصر أعلى اليقينين، فأراد إبراهيم عليه السلام أن يطمئن قلبه بالنظر الذي هو أعلى اليقينين).(٤)

قال البغوي: (﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي ليسكن قلبي إلى المعاينة والمشاهدة).(٥)

وقال ابن حجر: (أي ليزيد سكونًا بالمشاهدة المنضمة إلى اعتقاد القلب، لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب، وكأنه قال: أنا مصدق، ولكن

---

(١) تفسير الطبري: (٣/ ٥٠)، تفسير الصنعاني: (١/ ١٠٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ٥٠ – ٥١)، تفسير ابن أبي حاتم: (٢/ ٥٠٩ – ٥١٠)، شعب الإيمان: (١/ ٧٩)، تفسير السمعاني: (١/ ٢٦٦)، تفسير القرطبي: (٣/ ١٩٣، ١٩٥)، فتح الباري: (١/ ٩٦).

(٣) الدر المنثور: (٢/ ٣٦)، وانظر: تاريخ دمشق: (٦/ ٢٣٢).

(٤) تأويل مختلف الحديث: (ص: ٩٧ – ٩٨) (مع حذف يسير).

(٥) تفسير البغوي: (١/ ٢٤٧)، وانظر: (١/ ٢٤٨).

للعيان لطيف معنى).[1]

وقال القرطبي: (إنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها، وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين).[2]

وقال ابن القيم: (طلب إبراهيم ﷺ أن يكون اليقين عيانًا، والمعلوم مشاهدًا).[3]

وفي الآية الكريمة ما يدلّ على أن طلبه عليه الصلاة والسلام لم يصدر عن شك.

من ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فإن السؤال لم يكن عن ذات الإحياء، وإنما عن كيفيته.[4]

قال ابن عطية: (وإذا تأملت سؤاله ﷺ وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكًا، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول، وكيف في هذه الآية إنما هو استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر).[5]

---

(١) فتح الباري: (١٣/ ١٥٩).

(٢) تفسير القرطبي: (٣/ ١٩٥).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٣٥٨)، وانظر: الداء والدواء: (ص: ١٠٨ – ١٠٩).

(٤) انظر: زاد المسير: (١/ ٢٧٣)، نظم الدرر: (١/ ٥٠٩).

(٥) تفسير ابن عطية: (١/ ٣٥٣) (مع حذف يسير)، وانظر: (فتح الباري: (١٣/ ١٥٩).

وأيضًا فإن الاستفهام التقريري في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ينفي الشك عن إبراهيم ﷺ، والمعنى: لم تسأل والحال أنك مؤمن بالله تعالى، مصدق بقدرته على الإحياء.

قال البغوي: (معناه قد آمنت فلم تسأل، شهد له بالإيمان).[1]

والمقصود تقرير أن طلب الخليل ﷺ من ربه سبحانه رؤية كيفية إحياء الموتى لا يقتضي أن يسبق ذلك منه نقص في الاطمئنان أو ضعف في اليقين.[2]

وأما حديث رسول الله ﷺ: [نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾][3]، فإنه لا يثبت الشك لإبراهيم ﷺ، بل ينفيه عنه.[4]

قال ابن قتيبة: (قال رسول الله ﷺ: أنا أحق بالشك من أبي إبراهيم ﷺ تواضعًا منه، وتقديمًا لإبراهيم على نفسه، يريد أنا لم نشك ونحن دونه، فكيف يشك هو).[5]

---

(١) تفسير البغوي: (١/ ٢٤٨)، وانظر: تفسير السمعاني: (١/ ٢٦٥)، تفسير القرطبي: (١٣/ ١٩٥)، فتح الباري: (١٣/ ١٥٩).

(٢) انظر: اختلاف المفسرين: (ص: ٣٠٠ – ٣٠١).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب التفسير. باب ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: (٤/ ١٦٥٠)، ومسلم في كتاب الإيمان. باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة: (١/ ١٣٣).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٢٤٨)، تفسير ابن عطية: (١/ ٣٥٢)، الشفا: (٢/ ٤٦٠)، نظم الدرر: (١/ ٥١٣ – ٥١٤).

(٥) تأويل مختلف الحديث: (ص: ٩٧).

وقال النووي: (اختلف العلماء في معنى [نحن أحق بالشك من إبراهيم] على أقوال كثيرة، أحسنها وأصحها ما قاله أبو إبراهيم المزني[١] صاحب الشافعي وجماعات من العلماء: معناه أن الشك مستحيل في حق إبراهيم، فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقًا إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به من إبراهيم، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أن إبراهيم عليه السلام لم يشك).[٢]

---

(١) هو إسماعيل بن يحي بن إسماعيل، أبو إبراهيم المزني، بضم الميم وفتح الزاي، نسبة إلى قبيلة مزينة، من أهل مصر، إمام علامة، قوي الحجة، صاحب ورع وتعبّد وزهد، رأس في الفقه، ثقة في الحديث، تلميذ الإمام الشافعي وناشر مذهبه، من مصنفاته: المختصر، والجامع الكبير، توفي سنة أربع وستين ومائتين.
انظر: وفيات الأعيان: (١/ ٢١٧ – ٢١٩)، سير أعلام النبلاء: (١/ ١١٣٣ - ١١٣٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٨٣) قال: (وإنما خصّ إبراهيم ﷺ لكون الآية قد يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة منها احتمال الشك، وإنما رجّح إبراهيم على نفسه ﷺ تواضعًا وأدبًا، أو قبل أن يعلم ﷺ أنه خير ولد آدم) وانظر: فتح الباري: (١٣/ ١٥٨ - ١٥٩)، عمدة القاري: (١٨/ ١٢٨ - ١٢٩)، مدارج السالكين: (١/ ٣٥٨)، وقد أورد النووي قولًا آخر في معنى الحديث: (أن هذا الذي تظنونه شكًا أنا أولى به، فإنه ليس بشك وإنما هو طلب لمزيد اليقين).

شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٨٣)، وانظر: فتح الباري: (١٣/ ١٥)، عمدة القاري: (١٥/ ٢٦٧).

قال ابن كثير: (ليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف) تفسير ابن كثير: (١/ ٣١٥).

واعتبر بعض أهل العلم أن لفظ الشك الوارد في الحديث لا يراد به المعنى المعروف القادح في اليقين، وإنما عُبّر بالشك عما هو دون مرتبة العيان والمشاهدة. انظر: مدارج السالكين: (١/ ٣٥٨).

قال ابن القيم: (طلب ـ أي إبراهيم ﷺ ـ الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى إلى رؤية تحقيقه عيانًا، فطلب ـ بعد حصول العلم الذهني ـ تحقيق الوجود الخارجي، فإن رؤية ذلك أبلغ في طمأنينة القلب، ولما كان بين العلم والعيان منزلة أخرى، قال النبي ﷺ: [نحن أحق بالشك من إبراهيم] إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وإبراهيم لم يشك ﷺ، ورسول الله ﷺ لم يشك، ولكن أوقع اسم الشك على المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج). مدارج السالكين: (٣/ ٢٩٧)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٥/ ١٧٨، ٢٣/ ١١).

٥. يقول الله عز وجل:

﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: ١١٣].

والآية في سياق خبر نبي الله عيسى عليه السلام، حين طلب منه الحواريون[١] أن يسأل الله جل شأنه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، ولما عاتبهم عليه السلام على هذا المطلب أجابوه مبينين له مقاصدهم منه، وهو ما تضمنته هذه الآية الكريمة، ومن ذلك اطمئنان القلوب ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾.

والظاهر ـ كما ذكر كثير من المفسرين ـ أن سؤالهم هذا لم يكن على سبيل التعنت في طلب الآيات، ولا إنكارًا منهم لقدرة الله تبارك وتعالى، أو شكا في نبوة عيسى عليه السلام، بل كانوا مؤمنين بالله سبحانه وبرسوله عليه السلام.[٢]

قال البغوي: (لم يكونوا شاكين بقدرة الله ﷻ).[٣]

---

(١) هم أنصار عيسى عليه السلام، جمع حواري، وهو لفظ يطلق على الصديق والناصر. انظر: المفردات: (ص: ١٤٢)، المشوف المعلم: (١/ ٢٢١)، الصحاح: (٢/ ٦٣٩)، قال السجستاني: (الحواريون صفوة الأنبياء عليهم السلام الذين خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم ونصرتهم). غريب القرآن: (ص: ١٨٥)، وانظر: تفسير المنار: (٧/ ٢٤٨ - ٢٤٩).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٢٠ – ٢٢١)، تفسير الواحدي: (١/ ٣٤١ – ٣٤٢)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٥٩ - ٢٦٠)، زاد المسير: (٢/ ٣٣٨ - ٣٤٠)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٥٣)، تفسير القاسمي: (٦/ ٤٢٨ - ٤٢٩)، تفسير المنار: (٧/ ٢٥٠ - ٢٥٢)، تفسير السعدي: (١/ ٥٢٩ - ٥٣٠).

(٣) تفسير البغوي: (٢/ ٧٧)، وانظر: فتح الرحمن: (ص: ٩٠ـ ٩١)، تفسير ابن عاشور: (٦/ ١٠٥).

وعلى هذا فالمراد باطمئنان القلوب الذي قصدوا إليه هو زيادة إيمانها، وقوة يقينها، المستتبع لزيادة سكونها وثباتها وطمأنينتها.(١)

قال أبو السعود في تفسير الآية: (﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بكمال قدرته تعالى، وإن كنا مؤمنين به قبل، فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالي مما يوجب ازدياد الطمأنينة، وقوة اليقين).(٢)

وذكر القاسمي: (أن الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله ﷻ، معترفين بكمال قدرته، وسؤالهم ليس لإزاحة شك، بل ليحصل لهم مزيد الطمأنينة، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ولا شك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة في القلب، ولهذا السبب قالوا: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾).(٣)

٦. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

(١) انظر: تفسير الواحدي: (١/ ٣٤٢)، تفسير السمعاني: (٢/ ٨٠)، تفسير البغوي: (٢/ ٧٨)، تفسير النسفي: (١/ ٤٤٩).

(٢) تفسير أبي السعود: (٣/ ٩٧)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٦٠)، التسهيل: (١/ ١٩٤)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٥٥)، تفسير البيضاوي: (١/ ٢٨٩)، تفسير المنار: (٧/ ٢٥٢).

(٣) تفسير القاسمي: (٦/ ٤٢٩)، وانظر: تفسير السعدي: (١/ ٥٣٠).

تتضمن الآية الكريمة الوعيد الشديد لمن اختار الكفر بعد الإيمان، فارتد عن دين الله تعالى، وتستثني من ذلك من نطق بالكفر مكرهًا، دون إرادة منه أو اختيار.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية الكريمة قال: (أخبر الله سبحانه أنه من كفر من بعد إيمانه، فعليه غضب من الله، وله عذاب عظيم، فأما من أكره فتكلم به لسانه، وخالفه قلبه بالإيمان، لينجو بذلك من عدوه، فلا حرج عليه، لأن الله سبحانه إنما يأخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم).(١)

يقول ابن العربي: (الكافر المرتد هو الذي جرى بالكفر لسانه، مخبرًا عما انشرح به من الكفر صدره، فعليه من الله الغضب، وله العذاب الأليم، إلا من أكره، فمن تكلم بالكفر لسانه عن إكراه، ولم يعقد على ذلك قلبه، فإنه خارج عن هذا الحكم، معذور في الدنيا، مغفور له في الأخرى).(٢)

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه.(٣)

(١) تفسير الطبري: (١٤/ ١٨٢)، السنن الكبرى للبيهقي: (٨/ ٢٠٨)، الدر المنثور: (٥/ ١٧١).

(٢) أحكام القرآن: (٣/ ١١٧٧) (مع حذف يسير)، وانظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٨٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٨٧)، فتح الباري: (٢٦/ ١٥٠).

والاسم الموصول في أول الآية ﴿مَن﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، والاستثناء على هذا مقدّم. انظر: إملاء ما من به الرحمن: (ص: ٨٦)، تفسير الطبري: (١٤/ ١٨٠ - ١٨١)، روح المعاني: (١٤/ ٢٣٥)، تفسير ابن عاشور: (١٤/ ٨٩٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٨١ - ١٨٢)، تفسير السمعاني: (٣/ ٢٠٤)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٢٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٨٧)، نظم الدرر: (٤/ ٣١٤)، الدر المنثور: (٥/ ١٦٩ - ١٧١)، لباب النقول: (ص: ١٣٤).

قال أبو جعفر النحاس: (أهل التفسير على أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر ﵁).(١)

وذلك حين أخذه المشركون: (فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، ثم تركوه، فلما أتى رسول الله ﷺ قال: [ما وراءك؟] قال: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. قال: [كيف تجد قلبك] قال: مطمئنًا بالإيمان. قال: [إن عادوا فعد].(٢)

هذه الآية الكريمة وإن نزلت في سبب خاص لكن لفظها يعمّ.(٣)

يقول ابن العربي: (أما الكفر بالله فذلك جائز له - أي للمكره - بغير خلاف، على شرط أن يلفظ بلسانه وقلبه منشرح بالإيمان، فإن ساعد قلبه

(١) معاني القرآن: (٤/ ١٠٧)، وبمثله قال ابن عبد البر في الاستيعاب: (٣/ ١١٣٦)، وابن حجر في الإصابة: (٤/ ٤٧٤)، وانظر: تفسير القرطبي: (١٠/ ١١٨ - ١١٩)، فتح الباري: (٢٦/ ١٥٠).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى: (٨/ ٢٠٨)، من رواية أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه، والحاكم في المستدرك: (٢/ ٣٨٩) وصححه، ووافقه الذهبي.
قال ابن حجر: (إسناده صحيح إن كان محمد بن عمار سمعه من أبيه) الدراية في تخريج أحاديث الهداية: (٢/ ١٩٧)، وقال في الفتح: (٢٦/ ١٥٠) (هو مرسل ورجاله ثقات) وبعد أن ذكر عدة روايات قال: (وهذه المراسيل تقوى بعضها ببعض)، وانظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٨٢)، تفسير الصنعاني: (٢/ ٣٦٠)، طبقات ابن سعد: (٣/ ٢٤٩ - ٢٥٠)، حلية الأولياء: (١/ ١٤٠).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٢٢).

في الكفر لسانه كان آثمًا كافرًا، لأن الإكراه لا سلطان له في الباطن، وإنما سلطته على الظاهر).(١)

والمراد باطمئنان القلب في الآية الكريمة سكونه إلى الإيمان، وثباته عليه، ورضاه به.(٢)

قال الألوسي: (والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته، وأصل معنى الاطمئنان سكون بعد انزعاج، والمراد هنا السكون والثبات على ما كان عليه بعد إزعاج الإكراه).(٣)

ومن الألفاظ المقاربة للطمأنينة لفظ السكينة.

والسكينة في الأصل من السكون، وهو الثبوت بعد الحركة، وكل ما قرّ وهدأ فقد سكن، ومنه السكينة بمعنى الوقار.

والسكينة: الطمأنينة التي تسكن بها القلوب وتستقر.(٤)

يقول ابن القيم في بيان معنى السكينة: (أصل السكينة: هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة

(١) أحكام القرآن: (٣/ ١١٧٨)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٨٦) تفسير القرطبي: (١٠/ ١١٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٨٢)، زاد المسير: (٤/ ٣٦٢)، تفسير النسفي: (٢/ ٢٢٨)، تفسير أبي السعود: (٥/ ١٤٣).

(٣) روح المعاني: (١٤/ ٢٣٦)، وانظر: التعاريف للمناوي: (ص: ٣٨٥).

(٤) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٦٤)، المفردات: (ص: ٢٤٢)، الفائق: (١/ ٥٦)، لسان العرب: (٣/ ٢٠٥٢ - ٢٠٥٣)، التعريفات: (ص: ١٥٩).

المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات).(١)

فالسكينة والطمأنينة متقاربان ومتلازمان من حيث المعنى، وإن كانت الطمأنينة أعم.

قال ابن القيم: (الطمأنينة موجب السكينة، وأثر من آثارها، وكأنها نهاية السكينة).(٢)

(وكل منهما يستلزم الآخر ويقارنه، فالطمأنينة تستلزم السكينة ولا تفارقها، وكذلك بالعكس، لكن استلزام الطمأنينة للسكينة أقوى من استلزام السكينة للطمأنينة).(٣)

وقد ذكر صاحب المنازل(٤) وصاحب المدارج عددًا من الفوارق بين الطمأنينة والسكينة(٥)، ومن ذلك:

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٩٧)، وانظر: (٢/ ٤٠٠ - ٤٠١)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٢٣٧ - ٢٣٨).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٦)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (١٦/ ٢٢).

(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٧)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٥١٧).

(٤) هو عبد الله بن محمد بن علي، أبو إسماعيل الأنصاري الهروي، إمام قدوة حافظ، شيخ الإسلام، من ذرية أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، بارع في اللغة، آية في الوعظ، متمكن في التفسير، ناصر للسنة، من مصنفاته: منازل السائرين، توفي سنة إحدى وثمانين وأربع مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٥٠٧- ٢٥١١)، البداية والنهاية: (١٢/ ١٦٦).

(٥) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٦ - ٤٠٧).

أ - أن السكينة ثبات للقلب في أحوال الخوف والاضطراب، بسكونه وزوال قلقه، أما الطمأنينة فليست مرتبطة بحال الخوف فقط.

ب - أن الطمأنينة مقام دائم، أما السكينة فيمكن أن تكون كذلك، ويمكن أن تكون في وقت دون وقت.

ج - أن السكينة سكون للقلب من الانزعاج، يأمن فيه من الخوف، أما الطمأنينة فهي منزلة أعلى يحصل فيها الأنس بالإضافة إلى الأمن، ففيها قدر زائد على مجرد الأمن.

ومن هذه الفوارق يتضح أن الطمأنينة أعم والعلم عند الله تعالى.

وقد امتن الله تبارك وتعالى على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم فقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

والآية الكريمة في شأن يوم الحديبية(١)، لما صدّ المشركون رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين عن دخول مكة معتمرين، وما تبع ذلك من الصلح المشتمل على بنود كان في ظاهرها هضم لحق المسلمين.

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: (ص: ٤٨١) وما بعدها، والحديبية بضم الحاء وفتح الدال، وبتخفيف الياء وتشديدها، وجهان عند أهل اللغة والحديث. وهي قرية سميت ببئر هناك، بين مكة وجدة، أقرب إلى مكة من جهة الشمال الغربي. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ١١٠ - ١١١).

يخبر الله سبحانه في هذه الآية أنه جل وعلا أنزل السكينة في قلوب المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فثبتت بعد اضطراب، وسكنت بعد انزعاج، واستقرت بعد قلق.

وعامة المفسرين[1] على أن السكينة في الآية بمعنى الطمأنينة والسكون إلى أمر الله ورسوله، فثبت بها الصحابة ﷺ على الإيمان بالله، وسلّموا لقضائه، وانقادوا لحكم رسول الله ﷺ، وهدأت نفوسهم إلى الحق معه عليه الصلاة والسلام.

وكانت ثمرة تلك السكينة زيادة في إيمانهم، ونماء في يقينهم ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

قال الشوكاني: (أي ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيمانًا منضمًا إلى إيمانهم الحاصل لهم من قبل).[2]

يقول السعدي في تفسير الآية: (يخبر تعالى عن منته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٤١٢)، تفسير الطبري: (٢٦/ ٧١)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٢٩٦)، تفسير البغوي: (٤/ ١٨٩)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٣٦)، التسهيل: (٤/ ٥١)، زاد المسير: (٧/ ١٦٢)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٧٥)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٠٧)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٩٠).

(٢) فتح القدير: (٥/ ٤٧)، وانظر: تفسير النسفي: (٣/ ٣٧٦)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٨٤)، تفسير أبي السعود: (٨/ ١٠٥)، روح المعاني: (٢٦/ ٩٢)، تفسير القاسمي: (١٥/ ٦٧).

المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال، أن يثبته، ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات، بقلب ثابت، ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه ويتم إيقانه.

فالصحابة ﷺ لما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين من تلك الشروط، التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها، ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيمانًا مع إيمانهم).[1]

(١) تفسير السعدي: (٥/ ٤٤)، وانظر: نظم الدرر: (٧/ ١٨٨)، في ظلال القرآن: (٦/ ٣٣١٨ - ٣٣١٩).

المبحث الثالث

القلوب الوجلة

الوَجَل مصدر للفعل وَجِل، يَوْجَل. ووجل القلوب ما يعتريها من مشاعر الخوف والفزع والفرق.(١)

قال الراغب: (الوجل استشعار الخوف).(٢)

وقد أُسند الوجل إلى القلوب ووصفت به في ثلاث آيات من كتاب الله سبحانه.

آيتان منهما تقرر أن القلوب المؤمنة يصيبها الوجل عند ذكر الله جل وعلا:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤ - ٣٥].

قال المفسرون: أي خافت وفرِقت وفزعت.(٣)

وقد روي هذا التفسير عن عدد من الصحابة والتابعين، كابن عباس ﭭ، ومجاهد، وقتادة.(٤)

---

(١) انظر: المشوف المعلم: (٢/ ٨١٧)، لسان العرب: (٦/ ٤٧٧٣).

(٢) المفردات: (ص: ٥٢٨)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٤٨)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٨٩).

(٣) انظر: غريب القرآن لليزيدي: (ص: ١٥٧)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٠)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ١٢٩)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٣١)، تفسير الزمخشري: (٢/ ١٨٥)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٥٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٧٩)، تفسير ابن أبي حاتم: (٥/ ١٦٥٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٨٥).

وعن السدي قال: (هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهمّ بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيجل قلبه).[1]

وكلام السدي هنا في تفسير الآية الكريمة يتضمن أن وجل القلب يكف صاحبه عن الظلم أو المعصية، ومن ثَمّ فإن عبارته تتجه إلى بيان بعض أنواع ذكر الله التي يجل لها القلب، كما أنها تحديد لصورة من صور الأثر العملي لوجل القلب من الرب تبارك وتعالى.

قال القرطبي: (﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت وحذرت مخالفته، فوصفهم بالخوف والوجل عند ذكره، وذلك لقوة يقينهم، ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه).[2]

وقال ابن كثير: (هذه صفة المؤمن، حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي خاف منه، ففعل أوامره وترك زواجره).[3]

وهذا التعريف للوجل بالخوف ـ كما يذكر بعض أهل العلم ـ هو من باب التقارب القوي في المعنى بينهما، وليس من باب الترادف المطلق.

إذ حال الوجل أقوى رتبة، وأعلى درجة، من حال الخوف، ولذا فالوجل أخصّ من الخوف.[4]

(١) تفسير ابن أبي حاتم: (٥/ ١٦٥٥)، وانظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٧٩)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٨٥)، الدر المنثور: (٤/ ١٢)، فتح القدير: (٢/ ٢٨٤).

(٢) تفسير القرطبي: (١٢/ ٤٠)، وانظر: (٧/ ٢٣٢)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٢).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٨٥).

(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز: (٥/ ١٦٥)، نظم الدرر: (٣/ ١٨٤، ٥/ ١٥٢، ٢٠٩)، تفسير المنار: (٩/ ٥٨٩)، ولذا يرى أبو هلال العسكري أن الوجل يتضمن معنى القلق والاضطراب. انظر: الفروق في اللغة: (ص: ٢٣٨).

ذلك أن الخوف (توقع حلول مكروه أو فوات محبوب)[1] يصاحبه حركة واضطراب في القلب، بينما الوجل (رجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته).[2]

يقول ابن القيم: (الوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة).[3]

ومن ثَمّ فإن القلب الوَجِل هو الذي ينبعث في جوانبه شعور بالخوف من الله جل وعلا يصاحبه نوع ألم وقشعريرة وخفقان.

ولذا روي عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم تشبيه الوجل في قلب المؤمن باحتراق السعفة[4] الذي يصاحبه صوت كالنشيش.[5]

يقول سيد قطب: (إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يُذكَّر بالله في أمر أو نهي، فيغشاه جلاله، وتنتفض فيه مخافته، ويتمثل

(١) التعريفات للجرجاني: (ص: ١٣٧)، وانظر: المفردات: (ص: ١٦٦).

(٢) انظر: مدارج السالكين: (١/ ٣٨٨ – ٣٨٩)، بصائر ذوي التمييز: (٥/ ١٦٥).

(٣) شفاء العليل: (ص: ٢٢٦).

(٤) روي ذلك عن أم المؤمنين عائشة وأبي الدرداء وأم الدرداء ﷺ. انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٧٩)، نوادر الأصول: (١/ ٣٧٩)، شعب الإيمان: (٢/ ٥١)، صفة الصفوة: (٤/ ٢٩٨)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٢٥٠)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٨٥)، الدر المنثور: (٤/ ١١)، فتح القدير: (٢/ ٢٨٣ – ٢٨٤)، روح المعاني: (٩/ ١٦٥).
والسعفة بفتح العين: غصن النخلة إذا يبس. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٥٨)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٦٨).

(٥) انظر: تفسير المنار: (٩/ ٥٨٩)، والنشيش: صوت الماء وغيره عند غليانه. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩٦٢)

عظمة الله ومهابته، إلى جانب تقصيره هو وذنبه، فينبعث إلى العمل والطاعة).(١)

وقد تضمنت الآيتان الكريمتان أن الوجل يصيب قلوب المؤمنين عند ذكر الله جل شأنه.

وللمفسرين في المراد بذكر الله هنا عبارات متعدّدة.

فمنهم من ذكر أن المراد التلفظ باسم الله تعالى أو بصفة من صفاته، فيجل القلب تهيبًا وإجلالًا، واستشعارًا لعظمته وكبريائه جل وعلا، وملكه وعزه وسلطانه تبارك وتعالى.(٢)

ومنهم من ذكر أن المراد هنا يشمل ذكر القلب لعظمة الله تعالى وجلاله، أو لوعده ووعيده، سواء كان مصحوبًا بذكر اللسان أم لا.(٣)

ومنهم من ذكر أن المراد ذكر قدرة الله تعالى وعذابه لمن عصاه وخالف أمره، ويكون المعنى على تقدير مضاف: إذا ذكر عقاب الله، فيجل القلب من أن تناله العقوبة الإلهية.(٤)

وهذه الأقوال كلها محتملة في تفسير ذكر الله تعالى في الآيتين

(١) في ظلال القرآن: (٣/ ١٤٧٥).
(٢) انظر: تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٥٧)، تفسير أبي السعود: (٤/ ٤)، تفسير النسفي: (١/ ٦٠١).
(٣) انظر: تفسير المنار: (٩/ ٥٨٩ - ٥٩٠).
(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٠)، تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١١٨)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٥٧).

الكريمتين، فالأولى أن تجتمع، والعلم عند الله تعالى.(١)

قال ابن عاشور: (وقد أجملت الآية ذكر الله إجمالًا بديعًا ليناسب معنى الوجل، فذكر الله يكون: بذكر اسمه، وبذكر عقابه وعظمته، وبذكر ثوابه ورحمته، وكل ذلك يحصل معه الوجل في قلوب كمل المؤمنين).(٢)

أما الآية الثالثة التي ورد فيها وصف القلوب بالوجل فهي قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[المؤمنون: ٦٠].

والآية الكريمة تتضمن ثناء على المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويفعلون الخيرات، ومع ذلك فقلوبهم وجلة، تخاف عدم القبول.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: [لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات].(٣)

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٧٨)، تفسير الزمخشري: (٢/ ١٨٥)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٢)، تفسير المنار: (٩/ ٥٩٠).
(٢) تفسير ابن عاشور: (٩/ ٢٥٦).
(٣) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون: (٥/ ٣٢٧ - ٣٢٨)، وابن ماجة بنحوه في كتاب الزهد، باب التوقي على العمل: (٢/ ١٤٠٤)، وأحمد في المسند: (٦/ ٢٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان: (١/ ٤٧٧)، والحاكم في المستدرك: (٢/ ٤٢٧) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٢٥٥).

وعن هذا التفسير النبوي الشريف صدرت عبارات الصحابة والتابعين:

عن ابن عباس ﷺ في معنى الآية الكريمة قال: (يعملون خائفين).[1]

وعن قتادة: (يعطون ما أعطوا ويعملون ما عملوا من خير، وقلوبهم وجلة خائفة).[2]

وعن الحسن: (يعملون ما عملوا من أعمال البر، وهم يخشون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب ربهم ﷻ).[3]

وعنه أيضًا: (عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم).[4]

ومن المفسرين من خصّ الإيتاء الوارد في الآية بالزكاة والصدقة[5].

لكن مضمون حديث عائشة ﷺ يفيد عموم الإيتاء بما يشمل الزكاة وجميع أعمال البر بدنية أو مالية، ولذا قال ابن عطية: (ولا نظر مع

---

(١) تفسير الطبري: (١٨/ ٣٣)، الدر المنثور: (٦/ ١٠٥)، وانظر: صحيح البخاري: (٤/ ١٧٦٩)، عمدة القاري: (١٩/ ٧٠).

(٢) تفسير الطبري: (١٨/ ٣٣)، تفسير الصنعاني: (٣/ ٤٦).

(٣) الزهد لابن المبارك: (ص: ٩)، الزهد لأحمد: (ص: ٣٤٠، ٣٤٢)، تفسير الطبري: (١٨/ ٣٢)، الدر المنثور: (٦/ ١٠٦).

(٤) تفسير السمعاني: (٣/ ٤٨٠)، تفسير البغوي: (٣/ ٣١١).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ٣٢)، روح المعاني: (١٨/ ٤٤).

الحديث)[1]، وقال السمعاني: (هذا هو القول المعروف في الآية).[2]

ثم أشارت الآية الكريمة إلى علة الوجل في قلوب العاملين: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

قال السمعاني: (أي لأنهم إلى ربهم راجعون، ومعناه خافوا لأنهم علموا أن رجوعهم إلى ربهم).[3]

فمناط الوجل يقينهم بلقاء الله تعالى في الآخرة، ومقابلة السؤال والجزاء، ومن ثَمّ يخشون أن يلحقهم عذاب الله ﷻ، متهمين أنفسهم بالتقصير في القيام بحقوقه سبحانه، خائفين أن تكون أعمالهم الصالحة مشوبة بخلل أو نقصان، يتنزل بها عن القبول والرضا منه تبارك وتعالى.

- وقد يبدو في الظاهر نوع تعارض بين الآيات التي تصف قلوب المؤمنين بالوجل عند ذكر الله تعالى، والآيات التي تصف قلوبهم بالطمأنينة بذكره سبحانه، إذ كيف يكون القلب موصوفًا بالطمأنينة والوجل وهما متنافيان؟

وجمعًا بين الآيات الكريمات أجاب عدد من المفسرين عن ذلك التعارض الظاهري بوجوه منها:

---

(١) تفسير ابن عطية: (٤/ ١٤٧).

(٢) تفسير السمعاني: (٣/ ٤٨٠)، وانظر: الفتح الرباني: (ص: ٢٨٨، ٣١٠).

(٣) تفسير السمعاني: (٣/ ٤٨٠)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٦/ ٤١٠)، نظم الدرر: (٥/ ٢٠٩).

أولاً: أن الطمأنينة تكون بحصول الانشراح في القلب، ثمرة للإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، بيقين لا شك فيه ولا شبهة، أما الوجل فيستقر في القلب خوفًا من الانحراف عن الحق، والزيغ عن الهدى، والتقصير في القيام بحقه سبحانه، وطاعته جل وعلا أمرًا ونهيًا، ومن ثَمّ فهما حالتان تجتمعان في قلب المؤمن دون تناقض أو منافاة.[1]

وهذا القول في توجيه الجمع هو أقرب الأقوال وأحسنها، والعلم عند الله تعالى.

ثانيًا: أن القلب يسكن ويطمئن عند تذكر الثواب والفضل الرباني، ويحصل له الوجل بتذكر العقاب والعدل الإلهي.[2]

وهذا حق، لكن يرد عليه أن الطمأنينة والوجل لا يقتصران على دائرة الوعد والوعيد.

ثالثًا: أن الطمأنينة ثمرة للثقة في الله تعالى ورحمته ولطفه، واستحضار نعمه سبحانه، والوجل خوف من عقوبته وعذابه، فهما مقامان يتنقل بينهما قلب المؤمن.[3]

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ٤٩)، الروض الريان في أسئلة القرآن: (١/ ١٦)، البرهان في علوم القرآن: (٢/ ٦١ - ٦٢، ١٩٠ - ١٩١)، أضواء البيان: (٥/ ٦٩٤ - ٦٩٥)، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: (ص:١٣٥)، تفسير القاسمي: (٨/ ٩).

(٢) انظر: تفسير السمعاني: (٣/ ٩٢)، تفسير البغوي: (٣/ ١٨)، تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ٤٩)، الروض الريان في أسئلة القرآن: (١/ ١٦٣).

(٣) انظر: الروض الريان في أسئلة القرآن: (١/ ٧٧)، تفسير القاسمي: (٨/ ٩).

قال القرطبي: (فهذا - أي الاطمئنان - يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب، والوجل الفزع من عذاب الله، فلا تناقض، وقد جمع بين المعنيين في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله، وإن كانوا يخافون الله).[1]

وهذا الجواب جيد في الجمع بين الحالين، يمكن أن يضاف عليه أن الوجل لا يختص بالخوف من الوعيد، بل يشمل كذلك الشعور بالهيبة والخشية والخوف من جلال الله وعظمته، واستحضار معاني كبريائه وسلطانه جل وعلا، وأسمائه وصفاته ﷻ.[2]

(١) تفسير القرطبي: (٧/ ٢٣٢ - ٢٣٣)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١١٨)، البرهان في علوم القرآن: (٢/ ٦٢، ١٩١).

(٢) انظر: تفسير المنار: (٩/ ٥٩٠).

المبحث الرابع

القلوب المخبتة

الإخبات مصدر للفعل أَخْبت، يُخْبِت، وأصله يدل على الخشوع، ويتضمن معنى الاطمئنان.

يقال: أخبت: أي تواضع، وأخبت لله: أي خشع، وأخبت إلى ربه: أي اطمأن إليه، وخبت ذكره: أي خفي، وفيه خبتة: أي تواضع.

وأصل ذلك من الخَبْت، وهو المتسع المطمئن من الأرض، والمفازة التي لا نبات بها.(١)

ويرى أبو إسماعيل الهروي أن الإخبات يمثل المرتبة الأولى ضمن مراتب الطمأنينة، فقد ذكر في منازل السائرين أن الإخبات (هو من أول مقامات الطمأنينة).(٢)

قال ابن القيم: (يعني بمقامات الطمأنينة: السكينة، واليقين، والثقة بالله، ونحوها، فالإخبات مقدمتها ومبدؤها).(٣)

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٣٢١)، لسان العرب: (٢/ ١٠٨٧)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٥)، المفردات: (ص: ١٤٧)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٤)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٥٢١)، وقد عرف العسكري الإخبات بالخضوع المستمر، غير أنه فرق بين الإخبات والخضوع (بأن المخبت هو المطمئن بالإيمان، وهو من أسماء المدوح مثل المؤمن والمتقي، وليس كذلك الخضوع لأنه يكون مدحًا وذمًا) الفروق في اللغة: (ص: ٢٤٥).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ١٣).

(٣) مدارج السالكين: (٢/ ١٣).

إذ حين يتجاوز المؤمن مرحلة التردد بالإخبات لله تعالى، يبدأ في مراحل الطمأنينة ودرجاتها.

ومن ثَمّ فتحقّق الإخبات علامة على دخول مقام الطمأنينة، ونزول أول منازلها.(١)

وقد أسند الإخبات إلى القلوب في قول الله جل وعلا:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

والآية الكريمة تبين موقف المؤمنين من القرآن الكريم، في مواجهة وساوس الشيطان وكيده ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾.

والضمير في: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ يعود إلى القرآن الكريم.(٢)

والمعنى أن أهل العلم بالله وشرعه من المؤمنين يميزون ـ بتوفيق الله وهدايته ـ بين الحق والباطل، فيردون إلقاء الشيطان، ويرفضون تضليله، ولا يتأثرون بشبهه وأباطيله في شأن القرآن، إذ يوقنون بأن ما أوحى الله جل وعلا إلى رسوله ﷺ من القرآن هو الحق المحفوظ بلا شك أو ريب،

---

(١) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ١٣ - ١٤).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٩)، التسهيل: (٣/ ٤٥)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٩)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٣٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١٤).

فيثبتوا ويزدادوا به إيمانًا وتصديقًا(١)، ومن ثَمّ يحصل الإخبات في قلوبهم لكلام ربهم سبحانه ووحيه ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾.

وفي ذلك دلالة على أن العلم سبيل إلى الإيمان ابتداء، ثم زيادةً ونماءً، وأن صفة الإخبات هي ثمرة لهذا الإيمان المرتكز على علم ثابت يقيني، ولذا كان المتصفون بهذه الصفات، المتمكنون منها، لا تستقر في قلوبهم ما يلقيه الشيطان من الشبهات، ولا يتأثرون بها، بل يسلمّهم الله تعالى بفضله من فتنة الشيطان وكيده، كما يقرره ويشير إليه سياق الآية الكريمة.(٢)

وقد فسر بعض المفسرين الإخبات هنا بمعاني الخشوع والخضوع والتواضع واللين والذل والانقياد والإذعان.

وهذه معان متقاربة يقتضي بعضها بعضًا، ويفسر بعضها بعضًا.

قال ابن قتيبة: (أي تخضع وتذل له قلوبهم).(٣)

وقال العز بن عبد السلام(٤): (الإخبات هو التواضع لله، وثمرته

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٩١)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٩)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٣٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١٤)، روح المعاني: (١٧/ ١٧٤).

(٢) الآية السابقة لهذه الآية هي قول الله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣].

(٣) تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٩٤)، وانظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٩٢)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٩)، زاد المسير: (٥/ ٣٠٣)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٩٣)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٣٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١٤)، روح المعاني: (١٧/ ١٧٤).

(٤) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم، عز الدين، أبو محمد السلمي، الدمشقي الشافعي، سلطان العلماء، عالم عصره، إمام مجتهد، حجة الإسلام، كان معروفًا بشدة الذكاء، وكثرة العبادة، وقول الحق، والتواضع والزهد، من مصنفاته: قواعد الشريعة، التفسير الكبير، توفي سنة ستين وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٢٨٧ - ٢٢٨٨)، الأعلام: (٤/ ٢١).

الانقياد لأمر الله).[1]

وقال الراغب: (أي تلين وتخشع).[2]

وفسر آخرون الإخبات هنا بالطمأنينة والسكون.

قال البغوي: (فتسكن إليه قلوبهم).[3]

وقال النسفي: (فتطمئن).[4]

ولا تعارض بين تفسير الإخبات بالخشوع ونحوه، وبين تفسيره بالاطمئنان، بناء على ما سبق ذكره من كون الإخبات من أول مراتب الطمأنينة ومقاماتها، وكلما تمكن الخشوع في القلب زادت طمأنينته ونمت.

ولذا جمع بعض المفسرين بين القولين.

قال القرطبي: (أي تخشع وتسكن).[5]

وقال البقاعي: (أي تطمئن وتخضع ﴿لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ وتسكن به قلوبهم).[6]

(١) شجرة المعارف والأحوال: (ص: ٧٥).

(٢) المفردات: (ص: ١٤٧)، وانظر: التسهيل: (٣/ ٤٥)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨٣)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٥٢١).

(٣) تفسير البغوي: (٣/ ٢٩٥)، وانظر: تفسير السمعاني: (٣/ ٤٥٠).

(٤) تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٩).

(٥) تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٨).

(٦) نظم الدرر: (٥/ ١٦٥)، وانظر: أضواء البيان: (٥/ ٧٣٥)، إغاثة اللهفان: (١/ ٤٦).

يقول ابن القيم: (المخبت المطمئن، فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء، فكذلك القلب المخبت قد خشع واطمأن، كالبقعة المطمئنة من الأرض يجري إليها الماء فيستقر فيها، وعلامته أن يسجد بين يدي ربه إجلالًا له وذلًا وانكسارًا بين يديه).[1]

أما الخشوع الذي فسّر كثير من المفسرين الإخبات به فقد أُسند إلى القلوب في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وإسناد الخشوع في الآية إلى القلوب هو باعتبار أن الخشوع من عمل القلب أولا ثم تظهر بعد ذلك آثاره على الأعضاء.

عن علي ﷺ قال: (الخشوع في القلب)[2]، وبمثله قال قتادة وغيره.[3]

قال ابن عطية: (هي هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب، فلذلك خص الله تعالى القلب بالذكر).[4]

وقال ابن تيمية: (خشوع الجسد تبع لخشوع القلب، إذا لم يكن الرجل مرائيًا، يظهر ما ليس في قلبه).[5]

(١) الروح: (ص: ٢٩٠)، وانظر: (ص: ٢٩٩ - ٣٠٠).

(٢) تفسير الطبري: (١٨/ ٢)، المستدرك: (٢/ ٤٢٦)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وانظر: الدر المنثور: (٦/ ٨٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ٢ - ٣)، تفسير الصنعاني: (٣/ ٤٣)، الدر المنثور: (٦/ ٨٤).

(٤) تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٦٤).

(٥) مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٩)، وانظر: تفسير القرطبي: (١/ ٢٥٥)، ولابن القيم في الروح: (ص: ٢٨٩ - ٢٩٠) كلام جيد عن خشوع الإيمان وخشوع النفاق.

ويقول ابن القيم: (أجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح).[١]

والخشوع بمعنى الخضوع، فهما مترادفان، أو متقاربان في المعنى.[٢]

واعتبر بعض أهل اللغة الخشوع أعم، باعتبار أن الخضوع في البدن، بينما الخشوع يكون في البدن والصوت والبصر.[٣]

يقال: خشع: رمى ببصره نحو الأرض، وغضه، وخفض صوته. وتخشّع: تضرّع. واختشع: إذا طأطأ صدره وتواضع. والخشوع: السكون، والتذلل. وأكمة خاشعة: ملتزقة بالأرض. وأرض خاشعة: يابسة، لم تمطر ولم تنبت، فهي ساكنة منخفضة. والخاشع من الأرض: الذي تثيره الرياح لسهولته فتمحوا آثاره.

وعلى هذا فالخشوع يتضمن جملة من المعاني، كاللين والتواضع، والتذلل والانكسار، والخشية والضراعة، والسكون والطمأنينة.[٤]

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٥).

(٢) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٢٩٨)، التعاريف للمناوي: (ص: ١٣٢)، ترتيب القاموس: (٢/ ٥٩)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٥٤١).

(٣) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٢٩٨)، لسان العرب: (٢/ ١١٦٥)، ترتيب القاموس: (٢/ ٥٩)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٤).
قال العسكري: (الخضوع هو التطامن والتطأطؤ، ولا يقتضي أن يكون معه خوف، ولهذا لا يجوز إضافته إلى القلب) الفروق في اللغة: (ص: ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٤) انظر: المفردات: (ص: ١٥٤ - ١٥٥، ١٥٦)، لسان العرب: (٢/ ١١٦٥، ١١٨٧)، ترتيب القاموس: (٢/ ٥٩ - ٦٠، ٧٢)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٤، ٤٣).

ومن ثَمّ تعدّدت عبارات الأئمة في تعريف الخشوع.

قال الجنيد: (الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب).[١]

وقال ابن القيم: (الخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه)[٢]، فهو: (معنى يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار).[٣]

وقال محمد الأمين: (الخشوع في الشرع خشية من الله تداخل القلوب، فتظهر آثاره على الجوارح بالانخفاض والسكون، كما هو شأن الخائف).[٤]

يقول ابن تيمية: (والخشوع يتضمن معنيين: أحدهما التواضع والذل، والثاني السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة).[٥]

وفي الآية الكريمة عتاب للمؤمنين، وحضٌّ لهم على الخشوع ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ والمعنى: أما حان لهم أن تخشع قلوبهم، وقد تتابع عليها من ذكر الله وكلامه جل وعلا ما يقتضي ذلك ويوجبه.[٦]

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٥).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٥)، وانظر: (٦ - ١٢).

(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٦).

(٤) أضواء البيان: (٧/ ٨١٢)، وانظر: تفسير القرطبي: (١/ ٢٥٤ - ٢٥٥).

(٥) مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٨)، وانظر: (٢٢/ ٥٥٤ - ٥٥٥).

(٦) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٤٥٣)، زاد المسير: (٧/ ٣٠٥).

عن ابن مسعود ﷺ قال: (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلا أربع سنين).(١)

وذكرهم في معرض العتاب باسم الإيمان باعتباره موجبا للخشوع وداعيًا إليه.

يقول ابن القيم: (دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، يعني أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم).(٢)

واللام في قوله سبحانه: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ للتعليل، والمراد خشوع القلب لأجل ذكر الله وما نزل من الحق.(٣)

وفي المقصود بالمعطوف والمعطوف عليه قولان للمفسرين:

القول الأول: أنهما بمعنى واحد، فذكر الله هو القرآن، والحق النازل هو القرآن أيضًا، فهو عطف للشيء على نفسه مع اختلاف اللفظين، زيادة

---

(١) رواه مسلم في كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (٣/ ٢٣١).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٢ - ٤٠٣).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٦٤)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٢٢٢)، أضواء البيان: (٧/ ٨١٢)، تفسير ابن عاشور: (٢٧/ ٣٩١).

في التفسير والبيان، فالتغاير في الأوصاف، لكن الموصوف واحد، وهو القرآن الكريم الجامع للأمرين: كونه ذكرًا، وكونه حقًا نازلًا من عند الله تعالى.(١)

القول الثاني: أن اللفظين متغايران في المعنى، فالحق هو القرآن الذي نزله جل وعلا على رسوله ﷺ، والمعطوف عليه ذكر الله، والمراد ذكر اسم الله تعالى، أو صفته، أو وعده ووعيده، سواء كان هذا الذكر نطقًا باللسان، أو فكرًا بالقلب.(٢)

قال الشوكاني: (﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، معطوف على ذكر الله، والمراد بما نزل من الحق القرآن، فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عداه مما فيه ذكر لله سبحانه باللسان، أو خطور بالقلب).(٣)

وكلا القولين محتمل كما قال الزمخشري وغيره(٤)، لكن الثاني أقرب، والعلم عند الله تعالى.

---

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٦٨)، تفسير النسفي: (٣/ ٤٨١)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٦٩)، روح المعاني: (٢٧/ ١٨٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٧/ ٢٢٨)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٩٧)، زاد المسير: (٧/ ٣٠٥)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٩)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣١٠)، أضواء البيان: (٧/ ٨١٢)، تفسير القاسمي: (١٦/ ٤٥).

(٣) فتح القدير: (٥/ ١٧٩).

(٤) انظر: تفسير الزمخشري: (٤ / ٤٧٥)، تفسير البيضاوي: (٢ / ٤٦٩)، تفسير أبي السعود: (٨ / ٢٠٨).

أما الخشوع في الآية الكريمة: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ فقد فسره معظم المفسرين بمعنى رقة القلب ولينه، وخضوعه وذلته.(١)

وفسره بعضهم بالإخبات.(٢)

والحق أن بين الخشوع والإخبات تداخلًا وتقاربًا كبيرًا في المعنى، ويمكن أن يفسر كل منهما الآخر، فالإخبات يتضمن معنى الخشوع، والخشوع فيه معنى الإخبات.

ومن المفسرين من فسّر الخشوع في الآية بالامتثال والانقياد للأوامر والنواهي.(٣)

وهو تفسير للخشوع بمقتضاه.

ولذا جمع ابن كثير بين الملزوم ولازمه في بيان المراد بخشوع القلوب في الآية الكريمة فقال: (أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه، وتنقاد له، وتسمع له وتطيعه).(٤)

ولما كانت عبودية القلب لله بالخشوع أمرًا في غاية الأهمية كان رسول الله ﷺ يستعيذ في دعائه: [من قلب لا يخشع].(٥)

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٧/ ٢٢٨)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٨٤، ٣٨٥)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٦٨)، تفسير السمعاني: (٥/ ٣٧٢)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٩٧)، زاد المسير: (٧/ ٣٠٥)، تفسير القرطبي: (١٧/ ١٦١)، شجرة المعارف والأحوال: (ص: ٧٥).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٦٤)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٢٢٢)، نظم الدرر: (٧/ ٤٤٧).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود: (٨/ ٢٠٨)، تفسير ابن عاشور: (٢٧/ ٣٩١).

(٤) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣١٠).

(٥) رواه مسلم من حديث زيد بن أرقم ﷺ، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل: (٣/ ٢٠٨٨).

المبحث الخامس

القلوب المنيبة

الإنابة مصدر للفعل الرباعي: أناب، ينيب، إذا أقبل ورجع(١)، ومصدر الثلاثي: النَّوْب، قال الراغب: (النوب رجوع الشيء مرة بعد مرة).(٢)

وقد وصف القلب بالإنابة في قول الله جل وعلا: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

وذلك ضمن عرض عدد من صفات أهل الجنة، ومنها كون المؤمن ذا قلب منيب.

ووصف القلب بالإنابة، وليس صاحب القلب، باعتبار أن ما ثبت منها في القلب، هو الأصل الذي يثمر في الجوارح إنابة إلى الله تعالى، وطاعة واستقامة على شرعه سبحانه.(٣)

وفي المراد بالقلب المنيب في الآية الكريمة أقوال معظمها مترادف أو متقارب، ومنها:

---

(١) انظر: لسان العرب: (٦/ ٤٥٦٩).

(٢) المفردات: (ص: ٥٠٩)، وانظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩٦٦).

(٣) انظر: تفسير السمعاني: (٥/ ٢٤٦)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٩٣)، تفسير أبي السعود: (٨/ ١٣٣)، روح المعاني: (٢٦/ ١٩٠).

١. عن قتادة قال: (أي منيب إلى ربه مقبل).[1]

٢. وقال السمرقندي: (يعني مقبلًا على طاعة الله مخلصًا).[2]

٣. وقال ابن عطية: (المنيب الراجع إلى الخير المائل إليه).[3]

٤. وقال ابن الجوزي: (راجع إلى طاعة الله عن معصيته).[4]

٥. وقال ابن جرير: (بقلب تائب من ذنوبه، راجع مما يكرهه تعالى إلى ما يرضيه).[5]

٦. ومن المفسرين من فسّر القلب المنيب بالقلب السليم، ومنهم الرازي حيث يقول: (والقلب المنيب كالقلب السليم في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]).

أي سليم من الشرك، ومن سلم من الشرك يترك غير الله ويرجع إلى الله فكان منيبًا، ومن أناب إلى الله برئ من الشرك فكان سليمًا).[6]

(١) تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٣)، الدر المنثور: (٧/ ٦٠٤).

(٢) تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٢١)، وانظر: تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٢٤)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٢٥)، تفسير القرطبي: (١٧/ ١٥)، بصائر ذوي التمييز: (٥/ ١٣٢).

(٣) تفسير ابن عطية: (٥/ ١٦٦).

(٤) زاد المسير: (٧/ ١٩٩)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٩٣)، تفسير النسفي: (٣/ ٤١٠)، نظم الدرر: (٧/ ٢٦٢).

(٥) تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٣)، وانظر: المفردات: (ص: ٥٠٩).

(٦) تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ١٧٩)، وانظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ١٥)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٢٨).

ولا تعارض بين هذه الأقوال عدا الأخير منها، بل هي متقاربة متلازمة، والجمع بينها واضح، إذ أن أصل الإنابة في اللغة الإقبال والرجوع، فالقلب المنيب هو المقبل على الله، وهو الراجع عن المعصية إلى الطاعة، ومن الباطل إلى الحق، وهو التائب من الذنوب إذ هو سبيل الرجوع عن المعصية، وهو المخلص، إذ لا إقبال على الله ولا رجوع دون إخلاص.

وقد ذكر ابن القيم أن: (حقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه)[1] وأنها (تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم (المنيب) إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك، وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم، والمنيب إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه).[2]

أما قول الرازي فهو قول حسن من حيث الإشارة إلى قوة العلاقة بين القلب المنيب والقلب السليم، لكن اعتبارهما مترادفين قد لا يكون دقيقًا، وذلك أن مقام الإنابة يمثل طريقًا يصل به القلب ـ إذا استجمع معانيه ـ إلى غاية أعظم ومقام أرفع، هو مقام القلب السليم، والعلم عند الله تعالى.

(١) الفوائد: (ص: ٣٦)، وانظر: (ص: ٢٣٧).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٣٢٩ - ٣٣٠)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٧٦).

المبحث السادس

القلوب اللينة

اللين في أصله اللغوي ضد الخشونة والقسوة، من لان يلين، فهو ليْن وليِّن.(١)

والوصف به في الدائرة المعنوية يتضمن معنى الرقة والسهولة، ومعنى السكون والاطمئنان، كما يتضمن معنى الإذعان والقبول.

قال القرطبي: (معنى لين القلب رقته وطمأنينته وسكونه).(٢)

ولما كانت رقة القلب مفتاحًا للأوصاف الإيجابية الأخرى توسّع أبو طالب المكي فذكر أن رقة القلب (هي خشوعه وخوفه وذله وانكساره وإخباته).(٣)

وقد أسند اللين إلى القلوب في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩١٠)، لسان العرب: (٥/ ٤١١٧)، المفردات: (ص: ٤٦١)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤٧٢).

(٢) تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٣)، وانظر: التسهيل: (٣/ ١٩٤)، نوادر الأصول: (٤/ ٤)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤٧٢)، التعاريف للمناوي: (ص: ٦٣٠).

(٣) قوت القلوب: (١/ ٤٧٢).

إذ تقرر هذه الآية الكريمة أن القلوب المؤمنة تلين إلى ذكر الله جل وعلا، وسياقها يعرض لأثر القرآن الكريم على المؤمنين الذين يخشون ربهم سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] وأحسن الحديث هو القرآن الكريم، كتاب الله ﷻ(١)، الموصوف بأنه متشابه، أي يشبه بعضه بعضًا في الحسن والإتقان والفصاحة والإعجاز، ويصدق بعضه بعضًا، فلا تناقض فيه ولا تضاد ولا اختلاف.(٢) والموصوف أيضًا بأنه ﴿مَّثَانِيَ﴾، أي تُثنى وتُردد فيه المواعظ والقصص، وتعاد الأوامر والنواهي، ويتكرر الوعد والوعيد.(٣)

والموصوف كذلك بأنه: ﴿تَقۡشَعِرُّ(٤) مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ والاقشعرار ـ كما قال البغوي ـ (تغير في جلد الإنسان عند الخوف والوجل).(٥)

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٢)، نظم الدرر: (٦/ ٤٣٨)، روح المعاني: (٢٣/ ٢٥٨).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٧٦)، تفسير الزمخشري: (٤/ ١٢٥)، زاد المسير: (٧/ ١٣)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٢٣)، تفسير السعدي: (٤/ ٣١٨)، القواعد الحسان: (ص: ٦٠).

(٣) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٨٣)، تفسير البغوي: (٤/ ٧٦)، تفسير الزمخشري: (٤/ ١٢٥)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٢ - ١٦٣)، نظم الدرر: (٦/ ٤٣٨)، تفسير السعدي: (٤/ ٣١٨).

(٤) يقال: اقشعر جلده، إذا انقبض وتجمع من الخوف، وأخذته قشعريرة: أي رِعدة، وأصل الاقشعرار من القشع، وهو الجلد اليابس. انظر: ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٦٢٥، ٦٢٦)، المفردات: (ص: ٤٠٥)، تفسير السمرقندي: (٣/ ١٧٥)، نظم الدرر: (٦/ ٤٣٩)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٥١)، فتح القدير: (٤/ ٤٥٧).

(٥) تفسير البغوي: (٤/ ٧٦).

فالمؤمنون الذين يخشون الله جل وعلا تتأثر قلوبهم بالقرآن وما يتضمنه من آيات الوعيد، فيثمر ذلك الوجل في القلوب اضطرابًا وقشعريرة في الجلود.(١)

قال الزجاج في معنى الآية: (إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله).(٢)

وقال النسفي: (والمعنى أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم).(٣)

قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾: ذكر معظم المفسرين في معنى الآية أن المراد بذكر الله هنا ذكر مغفرته ورحمته وجوده، وما وعد به المؤمنين في القرآن من الثواب وحسن الجزاء، فتهدأ به جلود المؤمنين وترقّ بعد قشعريرتها، وتسكن قلوبهم وتطمئن بعد خشيتها.

والمقصود أن قلوب المؤمنين بين الخوف والرجاء، فإذا ذكر وعيد الله وعقابه خافت ووجلت، وإذا ذكر وعد الله وثوابه رجت وسكنت.(٤)

---

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٩٣٢)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٢)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٢٣).

(٢) معاني القرآن: (٤/ ٣٥٢).

(٣) تفسير النسفي: (٣/ ٢١٧)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ١٢٦).

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٥٢)، تفسير الواحدي: (٢/ ٩٣٢)، تفسير الزمخشري: (٤/ ١٢٦)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٢)، زاد المسير: (٧/ ١٤)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٣٢٤)، نظم الدرر: (٦/ ٤٣٩)، تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ٣٨٩).

يقول البغوي في تفسير الآية الكريمة: (أي إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله، وإذا ذكرت آيات الرحمة لانت وسكنت قلوبهم).[1]

ويقول العز بن عبد السلام: (المراد هاهنا بلين القلب رجاء فضله وجوده، لأنه قابله باقشعرار الجلود الذي هو من آثار الخوف).[2]

وقال السمرقندي: (يعني إذا قُرئت آيات الرجاء والرحمة تطمئن قلوبهم وتسكن).[3]

وقال ابن كثير: (أي هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه).[4]

لكن ابن جرير لم يجعل لين القلوب خاصا بآيات الوعد والثواب، كما لم يجعل قشعريرة الجلود خاصة بآيات الوعيد والعقاب، بل عمم الأمرين

(١) تفسير البغوي: (٤/ ٧٦)، وانظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٨٣)، معاني القرآن للنحاس: (٦/ ١٦٩).

(٢) شجرة المعارف والأحوال: (ص: ٧٦).

(٣) تفسير السمرقندي: (٣/ ١٧٥)، وانظر: تفسير النسفي: (٣/ ٢١٧)، التسهيل: (٣/ ١٩٤)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٢٣).

(٤) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٠ - ٥١)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٥١).

فقال في تفسيره للآية الكريمة: (وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: تقشعر من سماعه إذا تلي عليهم جلود الذين يخافون ربهم ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي إلى العمل بما في كتاب الله والتصديق به).[1]

ومن ثَمّ فإن المقصود - كما يُفْهم من كلام ابن جرير - أن قلوب المؤمنين تلين، بمعنى تسكن وتميل وتطمئن إلى التصديق بما يسمعونه من كلام ربهم سبحانه، والى العمل به وتطبيقه.

وهو اختيار القاسمي أيضًا، إذ قال في تفسير الآية: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي بالانقياد والطاعة والسكينة لأمره).[2]

ويعمّم سيد قطب[3] المعنى كذلك فيقول: (والذين يخشون ربهم ويتقونه، ويعيشون في حذر وخشية، وفي تطلع ورجاء، يتلقون هذا الذكر في وجل وارتعاش، وفي تأثر شديد تقشعر منه الجلود، ثم تهدأ نفوسهم،

(١) تفسير الطبري: (٢٣/ ٢١١)، وأورده القرطبي في تفسيره: (١٥/ ١٦٢)، وانظر: قول الماوردي في زاد المسير: (٧/ ١٤).

(٢) تفسير القاسمي: (١٤/ ٢٠٤).

(٣) هو سيد قطب بن إبراهيم، مفكر وداعية إسلامي مصري، من مصنفاته: في ظلال القرآن، والإسلام ومشكلات الحضارة، توفي سنة سبع وثمانين وثلاث مائة وألف. انظر: الأعلام: (٣/ ١٤٧ - ١٤٨).

وتأنس قلوبهم بهذا الذكر، فتلين جلودهم وقلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله).(١)

وللرازي في تفسيره رأي في مسألة توجيه الحالتين المذكورتين في الآية الكريمة بيانًا لتأثر المؤمنين بكتاب الله تعالى، ويتلخص في قبوله قول جمهور المفسرين، لكنه يعترض على قصر المقامين المذكورين على سماع آية العذاب وآية الرحمة، بل يعتبر ذلك مرتبة يمكن أن تتسع، بحيث تتبعها مراتب أخرى في دائرة تأثر القلوب المؤمنة بالقرآن الكريم خشية ولينًا.(٢)

ولعلّ هذا التوجيه يجمع بين الأقوال، والعلم عند الله تعالى.

ويقابل لين القلوب غلظتها وشدتها وقسوتها.

إذ الغلظة ضد الرقة، يقال: رجل فيه غلظة: أي شدة وقساوة، والغلظة الخشونة، يقال: أغلظ له في القول: أي خشّنه له.(٣)

وقد أثنى الله ﷻ على رسوله ﷺ، واصفًا إياه باللين، نافيًا عنه غِلظ القلب، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٣٠٤٨).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ٢٧٢)، وقد ذكر بين يدي رأيه مقدمات وأمثلة قد لا يتابع عليها.

(٣) انظر: المفردات: (ص: ٣٦٦)، لسان العرب: (٥/ ٣٢٨٢)، ترتيب القاموس: (٣/ ٤١٠)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ١٤٦).

أي بسبب رحمة الله تعالى وتوفيقه كان عليه الصلاة والسلام متّصفًا باللين، وهي صفة تتضمن عددًا من المعاني كالرأفة والرحمة والرفق، وحسن التعامل، ولطف المعشر، وقوة التحمل، وطيب اللفظ.(١)

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ينفي عن رسوله ﷺ الفظاظة وغلظ القلب.

والمراد بالفظاظة الجفاء وسوء الخلق. والمراد بغلظ القلب قسوته وخشونته، وخلوه من معاني الرقة والرحمة والشفقة، والتأثر والانفعال لجوانب الخير.(٢)

وعن غلظ القلب تنشأ الفظاظة.(٣) ولذا يمكن تفسير الفظاظة بالغلظة.(٤)

والمعنى: لو كنت بهذه الصفات الذميمة لنفروا وابتعدوا وتفرقوا عنك.(٥)

---

(١) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٣٦٥)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٢٠).

(٢) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٧٩٤)، المفردات: (ص: ٣٨٤)، تفسير الطبري: (٤/ ١٥١)، تفسير السمعاني: (١/ ٣٧٢)، تفسير الزمخشري: (١/ ٤٥٩)، تفسير البيضاوي: (١/ ١٨٧)، تفسير النسفي: (١/ ٢٦٦)، نظم الدرر: (٢/ ١٧٣)، تفسير أبي السعود: (١/ ٢٦٦)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ١٤٦).

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط: (٣/ ٩٨)، روح المعاني: (٤/ ١٠٦)، قال ابن القيم في معنى الجفاء: (غلظة في النفس، وقساوة في القلب، وكثافة في الطبع، يتولد عنها خلق يسمّى الجفاء) الروح: (ص: ٢٩٠).

(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٠٠).

(٥) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ١١٤)، غريب القرآن لليزيدي: (ص: ١١١)، تفسير البغوي: (١/ ٣٦٥).

لكنه ﷺ كان متخليًا عن ذلك، متحليًا بضده من الرحمة والرفق، ولين القلب ورقته.

ومن الشواهد التي تؤكد عمق هذه المعاني في قلب رسول الله ﷺ ما تضمنه حديث أسامة بن زيد (رضي الله عنهما)[١]، لما دمعت عينا رسول الله ﷺ على صبي يحتضر بين يديه، وقال له سعد بن عبادة (رضي الله عنه)[٢]: ما هذا يا رسول الله؟ قال عليه الصلاة والسلام: [هذه رحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء].[٣]

والملاحظ في هذا الحديث إسناد الرحمة إلى القلوب، وذلك دليل على أن الرحمة عمل قلبي يمكن أن تترجمه الجوارح إلى سلوك.

ولذا قال ابن حجر في شرح الحديث: (أي الدمعة أثر رحمة).[٤]

---

(١) هو أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، حب رسول الله ﷺ وابن حبّه، أمّره ﷺ على جيش إلى الشام وهو ابن ثماني عشرة سنة، ومات النبي ﷺ قبل أن يتحرك الجيش، فأنفذه أبو بكر (رضي الله عنه)، وكان عمر (رضي الله عنه) يكرمه ويجلّه، توفي سنة أربع وخمسين. انظر: الاستيعاب: (١/ ٧٥ – ٧٧)، الإصابة: (١/ ٢٠٢ – ٢٠٣).

(٢) هو سعد بن عبادة بن دُلَيم، أبو ثابت الأنصاري الخزرجي الساعدي، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، سيد الخزرج، مشهور بالجود والسخاء، صاحب راية الأنصار في المشاهد مع رسول الله ﷺ، توفي سنة خمس عشرة. انظر الاستيعاب: (٢/ ٥٩٤ – ٥٩٩)، الإصابة: (٣/ ٥٥ – ٥٦).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ (٦/ ٢٤٥٢)، ومسلم بنحوه في كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت: (١/ ٦٣٦).

(٤) فتح الباري: (٦/ ١٩٠).

وقال أيضًا ضمن فوائد الحديث: (وفيه الترغيب في الشفقة على خلق الله، والترهيب من قساوة القلب..).[١]

وأصل الرحمة: الرقة.[٢]

قال ابن منظور[٣]: الرحمة (رقة القلب وعطفه).[٤]

فإذا ضعف هذا الوصف في القلب كان لذلك أثره سلبًا على تعامل المرء مع الآخرين.

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم. فقال النبي ﷺ: [أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة].[٥]

ينكر ﷺ عليه قساوة قلبه، وخلوه من الرحمة والرقة واللين.

قال ابن حجر: (الهمزة الأولى للاستفهام الإنكاري، ومعناه النفي: أي لا أملك، أي لا أقدر أن أجعل الرحمة في قلبك بعد أن نزعها الله منه).[٦]

---

(١) فتح الباري: (٦/ ١٩١)، وانظر: الروح: (ص: ٣٠٩ – ٣١٠).

(٢) انظر: المفردات: (ص: ١٩٦)، ترتيب القاموس: (٢/ ٣١٧).

(٣) هو محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل الأنصاري الرويفعي الأفريقي، ابن منظور، إمام حجة في اللغة، ولي القضاء في طرابلس الغرب، من مصنفاته: لسان العرب، ولطائف الذخيرة، توفي بمصر سنة إحدى عشرة وسبع مائة. انظر: الأعلام: (٧/ ١٠٨).

(٤) لسان العرب: (٣/ ١٦١٢)، وانظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٢٥).

(٥) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته: (٥/ ٢٢٣٥)، ومسلم بنحوه في كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان.. (٢/ ١٨٠٨).

(٦) فتح الباري: (٢٢/ ٢١٣).

والمقصود أن تلك الحالة للقلب هي التي أثمرت ذلك السلوك السلبي المذموم.

وقد أسند الله تعالى الرحمة إلى القلوب في آية كريمة تضمنت الحديث عن أتباع عيسى عليه السلام، وهي قول الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

والمراد الذين آمنوا به وصدقوه عليه السلام، واتبعوا دينه وشريعته.

والمعنى أن الله سبحانه جعل الرأفة والرحمة في قلوبهم، ووفقهم لها، بحيث كانوا متوادين متآلفين، يرأف بعضهم ببعض، ويرحم بعضهم بعضًا.[١]

وفي العلاقة بين الرأفة والرحمة أقوال لأهل اللغة والتفسير، ومنها:

قال الراغب: (الرأفة الرحمة).[٢]

وعلى هذا فاللفظان مترادفان.

وقال القرطبي: (الرأفة اللين، والرحمة الشفقة).[٣]

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٨٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٣٠٠)، تفسير القرطبي: (١٧/ ١٧٠)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٢١٣)، روح المعاني: (٢٧/ ١٩٠)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٥٧).

(٢) المفردات: (ص: ١٨٩)، وانظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤١٥)، روح المعاني: (٢٧/ ١٩٠).

(٣) تفسير القرطبي: (١٧/ ١٧٠)، وانظر:تفسير النسفي:(٣/ ٤٨٦)، فتح الباري: (٥/ ١٨٤ - ١٨٥).

وكأن الرأفة عنده أصل تتفرّع عنه الرحمة.

لكن الأكثرين على أن الرأفة أخصّ من الرحمة.

قال الفيروز ابادي[١]: (الرأفة أشد الرحمة أو أرقها).[٢]

وقال ابن الأثير: (والرأفة أرق من الرحمة).[٣] وهكذا قال ابن جرير[٤]، وغيره.[٥]

وقد أثنى رسول الله ﷺ على من وفد عليه من أهل اليمن فوصفهم بلين القلوب ورقتها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوبًا وأرق أفئدة].[٦] وفي رواية: [أضعف قلوبًا وأرق أفئدة].[٧]

---

(١) هو محمد بن يعقوب بن محمد، مجد الدين، أبو طاهر الشيرازي الفيروز ابادي، من أئمة اللغة والأدب، كان قوي الحافظة، من مصنفاته: القاموس المحيط، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، توفي سنة سبع عشرة وثمان مائة. انظر: الأعلام: (٧/ ١٤٦ - ١٤٧).

(٢) ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٢٧٩).

(٣) النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١٧٦)، وانظر: لسان العرب: (٣/ ١٥٣٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٧/ ٢٣٨).

(٥) انظر تفسير السمعاني: (٥/ ٣٧٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٣٠٠)، نظم الدرر: (٧/ ٤٦١)، وانظر أقوالا أخرى في تفسير القرطبي: (١٧/ ١٧٠)، روح المعاني: (٢٧/ ١٩٠).

(٦) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن: (٤/ ١٥٩٤)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه: (١/ ٧٣).

(٧) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن: (٤/ ١٥٩٥)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه: (١/ ٧٢).

والأقرب أن يكون المقصود بهذا الثناء النبوي القوم الذين وفدوا على رسول الله ﷺ قادمين من اليمن.[١]

ويحتمل أن يكون المقصود بالثناء عموم أهل اليمن في ذلك الزمن[٢]، لقبولهم وإذعانهم للدعوة النبوية، وسرعة استجابتهم للإيمان.[٣]

وقد وصف عليه الصلاة والسلام قلوبهم باللين والرقة والضعف، وهي ألفاظ متقاربة المعنى في مقابل القسوة.[٤]

قال ابن الصلاح: (معناه أنها ذات خشية واستكانة، سريعة الاستجابة والتأثر بقوارع التذكير، سالمة من الغلظ والشدة والقسوة).[٥]

وكما أثنى رسول الله ﷺ على هؤلاء بلين القلوب، فقد ذم آخرين بوصفهم بالجفاء والقسوة وغلظ القلوب.

---

(١) انظر: فتح الباري: (١٤/ ١٢)، فيض القدير: (١/ ٩٣).

(٢) انظر كلام أبي عمرو بن الصلاح ورده على من صرف لفظ (أهل اليمن) عن ظاهره: صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢١٠ - ٢١٢)، قال في آخر كلامه: (ولا مانع من إجراء الكلام على ظاهره، وحمله على أهل اليمن حقيقة) وقال: (ثم إن المراد بذلك الموجودون منهم حينئذ، لا كل أهل اليمن في كل زمان، فإن اللفظ لا يقتضيه) وانظر أيضًا فتح الباري: (١٤/ ١١ - ١٢، ١٦/ ٢٢٤). وذكر ابن حجر احتمالًا ثالثًا بأن يكون المراد عموم أهل اليمن في كل عصر، وقال: (فغالب من يوجد من جهة اليمن رقاق القلوب والأبدان) فتح الباري: (١٦/ ٢٢٤).

(٣) انظر: صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢١١ -٢١٢)، فتح الباري: (١٤/ ١١ - ١٢، ١٣/ ٨٥)، جامع العلوم والحكم: (١/ ٢٥٠ – ٢٥١).

(٤) انظر: مشارق الأنوار: (١/ ٢٩٨).

(٥) صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢١٥).

فمن حديث أبي مسعود ﵁ يقول عليه الصلاة والسلام: [.. والجفاء وغلظ القلوب[١] في الفدادين[٢] أهل الوبر[٣]، عند أصول أذناب الإبل والبقر[٤]، في ربيعة ومضر[٥]].[٦]

وفي رواية [ألا إن القسوة وغلظ القلوب..[٧]].[٨]

---

(١) معنى اللفظين متقارب، قال ابن الأثير: (الجفاء غلظ الطبع). النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٨١)، ولذا قال في الفتح: (هما شيئان لمسمى واحد). فتح الباري: (١٤/ ١١)، وانظر: لسان العرب: (١/ ٦٤٦).

قال ابن حجر: (ويحتمل أن يقال: المراد بالجفاء أن القلب لا يلين بالموعظة ولا يخشع لتذكرة، والمراد بالغلظ أنها لا تفهم المراد ولا تعقل المعنى) فتح الباري: (١٤/ ١١).

(٢) الفدادين: جمع فداد بتشديد الدال، من الفديد، وهو شدة الصوت، يقال: رجل فداد: شديد الصوت جافي الكلام، والمراد الذين تعلوا أصواتهم في إبلهم وحروثهم ونحوها. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤١٩)، لسان العرب: (٥/ ٣٣٦٢ - ٣٣٦٣)، صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢١٥)، فتح الباري: (١٣/ ٨٤).

(٣) الوبر: صوف الإبل ونحوها، والمراد أهل البادية، لأنهم يتخذون بيوتهم منه، والعرب تعبر عن أهل البادية بأهل الوبر. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ١٤٥)، لسان العرب: (٦/ ٤٧٥٢)، فتح الباري: (١٣/ ٨٤).

(٤) (معناه الذين لهم جلبة و صياح عند سوقهم لها) صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢١٥).

(٥) أي في الفدادين من ربيعة ومضر. انظر: فتح الباري: (١٣/ ٨٤).

(٦) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ...﴾ (٣/ ١٢٨٩).

(٧) معناهما واحد، فقد فسّر أهل اللغة القسوة بمعنى الغلظ والشدة والصلابة. قال ابن فارس: (القسوة غلظ القلب) مقاييس اللغة: (ص:٨٥٦)، وانظر: لسان العرب: (٥/ ٣٦٣٣)، ترتيب القاموس: (٣/ ٦٢٢)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٧٠).

(٨) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب خير المسلم غنم.. (٣/ ١٢٠٢)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه..: (١/ ٧١).

والذّم في الحديث متجّه ـ والله أعلم ـ إلى أصحاب الإبل ونحوها من أهل البادية، الذين يتصفون بغلظ الطبع، وجفاء اللفظ، وبالفخر والتكبر والخيلاء، ثم هم يتشاغلون بأموالهم وحرثهم عن الاهتمام بأمور دينهم فتزداد قلوبهم غِلَظًا وقسوة.(١)

ومن حديث جابر بن عبد الله ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: [غلظ القلوب والجفاء في المشرق..].(٢)

والحديث يشير ـ والله أعلم ـ إلى أهل المشرق من الفرس ومن تابعهم من العرب، الذين اتصفوا بالغلظة والتجبر، والقسوة والتكبر، فلم يلينوا للحق، ولم يستجيبوا للهدى، ولم يقبلوا دعوة رسول الله ﷺ.(٣)

---

(١) انظر: فتح الباري: (١٣/ ٨٤)، لسان العرب: (٥/ ٣٣٦٣).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه.. (١/ ٧٣).

(٣) انظر: فتح الباري: (١٣/ ٨٤)، عمدة القاري: (١٥/ ١٩١)، فيض القدير: (١/ ٩٣).

المبحث السابع

القلوب المربوط عليها

أصل هذا الوصف يدل على شدّ وثبات(١)، مأخوذ من قولهم: ربط الشيء، يربطه، ربطًا: أي شدّه، ورجل رابط الجأش: إذا قوي قلبه وثبت واشتد، وربط الله على قلبه: أي شدّه وقواه.(٢)

واعتبر ابن القيم الربط على القلب في مقابل الخذلان فقال: (والربط على القلب عكس الخذلان.

فالخذلان: حله من رباط التوفيق، فيغفل عن ذكر ربه، ويتبع هواه، ويصير أمره فرطا.

والربط على القلب: شده برباط التوفيق، فيتصل بذكر ربه، ويتبع مرضاته، ويجتمع عليه شمله).(٣)

وقد ورد الربط على القلوب في ثلاث آيات كريمات.

١ .الآية الأولى قول الله ﷻ:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤١٧).

(٢) انظر: المفردات: (ص: ١٩٢)، لسان العرب: (٣/ ١٥٦٠ - ١٥٦١)، ترتيب القاموس: (٢/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٣) مدارج السالكين: (٣/ ٥٥).

﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

والآية تتضمن تذكيرًا بنعم الله تعالى ومننه على المؤمنين في غزوة بدر، ومن هذه النعم ربط القلوب: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾.

والمعنى: يقوي قلوبكم ويشدّها بمعاني الصبر والثبات، والشجاعة والإقدام، والطمأنينة واجتماع الفكر، ويزيل عنها الخوف والفزع والاضطراب.(١)

ومن ثَمّ فإن لفظ الربط في الآية الكريمة يتضمن معنى إنزال السكينة، وإفراغ الطمأنينة في القلب، وحين يحصل السكون، وتتحقق الطمأنينة، يشتد القلب ويثبت ويقوى.(٢)

وفي التعبير القرآني: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ إشارة إلى تمكن هذا الوصف واستحكامه واستقراره في قلوبهم.

يقول الرازي: (كلمة ﴿عَلَىٰ﴾ تفيد الاستعلاء، فالمعنى أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها).(٣)

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (٥/ ١٦٦٦)، تفسير السمعاني: (٢/ ٢٥٢)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٣٤)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥٠٦)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٦٩)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٢).

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٣٢)، نظم الدرر: (٣/ ١٩٣).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١٣٤)، وانظر: نظم الدرر: (٣/ ١٩٣)، روح المعاني: (٩/ ١٧٦)، تفسير ابن عاشور: (٩/ ٢٨٠).

واللام في: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ لام التعليل، متعلقة بتنزيل الماء من السماء.

قال الرازي: (والمراد أنه بسبب نزول المطر قويت قلوبهم، وزال الخوف والفزع عنهم).(١)

أي أن الله جل وعلا جعل نزول المطر يوم بدر سببًا لجملة من المنافع تحققّت للمؤمنين، تتضمن الطهارة الحسية الظاهرة، وزوال وساوس الشيطان المعنوية الخفية، وربط القلوب واطمئنانها، وثبات الأقدام.

وبين هذه المنافع نوع علاقة تجمعها وتربط بينها، لتكوّن في مجملها سببًا من أسباب النصر بتوفيق الله تعالى.(٢)

أمّا قوله تعالى في نهاية الآية الكريمة: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ فإن عامة المفسرين على أن الضمير يعود إلى المطر الذي أصاب الرمل فلبّده، بحيث تحقق لازم ذلك، وهو إمكان ثبات الأقدام عليه، والثبات على هذا حسّيّ.(٣)

غير أن بعضهم جوّز أن يكون عود الضمير إلى ربط القلوب، باعتباره سببًا في ثبات الأقدام في مواطن القتال، والثبات على هذا معنوي.(٤)

---

(١) تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١٣٤).

(٢) انظر: التسهيل: (٢/ ٦٢)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٦٩)، تفسير أبي السعود: (٤/ ٩)، تفسير المنار: (٩/ ٦١١ – ٦١٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٩٤، ١٩٧)، تفسير السمعاني: (٢/ ٢٥٢)، التسهيل: (٢/ ٦٢)، وغيرها.

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٤)، تفسير الزمخشري: (٢/ ١٩٤)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥٠٦)، زاد المسير: (٣/ ٢٢٣)، تفسير النسفي: (١/ ٦٠٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٢)، نظم الدرر: (٣/ ١٩)، روح المعاني: (٩/ ١٧٧).

٢. الآية الثانية قول الله ﷻ:

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٤].

والآية الكريمة في قصة أصحاب الكهف، تخبر أن الله تبارك وتعالى ربط على قلوبهم حين قالوا ربنا الله، معلنين إيمانهم به، معتقدين أن توحيد الله وحده هو الحق، وأن القول بغير ذلك باطل وجور ومجانبة للصواب.

والمراد بالربط على قلوبهم إفاضة الصبر والثبات عليها، فتجسر على مواجهة الشدائد، وتعزم على الصدع بالحق ومخالفة الباطل، وتقوى على التضحية بالملذات والرغائب.(١)

قال ابن قتيبة: (أي ألهمناهم الصبر وثبتنا قلوبهم).(٢)

وقال ابن عطية: (وقوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ عبارة عن شدة عزم وقوة صبر، أعطاها الله لهم، ولما كان الفزع وخور النفس يشبه بالتناسب الانحلال، حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط).(٣)

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٢٠٧)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٢٢٢)، تفسير الواحدي: (٢/ ٦٥٥)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٦٦١).

(٢) تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٦٤).

(٣) تفسير ابن عطية: (٣/ ٥٠١).

وقال ابن القيم: (والربط على قلوبهم يتضمن الشدّ عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش، وفروا بدينهم إلى الكهف).(١)

٣. الآية الثالثة قول الله ﷻ:

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠].

والآية الكريمة في شأن أم نبي الله موسى عليه السلام، تبين حالها بعد أن أصبح ابنها بين يدي فرعون وتحت سلطانه: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (فارغًا من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام).(٢)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (فرغ من ذكر كل شيء من أمر الدنيا إلا من ذكر موسى عليه السلام).(٣)

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ٥٥)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ١٥٣).

(٢) تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٥)، تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٢٩٤٦)، الدر المنثور: (٦/ ٣٩٤).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٢٩٤٦)، الدر المنثور: (٦/ ٣٩٤).

يقول ابن قتيبة: (كأنها لم تهتم بشيء - مما يهتم به الحي - إلا أمر ولدها).[١]

وما روي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم في معنى الآية روي نحوه عن عدد من التابعين، كمجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك، وغيرهم.[٢]

وهذا القول[٣] في المراد بفراغ القلب في الآية هو قول أكثر المفسرين[٤]، ورجحه ابن جرير[٥]، وابن قتيبة[٦]، والبغوي[٧]، وأبو جعفر النحاس وقال: (والذين قالوه - أي من الصحابة والتابعين - أعلم بكتاب الله جل وعز).[٨]

---

(١) تفسير غريب القرآن: (ص: ٣٢٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٦)، تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٢٩٤٦)، تفسير الصنعاني: (٣/ ٨٨)، الدر المنثور: (٦/ ٣٩٤ - ٣٩٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٨١).

(٣) هناك أقوال أخرى أوردها بعض المفسرين، ومنها:

أ - فارغًا من الوحي الذي أوحاه الله إليها، وذلك بنسيانه.

ب - فارغًا من الغم والحزن لعلمها أنه لم يغرق، أو لم يقتل.

ج - فارغًا من العقل.

انظر: معاني القرآن للنحاس: (٥/ ١٥٩ - ١٦٠)، زاد المسير: (٦/ ٨٩)، تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ٢٢٩)، تفسير القرطبي: (١٣/ ١٦٩)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ١٠٦ - ١٠٧).

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ١٣٤)، تفسير السمعاني: (٤/ ١٢٤)، تفسير البغوي: (٣/ ٤٣٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٨١).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٧).

(٦) انظر: تفسير غريب القرآن: (٣٢٩).

(٧) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٤٣٧).

(٨) معاني القرآن: (٥/ ١٦١).

أما الضمير البارز في قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ فيعود إلى موسى عليه السلام، والمعنى أنها من شدة ما أصابها من الهمّ كادت أن تظهر أمره، وتخبر بقصته، وأنه ولدها[١] ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمقصود أن الله تبارك وتعالى عصمها وحفظها مما يسؤوها، وذلك بتوفيقها إلى الصبر والثبات.

قال ابن كثير: (أي إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أن الله ثبتها وصبرها).[٢]

وللمفسرين في معنى الربط على القلب في الآية عبارات أخرى منها:

قول ابن عطية: (والربط على القلب تأنيسه وتقويته).[٣]

وقول النسفي: (والربط على القلب تقويته بإلهام الصبر).[٤]

وقول ابن جرير: (لولا أن عصمناها من ذلك، بتثبيتنا لها، وتوفيقنا لها للسكوت عنه).[٥]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٧)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٤٠٠)، التسهيل: (٣/ ١٠٢)، تفسير النسفي: (٢/ ٦٣٥).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٨١)، وانظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ١٨٨)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٥).

(٣) تفسير ابن عطية: (٤/ ٢٧٨)، وانظر: معاني القرآن للنحاس: (٥/ ١٦٢).

(٤) تفسير النسفي: (٢/ ٦٣٥)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ١٣٤)، تفسير الواحدي: (٢/ ٨١٣).

(٥) تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٨)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٤٣٧).

وقول أبي حيان: (والربط على القلب كناية عن قراره واطمئنانه، شبيه بما يربط مخافة الانفلات).[1]

والمتأمل في هذه الأقوال يلحظ أنها ليست متباعدة، بل هي متقاربة في المعنى، أو متلازمة.

فإن تقوية القلب تكون بالصبر والثبات، وهما يتأسسان على قاعدة من القرار والسكون والاطمئنان.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لتعليل الربط على القلب، والمعنى: (صبرناها وثبتنا قلبها لتكون راسخة في التصديق بوعدنا)[2] وهو ما تضمنه وحي الله إليها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

---

(١) تفسير البحر المحيط: (٧/ ١٠٧)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ٤٠٠).

(٢) روح المعاني: (٢٠/ ٤٩)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٠/ ٣٨)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٥٩٩)، تفسير القرطبي: (١٣/ ١٧٠).

الفصل الثاني:

القلوب الميتة

ويشتمل على ثلاثة عشر مبحثًا:

المبحث الأول: القلوب اللاهية.

المبحث الثاني: القلوب القاسية.

المبحث الثالث: القلوب المتكبرة.

المبحث الرابع: القلوب المشمئزة.

المبحث الخامس: القلوب المرتابة.

المبحث السادس: القلوب المنكرة.

المبحث السابع: القلوب الزائغة.

المبحث الثامن: القلوب الغافلة.

المبحث التاسع: القلوب العمي.

المبحث العاشر: القلوب المكنونة.

المبحث الحادي عشر: القلوب المطبوع عليها.

المبحث الثاني عشر: القلوب المختوم عليها.

المبحث الثالث عشر: القلوب المقفلة.

المبحث الأول

القلوب اللاهية

أصل (اللهو) في اللغة يدلّ على شغلٍ عن شيء بشيء، وكل شيء شغلك عن شيء فقد ألهاك.

يقال: لهوت بالشيء، وتلهيّت به، إذا لعبت به، وتشاغلت، وغفلت به عن غيره.

ولهِيَ عن الشيء، وتلهّى عنه: غفل عنه، وأعرض عنه، ونسيه وسلا عنه، وترك ذكره.(1)

قال الراغب: (اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمّه).(2)

وقد أسند اللهو إلى القلوب في قول الله تعالى:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢ - ٣].

والآيات الكريمة نزلت في شأن مشركي قريش، ومن شابههم من أهل الكفر.(3)

---

(١) انظر: المشوف المعلم: (٢/ ٦٨٤)، مقاييس اللغة: (ص: ٩٠٥)، لسان العرب: (٥/ ٤٠٨٩)، ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ١٧٨ - ١٧٩).

(٢) المفردات: (ص: ٤٥٨).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ١٠٢)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٧٣)، زاد المسير: (٥/ ٢٣٣)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٧٣).

والمراد بالذكر في قوله سبحانه ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾: هو القرآن.[١]

عن قتادة قال: (ما ينزل عليهم شيء من القرآن إلا استمعوه وهم يلعبون).[٢]

قال الواحدي: (يعني ما يحدث الله تعالى من تنزيل شيء من القرآن يذكرهم ويعظهم به).[٣]

والآيات تتضمن بيان موقف الكفار من القرآن الذي يتنزل على رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وجملة ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ في موقع الحال. والمعنى: لا يستمعون إليه إلا حال كونهم لاعبين: أي مستهزئين بكلام الله جل شأنه، ساخرين من الرسول المنزل عليه، المبلغ له، عليه الصلاة والسلام.

فهم لا يصغون ولا يقصدون سماع هذا الوحي الإلهي سماعًا نافعًا مثمرًا، يصل أثره إلى قلوبهم، بل يجعلون استماعهم سبيلًا إلى إرادة الطعن وإثارة الشبهة حوله، ولذا يتشاغلون بالسخرية والاستهزاء، فلا يتدبرون الألفاظ، ولا يفقهون المعاني، ولا تتعظ القلوب، ومن ثمّ يبقى حظهم من

---

(١) انظر: التسهيل: (٣/ ٢٢)، تفسير النسفي: (٢/ ٣٨٩)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٧٣)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٥٤).

(٢) تفسير الطبري: (١٧/ ٢)، الدر المنثور: (٥/ ٦١٦).

(٣) تفسير الواحدي: (٢/ ٧١٠)، وانظر: تفسير الطبري: (١٧/ ٢)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٣٨).

القرآن سماع الألفاظ، وحينئذ فالسماع وعدمه سواء.[١]

قال الرازي: (لأن الانتفاع بما يسمع لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكر، وإذا كانوا عند استماعه لاعبين حصلوا على مجرد الاستماع الذي قد تشارك البهيمة فيه الإنسان).[٢]

وفي تضمين الآية ما يفيد تجديد التنزّل القرآني ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ زيادة توبيخ لأولئك الكفرة، باعتبار أن الآيات والسور يتجدد تنزيلها مرة بعد مرة، ووقتًا بعد وقت، فالتذكير[٣] يتكرر، والحق يتواصل، والبراهين تتنوع، ومع ذلك كله فهم يواجهونه في كل مرة باللعب والتشاغل، قصدًا منهم للصدود والإعراض.[٤]

ثمّ وصفت الآيات الكريمة قلوب هؤلاء الكفار بأنها لاهية، وفي ذلك تأكيد لذمّهم، وإشارة إلى أن لهو قلوبهم هو العلة في استهزائهم بما يتنزل من الذكر ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ فلما لهت القلوب، تشاغلت الجوارح

---

(١) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢٣٨)، تفسير الزمخشري: (٣/ ١٠٢)، زاد المسير: (٥/ ٢٣٤)، تفسير النسفي: (٢/ ٣٨٩)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٦٤)، نظم الدرر: (٥/ ٦٥)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٥٤).

قال الفيروز ابادي: اللعب (هو كل فعل لا يدل على مقصد صحيح)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤٣١)، وانظر المفردات: (ص: ٤٥٤).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ١٤١).

(٣) قال ابن عاشور في تفسيره للآية: (الذكر القرآن، أطلق عليه اسم الذكر الذي هو مصدر لإفادة قوة وصفه بالتذكير)، تفسير ابن عاشور: (٧/ ١١).

(٤) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ١٠٢)، تفسير ابن عاشور: (٧/ ١١).

باللعب سخرية واستهزاء.[1]

و﴿ لَاهِيَةً ﴾ في موقع الحال أيضًا، والمعنى: استمعوه لاعبين حال كونهم قلوبهم لاهية.[2]

عن قتادة في قوله تعالى ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ قال: (غافلة قلوبهم).[3]

وبقول قتادة قال جمع من أهل التفسير.[4]

ومنهم من فسرها بالذهول[5]، وهو بمعنى الغفلة.[6]

ومن المفسرين من عبّر عن المعنى بعبارات ليست بخارجة عن دائرة المعنى اللغوي للغفلة والتلهّي.

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ١٤١).

(٢) يجوز -كما قال أهل الإعراب والتفسير- أن يكون ﴿ لَاهِيَةً ﴾ حالًا من ضمير الفاعل في: ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾، وعلى هذا فالحالان متداخلتان، والمعنى استمعوه لاعبين حال كون قلوبهم لاهية. ويجوز أن يكون ﴿ لَاهِيَةً ﴾ حالًا من ضمير الفاعل في: ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ ﴾ فتكون الحالان: ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ و﴿ لَاهِيَةً ﴾ مترادفتين، حالًا بعد حال، على معنى استمعوه لاعبين لاهية قلوبهم. انظر: إملاء ما من به الرحمن: (٢/ ١٣٠)، تفسير الزمخشري: (٣/ ١٠٢)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٢٩٦).

(٣) تفسير الطبري: (١٧/ ٢)، الدر المنثور: (٥/ ٦١٦).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ٢)، تفسير الواحدي: (٢/ ٧١٠)، تفسير السمعاني: (٣/ ٣٦٨)، زاد المسير: (٥/ ٢٣٤)، تفسير النسفي: (٢/ ٣٩٠).

(٥) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ١٠٢)، تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ١٤)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٦٤)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٢٩٦).

(٦) يقال: ذهل الشيء، وذهل عنه، بالفتح والكسر: تركه، أو غفل عنه، أو نسيه، أو شغل عنه. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٣٦٩)، لسان العرب: (٣/ ١٥٢٤).

قال السمرقندي: (يعني ساهية قلوبهم عن أمر الآخرة).[1]

وقال القرطبي: (أي ساهية قلوبهم، معرضة عن ذكر الله، متشاغلة عن التأمل والتفهم).[2]

وقال البقاعي: (أي غارقة قلوبهم في اللهو، مشغولة به عما حداها إليه القرآن).[3]

والمقصود في الآيات الكريمة أن قلوب هؤلاء قد استولت عليها الغفلة عن دلائل التوحيد، والتلهّي بإرادة الدنيا وشهواتها، والانشغال بالباطل، عن النظر في كلام الله تعالى، وتفهّم معانيه، والتأمل في آياته وحججه، فسهت عن ذكر الله، وأعرضت عن وحيه، وانصرفت عن الإيمان والهدى، فلما تلهت القلوب عن التذكر والتبصّر، أثّر ذلك في الأسماع، فلم يثمر سماع القرآن انتفاعًا، ولم ينتج عظة أو عبرة، لأنه سماع لا وعي معه ولا تدبر، ولا حركة فيه للقلب ولا أثر، بل سماع يصاحبه اللعب، ويخالطه السخرية والاستهزاء والصخب، فصار هو وعدم الاستماع سواء، فلا ثمرة ترجى من ورائه ولا جدوى.

---

(١) تفسير السمرقندي: (٢/ ٤١٩)، وانظر: المفردات: (ص: ٤٥٩)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٥٤).

(٢) تفسير القرطبي: (١١/ ١٧٨)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢٣٨).

(٣) نظم الدرر: (٥/ ٦٥).

المبحث الثاني

القلوب القاسية

أصل القسوة الشدة والصلابة.

يقال: قسا الشيء، يقسو، قسوة، وقساوة: صلب وغلظ، وأرض قاسية: لا تنبت شيئًا، وقسوة القلب: غِلَظه وشدته.[١]

قال الراغب: (القسوة غلظ القلب، وأصله من حجر قاس).[٢]

وقال ابن القيم: (القسوة يبس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل).[٣]

وقد أسندت القسوة إلى القلوب في ست آيات من كتاب الله العزيز:

١. يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤].

والآية في شأن اليهود[١]، تصف قلوبهم بالقسوة: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٥٦)، لسان العرب: (٥/ ٣٦٣٣)، ترتيب القاموس: (٣/ ٦٢٢).

(٢) المفردات: (ص: ٤٠٤)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٧٠).

(٣) الروح: (ص: ٢٩٩) في معرض التفريق بين الصبر والقسوة.

(٤) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢/ ١٤٢)، تفسير القرطبي: (١/ ٣١٤) تفسير ابن كثير: (١/ ١١٣).

قال المفسرون: أي اشتدت وصلبت، وجفت وعست، وغلظت ويبست.[1]

فإذا استقرت هذه المعاني في القلب زال ما يقابلها من الرقة واللين.

قال الزجاج: (تأويل قست في اللغة غلظت ويبست وصلبت، فتأويل القسو في القلب ذهاب اللين والرحمة والخضوع والخشوع منه).[2]

والإشارة في قوله سبحانه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ إلى الآيات والمعجزات المتعددة التي أظهرها الله تعالى على يد موسى عليه السلام، والتي توجب رقة القلب وخضوعه، وتقتضي لينه وإنابته، لكن قلوب أولئك اليهود كانت أصلب من أن تلين لآية، أو ترق لمعجزة، أو تتأثر بموعظة، أو تنتفع بعبرة، أو تخضع لبينة وحجة، أو تنيب وتذعن لما يجب عليها من الحق لله جل وعلا.[3]

وقد شبهت الآية الكريمة قلوبهم في هذه القسوة بالحجارة ﴿فَهِىَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾.

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٥٥)، غريب القرآن لليزيدي: (ص: ٧٤)، تفسير الطبري: (١/ ٣٦١)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٢٤٩)، تفسير أبي السعود: (١/ ١١٤).

(٢) معاني القرآن: (١/ ١٥٥)، وانظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٩٥)، تفسير البغوي: (١/ ٨٥)، تفسير ابن عطية: (١/ ١٦٦)، زاد المسير: (١/ ٨٨).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري: (١/ ١٨٣)، معاني القرآن للزجاج: (١/ ١٥٥)، تفسير النسفي: (١/ ٦٣)، تفسير ابن كثير: (١/ ١١٣)، تفسير أبي السعود: (١/ ١١٥).

والأقرب أن ﴿أَوۡ﴾ في الآية للتنويع، رجح ذلك أبو حيان، وقال: (كأن قلوبهم على قسمين، قلوب كالحجارة قسوة، وقلوب أشد قسوة من الحجارة، فأجمل ذلك في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾، ثم فصل ونوع إلى شبه بالحجارة، وإلى أشد منها، إذ ما كان أشد كان مشاركًا في مطلق القسوة ثم امتاز بالأشدية).[1]

واختار الزجاج أن تكون ﴿أَوۡ﴾ للإباحة، وقال: (فالتأويل: اعلموا أن قلوب هؤلاء إذا شبهتم قسوتها بالحجارة فأنتم مصيبون، أو بما هو أشد فأنتم مصيبون).[2]

ورجح صاحب المنار: (أن تكون للإضراب على طريقة المبالغة، أي بل هي أشد قسوة من الحجارة).[3]

ثم قررت الآية الكريمة أن الحجارة أفضل حالًا من قلوب أولئك اليهود ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ﴾.

---

(١) تفسير البحر المحيط: (١/ ٢٦٢)، وانظر: تفسير الطبري: ١/ ٣٦٢ - ٣٦٣)، تفسير ابن كثير: (١/ ١١٤).

(٢) معاني القرآن: (١/ ١٥٦)، وانظر: تفسير القرطبي: (١/ ٣١٤).

(٣) تفسير المنار: (١/ ٣٥٢)، وانظر: تفسير الطبري: (١/ ٣٦٣)، تفسير القرطبي: (١/ ٣١٤)، تفسير ابن كثير: (١/ ١١٤).

قال السمرقندي: (أعذر الحجارة، وعاب قلوبهم بقساوتها حين لم تلن بذكر الله ولا بالمواعظ).(١)

إذ من الحجارة ما يقبل التأثير في صلابته، فيرق لظهور الماء منه تفجرًا وتفتحًا في غزارة وكثرة، ليتدفق بعد ذلك على هيئة أنهار، أو تشققًا وتصدعًا، فينبع منه الماء أقل تدفقًا، سواء جرى بعد ذلك على هيئة عيون، أو بقي دون جريان.(٢)

والمقصود أن الحجارة يمكن أن تلين لخروج الماء منها كثيرًا أو قليلًا، فتثمر بذلك نفعًا، بينما قلوب هؤلاء قاسية، لا تلين للموعظة، ولا تتأثر بالآية، ولا تخشع للهدى، ولا تقبل الحق، ولا تستجيب للخير.

قال ابن جرير: (أخبر تعالى ذكره أن من الحجارة ما هو ألين من قلوبهم لما يدعون إليه من الحق).(٣)

وقال الألوسي: (والمعنى أن الحجارة تتأثر وتنفعل، وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل عن أمر الله تعالى أصلًا).(٤)

---

(١) تفسير السمرقندي: (١/ ٩٢).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري: (١/ ١٨٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢/ ١٤٤)، تفسير القرطبي: (١/ ٣١٥)، تفسير النسفي: (١/ ٦٣)، الروض الريان في أسئلة القرآن: (١/ ١٤).

(٣) تفسير الطبري: (١/ ٣٦٤).

(٤) روح المعاني: (١/ ٢٩٦).

كما أن من الحجارة ما يتردّى من علو الجبل إلى أسفله تأثرًا من خوف الله جل وعلا وخشيته(١) ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

والمراد بيان أن قلوب أولئك اليهود خالية من خشية الله تعالى، بسبب غلظها وصلابتها، ويبسها وجفافها، فأثمر ذلك عنادًا وتكبرًا وإصرارًا على الباطل، بينما تلك الحجارة منقادة خاشية خاشعة لله جل شأنه.

٢. يقول الله جل شأنه:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

والآية الكريمة تقرر طبيعة اليهود في نقض المواثيق المؤكدة، وتذكر آثار ذلك وعواقبه عليهم(٢) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

والباء سببية، و﴿مَا﴾ للتوكيد وتمكين المعنى(٣)، والمراد بالميثاق ما أخذه الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل من العهود بتوحيده سبحانه، والإيمان

---

(١) وذلك بما يحصل لها من إلهام الله تعالى، وما يخلقه فيها من إدراك تقع به الخشية. انظر: معاني القرآن للزجاج: (١/ ١٥٧ - ١٥٨)، تفسير السمعاني: (١/ ٩٦)، تفسير البغوي: (١/ ٨٥ - ٨٦)، تفسير ابن عطية: (١/ ١٦٧)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٢٦٦)، تفسير ابن كثير: (١/ ١١٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٤٧ - ١٤٨، ١٥٣ - ١٥٤)، تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٣٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٦/ ٧٦)، تفسير أبي السعود: (٣/ ١٦)، تفسير القاسمي: (٦/ ١٣٢).

برسله عليهم السلام، وبالعمل بما تتضمنه التوراة من طاعة الله وإخلاص العبادة له جل وعلا.[1]

والمعنى أن نقض اليهود للمواثيق، ومخالفتهم للعهود، كان سببًا موجبًا للطرد والإبعاد عن الرحمة والخير، وعن الهدى والحق، كما كان سببًا موجبًا لقسوة قلوبهم، فلا تتعظ بالمواعظ، ولا تلين للآيات، ومن ثمّ تكون محجوبة عن الهدى والعلم النافع، عقوبة من الله تبارك وتعالى لهم.[2]

قال ابن عطية: (القسوة غلظ القلب، ونبوّه عن الرقة والموعظة، وصلابته حتى لا ينفعل لخير).[3]

يقول ابن جرير في تفسير الآية: (أي جعلنا قلوبهم قاسية غليظة يابسة عن الإيمان بي، والتوفيق لطاعتي، منزوعة منها الرأفة والرحمة).[4]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٤٨، ١٥٤)، تفسير السمرقندي: (١/ ٣٩٩)، تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٤٣).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ١٦٩)، تفسير الفخر الرازي: (١١/ ١٨٧)، تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٤٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٣)، روح المعاني: (٦/ ٨٩)، تفسير المنار: (٦/ ٢٨٢)، تفسير ابن عاشور: (٦/ ١٤٣)، تفسير السعدي: (١/ ٤٦٧ – ٤٦٨)، في ظلال القرآن: (٢/ ٨٥٨ – ٨٥٩)، مجموع الفتاوى: (١٨/ ١٧٧)، مدارج السالكين: (٢/ ٢٧).

(٣) تفسير ابن عطية: (٢/ ١٦٩)، وانظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ١٤٢)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ١٥٩-١٦٠)، تفسير السمعاني: (٢/ ٢١)، زاد المسير: (٢/ ٢٥٢)، تفسير النسفي: (١/ ٣٩٧).

(٤) تفسير الطبري: (٦/ ١٥٤)، وانظر: معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٢٨١)، تفسير القرطبي: (٦/ ٧٦).

وفي لفظ ﴿قَٰسِيَةً﴾ قراءتان ثابتتان:

الأولى: بالقصر، أي بحذف الألف وتشديد الياء ﴿قَسِيَّة﴾ على وزن مَطِيّة.

الثانية: بالمد، أي بإثبات الألف بعد القاف وتخفيف الياء ﴿قَٰسِيَةً﴾ على وزن راضية.[1]

وفي المعنى على القراءة بالقصر (قسية) قولان:

الأول: أن قلوبهم ليست خالصة صافية، بل هي رديئة قد خالطها فساد الكفر، تشبيها لها بالدراهم القسية، يقال: درهم قسيّ، أي رديء مغشوش، قد خالط فضته شيء من النحاس ونحوه. وهو قول بعض المفسرين[2]، ومنهم النسفي.[3]

الثاني: أن القراءتين بمعنى واحد، إذ (قاسية) على وزن فاعلة، و(قسية) على وزن فعيلة، وكلاهما من القسوة، إلا أن الثانية أبلغ في الذم من الأولى.

---

(١) القراءة الأولى لحمزة والكسائي، والثانية للباقين من العشرة. انظر: النشر: (٢/ ١٩١)، سراج القارئ: (ص: ١٩٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٥٤)، معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٢٨١)، تفسير الزمخشري: (١/ ٦٥٠)، تفسير البيضاوي: (١/ ٢٥٩)، تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٤٥)، حجة القراءات: (ص: ٢٢٤).

(٣) انظر: تفسير النسفي: (١/ ٣٩٧).

وهو قول ابن عطية[١]، والسمرقندي[٢]، وأبي حيان[٣]، ورجحه أبوجعفر النحاس[٤]، كما رجحه ابن جرير فقال: (وأولى التأويلين في ذلك بالصواب تأويل من تأوله فعيلة من القسوة، كما قيل: نفس زكية وزاكية، وامرأة شاهدة وشهيدة، لأن الله جل ثناؤه وصف القوم بنقضهم ميثاقهم وكفرهم به، ولم يصفهم بشيء من الإيمان، فتكون قلوبهم موصوفة بأن إيمانها يخالطه كفر كالدراهم القسية التي يخالط فضتها غش).[٥]

وقد ردّ الزمخشري القول الأول إلى هذا القول الثاني حين قال في معنى (قسية): (أي ردية مغشوشة، من قولهم: درهم قسي، وهو من القسوة، لأن الذهب والفضة الخالصين فيهما لين، والمغشوش فيه يبس وصلابة).[٦]

ثم بينت الآية الكريمة بعض مظاهر قسوة القلوب لدى اليهود[٧]،

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ١٦٩).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٤٠٠).

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٤٥).

(٤) انظر: معاني القرآن: (٢/ ٢٨١).

(٥) تفسير الطبري: (٦/ ١٥٥)، وانظر: إبراز المعاني: (٢/ ٤٢٦)، تفسير القرطبي: (٦/ ٧٦)، تفسير المنار: (٦/ ٢٨٢).

(٦) تفسير الزمخشري: (١/ ٦٥٠)، وانظر: تفسير القرطبي: (٦/ ٧٦)، تفسير البيضاوي: (١/ ٢٥٩)، تفسير أبي السعود: (٣/ ١٦)، روح المعاني: (٦/ ٨٩).

(٧) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٥٥)، تفسير الزمخشري: (١/ ٦٥٠)، تفسير البيضاوي: (٢٥٩/١)، إملاء ما من به الرحمن: (١/ ٢١١).

ومن ذلك افتراؤهم على الله جل وعلا، وتعديهم على وحيه سبحانه ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

وهذا التحريف منهم لكلام الله تعالى مستمر ومتجدد[١]، سواء كان بتغيير الحروف وتبديل الألفاظ، أو كان بفساد التأويل وتفسير كلام الله سبحانه على غير معناه.

قال أبو حيان: (الصحيح أن تحريف الكلم عن مواضعه هو التغيير في اللفظ والمعنى).[٢]

وقال ابن عطية بعد أن ذكر اختلاف العلماء في صورة التحريف هل هي للألفاظ أو للمعاني: (وألفاظ القرآن تحتمل المعنيين، فقوله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾[البقرة: ٧٩] يقتضي التبديل، ولا شك أنهم فعلوا الأمرين).[٣]

يقول ابن كثير في تفسير الآية: (﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي فسدت فهومهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: (٣/ ١٦)، تفسير ابن عاشور: (٦/ ١٤٣).

(٢) تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٤٦)، وانظر: معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٢٨٢)، تفسير القاسمي: (٦/ ١٣٢).

(٣) تفسير ابن عطية: (٢/ ١٦٩)، وانظر: تفسير المنار: (٦/ ٢٨٢ – ٢٨٣).

كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل عياذًا بالله من ذلك).[١]

ومن مظاهر قسوة قلوبهم أيضًا ترك العمل بنصيب وافٍ مما أمروا به في التوراة[٢] ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ والنسيان هنا بمعنى الترك، والحظ: النصيب، أي تركوا نصيبًا وافرًا عظيمًا مما كلفوا به من شرع الله سبحانه، فرغبوا عنه ولم يعملوا به.[٣]

٣. يقول الله جل وعلا:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

تتضمن هذه الآية الكريمة نهي المؤمنين عن مشابهة أهل الكتاب فيما اتصفوا به من قسوة القلوب ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٣).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٤٠٠)، تفسير النسفي: (١/ ٣٩٧)، نظم الدرر: (٢/ ٤١٦).

(٣)انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٥٥)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ١٤٢)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ١٦٠)، تفسير الزمخشري: (١/ ٦٥٠)، زاد المسير: (٢/ ٢٥٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٣)، روح المعاني: (٦/ ٨٩).

والأمد: الزمان، والكتاب: التوراة والإنجيل، والذين أوتوه هم اليهود والنصارى، والمراد تباعد العهد، وتطاول الزمن بينهم وبين أنبيائهم عليهم السلام.[١]

والمعنى أنهم بسبب طول الأمد أصابتهم الغفلة عن ذكر الله جل وعلا وما جاءهم من الحق، وزال الخشوع عن قلوبهم، وغلب عليها الجفاء، فأصبحت قاسية لا تلين للذكر، ولا تستجيب للهدى، ولا ترقّ للطاعة والخير.[٢]

قال ابن عطية: (قست: معناه صلبت وقل خيرها وانفعالها للطاعات، وسكنت إلى معاصي الله).[٣]

يقول ابن كثير: (نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمنًا قليلًا، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله،

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٧/ ٢٢٨ – ٢٢٩)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٦٩)، تفسير السمعاني: (٥/ ٣٧٢)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٩٧)، زاد المسير: (٧/ ٣٠٥)، نظم الدرر: (٧/ ٤٤٨)، فتح القدير: (٥/ ١٧٩).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٧٥)، نظم الدرر: (٧/ ٤٤٨)، روح المعاني: (٢٧/ ١٨١).

(٣) تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٦٤)، وانظر: تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٨٥)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٢٢٣).

واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد).[1]

وقد ألمح أبو موسى الأشعري ؓ إلى مضمون هذه الآية الكريمة في وصيته لقراء أهل البصرة، حين بعث إليهم (فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرأوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب من كان قبلكم..).[2]

٤. ويقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٣].

تتضمن الآيتان الكريمتان تحذيرًا من قسوة القلب، وأنها سبب

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣١٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا: (١/ ٧٢٦). وقد روى ابن ماجة حديثًا طويلًا من رواية ابن مسعود ؓ مرفوعًا إلى رسول ﷺ، وفيه: (ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم) المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل: (١/ ١٨).

قال الكناني في مصباح الزجاجة: (١/ ١٠): هذا إسناد ضعيف، عبيد بن ميمون، أبو عبيدة: قال فيه أبو حاتم: مجهول.

وهذا الحديث رواه عبد الرزاق في مصنفه: (١١/ ١١٦)، والطبراني في الكبير: (٩/ ٩٦) موقوفًا على ابن مسعود ؓ.

للانهماك في الكفر، والإصرار على العصيان، والاستكبار عن أمر الله تعالى، والحرمان من رحمته سبحانه.

إذ يخبر الله ﷻ عن أمم سابقة لبعثة رسول الله ﷺ، أرسل جل وعلا إليها رسلًا، فواجهوهم بالتكذيب، فابتلاهم الله سبحانه بالبأساء والضراء، أي بالشدائد والمصائب في الأموال والأبدان[1]، ليعودوا إليه جل شأنه بالتذلل والاستكانة، والتوبة والإنابة، والانقياد والطاعة، والتخشع والدعاء، فيصرف عنهم البأس، ويكشف ما نزل بهم من البلاء، لكنهم عاندوا، فلم يخضعوا أو يستكينوا، مع حصول ما يستدعي ذلك، وتحقق ما يقتضيه.[2]

قال الزجاج: (المعنى أن الله جل ثناؤه أعلم نبيه أنه قد أرسل الرسل قبله إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم ليخضعوا ويذلوا لأمر الله، لأن القلوب تخشع، والنفوس تضرع، عند ما يكون من أمر الله في البأساء والضراء، فلم تخشع ولم تضرع).[3]

يقول الله جل شأنه: ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾.

(١) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ١٩٢)، تفسير الواحدي: (١/ ٣٥٣)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٩١)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٧٣)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٣٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ١٩٢)، تفسير البغوي: (٢/ ٩٦)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٢٣)، زاد المسير: (٣/ ٢٨)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٧٣).

(٣) معاني القرآن: (٢/ ٢٤٨)، وانظر: شجرة المعارف والأحوال: (ص: ٧٦).

قال المفسرون: ﴿ لَوْلَا ﴾ للتحضيض، والمعنى: هلا تضرعوا حين أصابهم البلاء، ونزل بهم العذاب(١)، وفيه إشارة إلى أن التضرع لم يحصل منهم.(٢)

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ذكر للأسباب التي حملتهم على التزام الكفر، والإصرار على الباطل، والاستكبار عن التضرع إلى الله تعالى، والمتمثلة في غلظ قلوبهم وصلابتها، ويبسها وجفافها وتحجرها، وخلوّها عن معاني اللين والرقة والخشوع(٣)، والمتمثلة كذلك في إعجابهم بما يفعلونه من مظاهر الشرك وأنواع المعاصي والشهوات التي يزخرفها الشيطان ويحسنها لهم.

قال الرازي في تفسير الآية: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ .. ﴾: (معناه نفي التضرع، والتقدير: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا، وذكر كلمة لولا يفيد أنه ما كان لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوتهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم).(٤)

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ١٥٣)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٤٨)، معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٢٢٤)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٩٢)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٧٤).

(٢) انظر: إملاء ما من به الرحمن: (١/ ٢٤٢)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٧٤)، نظم الدرر: (٢/ ٦٣٦)، تفسير القاسمي: (٦/ ٥٢٧).

(٣) انظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٤٦٨)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٩٢)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٧٤)، تفسيرابن كثير: (٢/ ١٣٢)، في ظلال القرآن: (٢/ ١٠٨٩).

(٤) تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ٢٢٤)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٢/ ٢٣)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ١٣٠).

٥. يقول الله ﷻ:

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣].

قال ابن جرير: (قست قلوبهم عن الإيمان بالله، فلا تلين ولا ترعوي).(١)

وقال السمعاني: (أي الجافة قلوبهم عن قبول الحق).(٢)

والمراد بالقاسية قلوبهم في الآية المشركون المجاهرون بالكفر، في مقابل الذين في قلوبهم مرض من أهل الشك والنفاق، كما قال جمهور المفسرين.(٣)

والمقصود بالفتنة الضلالة(٤)، التي تنتج عن ابتلائهم وامتحانهم بكيد الشيطان وإلقائه، فيظهر ما في قلوبهم من الفساد والخبث.

---

(١) تفسير الطبري: (١٧/ ١٩١)، وانظر: زاد المسير: (٥/ ٣٠٣)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٨).

(٢) تفسير السمعاني: (٣/ ٤٤٩)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢٩٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٩١)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٤٦٦)، تفسير الواحدي: (٢/ ٧٣٨)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٩٤)، تفسير الزمخشري: (٣/ ١٦٧)، تفسير الفخر الرازي: (٢٣/ ٥٥)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٩٣)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٩)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١٤).

ومن المفسرين من قال بأن الذين في قلوبهم مرض هم الكفار عامة، والقاسية قلوبهم هم الكبراء في العتو والتمرد. انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٩)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨٢).

(٤) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٧٣٨)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٨)، فتح القدير: (٣/ ٤٦٢).

قال أبو حيان في تفسير الآية: (ليجعل ما يلقي الشيطان من تلك الشبه وزخارف القول فتنة لمريض القلب وقاسيه).[1]

وقال محمد الأمين: (ومعنى كونه فتنة لهم أنه سبب لتماديهم في الضلال والكفر).[2]

ومضمون الآية الكريمة يؤكد أن القلب القاسي يتقبل كيد الشيطان، ويتجاوب مع وساوسه وشبهه، ويفتتن بإلقاءاته.

ذلك أن الحق يحتاج إلى محل لين قابل له، فإذا انتفت عن القلب معاني اللين والخشوع والرقة، وصار قلبًا يابسًا صلبًا، غليظًا جافًا، شديدًا جامدًا، فإنه حينئذ يصبح بمنزلة الحجر، لا يلين للهدى، ولا يرق للإيمان، ولا يذعن للحق، ولا يعترف بالحجة، ولا يتأثر بالوعظ، ولا يخشع للذكر، بل يكون على الضد من ذلك، إذ يصبح محلًا قابلًا للباطل، وكل إلقاء شيطاني يرد عليه يمكن أن يؤثر فيه فيفتنه، ويكون سببًا في إصرار صاحبه على الكفر، واستمراره في الضلال، وباعثًا له على جعل تلك الشبهات حجة لباطله، يجادل به الحق، ويناكف به الشرع.[3]

---

(١) تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨١).

(٢) أضواء البيان: (٥/ ٧٣٣)، وانظر: (٥/ ٧٣٤).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٩٥، ١٣/ ٢٧٠ - ٢٧١)، الروح: (ص: ٢٩٩)، إغاثة اللهفان: (١/ ٤٦)، تفسير السعدي: (٣/ ٣٣٠ - ٣٣١).

٦. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

تتضمن الآية الكريمة وعيدًا بالعذاب والهلاك[1] للذين قست قلوبهم وغلظت عند ذكر الله جل شأنه، فلا تلين لكلامه سبحانه، ولا تقبله.

قال العز بن عبد السلام: (القسوة تصلّب القلب ونَبْوته عن اتباع الحق، ورقّته بخلاف ذلك).[2]

يقول ابن جرير في تفسير الآية: (يقول تعالى ذكره: فويل للذين جفت قلوبهم، ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني عن القرآن الذي أنزله تعالى ذكره، مذكرًا به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدق بما فيه).[3]

ثم قررت الآية أن أولئك المتصفين بقسوة القلوب في بعد ظاهر عن الحق، وانحراف واضح عن الهدى[4] ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: (١/ ١٦٠)، تفسير السمرقندي: (٣/ ١٧٤)، تفسير ابن كثير: (١/ ١١٧).

(٢) شجرة المعارف والأحوال: (ص: ١١٩).

(٣) تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٠)، فتح القدير: (٤/ ٤٥٦). وقد ذكر عدد من المفسرين بأن هذا الوعيد في أبي لهب وولده. انظر: أسباب النزول: (ص: ٣١٠)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٢٧)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦١)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٣٢٣)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٢٢)، روح المعاني: (٢٣/ ٢٥٨). قال صاحب التسهيل: (٣/ ١٩٤): (واللفظ أعم من ذلك).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٠٩)، المفردات: (ص: ٣٠٠)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٥٠)، فتح القدير: (٤/ ٤٥٦).

المبحث الثالث

القلوب المتكبرة

الكبر والكبرياء: العظمة والتجبر، والتكبّر: التعظّم، والاستكبار: الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبرًا.(١)

قال الراغب: (الكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، وأعظم التكبر التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق، والإذعان له بالعبادة).(٢)

وقد ورد وصف القلوب بالتكبر في قول الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

في لفظ ﴿قَلْبِ﴾ من هذه الآية الكريمة قراءتان ثابتتان(٣):

الأولى: إضافة ﴿قَلْبِ﴾ إلى ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ أي بدون تنوين.

الثانية: تنوين ﴿قَلْبِ﴾ على أن ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ صفة له، و﴿جَبَّارٍ﴾ صفة ثانية.

---

(١) انظر: لسان العرب: (٥/ ٣٨٠٨، ٣٨١٠).

(٢) المفردات: (ص: ٤٢٣ – ٤٢٤)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٣٢٥ – ٣٢٦).

(٣) قرأ أبو عمرو وابن ذكوان ﴿قَلْبٍ﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون بإضافة ﴿قَلْبِ﴾ إلى ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ أي بدون تنوين. انظر: سراج القارئ: (ص: ٣٤٢)، النشر: (٢/ ٤٧٣)، حجة القراءات: (٦٣٠).

ووصف القلب بالتكبر والتجبر - على هذه القراءة الثانية - باعتبار أن القلب هو محل التكبر والتجبر في الإنسان، ومركزهما اللذان ينبعثان منه، فالقلب هو الذي يتكبر ويتجبر في الأصل، ثم تتبعه بعد ذلك الأعضاء والجوارح.(١)

والمراد بتكبر القلب في الآية تعاظمه عن توحيد الله سبحانه، وترفّعه عن الإذعان له جل وعلا بالعبادة، واستكباره عن الإيمان برسله عليهم السلام.(٢)

أما وصف القلب بالتجبّر ﴿قلبِ متكبرٍ جبارٍ﴾ فهو وثيق الصلة بوصف التكبر، ويقاربه ويرجع إليه في المعنى، ولذلك فسّر أحدهما بالآخر.

قال أهل اللغة: الكبر والكبرياء: العظمة والتجبر.

وقالوا: تجبر الرجل: تكبر، والجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقا، والمتكبر عن عبادة الله تعالى، وقلب جبار: ذو كبر لا يقبل موعظة.(٣)

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ١٧١)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٢٠٥)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٣٤٠)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٦٥)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٧٦)، فتح القدير: (٤/ ٤٨٩)، إبراز المعاني: (٢/ ٦٧١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٦٤)، زاد المسير: (٧/ ٤٣)، وفي هذا الاتجاه يكون القلب المتكبر في مقابل القلب المخبت.

يقول ابن القيم: (أما القلب المتكبر فإنه قد اهتزّ بتكبّره وربا، فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء) الروح: (ص: ٢٩٠).

(٣) انظر: لسان العرب: (١/ ٥٣٥، ٥/ ٣٨١٠)، ترتيب القاموس: (١/ ٤٣٦ - ٤٣٧).

قال الراغب: (الجبار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم).(١)

وبهذا المعنى قال المفسرون في تفسير لفظ ﴿جَبَّارٍ﴾ بالآية الكريمة.

قال ابن جرير (جبار: يعني متعظم عن اتباع الحق).(٢)

وقال الراغب: (أي متعال عن قبول الحق والإيمان له).(٣)

وهناك آية أخرى تضمنت إسناد الكبر إلى القلوب هي قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر: ٥٦].

والآية في المشركين(٤) الذين ذكر الله ﷻ أنهم: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾.

قال ابن كثير: (أي يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة، بلا برهان ولا حجة من الله).(٥)

---

(١) المفردات: (ص: ٩٣).

(٢) تفسير الطبري: (٢٤/ ٦٤).

(٣) المفردات: (ص: ٩٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٧٦، ٧٧)، زاد المسير: (٧/ ٤٩)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٢١٢)، التسهيل: (٤/ ٧)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٧١)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٨١)، فتح القدير: (٤/ ٤٩٤).

(٥) تفسير ابن كثير: (٤/ ٨٤)، وانظر: تفسير السمعاني: (٥/ ٢٦)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٦٥).

ثم بينت الآية السبب في اتجاه هؤلاء الكافرين إلى إثارة الشبه بغية طمس الحق، ورد حججه ودلائله ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ﴾.

قال الألوسي: (المراد بالصدور القلوب، أطلقت عليها للمجاورة والملابسة).(١)

وقال البقاعي: (آذن ذكر الصدور دون القلوب لعظم الكبر جدًا بأنه قد ملأ القلوب، وفاض منها حتى شغل الصدور التي هي مساكنها).(٢)

فالكبر والتعاظم في قلوبهم عن الانقياد لرسول الله ﷺ واتباع الحق معه، هو الذي ينهزهم إلى تكذيبه عليه الصلاة والسلام، والى جداله بالباطل، ومواجهته بالشبهات.

قال ابن الجوزي: (والمعنى ما يحملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من التكبر عليك، وما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، لأن الله مذلهم).(٣)

وقد ورد إسناد الكبر إلى القلوب أيضًا في حديث رسول الله ﷺ.

---

(١) روح المعاني: (٢٤/ ٧٨)، وانظر: تفسير البغوي: (٤/ ١٠١).

(٢) نظم الدرر: (٦/ ٥٢٦).

(٣) زاد المسير: (٧/ ٤٩)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٧٦-٧٧)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (٣٨٧)، تفسير الزمخشري: (٤/ ١٧٨)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٦٥)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٧١)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٨٤).

عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر].(١)

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء].(٢)

وفي الحديثين دلالة على أن أساس الكبر ومحله في القلب.

كما يفيد الحديثان خطورة الكبر بكل صوره، حيث يمكن أن يصل بالإنسان إلى الاستكبار عن عبادة الله تعالى، والتعاظم عن الاستسلام له سبحانه، فيكون كافرًا مشركًا بالله جل شأنه، إذ الكبر يتنافى مع حقيقة العبودية لله جل وعلا.

وللعلماء في المراد بلفظ الحديث أقوال، أقواها القولان الآتيان:

الأول: أن المراد الكبر المنافي للإيمان، والذي يمنع صاحبه من الاستسلام لله سبحانه، والإذعان لعبوديته تبارك وتعالى، فإن هذا لا يدخل الجنة أصلًا إذا مات على التكبر عن الإيمان بالله ﷻ.

وفي الحديث ما يشهد لهذا المعنى، إذ جعل الرسول ﷺ الإيمان مقابلًا للكبر فقال: [لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه: (١/ ٩٣).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه: (١/ ٩٣).

قال ابن الأثير في بيان معنى الكبر في الحديث: (يعني كبر الكفر والشرك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ألا ترى أنه قابله في نقيضه بالإيمان فقال: [ولا يدخل النار من في قلبه مثل ذلك من الإيمان] أراد دخول تأبيد).(١)

الثاني: أن المراد الكبر فيما هو دون الإيمان بالله وتوحيده، حين يدفع التكبر صاحبه إلى ردّ حق أو احتقار مسلم.

وهذا المتكبر من المؤمنين هو من أهل الوعيد الذي لا يستحق دخول الجنة أولًا، إلا أن يغفر الله له سبحانه، أو يدخل النار ليجازى فيها ما شاء الله ثم يدخل الجنة.

وقد رجح أبو عمرو ابن الصلاح هذا القول فقال: (والظاهر أن المراد به مطلق التكبر عن الحق وعلى الناس، ثم يجوز أن يكون المراد بقوله: [لا يدخل الجنة] أنه لا يدخلها مع أهلها إذا فتحت أبوابها للمتقين، ويجوز أن يكون المراد أن ذلك جزاء كبره إن جازاه، وقد لا يجازيه فيدخلها كرمًا منه وفضلًا وعفوًا).(٢)

وهو ترجيح النووي أيضًا.(٣)

---

(١) النهاية في غريب الحديث: (٤/ ١٤٣)، وانظر: صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢٧٠)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٩١)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٩٦).

(٢) صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢٧٠ – ٢٧١).

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٩١).

وعلى القول الأول فالحديث في أهل الكفر والشرك، وعلى القول الثاني فالحديث في أهل الإيمان والتوحيد.(١)

وقد جمع ابن تيمية بين القولين في توجيه معنى الحديث فقال: (الكبر المباين للإيمان لا يدخل صاحبه الجنة، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، ومن هذا كبر إبليس وكبر فرعون وغيرهما، ممن كان كبره منافيًا للإيمان، وكذلك كبر اليهود والذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

والكبر كله مباين للإيمان الواجب، فمن في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يفعل ما أوجب الله عليه ويترك ما حرم عليه، بل كبره يوجب له جحد الحق واحتقار الخلق).(٢)

---

(١) ومن الأقوال: أن المراد سلامة قلبه من الكبر حال دخوله الجنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، إذ يُنزع ما في قلبه من الكبر إذا أدخل الجنة. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ١٤٣)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٩١)، وهذا القول بعيد، إذ المتأمل في الحديث يلحظ أن مقصده التحذير من الكبر وبيان خطره، وذلك القول يتعارض مع هذا المقصد والله أعلم. انظر: صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢٧٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٧).

(فمن كان مضيّعًا للحق الواجب، ظالمًا للخلق، لم يكن من أهل الجنة ولا مستحقًا لها، بل يكون من أهل الوعيد، فقوله: [لا يدخل الجنة] متضمن لكونه ليس من أهلها، ولا مستحقًا لها، لكن إن تاب، أو كانت له حسنات ماحية لذنبه، أو ابتلاه الله بمصائب كفر بها خطاياه، ونحو ذلك، زال ثمرة هذا الكبر المانع له من الجنة، فيدخلها، أو غفر الله له بفضل رحمته من ذلك الكبر من نفسه، فلا يدخلها ومعه شيء من الكبر، ولهذا قال من قال في هذا الحديث وغيره: إن المنفي هو الدخول المطلق الذي لا يكون معه عذاب، لا الدخول المقيد الذي يحصل لمن دخل النار ثم دخل الجنة، فإنه إذا أطلق في الحديث فلان في الجنة، أو فلان من أهل الجنة، كان المفهوم أنه يدخل الجنة ولا يدخل النار.

فإذا تبين هذا كان معناه أن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ليس هو من أهل الجنة، ولا يدخلها بلا عذاب، بل هو مستحق للعذاب لكبره، كما يستحقها غيره من أهل الكبائر، ولكن قد يعذب في النار ما شاء الله، فإنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد).(١)

ثم قال: (وعلى هذا فالحديث عام في الكفار وفي المسلمين).(٢)

---

(١) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٨ - ٦٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٩).

المبحث الرابع

القلوب المشمئزة

قال أهل اللغة: اشمأز، اشمئزازا: انقبض، واجتمع بعضه إلى بعض، واشمأز الشيء: كرهه. والمشمئز: النافر، الكاره للشيء. والشمز: التقبض، ونفور النفس مما تكره، وتشمز وجهه: تمعّر وتقبض.(١)

قال الفيروز ابادي: (الاشمئزاز النُّفْرة).(٢)

وقد أسند الاشمئزاز إلى القلوب في قول الله ﷻ:

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

والآية في شأن المشركين المنكرين للبعث والجزاء، تقرّر كراهيتهم لكلمة التوحيد.(٣)

والمراد باشمئزاز القلوب في الآية - كما قال المفسرون - نفورها وانقباضها.(٤)

---

(١) انظر: لسان العرب: (٤/ ٢٣٢٤)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٧٥١).

(٢) بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٣٤٤).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٥٦)، التسهيل: (٣/ ١٩٦)، روح المعاني: (٢٣/ ١٠).

(٤) انظر: المفردات: (ص: ٢٦٩)، تفسير الطبري: (٢٤/ ١٠ - ١١)، تفسير الواحدي: (٢/ ٩٣٥)، تفسير السمعاني: (٤/ ٤٧٢)، تفسير الزمخشري: (٤/ ١٣٤)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٣٢٧)، تفسير النسفي: (٣/ ٢٢٤)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٥٧).

هذا النفور والانقباض في قلوب المشركين ينبني على شدة كراهيتها لتوحيد الله تعالى، وعظم تعلقها بمحبوباتها من الأوثان المعبودة من دون الله سبحانه.

ولذا كان المشركون ـ كما بينت الآية الكريمة ـ إذا أفرد الله جل شأنه بالذكر، اعترافًا له بالوحدانية جل وعلا، خفقت قلوبهم بالبغض والكره، فنفرت وانقبضت، معرضة مستكبرة ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾.

قال ابن جرير: (إذا أفرد الله جل ثناؤه بالذكر فدعي وحده، وقيل: لا إله إلا الله).[1]

وذلك يشمل ما كان متضمنًا في آية مما يتنزل من كلام الله تعالى، أو في حديث على لسان رسول الله ﷺ يدعوهم فيه إلى توحيد الله، أو جهرًا بكلمة (لا إله إلا الله) يقولها أحد المؤمنين.

فالقضية التي تشمئز منها قلوب الكفار تحديدًا هي قضية التوحيد، والتي تنفي كل الأوثان المدعاة آلهة من دون الله ﷻ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ﴾ ويفهم من ذلك أن لا إشكال لديهم في أن يُذكر الله تعالى إلى جانب أصنامهم وأوثانهم ضمن دائرة الشرك.

(١) تفسير الطبري: (٢٤/ ١٠)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٥٦)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٥).

هذا النفور من الحق يثمر عند هؤلاء المشركين تركًا له، واستنكافًا عنه، وإصرارًا على ضدّه من الباطل المتمثّل في عبوديتهم لغير الله جل وعلا.[1]

وفي مقابل ذلك فإن ذكر معبوداتهم يدخل على قلوبهم مشاعر البهجة والسرور، إذ خلت القلوب من الحق فكانت محلًا للباطل، و(قلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر)[2] يقول ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾.

والاستبشار هو الفرح والسرور.[3]

قال الزمخشري: (مدار المعنى على قوله: ﴿وَحۡدَهُ ﴾، أي إذا افرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم اشمأزوا، أي نفروا وانقبضوا، وإذا ذكر الذين من دونه، وهم آلهتهم، ذكر الله معهم أو لم يذكر، استبشروا لافتتانهم ونسيانهم حق الله إلى هواهم فيها).[4]

وقد عبرت الآية عن موقفهم في الحالتين بالاشمئزاز والاستبشار، وهما في الأصل أمران قلبيان يظهر أثرهما على الوجه.

(١) انظر: شجرة المعارف والأحوال: (ص: ١٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٦).

(٣) انظر: تفسير السمعاني: (٤/ ٤٧٢)، تفسير البغوي: (٤/ ٨١)، زاد المسير: (٧/ ٢٠)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٦).

(٤) تفسير الزمخشري: (٤/ ١٣٤).

والمعنيان متقابلان، فالاشمئزاز امتلاء القلب بالكراهية والكبر، والانقباض والنفور، فيثمر ذلك عبوسًا وانقباضًا في الوجه، وضدّ ذلك الاستبشار، إذ يمتلئ القلب فرحًا وبهجة وسرورًا، فيظهر أثر ذلك على الوجه تهلّلًا وانبساطًا[1]، وهو ما يبدو على وجوه المشركين حين تذكر آلهتهم، إيذانا بانتكاس الفطرة لديهم واختلال الموازين.

(١) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ١٣٤، ٧/ ٤٣١)، نظم الدرر: (٦/ ٤٥٦).

المبحث الخامس

القلوب المرتابة

الارتياب، والرَّيْب، والرِّيبة: الشك.

يقال: رابني الشيء، وأرابني، إذا أدخل عليك شكًّا وخوفًا. وارتاب فيه: أي شك فيه.[1]

وقد ورد هذا المعنى مسندًا إلى القلوب في آيتين من كتاب الله تعالى.

الآية الأولى: قول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥].

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في شأن المنافقين، الذين كانوا يستأذنون رسول الله ﷺ في القعود عن الجهاد معه دون عذر أو حاجة، وذلك في غزوة تبوك.[2]

وقد وصفتهم الآية بوصفين:

الأول: الكفر بالله واليوم الآخر، وإن أظهروا الإيمان بألسنتهم، وأقروا به بأفواههم، لكنهم في حقيقة الأمر ثابتون على الكفر، لا يصدقون بالله

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤١١)، لسان العرب: (٣/ ١٧٨٨).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٩)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٦٠) المنافقون في القرآن الكريم للحميدي، ط١، دار المجتمع: (ص: ٣٦١، ٣٧٥).

سبحانه، ولا يقرون بتوحيده، منكرون لما أخبر بـه مـن البعـث والجـزاء في الآخـرة، ولـذا فهـم لا يرجـون ثوابـه في أمـر الجهـاد أو غـيره مـن أعـمال الإسلام[1] ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾.

والخطاب للرسول ﷺ، والمعنى: إنما يستأذنك في ترك الجهاد والتخلف عن الغزو، من يتصف بصفات منها عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وذلـك باعتبار أن هذا الإيمان هو الذي ينهـز المـؤمن إلى الجهـاد، طلبًـا لمرضـاة الله تبارك وتعالى وعطائه الأخروي.

قال البيضاوي: (تخصيص الإيمان بالله ﷻ واليوم الآخر في الموضعين[2] للإشعار بأن الباعث عـلى الجهـاد، والـوازع عنـه، الإيـمان، وعـدم الإيـمان بهما).[3]

الوصف الثاني: أن قلوبهم مرتابة، ملؤها الشك والاضطراب والحيرة ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

والمفسرون على أن المراد بالارتياب الشك فيما جاءهم به رسـول الله ﷺ

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٠/ ١٤٣)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٦٠).

(٢) أي ما ورد في هذه الآية، وما ورد في الآية السابقة لها ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤٤].

(٣) تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٠٦)، وانظر: روح المعاني: (١٠/ ١١٠)، فتح القدير: (٢/ ٣٦٢)، تفسير ابن عاشور: (١٠/ ٢١٢).

من قضايا التوحيد والرسالة والبعث والجزاء وغير ذلك مما تنـزل به الوحي الإلهي.[1]

قال القرطبي: (شكت في الدين).[2]

وقال ابن كثير: (شكت في صحة ما جئتهم به).[3]

وقال ابن جرير: (شكت قلـوبهم في حقيقـة وحدانيـة الله، وفي ثـواب أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه).[4]

والأقوال متقاربة المعنى.

والتعبير عن هذا الوصف بالفعـل المـاضي يـدل عـلى رسـوخ الـشك، وتحققه في قلوب أولئك المنافقين.[5]

وبسبب هـذا الارتيـاب في القلـوب وقـع المنـافقون في دائـرة الحـيرة، وتقلبوا في منازل الاضطراب، لا يطمئنون إلى هدى، ولا يسكنون إلى حق، بل يترددون في الاختيار، ويتذبذبون في الاعتقاد.

(١) انظـر: تفـسير ابـن أبي حـاتم: (٦/ ١٨٠٧)، تفـسير الـسمرقندي: (٢/ ٦٢ – ٦٣)، تفـسير السمعاني: (٢/ ٣١٣)، تفسير البغـوي: (٢/ ٢٩٧)، تفـسير ابـن عطيـة: (٣/ ٣٩)، التـسهيل: (٢/ ٧٧)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٤٨).

(٢) تفسير القرطبي: (٨/ ٩٩)، وانظر: تفسير النسفي: (١/ ٦٥٤).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٦١).

(٤) تفسير الطبري: (١٠/ ١٤٣).

(٥) انظر: تفسير أبي السعود: (٤/ ٧٠)، روح المعاني: (١٠/ ١١٠)، فتح القدير: (٢/ ٣٦٢)، تفسير ابن عاشور: (١٠/ ٢١٣).

﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ والريب هو الشك المستقر في القلوب.(١)

قال ابن جرير: (في شكهم متحيرون، وفي ظلمة الحيرة مترددون، لا يعرفون حقًا من باطل، فيعملون على بصيرة، وهذه صفة المنافقين).(٢)

وقال ابن كثير: (أي يتحيرون، يقدمون رجلًا ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء).(٣)

وتفسير التردد بالحيرة هو قول عامة المفسرين.(٤)

ومعنى التردد في الأصل الذهاب والرجوع في المحل الواحد، وعبّر به عن التحيّر، لأن المتحيّر عادة تضطرب حركته، ولا يستقر في مكان.(٥)

قال الزمخشري: (﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ عبارة عن التحير، لأن التردد ديدن المتحير، كما أن الثبات والاستقرار ديدن المستبصر).(٦)

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٦٣)، تفسير القرطبي: (٨/ ٩٩)، تفسير أبي السعود: (٤/ ٧٠).

(٢) تفسير الطبري: (١٠/ ١٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٦١)، وانظر: نظم الدرر: (٣/ ٣٢٨).

(٤) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٦٣)، تفسير السمعاني: (٢/ ٣١٣)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٩٧)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٩)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٠٦)، تفسير النسفي: (١/ ٦٥٤)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٤٨)، تفسير أبي السعود: (٤/ ٧٠).

(٥) انظر: تفسير القرطبي: (٨/ ٩٩)، روح المعاني: (١٠/ ١١٠)، تفسير ابن عاشور: (١٠/ ٢١٤).

(٦) تفسير الزمخشري: (٢/ ٢٦٢)، وانظر: تفسير النسفي: (١/ ٦٥٤).

وقال ابن عطية: (والتردد في الآية إنما هو في ريب هؤلاء المنافقين، إذ كانوا تخطر لهم صحة أمر النبي ﷺ أحيانًا، وأنه غير صحيح أحيانًا، ولم يكونوا شاكين طالبين للحق، لأنه كان يتضح لهم لو طلبوه، بل كانوا مذبذبين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كالشاة الحائرة بين الغنمين).(١)

الآية الثانية: قول الله تعالى:

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٠].

والآية الكريمة في شأن المنافقين الذين بنوا مسجدًا ظاهره الخير بإقامة الصلاة فيه، وحقيقته الشر بمحاربة الإسلام، من خلال جملة أمور تضمنتها آية سابقة في السياق، هي قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

ولذا أمر رسول الله ﷺ بهدمه.(٢)

---

(١) تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٩).

(٢) انظر قصة مسجد الضرار في: تفسير الطبري: (١١/ ٢٣ – ٢٦)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٨٧ – ٨٨)، أسباب النزول: (ص: ٢١٤ – ٢١٥)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٢٦ – ٣٢٧)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٨٩ – ٣٩٠)، لباب النقول: (ص: ١٢٤ – ١٢٥)، المنافقون في القرآن: (ص: ٣٩٨ – ٤٠٠).

ومسجد الضرار هذا هو المقصود في قول الله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾.

والضمير في الآية يعود إلى المنافقين.(١)

والمراد بيان أثر ذلك البنيان المقترن بالشر والفساد، وعاقبته عليهم.

قال الرازي: (المعنى أن بناء ذلك البنيان صار سببًا لحصول الريبة في قلوبهم، فجعل نفس ذلك البنيان ريبة، لكونه سببًا للريبة).(٢)

وللمفسرين في المراد بالريبة في الآية أقوال:

الأول: أن المراد الشك والنفاق.

وهذا القول مروي عن ابن عباس ﷺ، وقتادة، والحسن، والضحاك، وابن زيد(٣)، وهو قول جمهور المفسرين.(٤)

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٨٦)، زاد المسير: (٣/ ٣٤١)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٦٩).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (١٦/ ١٩٧)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٤/ ١٠٤)، روح المعاني: (١١ / ٢٣)، تفسير ابن عاشور: (١١/ ٣٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٣٣ - ٣٤)، تفسير ابن أبي حاتم: (٦/ ١٨٨٥)، تفسير الصنعاني: (٢/ ٢٨٨)، زاد المسير: (٣/ ٣٤٢)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٦٩).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٣٣)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧٠)، تفسير السمعاني: (٢/ ٣٥٠)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٢٩)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٢٩٧)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٦٩)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٢٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٩١)، نظم الدرر: (٣/ ٣٨٨)، تفسير أبي السعود: (٤/ ١٠٤)، روح المعاني: (١١/ ٢٣)، تفسير ابن عاشور: (١١/ ٣٦)، تفسير السعدي: (٢/ ٢٨٧).

والمراد أن صنيع أولئك المنافقين كان له أثره في زيادة شكهم، وتعاظم ارتيابهم، واستمرار نفاقهم، إذ كانوا راضين بما قاموا به من محاولة لحرب الإسلام والتآمر عليه، معتقدين أنهم قد أحسنوا التصرّف في بناء المسجد بهدف الإضرار بالمؤمنين، ظانين أن ذلك يلبيّ مصالحهم، ويحقق مقاصدهم.(١)

قال البيضاوي: (والمعنى أن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد، بحيث لا يزول وسمه عن قلوبهم).(٢)

واعتبر ابن كثير أن تلك الريبة في قلوبهم كانت عقوبة من الله تبارك وتعالى لهم (بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقًا في قلوبهم).(٣)

يقول ابن عاشور: (والمعنى أن ذلك المسجد لما بنوه لغرض فاسد فقد جعله الله سببًا لبقاء النفاق في قلوبهم ما دامت قلوبهم في أجسادهم).(٤)

وهو معنى تحتمله الآية الكريمة.(٥)

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٣٣)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٢٩٧ - ٢٩٨)، فتح القدير: (٢/ ٣٩٩).

(٢) تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٢٢).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٩١).

(٤) تفسير ابن عاشور: (١١/ ٣٦).

(٥) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧٠).

الثاني: أن المراد الحسرة والندامة.

وهو اختيار السمرقندي، فقد قال في تفسير الآية: (يعني حسرة وندامة بما أنفقوا فيه، وبما ظهر فيه من أمرهم ونفاقهم).[1]

الثالث: الحزازة[2] والغيظ.

(والمعنى: لا يزال هدم بنيانهم حزازة وغيظا في قلوبهم).[3]

والراجح من هذه الأقوال هو القول الأول، إذ الريبة والريب في اللغة بمعنى الشك .

ويبقى القولان الآخران قريبين من معنى الريب باعتبار أثره، وما ترتب عليه لدى المنافقين، بالإضافة إلى أن الريب في اللغة يشتمل أيضًا على معنى الخوف والاضطراب[4]، فلا مانع من القول بأن أولئك المنافقين بعد هدم ما

---

(١) تفسير السمرقندي: (٢/ ٨٩)، وهو قول مقاتل ومحمد بن السائب الكلبي. انظر: تفسير القرطبي: (٨/ ١٦٩)، زاد المسير: (٣/ ٣٤٢)، تفسير أبي السعود: (٤/ ١٠٤)، فتح القدير: (٢/ ٣٩٩).

(٢) الحزازة: الألم في القلب من الغيظ ونحوه. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٢٢٤)، ترتيب القاموس: (١/ ٦٣٢).

(٣) زاد المسير: (٣/ ٣٤٢)، وهو قول السدي وحبيب بن أبي ثابت، انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٣٤)، تفسير ابن أبي حاتم: (٦/ ١٨٨٥)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٢٥٦)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٦٩)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٢٩)، تفسير السمعاني: (٢/ ٣٥٠).

(٤) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤١١)، لسان العرب: (٣/ ١٧٨٨)، ولذلك يرى ابن تيمية أن الريب أعم من الشك، باعتبار أن الريب يكون في علم القلب وعمله، أما الشك فإنه لا يكون إلا في العلم. انظر: مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٨١، ٢٨/ ٤٢ - ٤٣).

قال ابن القيم ضمن كلامه عن وجوه الفرق بين الشك والريب: (الريب ضد الطمأنينة واليقين، فهو قلق واضطراب وانزعاج، كما أن اليقين والطمأنينة ثبات واستقرار) بدائع الفوائد: (٤/ ٨٥).

بنوه من مسجد الضرار اتسعت دائرة الاضطراب في قلوبهم، فأصيبوا بالحسرة والتأسف على ما بذلوه من المال والجهد دون تحقيق المراد، وبالقلق والخوف من انكشاف تآمرهم، وما يمكن أن يترتب على ذلك من الخطر على حياتهم ومصالحهم، كما زادت الكراهية، وتأصل الغل والغيظ في قلوبهم في مواجهة المؤمنين، فاستمر تصميمهم على الكفر، ومقتهم للإسلام، وكل ذلك يضاف إلى ما استمر في قلوبهم من النفاق، وما زاد من الشك.[1]

يقول ابن عطية: (ومعنى الريبة في هذه الآية أمر يعمّ الغيظ والحنق، ويعمّ اعتقاد صواب فعلهم ، ونحو هذا مما يؤدي كله إلى الريبة في الإسلام، فمقصد الكلام: لا يزال هذا البنيان الذي هدم لهم يبقى في قلوبهم حزازة وأثر سوء) ثم قال: (ويحتمل أن يكون المعنى: لا يزالون مريبين بسبب بنائهم الذي اتضح فيه نفاقهم، وجملة هذا أن الريبة في الآية تعمّ معاني كثيرة يأخذ كل منافق منها بحسب قدره في النفاق).[2]

وأما قوله تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ[3] قُلُوبُهُمْ﴾ فللمفسرين في المعنى

---

(١) انظر: المفردات: (ص: ٢١٤)، تفسير الفخر الرازي: (١٦/ ١٩٧ - ١٩٨)، تفسير النسفي: (١/ ٦٨٣)، فتح القدير: (٢/ ٣٩٩).

(٢) تفسير ابن عطية: (٣/ ٨٦).

(٣) قرأ يعقوب بتخفيف اللام على أنه حرف جر ﴿إلى﴾ وقرأ باقي العشرة بتشديده على أنه حرف استثناء ﴿إِلَّآ﴾، وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب وحمزة بفتح التاء ﴿تَقَطَّعَ﴾ وأصلها: تتقطع، على أن الفعل للقلوب، وقرأ الباقون بضمها ﴿تُقَطَّعَ﴾ بمعنى: إلا أن يقطع الله قلوبهم. انظر: النشر: (٢/ ٢١١)، سراج القارئ: (ص: ٢٣٩)، والقراءتان متقاربتان في المعنى. انظر: تفسير الطبري: (١٠/ ٣٥)، حجة القراءات: (ص: ٣٢٤).

المراد قولان رئيسان:

الأول: أن المراد بتقطع القلوب الموت.

وهذا القول مروي عن ابن عباس ﭬ، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والضحاك، وزيد بن أسلم، وغيرهم.(١)

وهو قول جماعة من المفسرين منهم الفراء(٢)، وابن جرير(٣)، والزجاج(٤)، والسمرقندي(٥)، والبغوي(٦)، وابن كثير.(٧)

والمراد كشف ما تحويه قلوبهم من التصميم على النفاق، والتشبث بالكفر والعداء، والاستنكاف عن تصحيح الدواخل، وإصلاح المعتقد.

قال الشوكاني: (والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء).(٨)

وفي التعبير عن الموت بتقطع القلوب إشارة إلى الحالة النفسية للمنافقين، الجامعة بين الخوف والحقد والقلق.(٩)

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٣٣ - ٣٤)، تفسير ابن أبي حاتم: (٦/ ١٨٨٥)، تفسير الصنعاني: (٢/ ٢٨٨)، الدر المنثور: (٤/ ٢٩٣)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٩١)، فتح القدير: (٢/ ٤٠٢).

(٢) انظر: معاني القرآن: (١/ ٤٥٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٣٣).

(٤) انظر: معاني القرآن: (٢/ ٤٧١).

(٥) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٨٩).

(٦) انظر: تفسير البغوي: (٢/ ٣٢٩).

(٧) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٩١).

(٨) فتح القدير: (٢/ ٣٩٩)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (١٦/ ١٩٨)، نظم الدرر: (٣/ ٣٨٨).

(٩) انظر: المنافقون في القرآن الكريم: (ص: ٤٠٤).

الثاني: أن المراد بتقطع القلوب التوبة.

والمعنى: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع منها قلوبهم، كناية عن شدة الندم، وعظم الأسف.(١)

قال السمعاني: (جعل الندامة في القلب بمنزلة تقطع في القلب).(٢)

واختاره السعدي فقال: (﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بأن يندموا غاية الندم، ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبًا إلى ريبهم ونفاقًا إلى نفاقهم).(٣)

قال ابن عطية معلقًا على هذا القول: (وليس هذا بالظاهر، إلا أن يتأول: أو يتوبوا توبة نصوحًا يكون معها من الندم والحسرة على الذنب ما يقطع القلوب همًا وفكرة).(٤)

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧١)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٢٥٦)، حجة القراءات: (ص:٣٢٤)، زاد المسير: (٣/ ٣٤٢)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٦٩).

(٢) تفسير السمعاني: (٢/ ٣٥٠).

(٣) تفسير السعدي: (٢/ ٢٨٧).

(٤) تفسير ابن عطية: (٣/ ٨٦).

المبحث السادس

القلوب المنكرة

من معاني الإنكار في اللغة: الجحود، والجهل.

يقال: نَكِر الشيء وأنكره: لم يقبله قلبه ولم يعترف به لسانه، والمنكر من الأمر ضدّ المعروف، والإنكار خلاف الاعتراف.(١)

قال الراغب: (الإنكار ضد العرفان، يقال: أنكرت كذا، ونكرت، وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل).(٢)

وقد ورد وصف القلوب بالإنكار في قول الله تعالى:

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢].

في أول هذه الآية الكريمة تقرير لتوحيد الله جل شأنه، وأنه المستحق للعبادة وحده سبحانه ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾، ثم تبين الآية أن قلوب المشركين تنكر هذا التوحيد لله تبارك وتعالى(٣) ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ١٠٠٩)، لسان العرب: (٦/ ٤٥٣٩)، ترتيب القاموس: (٤/ ٤٣٦ - ٤٣٧).

(٢) المفردات: (ص: ٥٠٧).

(٣) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٢٦٩)، تفسير النسفي: (٢/ ٢٠١)، التسهيل: (٢/ ١٥١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٦٦).

قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾.

قال ابن الجوزي: (أي جاحدة لا تعرف التوحيد).(١)

عن قتادة قال في تفسير الآية: (﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ لهذا الحديث الذي مضى، وهم مستكبرون عنه).(٢)

وهذا الحديث الذي مضى في الآيات مشتمل على بيان قدرة الله تعالى، واستحقاقه للألوهية، وانفراده ﷻ بها.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فالذين لا يصدقون بوعد الله ووعيده، ولا يقرون بالمعاد إليه بعد الممات، قلوبهم منكرة، يقول تعالى ذكره: مستنكرة لما نقصّ عليهم من قدرة الله وعظمته، وجميل نعمه عليهم، وأن العبادة لا تصلح إلا له، والألوهية ليست لشيء غيره).(٣)

وفسّر القرطبي معنى ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ بقوله: (أي لا تقبل الوعظ ولا ينفع فيها الذكر).(٤)

وهو تفسير للإنكار بسببه، أي لشدة جهالتها، وانهماكها في الشرك،

---

(١) زاد المسير: (٤ / ٣٢٠)، وانظر: تفسير الواحدي: (١/ ٣٠٦)، تفسير السمعاني: (٣/ ١٦٥)، تفسير البغوي: (٣/ ٦٥)، تفسير أبي السعود: (٥/ ١٠٦)، تفسير القاسمي: (١٠/ ٩٣).

(٢) تفسير الطبري: (١٤/ ٩٤)، الدر المنثور: (٥/ ١١٩).

(٣) تفسير الطبري: (١٤/ ٩٤).

(٤) تفسير القرطبي: (١٠/ ٦٣)، وانظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٢٦٩).

واستكبارها عن النظر في دلائل التوحيد، فقد اختلّ فيها أصل الفطرة، وغلب عليها الخبث، وأصبحت محلًا للباطل، فلا تعرف الخير، ولا تتأثر بالبرهان، ولا تستجيب للتذكير، ومن ثمّ تأبى وتنكر، دون تأمل في الحق، أو تبصّر في العاقبة.

والآية الكريمة قريبة المعنى من قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥] فقلوبهم تنقبض وتنفر، ثم تجحد وتنكر، ولذا يبدي كفار قريش عجبهم ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] فقضية التوحيد لديهم مستغربة مستنكرة.(١)

وإنكار القلوب للتوحيد ناشئ ـ كما تشير الآية الكريمة ـ عن عدم الإيمان بالآخرة ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾.

قال أبو السعود: (وبناء الحكم المذكور على الموصول للإشعار بكونه معللًا بما في حيّز الصلة، فإن الكفر بالآخرة، وبما فيها من البعث والجزاء المتنوع إلى الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، يؤدي إلى قصر النظر على العاجل، والإعراض عن الدلائل السمعية والعقلية، الموجب لإنكارها وإنكار مؤداها، والاستكبار عن اتباع الرسول ﷺ وتصديقه، وأما الإيمان

---

(١) انظر: تفسير الثعالبي: (٢/ ٣٠٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٦٦)، تفسير القاسمي: (١٠/ ٩٣).

بها وبما فيها فيدعو ـ لا محالة ـ إلى التأمل في الآيات والدلائل، رغبة ورهبة، فيورث ذلك يقينًا بالوحدانية، وخضوعًا لأمر الله تعالى).(١)

وأصل الإنكار في القلب، ثم تظهر لوازمه على الجوارح.

يقول الألوسي: (وإسناد الإنكار إلى القلوب لأنها محله، وهو أبلغ من إسناده إليهم).(٢)

هذا الإنكار القلبي للحق والهدى يتأسس على مجموعة من البواعث يأتي في مقدمتها الهوى والكبر، كما تشير إليه خاتمة الآية الكريمة.

يقول ابن تيمية: (ثم الهوى قد يعترض له ـ أي للقلب ـ قبل معرفة الحق، فيصده عن النظر فيه، فلا يتبين له الحق، كما قيل: حبك الشيء يعمي ويصمّ، فيبقى في ظلمة الأفكار، وكثيرًا ما يكون ذلك عن كبر يمنعه عن أن يطلب الحق ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾).(٣)

---

(١) تفسير أبي السعود: (٥/ ١٠٦)، وانظر: تفسير البيضاوي: (١/ ٥٤١)، تفسير ابن عاشور: (١٤/ ١٢٨).

(٢) روح المعاني: (١٤/ ١٢١)، وانظر: المفردات: (ص: ٥٠٧).

(٣) مجموع الفتاوى: (٩/ ٣١٤)، وانظر: نظم الدرر: (٤/ ٢٥٨).

المبحث السابع

القلوب الزائغة

أصل الزيغ في اللغة الميل، يقال: زاغ الشيء يزيغ: أي مال. وزاغت الشمس: أي مالت، وزاغ الرجل عن الطريق: إذا عدل عنه، وأزاغه: أي أماله.(١)

قال الراغب: (الزيغ الميل عن الاستقامة).(٢)

وقد ورد هذا المعنى مسندًا إلى القلوب في أربع آيات من الكتاب العزيز.

١. يقول الله سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

وهذه الآية الكريمة تذمّ أصحاب القلوب الزائغة الذين يتبعون المتشابه من القرآن لأغراض ومقاصد خبيثة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٤٥)، لسان العرب: (٣/ ١٩٠٠)، ترتيب القاموس: (٢/ ٤٩٩).

(٢) المفردات: (ص: ٢٢٢).

وللعلماء في المتشابه أقوال وعبارات كثيرة[١]، منها أن: (المتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك نحو الخبر عن وقت مخرج ابن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناء الدنيا، وما أشبه ذلك).[٢]

وقد مال ابن جرير إلى هذا القول، واعتبره (أشبه بتأويل الآية)[٣]، واختاره القرطبي وقال: (هذا أحسن ما قيل في المتشابه).[٤]

وتوسَّع آخرون في المراد بالمتشابهات.

قال ابن كثير في قوله سبحانه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: (فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم)[٥] (أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم[٦]، وقد تحتمل شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد).[٧]

---

(١) انظر: البرهان: (٢/ ٦٩ – ٧٠).

(٢) تفسير الطبري: (٣/ ١٧٤).

(٣) تفسير الطبري: (٣/ ١٧٥).

(٤) تفسير القرطبي: (٤/ ٨).

(٥) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٤).

(٦) المحكم في القرآن ما كان بيّن المعنى واضح الدلالة. انظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٤)، فتح الباري: (١٧/ ٦٩)، وللعلماء في تعريفه أقوال. انظر: الإتقان للسيوطي: (٢/ ٥ – ٦)، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان: (ص: ١٩٣).

(٧) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٤).

وقال ابن عطية: (المتشابهات هي التي فيها نظر وتحتاج إلى تأويل، ويظهر فيها ببادئ النظر إما تعارض مع أخرى أو مع العقل، إلى غير ذلك من أنواع التشابه، فهذا الشبه الذي من أجله توصف بـ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ إنما هو بينها وبين المعاني الفاسدة التي يظنها أهل الزيغ ومن لم يمعن النظر).[١]

وقال أبو جعفر النحاس: (وأجمع هذه الأقوال أن المحكم ما كان قائمًا بنفسه لا يحتاج إلى استدلال، والمتشابه ما لم يقم بنفسه واحتاج إلى استدلال).[٢]

وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة، وهي الأقرب في بيان المقصود من المتشابه، ذلك أن ما يتعلق به أهل الزيغ لا يختص بما استأثر الله جل وعلا بعلمه، بل يتعدّى ذلك إلى ما يشتبه في المراد والدلالة لدى عامة الناس، وإن تمكن العلماء من ردّه إلى المحكم، فبينوا المراد ، وأزالوا الشبهة واللبس.

أما زيغ القلوب فهو ميلها عن الحق، وانحرافها عنه.[٣]

قال ابن كثير في قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ (أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل).[٤]

---

(١) تفسير ابن عطية: (١/ ٤٠٠).

(٢) معاني القرآن: (١/ ٣٤٦)، وانظر: فتح الباري: (١٧/ ٦٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٧٦)، تفسير السمرقندي: (١/ ٢١٩)، تفسير البغوي: (١/ ٢٧٩)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٨٦)، تفسير النسفي: (١/ ١٩٧).

(٤) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٥).

وقال أبو السعود: (أي ميل عن الحق إلى الأهواء الباطلة).[1]

وقد بينت الآية الكريمة أن أصحاب القلوب الزائغة يتتبعون المتشابه من القرآن لتحقيق غرضين ذكرتها الآية ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾.

فالغرض الأول: هو إرادة الفتنة، والمقصود بالفتنة في هذا الموضع اللبس والشبهة.[2]

والمعنى أن الذين في قلوبهم ميل عن الحق، وانحراف عن الهدى، يتركون المحكم من القرآن مما لا اشتباه في دلالته، ويتمسكون بالمتشابه، ويتعلقون به، ويتجهون من خلاله إلى المخاصمة والمجادلة، طلبًا للتلبيس على المؤمنين، وإضلال عوامهم، وإثارة الشبهات في أذهانهم، طعنًا في القرآن، وتشكيكًا في الدين، وذلك بمحاولة إبطال المحكم من كلام الله سبحانه، ونقضه بالمتشابه، واعتبار ذلك دليلًا لباطلهم وضلالهم.[3]

يقول ابن كثير: (﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال

---

(١) تفسير أبي السعود: (٢/ ٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٨٠ – ١٨١)، تفسير ابن أبي حاتم: (٢/ ٥٩٦ – ٥٩٧)، معاني القرآن للنحاس: (١/ ٣٥٠)، تفسير القرطبي: (٤/ ١١)، الدر المنثور: (٢/ ١٤٨)، تفسير القاسمي: (٤/ ٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٧٦، ١٨٠ – ١٨١)، تفسير البيضاوي: (١/ ١٤٩)، تفسير النسفي: (١/ ١٩٧)، تفسير أبي السعود: (٢/ ٨)، فتح القدير: (١/ ٣١٩).

لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافع لهم وحجة عليهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي الإضلال لأتباعهم، إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم).[1]

أما غرضهم الثاني: فهو إرادة التأويل ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾.

والمراد أن أهل القلوب الزائغة يطلبون تأويل المتشابه، بإرجاعه إلى ما يوافق أهوائهم، ويناسب زيفهم، مما ليس لهم عليه من كتاب الله دليل ولا برهان، أو يطلبون تأويل ما استأثر الله بعلمه، مما لا يمكن الوقوف على حقيقته، فيقعون بذلك في التحريف والتضليل.[2]

وقد اختلف المفسرون في المقصود بالذين في قلوبهم زيغ في الآية الكريمة على أقوال، منها أنهم نصارى نجران الذين جادلوا رسول الله ﷺ في شأن نبي الله عيسى عليه السلام، مستدلين بأن القرآن تضمن أن عيسى كلمة الله وروح منه، محتجين بذلك على باطلهم.[3]

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٥).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٤٠٢)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٨٨)، تفسير البيضاوي: (١/ ١٤٩)، تفسير النسفي: (١/ ١٩٧)، التسهيل: (١/ ١٠٠)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٥)، نظم الدرر: (٢/ ٢٤)، تفسير أبي السعود: (٢/ ٨)، فتح القدير: (١/ ٣١٩)، تفسير ابن عاشور: (٣/ ١٦٢).

(٣) اختار هذا القول ابن جزي الكلبي: التسهيل: (١/ ١٠٠)، والقرطبي: (٤/ ١٠)، والشوكاني: فتح القدير: (١/ ٣١٩)، ورجحه ابن عطية مع القول الثاني: (١/ ٤٠١ – ٤٠٢)، وانظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٧٧–١٨)، روح المعاني: (٣/ ٨٢)، مجموع الفتاوى: (١٣/ ٢٨٦).

ومنها أنهم اليهود الذين ناظروا رسول الله ﷺ في شأن حروف الهجاء في أوائل السور، يريدون الاستدلال بها على مدة بقاء هذه الأمة.(١)

وهناك أقوال أخرى بأن المقصود المشركون، أو المنافقون، أو الخوارج.(٢)

وعلى كلٍّ فإن لفظ الآية عام يشمل كل من تتبع المتشابه طلبا للفتنة.

يقول الرازي: (قال المحققون: إن هذا يعمّ جميع المبطلين، وكل من احتج لباطله بالمتشابه، لأن اللفظ عام، وخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ).(٣)

وقال الشاطبي: (بل تعم كل من اتصف بتلك الأوصاف التي أصلها الزيغ، وهو الميل عن الحق اتباعا للهوى).(٤)

وهكذا قال ابن جرير، وابن عطية، والقرطبي، وغيرهم.(٥)

---

(١) اختار هذا القول الواحدي: (١/ ١٩٩)، ومال إليه ابن جرير بعد أن رجحه مع القول الأول: تفسير الطبري: (٣/ ١٨٠)، وانظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٢١٩)، التسهيل: (١/ ١٠٠)، روح المعاني: (٣/ ٨٢)، الإتقان: (٢/ ٢٦ - ٢٧)، مجموع الفتاوى: (١٣/ ٢٧٥ - ٢٧٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٧٦ - ١٧٧)، تفسير ابن أبي حاتم: (٢/ ٥٩٥)، تفسير السمعاني: (١/ ٢٩٥)، تفسير البغوي: (١/ ٢٧٩)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٨٦)، زاد المسير: (١/ ٣٠٢)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٦)، الدر المنثور: (٢/ ١٤٧)، روح المعاني: (٣/ ٨٢).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٨٦).

(٤) الاعتصام: (١/ ٦٥).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٨١)، تفسير ابن عطية: (١/ ٤٠١، ٤٠٢)، تفسير القرطبي: (٤/ ١٠)، التسهيل: (١/ ١٠٠)، روح المعاني: (٣/ ٨٢)، فتح القدير: (١/ ٣١٩).

ويشهد لذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (تلا رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ.. ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: [إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم]).(١)

وفيه دلالة على أن الزيغ في القلب درجات ومراتب في الضلال، بعضها أسوأ من بعض، فقد يكون الزيغ عن الحق كفرًا، وقد يكون دون ذلك، وأمره عظيم على كل حال.

قال السعدي: (وزيغ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفرًا، وإن كان في شرائعه كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصّر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي).(٢)

٢. يقول الله جل شأنه:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾

[آل عمران: ٨].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾: (٤/ ١٦٥٥)، ومسلم، واللفظ له، في كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه.. (٣/ ٢٠٥٣).

(٢) تفسير السعدي: (٢/ ٢٩٣).

والآية الكريمة في سياق الآية السابقة، متصلة بها، ولذا قال عامة المفسرين[١]: إن ما تشتمل عليه من الدعاء هو من ضمن قول الراسخين في العلم، أي أنهم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، ويدعون ربهم قائلين ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

والمعنى: لا تمل قلوبنا، فتصرفها عن الإيمان والحق، وتجعلها مائلة إلى الكفر والباطل، فنصبح مثل الذين زاغت قلوبهم، فاتبعوا المتشابه من القرآن قصدا للفتنة.

قال ابن كثير: (أي لا تملها عن الهدى، بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ودينك القويم).[٢]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٨٦ - ١٨٧)، تفسير البغوي: (١/ ٢٨١)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٩٢)، زاد المسير: (١/ ٣٠٣)، تفسير القرطبي: (٤/ ١٤)، تفسير البيضاوي: (١/ ١٥٠)، التسهيل: (١/ ١٠٠)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٨)، تفسير أبي السعود: (٢/ ٩)، فتح القدير: (١/ ٣٢٢).

ومن المفسرين من جَوّز أن يكون الدعاء منقطعًا عما قبله، بمعنى أنه ليس ضمن قول الراسخين في العلم، وإنما هو تعليم من الله تعالى لعباده أن يدعوه جل وعلا بأن لا يكونوا من أهل الزيغ الذين ذمهم الله سبحانه.

انظر: معاني القرآن للنحاس: (١/ ٣٥٥)، تفسير ابن عطية: (١/ ٤٠٤)، تفسير القرطبي: (٤/ ١٥)، روح المعاني: (٣/ ٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٨)، وانظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٨٧)، تفسير البغوي: (١/ ٢٨١)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٩٢).

٣. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ١١٧].

والآية الكريمة في خبر غزوة تبوك، والتي عايش المؤمنون حينها أحوالا من الضيق والكرب والشدة.[١]

والضمير في قوله جل شأنه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ يعود إلى المهاجرين والأنصار، أي قلوب بعضهم.

قال ابن العربي: (أما هذا، فليس للنبي ﷺ فيه مدخل باتفاق من الموحدين).[٢]

ولفظ الزيغ هنا لا يعني الزيغ عن الإيمان، والانحراف عنه بالشك والنفاق، إنما يعني الميل إلى الراحة والدعة، بالقعود والتخلف عن الخروج مع رسول الله ﷺ أصلًا، أو بالرجوع والعودة عن الجهاد بعد مواجهة ما لم يكن في الحسبان من المشقة والشدائد.[٣]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٥٥)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧٤)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٣٣)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ١٠٨)، روح المعاني: (١١/ ٤٠)، السيرة النبوية الصحيحة: (٢/ ٥٢٤).

(٢) أحكام القرآن: (٢/ ١٠٢٤)، وانظر: تفسير ابن عاشور: (١١/ ٥٠).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧٤)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٢٦٤)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٩٣)، تفسير السمعاني: (٢/ ٣٥٦)، أحكام القرآن لابن العربي: (٢/ ١٠٢٥)، زاد المسير: (٣/ ٣٤٨)، تفسير أبي السعود: (٤/ ١٠٩)، تفسير السعدي: (٢/ ٢٩٣).

قال البغوي: (لم يرد الميل عن الدين، بل أراد الميل إلى التخلف والانصراف، للشدة التي عليهم).[١]

وذكر بعض المفسرين أن المراد بالزيغ في الآية الميل عن الحق، والشك والارتياب في الدين، بعد ما أصابهم في سفرهم ذلك من الجهد والبلاء.[٢]

وعلى كلٍّ فإن هذا الزيغ لم يقع بنصّ الآية الكريمة.

قال أبو حيان: (وكاد تدل على القرب لا على التلبّس بالزيغ).[٣]

٤. يقول الله جل وعلا:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

هذه الآية الكريمة في شأن أهل الكفر من بني إسرائيل، الذين كذبوا نبي الله موسى ﷺ وعصوه، وقابلوه بالاقتراحات تعنتًا، وآذوه بأنواع الأذى، مع علمهم أنه رسول الله حقًا، فعاقبهم الله تعالى على صنيعهم ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

فالسبب المستتبع للعقوبة هو الزيغ، والمراد به الميل عن الهدى إلى الضلال.

---

(١) تفسير البغوي: (٢/ ٣٣٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٥٤)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٩٧).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٥/ ١٠٩)، وانظر: تفسير ابن عاشور: (١١/ ٥٠).

والعقوبة هي إزاغة القلب، والمراد إمالته عن الهدى.[١]

والمعنى: أنهم لما عدلوا عن الاستقامة، وانصرفوا عن الحق، واختاروا طريق الضلال، وارتضوا منهج الغواية، وقصدوا مسالك الزيغ، مصرين معاندين، مع علمهم بمورد الحق وسبيل الهدى، جازاهم الله تعالى بأن أضلهم، وأمال قلوبهم عن الهداية، وصرفها عن الحق والصواب.[٢]

قال الراغب: (لما فارقوا الاستقامة عاملهم بذلك).[٣]

وقال الزجاج: (عدلوا عن الحق، وانصرفوا عنه، فأضلهم الله وصرف قلوبهم).[٤]

وقال ابن كثير: (لما عدلوا عن اتباع الحق، مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان).[٥]

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٣/ ٣٣٢، ١٤/ ١٥٢)، شفاء العليل: (ص: ٢١١، ٢١٦)، أضواء البيان: (٤/ ١٤٥، ٧/ ١١٠ - ١١١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٨/ ٨٦)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٩٣)، تفسير السمعاني: (٥/ ٤٢٥)، تفسير البغوي: (٤/ ٣٣٧)، تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٠٢)، تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٣١٢)، زاد المسير: (٨/ ١٦)، تفسير القرطبي: (١٨/ ٥٤)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٨٩)، التسهيل: (٤/ ١١٧)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٢٤٣)، فتح القدير: (٥/ ٢٢٦).

(٣) المفردات: (ص: ٢٢٢).

(٤) معاني القرآن: (٥/ ١٦٤).

(٥) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٦٠)، وانظر: مجموع الفتاوى: (٨/ ٢٢٢، ١٣/ ٢٤٥)، الفوائد: (ص: ١٦٨).

وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ مقرر للمضمون السابق، دال عليه، مؤكد لمعناه، مشير إلى علته.

قال الشوكاني: (والمعنى أنه لا يهدي كل متصف بالفسق، وهؤلاء من جملتهم).[1]

يقول السعدي: (﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي الذين لم يزل الفسق وصفا لهم، ليس لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعبيده ليس ظلمًا منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ وتقليب القلوب، عقوبة لهم، وعدلا منه بهم).[2]

وما تضمنه كلام السعدي هنا من تقليب القلوب هو الوارد في قول الله ﷻ في شأن مشركي قريش[3] ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ[4] أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠].

(١) فتح القدير: (٥/ ٢٢٦)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٣١٢).

(٢) تفسير السعدي: (٥/ ٢٣٠)، وانظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٨٧)، مجموع الفتاوى: (١٤/ ٣٣٥، ١٨/ ١٧٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ٣١١ - ٣١٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٦٤).

(٤) قال ابن عطية: (٢/ ٣٣٤) (الضمير في ﴿بِهِۦٓ﴾ يحتمل أن يعود على الله ﷻ، أو على القرآن، أو على النبي ﷺ) وتابعه أبو حيان. انظر: تفسير البحر المحيط: (٤/ ٢٠٤)، وهذه الأقوال متقاربة ومتلازمة.

والتقليب تحويل الشيء من وجه إلى وجه، وصرفه وتغييره من حال إلى حال.[1]

والمعنى: أنهم تركوا الإيمان، فلم يبادروا إليه أول ما جاءهم داعيه، واستكبروا عن الاستجابة لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فعاقبهم الله تعالى بتقليب أفئدتهم، وصرفها عن طريق الهداية، وإبقائها في كفرها وضلالها، غير قابلة للحق.[2]

يقول السعدي في تفسير الآية: (أي ونعاقبهم، إذ لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم، وهذا من عدل الله وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق كان مناسبا لأحوالهم).[3]

ومن هذا الباب أيضًا قول الله تعالى:

(١) انظر: المفردات: (ص: ٤١٢)، لسان العرب: (٥/ ٣٧١٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ٣١٥)، تفسير الواحدي: (١/ ٣٧٠)، إملاء ما من به الرحمن: (١/ ٢٥٧)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٢٠٣)، التسهيل: (٢/ ١٩)، مجموع الفتاوى: (١٨/ ١٧٧، ١٤/ ٣٣٨)، شفاء العليل: (ص: ٢١٤)، الفوائد: (ص: ١٦٨)، فتح الباري: (١٣/ ٣٧٧)، طبعة دار الفكر.

(٣) تفسير السعدي: (٢/ ٥٩).

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

والمقصود بالآية المنافقون، والضمير في: ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾ يعود إليهم.[1]

والمعنى أنهم كانوا إذا نزلت سورة تفضحهم، وتذكر بعض معايبهم تبادلوا النظرات على سبيل التغامز والإيماء، نافرين متضايقين، راغبين في الانسحاب والانتقال عن مجلس الوحي الذي يكشف سترهم، ولذلك يتلفتون فيما بينهم متسائلين ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ من المؤمنين في حال قيامنا وخروجنا.[2]

ثم يتسللون منصرفين عن مجلس رسول الله ﷺ بأبدانهم، معرضين عن الهدى بقلوبهم، مصممين على الكفر والتكذيب.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ يحتمل الانصراف الحسي عن المكان

(١) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٥)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٩٩)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٩٠)، المنافقون في القرآن: (ص: ٤٢٧).

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء: (١/ ٤٥٥)، تفسير السمرقندي: (٢/ ١٠٠)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٨٧)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٤١)، زاد المسير: (٣/ ٣٥٣).

وذكر بعض المفسرين أن مراد المنافقين من تساؤلهم ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ أي هل هناك من يندسّ بينكم من المؤمنين، فينقل ما تقولونه وتدبرونه بينكم إلى محمد ﷺ.

انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٥)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٩٩)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٩٠).

بالأجسام، كما يحتمل الانصراف المعنوي بالقلوب عن طريق الحق والإيمان، والانتفاع بالقرآن.[1]

ثم أخبر الله جل وعلا أنه جازاهم وعاقبهم على ما فعلوه من تعطيل القلوب عن تدبر الآيات وتفهمها، ورفض الحق، والاستنكاف عن الاستجابة له ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾.

فالعقوبة صرف[2] الله جل شأنه لقلوب أولئك المنافقين عن الإيمان والهداية، وعن الخير والتوفيق والرشد، وعن الانتفاع بالقرآن ومواعظه.[3]

قال الزجاج: (أي أضلهم الله مجازاة على فعلهم).[4]

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧٧)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٢٦٩)، تفسير الفخر الرازي: (١٦/ ٢٣٤)، زاد المسير: (٣/ ٣٥٣).

ومن قال بأن المراد الانصراف الحسي ابن جرير، والسمرقندي، والنسفي، والألوسي.

انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٥)، تفسير السمرقندي: (٢/ ١٠٠)، تفسير النسفي: (١/ ٦٩١)، روح المعاني: (١١/ ٥).

ومن قال بأن المراد الانصراف المعنوي الواحدي، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، وأبو حيان، وابن كثير.

انظر: تفسير الواحدي: (١/ ٤٨٧)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٤١)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٩٩)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٩٠)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ١١٧)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٠٣).

(٢) قال الراغب: (الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة أو إبداله بغيره) المفردات: (ص: ٢٨٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٥)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٨٧)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٤١)، تفسير الفخر الرازي: (١٦/ ٢٣٤)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ١١٧)، تفسير النسفي: (١/ ٦٩١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٠٣)، في ظلال القرآن: (٣/ ١٧٤٢).

(٤) معاني القرآن: (٢/ ٤٧٧).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي بسبب ذلك.(١)

قال ابن جرير: (فعل الله بهم هذا الخذلان، وصرف قلوبهم عن الخيرات، من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه استكبارًا ونفاقًا).(٢)

يقول ابن القيم: (أخبر سبحانه عن فعلهم، وهو الانصراف، وعن فعله فيهم، وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره، لأنهم ليسوا أهلًا له.

فالمحل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد، وهؤلاء قلوبهم لا تفقه، وقصودهم سيئة).(٣)

---

(١) انظر: تفسير النسفي: (١/ ٦٩١)، التسهيل: (٢/ ٨٨)، تفسير أبي السعود: (٤/ ١١٤)، روح المعاني: (١١/ ٥٢).

(٢) تفسير الطبري: (١١/ ٧٥).

(٣) شفاء العليل: (ص: ٢١٠)، وانظر: (ص: ٢١١ - ٢١٢)، تفسير المنار: (١١/ ٨٤ - ٨٥).

المبحث الثامن

القلوب الغافلة

الغفلة في اللغة: من غفل عن الشيء، غفلة وغُفولا: أي تركه وسها عنه.

والغُفْل: كل ما لا علامة فيه ولا أثر عمارة من أرض أو طريق ونحوهما.(١)

قال ابن فارس(٢): (الغين والفاء واللام أصل صحيح يدل على ترك الشيء سهوًا، وربّما كان عن عمد، من ذلك: غفلت عن الشيء غفلة وغفولًا، وذلك إذا تركته ساهيًا، وأغفلته، إذا تركته على ذكر منك له).(٣)

ويقول الراغب: (الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ).(٤)

وقد ورد هذا الوصف في قول الله تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) انظر: لسان العرب: (٥/ ٣٢٧٧).

(٢) هو أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين القزويني، المعروف بالرازي، إمام علامة، لغوي محدث، رأس في الأدب والنحو، متمكن في فقه الإمام مالك، من مصنفاته: المجمل في اللغة، والمحصل في النحو، توفي سنة خمس وتسعين وثلاث مائة. انظر: البداية: (١١/ ٣٨٤ - ٣٨٥)، سير أعلام النبلاء: (١/ ٨٧٨).

(٣) مقاييس اللغة: (ص: ٧٧٢).

(٤) المفردات: (ص: ٣٦٤).

والخطاب لرسول الله ﷺ، ينهاه الله ﷻ فيه عن الاستجابة لمطلب بعض عظماء المشركين بإبعاد المستضعفين وفقراء المؤمنين عن مجلسه عليه الصلاة والسلام.(١)

وقد تضمنت الآية وصف هؤلاء المستكبرين بثلاث صفات، غفلة القلب، واتباع الهوى، ومجاوزة الحق.

ويحتمل أن يكون المقصود نفرًا بأعيانهم نزلت فيهم الآية، كما يحتمل أن يراد الإطلاق، فتشمل كل من اتصف بذلك من أهل الكفر(٢)، وهو ما رجحه ابن جُزي فقال: (والأظهر أنها مطلقة من غير تقييد).(٣)

قال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ قال بعض المفسرين: (أي جعلنا قلبه غافلًا).(٤)

وتلك عقوبة من الله جل وعلا.

---

(١) قيل إن الآية نزلت في أمية بن خلف. انظر: أسباب النزول: (ص: ٢٥٠ - ٢٥١)، زاد المسير: (٥/ ٩٣)، تفسير البيضاوي: (٢/ ١٠)، لباب النقول: (ص: ١٤٤).
وقيل إنها نزلت في جمع من زعماء المشركين. انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٢٣٥)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٥١٢)، تفسير النسفي: (٢/ ٢٨٨)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ١١٨)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٨٠).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٥١٢).

(٣) التسهيل: (٢/ ١٨٧).

(٤) تفسير البغوي: (٣/ ١٥٩)، تفسير الواحدي: (٢/ ٦٥٩)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٥١٢)، زاد المسير: (٥/ ٩٣)، تفسير البيضاوي: (٢/ ١٠)، تفسير النسفي: (٢/ ٢٨٨)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ١٢٠)، روح المعاني: (١٥/ ٢٦٤).

يقول السعدي: (غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره).(١)

وكانت العاقبة أن فرغ قلبه من التوحيد، واستولت عليه إرادة الدنيا، فانشغل بالشرك والكفر، وانصرف عن عبادة الله جل وعلا، والاستجابة لرسوله عليه الصلاة والسلام.

قال ابن القيم: (الغُفْل: الشيء الفارغ، والأرض الغُفْل: التي لا علامة بها، والكتاب الغُفْل: الذي لا شكل عليه، فأغفلناه: تركناه غافلًا عن الذكر فارغًا منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي، لأنه سبحانه لم يشأ له الذكر، فبقي غافلًا، فالغفلة وصفه، والإغفال فعل الله فيه بمشيئته، وعدم مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته، فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، وإذا شاء غفلته امتنع منه الذكر).(٢)

ومن آثار تلك الغفلة للقلب: اتباع الهوى، ومجاوزة الحق(٣) ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

والمراد باتباع الهوى إيثار هوى النفس وميلها وإرادتها، فيما يخالف أمر الله ووحيه من الشرك والكفر، والمعصية والفجور.(٤)

---

(١) تفسير السعدي: (٣/ ١٥٤)، وانظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٢٣٦)، تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٥٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٨١)، روح المعاني: (١٥/ ٢٦٤).

(٢) شفاء العليل: (ص: ٢١٢)، والمراد بالمشيئة: المشيئة الكونية القدرية، إذ لا يقع في الكون إلا ما شاءه الله تعالى. انظر: أضواء البيان: (٤/ ٩٠).

(٣) انظر: شفاء العليل: (ص: ٢١٣).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ١٥٩)، تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٥٥).

ومن غفل قلبه، وحكمه الهوى، كان أمره فرطا[1]، إذ (الغفلة والشهوة أصل الشر) كما قال ابن تيمية مستدلًا بالآية الكريمة.[2]

قال الراغب: (﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي إسرافًا وتضييعًا).[3]

ومما يتعلق بغفلة القلوب غمرتها.[4]

يقول الله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣].

والآية الكريمة في المشركين[5]، تقرّر أن قلوبهم في غمرة ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

والإشارة في قوله: ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ إلى القرآن.

---

(١) انظر: الوابل الصيب: (ص: ٨٩ - ٩٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٢٨٩)، وانظر: (١٠/ ٥٩٧).

(٣) المفردات: (ص: ٣٧٩)، وانظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٢٣٧)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٢٣١).

(٤) أصل الغمر في اللغة التغطية والستر، يقال: غمره الماء: أي غطّاه وعلاه، ومن ذلك الغمْرة بمعنى الانهماك في الباطل، لأنها تستر الحق عن عين صاحبها. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٧٧٥)، لسان العرب: (٥/ ٣٢٩٤).

(٥) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ١٩٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٤٩)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٤١).

عن مجاهد في قوله تعالى ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ قال: (القرآن).[1]

واختار هذا القول ابن جرير، والبغوي، والسمرقندي، وابن كثير.[2]

والمراد بالغمرة الغفلة.[3]

---

(١) تفسير الطبري: (١٨/ ٣٥)، الدر المنثور: (٦/ ١٠٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ٣٥)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٤٨٥)، تفسير البغوي: (٣/ ٣١٢)، تفسير ابن كثير: (٣٠/ ٢٤٩).

وفي المقصود باسم الإشارة أقوال أخرى، ومنها:

١- أعمال المؤمنين المذكورة في الآيات المتقدمة.

٢- الكتاب الذي ينطق بالحق المذكور في الآية السابقة، وهو صحائف الأعمال، أو اللوح المحفوظ، على قولين للمفسرين.

٣- الدين بجملته.

٤- الرسول عليه الصلاة والسلام. وكلها محتملة كما قال ابن عطية.

انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٤٩)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٤٧١ - ٤٧٢)، زاد المسير: (٥/ ٣٢٧)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٤١١)، روح المعاني: (١٨/ ٤٦).

(٣) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٢٩٨)، تفسير البغوي: (٣/ ٣١٢)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٤٧١)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٤٨٥)، تفسير الزمخشري: (٣/ ١٩٥)، تفسير البيضاوي: (٢/ ١٠٧)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٧٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٤٩)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٤١).

ومن المفسرين من فسرها بالجهالة أو الضلال أو العمى، وهي معان متقاربة تثمرها الغفلة، وكل ذلك بمثابة الغطاء للقلب.

انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ٣٥)، تفسير الواحدي: (٢/ ٧٤٩)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٤٩)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٩٠)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٤١١)، الدر المنثور: (٦/ ١٠٧).

والمعنى: بل قلوب هؤلاء الكافرين قد غمرتها الغفلة، وصارت كالغطاء لها، فحالت بينها وبين تأمل ما يتنزل من كلام الله تعالى، والتفهم لمعانيه، والتأثر بما يتضمنه من الدلائل والبينات، فأورثهم ذلك إصرارًا على ما هم فيه من الجهالة والضلالة والعمى.

ثم بين الله جل شأنه أن لهؤلاء الكافرين أعمالا أخرى من المعاصي والسيئات، مستمرون عليها، لا ينفكون عن ممارستها، إذ أصل التكذيب يثمر استسهال فعل السيئة.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾.

قال ابن جُزي: (أي لهم أعمال سيئة دون الغمرة التي هم فيها، فالمعنى أنهم يجمعون بين الكفر وسوء الأعمال).[١]

(١) التسهيل: (٣/ ٥٣)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٤٩)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٤١١)، نظم الدرر: (٥/ ٢١٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٤١ - ١٤٢)، روح المعاني: (١٨٠/ ٤٦)، وفي المعنى أقوال أخرى. انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ٣٥ - ٣٦)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٤٧٢)، تفسير السمعاني: (٣/ ٤٨١)، تفسير البغوي: (٣/ ٣١٢)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٤٩).

المبحث التاسع

القلوب العمي

يطلق العَمَى على ذهاب البصر من العينين، يقال عَمِي، يَعْمى، وصاحبه أعمى.

ويطلق العمى أيضًا على ذهاب نظر القلب، وصاحبه أعمى وعَمٍ، يقال: رجل عم، إذا كان أعمى القلب.

وأصل اللفظ يدل على ستر وتغطية.[١]

قال الراغب: (العمى يقال في افتقاد البصر والبصيرة، ويقال في الأول أعمى، وفي الثاني أعمى وعم).[٢]

وقد أسند العمى إلى القلوب في قول الله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والآية الكريمة في كفار مكة[٣]، تتضمن توبيخًا لهم على غفلتهم، وتركهم التفكر والاعتبار، والاتعاظ والحذر من مصير الأمم السابقة من

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٦٧٣)، لسان العرب: (٤/ ٣١١٥ - ٣١١٦)، ترتيب القاموس: (٣/ ٣١٧).

(٢) المفردات: (ص: ٣٥١).

(٣) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٧٣٦)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٩١)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٢).

حولهم، ممن كفر بالله، وكذب رسله عليهم السلام، فعاقبهم الله جل وعلا بإهلاكهم وإنزال العذاب بهم ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي كان الواجب أن تعي قلوبهم عظمة الله وقدرته، وتفقه ما يجب عليهم من توحيده سبحانه، وتصغي آذانهم للحق، فتسمعه سماع فهم وتدبر وانتفاع، ومن ثَمّ تتحقق لهم ثمرة التأمل والتفكر والاعتبار من خلال المشاهدة أو السماع.(١)

ثم أشارت الآية الكريمة إلى أن السبب في غفلتهم عن الاتعاظ والاعتبار، وتركهم الانتفاع بالمشاهدة والسماع، هو ما في قلوبهم من العمى عن الحق ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ فالآفة والخلل في بصائر قلوبهم، لا في أبصار أعينهم.

ذلك أن أعينهم سالمة من العمى، لكن قلوبهم عمي، معطلة عن وظيفتها في التدبر والاعتبار، وفي التأثر والاتعاظ، بحيث يفقهون ما ينفعهم، ويعلمون ويعقلون ما يوصلهم إلى الإيمان والحق والهدى، وهذا هو العمى الحقيقي، لا عمى الأعين والأبصار.(٢)

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٨٢)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٧٨)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٧)، تفسير الفخر الرازي: (٢٣/ ٤٤ – ٤٥)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٧)، روح المعاني: (١٧/ ١٦٧)، أضواء البيان: (١٠/ ٢٠٦).

قال النسفي: (أي فما عميت أبصارهم عن الإبصار، بل قلوبهم عن الاعتبار).(١)

وقال الراغب: (لم يعدّ افتقاد البصر في جنب افتقاد البصيرة عمى).(٢)

عن قتادة في تفسير الآية قال: (ما هذه الأبصار التي في الرؤوس فإنها جعلها الله منفعة وبلغة، وأما البصر النافع فهو في القلب).(٣)

وقد تضمنت آية أخرى من كتاب الله جل وعلا أن عمى القلوب وعدم فقهها هو من أوصاف الكفار أهل النار.

يقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فقد وهبهم الله ﷻ قلوبًا ليدركوا بها الحق ويعلموه، لكنهم لم يفعلوا ذلك، فما استعملوها في معرفة الخير والهدى، بل أعرضوا عن الحق اتباعًا لأهوائهم، فلم يتفكروا في دلائله، ولم يتأملوا في حججه وبراهينه.

ولما كانوا كذلك، غير منتفعين بنظر قلوبهم، استحقوا هذا الوصف بأنهم لا يفقهون، فأورثهم كسبهم الخبيث، ونهجهم الباطل، جهلًا

---

(١) تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٦)، وانظر: زاد المسير: (٥/ ٣٠١)، التسهيل: (٣/ ٤٣).

(٢) المفردات: (ص: ٣٥١)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٠٣).

(٣) الدر المنثور: (٦/ ٦١)، وانظر: معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٤٢٢)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٩١)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٢).

وضلالًا، حتى عميت قلوبهم عن الحق البيّن الظاهر.(١)

يقول ابن جرير في تفسير الآية: (وأما قوله ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فإن معناه: لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبرون بها أدلته على وحدانيته، ولا يعتبرون بها حججه لرسله، فيعلموا توحيد ربهم، ويعرفوا حقيقة نبوة أنبيائهم، فوصفهم ربنا جل ثناؤه بأنهم لا يفقهون بها، لإعراضهم عن الحق، وتركهم تدبّر صحة الرشد، وبطول الكفر).(٢)

---

(١) انظر: تفسير البغوي: (٢/ ٢١٧)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٤٨٠)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٢٧)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٦٨).

(٢) تفسير الطبري: (٩/ ١٣١ – ١٣٢).

المبحث العاشر

القلوب المكنونة

الكِنّ والكِنان: وقاء كل شيء وستره، يقال: كنّ الشيء، وأكنّه: أي ستره.

والكنان: الغطاء الذي يُكنّ فيه الشيء، والجمع أكْنان وأكِنَّة.(١)

وفرق الراغب بين كننت وأكننت، فخص الأول بما يستر ببيت وثوب ونحوهما، وخصّ الثاني بما يستر ويخفى في النفس.(٢)

وقد ورد هذا المعنى متصلا بالقلوب في أربع آيات من كتاب الله العزيز.

يقول الله تعالى:

١- ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا(٣) ﴾ [الأنعام: ٢٥].

---

(١) انظر: لسان العرب: (٥/ ٣٩٤٢-٣٩٤٣)، ترتيب القاموس: (٤/ ٩٠).

(٢) المفردات: (ص: ٤٤٤)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٣٨٩)، قال ابن السّكّيت: (كننت الشيء: صننته) (وأكننت الشيء في نفسي: أضمرته) المشوف المعلم: (٢/ ٦٥٨ – ٦٥٩)، وفرق بينهما ابن القيم كذلك في شفاء العليل: (ص: ٢٠٢).

(٣) قال الراغب: (الوقر الثقل في الأذن) المفردات: (ص: ٤٤٤)، وفسره ابن قتيبة بالصمم. انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ١٥٢)، قال ابن كثير في تفسيره: (أي صممًا معنويًا عن الرشاد) (٣/ ٩١)، (وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به)، (٣/ ٤١)، وانظر: تفسير القرطبي: (٦/ ٢٦٠).

٢ - ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

٣ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة في المشركين من قريش وأهل مكة[1]، يخبر الله جل وعلا فيها أنه جعل على قلوب هؤلاء الكافرين أكنة ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

والأكنة: جمع كنان، قال المفسرون: هو الغطاء الذي يستر الشيء، ويحول بينه وبين غيره.[2]

والفقه: الفهم، وجملة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ في محل المفعول لأجله، أي كراهة أن يفهموه[3]، والضمير عائد على القرآن.[4]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٩٣)، تفسير السمعاني: (٢/ ٩٥)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٦٠)، التسهيل: (٢/ ٦)، روح المعاني: (١٥/ ٣٠٣)، فتح القدير: (٢/ ١١٠).

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص:٢٥٥)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٦)، المفردات: (ص: ٤٤٤)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٥٢٥، ٥/ ٤)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٧).

(٣) انظر: إملاء ما من به الرحمن: (١/ ٢٣٨)، تفسير السمعاني: (٣/ ٢٤٦)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٦)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٧٩)، زاد المسير: (٣/ ١٥)، التسهيل: (٢/ ٦).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٦١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٧، ٣/ ٤١، ٣/ ٩١)، نظم الدرر: (٢/ ٦٢٢، ٤/ ٣٨٧، ٤٨٣).

قال ابن جرير في المراد بجعل الأكنة على القلوب: (وذلك ما يتغشاه من خذلان الله إياها عن فهم ما يتلى عليهم).[1]

والمعنى أن الله تبارك وتعالى حال بين قلوب أولئك الكافرين وبين فقه القرآن، وفهم معانيه، بما يحقق لأصحابها الانتفاع والتأثر، والقبول والإذعان، والإيمان والاهتداء، وذلك بما جعل سبحانه على تلك القلوب من أغطية تمنعها من الإدراك الصحيح لما تسمعه من الحق في آيات الله تعالى.[2]

وقال القرطبي: (ليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق، كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم).[3]

هذه الأكنة على القلوب إنما هي عقوبة من الله جل شأنه لهم على كفرهم واستكبارهم وعنادهم في مواجهة ما جاء به الرسول ﷺ من الهدى ودين الحق.

قال الزجاج: (إنما فعل بهم ذلك مجازاة لهم بإقامتهم على كفرهم).[4]

---

(١) تفسير الطبري: (١٥/ ٩٤)، وانظر: تفسير القرطبي: (١١/ ٧)، نظم الدرر: (٤/ ٣٨٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ١٦٩ – ١٧٠)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٧٩، ٣/ ٤٦٠)، تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ١٨٦ – ١٨٧)، تفسير البيضاوي: (١/ ٥٧٣)، التسهيل: (٢/ ٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٧)، أضواء البيان: (٤/ ١٤٤).

(٣) تفسير القرطبي: (٦/ ٢٦٠)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٧)، زاد المسير: (٣/ ١٦)، مجموع الفتاوى: (١٦/ ٩ – ١٠).

(٤) معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٧)، وانظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٤٦٢، ٢/ ٣٥٢)، زاد المسير: (٣/ ١٦).

٢ - ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦].

٣ - ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧].

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة في المشركين من قريش وأهل مكة[١]، يخبر الله جل وعلا فيها أنه جعل على قلوب هؤلاء الكافرين أكنة ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

والأكنة: جمع كنان، قال المفسرون: هو الغطاء الذي يستر الشيء، ويحول بينه وبين غيره.[٢]

والفقه: الفهم، وجملة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ في محل المفعول لأجله، أي كراهة أن يفهموه[٣]، والضمير عائد على القرآن.[٤]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٩٣)، تفسير السمعاني: (٢/ ٩٥)، تفسير القرطبي: (٦/ ٢٦٠)، التسهيل: (٢/ ٦)، روح المعاني: (١٥/ ٣٠٣)، فتح القدير: (٢/ ١١٠).

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص:٢٥٥)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٦)، المفردات: (ص: ٤٤٤)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٥٢٥، ٥/ ٤)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٧).

(٣) انظر: إملاء ما من به الرحمن: (١/ ٢٣٨)، تفسير السمعاني: (٣/ ٢٤٦)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٦)، تفسير ابن عطية: (٢ / ٢٧٩)، زاد المسير: (٣/ ١٥)، التسهيل: (٢/ ٦).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٦١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٧، ٣/ ٤١، ٣/ ٩)، نظم الدرر: (٢/ ٦٢٢، ٤/ ٣٨٧، ٤٨٣).

قال ابن جرير في المراد بجعل الأكنة على القلوب: (وذلك ما يتغشاه من خذلان الله إياها عن فهم ما يتلى عليهم).[١]

والمعنى أن الله تبارك وتعالى حال بين قلوب أولئك الكافرين وبين فقه القرآن، وفهم معانيه، بما يحقق لأصحابها الانتفاع والتأثر، والقبول والإذعان، والإيمان والاهتداء، وذلك بما جعل سبحانه على تلك القلوب من أغطية تمنعها من الإدراك الصحيح لما تسمعه من الحق في آيات الله تعالى.[٢]

وقال القرطبي: (ليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق، كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم).[٣]

هذه الأكنة على القلوب إنما هي عقوبة من الله جل شأنه لهم على كفرهم واستكبارهم وعنادهم في مواجهة ما جاء به الرسول ﷺ من الهدى ودين الحق.

قال الزجاج: (إنما فعل بهم ذلك مجازاة لهم بإقامتهم على كفرهم).[٤]

---

(١) تفسير الطبري: (١٥/ ٩٤)، وانظر: تفسير القرطبي: (١١/ ٧)، نظم الدرر: (٤/ ٣٨٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ١٦٩ – ١٧٠)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٧٩، ٣/ ٤٦٠)، تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ١٨٦ – ١٨٧)، تفسير البيضاوي: (١/ ٥٧٣)، التسهيل: (٢/ ٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٢٧)، أضواء البيان: (٤/ ١٤٤).

(٣) تفسير القرطبي: (٦/ ٢٦٠)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٧)، زاد المسير: (٣/ ١٦)، مجموع الفتاوى: (١٦/ ٩ – ١٠).

(٤) معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٣٧)، وانظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٤٦٢، ٢/ ٣٥٢)، زاد المسير: (٣/ ١٦).

وقال القرطبي: (أي فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم).(١)

وفي آية الكهف إشارة إلى ذلك، فقد بينت الآية الكريمة أن الإعراض عن آيات الله تعالى، والاستكبار عن قبولها، والإصرار على الجحود والعصيان، تترتب عليه آثار منها جعل الأكنة على القلوب بحيث لا تفقه الحق، ولا تهتدي به.(٢)

يقول محمد الأمين: (فإن قيل: إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون، لأن الله جعل الأكنة المانعة من الفهم على قلوبهم، والوقر الذي هو الثقل المانع من السمع في آذانهم، فهم مجبورون، فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره؟

فالجواب: أن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم كالختم والطبع والغشاوة والأكنة، ونحو ذلك، إنما جعلها عليهم جزاء وفاقًا لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم، فأزاغ الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك، جزاء على كفرهم)(٣) ثم سرد عددًا من الآيات الدالة على ذلك.

٤ – وقد ذكر الله تعالى في القرآن على لسان المشركين أنهم أخبروا عن قلوبهم بأنها في أكنة، وذلك في قول الله سبحانه:

(١) تفسير القرطبي: (٦/ ٢٦٠)، وانظر: (١١/ ٧)، أضواء البيان: (٣/ ٥٩٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٢٦٨)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٥٢٥)، تفسير السعدي: (٣/ ١٦٧ – ١٦٨)، أضواء البيان: (٤/ ١٤٢، ١٤٥ – ١٤٦).

(٣) أضواء البيان: (٤/ ١٤٤ – ١٤٥).

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥].

ومعنى قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي عليها أغطية تسترها وتمنعها من فهم ما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ، وأنهم في ذلك بمنزلة من لا يفقه ولا يعي ولا يدرك.(١)

قال ابن القيم: (والمعنى: إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ما تقول).(٢)

وهذا القول منهم يتأسس على العناد والإصرار على الباطل، كما يتأسس على الكراهة والاستثقال للحق، ومقصودهم إشعاره عليه الصلاة والسلام باليأس من قبولهم للدعوة، أو استجابتهم للهدى، أو إذعانهم للتوحيد.(٣)

وقد يتعارض ـ في الظاهر ـ هذا الموضع الذي يحكي ـ على سبيل الذم ـ قول الكافرين بأن قلوبهم في أكنة، مع المواضع السابقة التي تقرر أن الله تعالى جعل الأكنة على قلوبهم.

ولا تعارض في الحقيقة، فما ذكره الله جل وعلا في المواضع السابقة من

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٧٩)، تفسير البغوي: (٤/ ١٠٧).

(٢) شفاء العليل: (ص: ٢٠٣)، وانظر: زاد المسير: (٧/ ٥٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٩١)، نظم الدرر: (٦/ ٥٥١ – ٥٥٢)، في ظلال القرآن: (٥/ ٣١٠٨)، أضواء البيان: (٧/ ١٠٨).

جعل الأكنة على القلوب هو عقاب من الله سبحانه لهم على عنادهم واستكبارهم عن قبول الحق بعد ما تبين لهم، ومن مظاهر ذلك ما ذكره الله ﷻ في هذا الموضع على لسانهم على سبيل المباعدة والمعاندة، وردّما جاء به الرسول ﷺ.

يقول محمد الأمين: (التحقيق في الجواب عن هذا الإشكال هو ما ذكرناه مرارًا من أن الله إنما جعل على قلوبهم الأكنة، وطبع عليها، وختم عليها، وجعل الوقر في آذانهم، ونحو ذلك من الموانع من الهدى، بسبب أنهم بادروا إلى الكفر وتكذيب الرسل، طائعين مختارين، فجزاهم الله على ذلك الذنب الأعظم طمس البصيرة، والعمى عن الهدى، جزاء وفاقًا، فالأكنة والوقر والحجاب المذكورة إنما جعلها الله عليهم مجازاة لكفرهم الأول، ومن جزاء السيئة تمادي صاحبها في الضلال، ولله الحكمة البالغة في ذلك، والآيات المصرحة بمعنى هذا كثيرة في القرآن..).[1]

ثم قال أيضًا: (فدعواهم كاذبة، لأن الله جعل لهم قلوبًا يفهمون بها، وآذانا يسمعون بها، خلافًا لما زعموا، ولكنه سبب لهم الأكنة والوقر والحجاب، بسبب مبادرتهم إلى الكفر، وتكذيب الرسول ﷺ).[2]

ومما يتعلق بهذه الآية ما ورد في القرآن من وصف اليهود لقلوبهم بأنها غلف، وذلك في آيتين من كتاب الله تعالى هما قوله سبحانه:

---

(١) أضواء البيان: (٧/ ١٠٩).

(٢) أضواء البيان: (٧/ ١١١).

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

والآيتان في شأن اليهود[1]، تحكي قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ وهو بمعنى قول المشركين: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾[2] كما قال جمهور المفسرين.[3]

---

(١) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٩٢)، تفسير القرطبي: (٢/ ١٩)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٣٠١).

(٢) قال محمد الأمين: (لأن الغلف جمع أغلف، وهو الذي عليه غلاف، والأكنة جمع كنان، والغلاف والكنان كلاهما بمعنى الغطاء الساتر) أضواء البيان: (٧/ ١١٠).

والكلمة ـ كما يقول ابن فارس ـ (تدل على غشاوة وغشيان شيء لشيء. يقال: غلاف السيف والسكين، وقلب أغلف: كأنما أغشي غلافًا، فهو لا يعي شيئًا)، مقاييس اللغة: (ص: ٧٧٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١/ ٤٠٨، ٦/ ١٠)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٥٧)، معاني القرآن للنحاس: (١/ ٢٣٣)، تفسير السمرقندي: (١/ ٩٨ - ٩٩، ١/ ٣٧٩)، تفسير السمعاني: (١/ ١٠٧)، تفسير البغوي: (١/ ٩٢ - ٩٣)، تفسير الزمخشري: (١/ ١٩٠)، تفسير ابن عطية: (١/ ١٧٧، ٢/ ١٣٢)، التسهيل: (١/ ٥٣)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٣٠١،٣/ ٣٨٨)، تفسير ابن كثير: (/ ١٢٣، ١/ ٥٧٣)، فتح القدير: (١/ ١١٤، ٥٤١)، تفسير القاسمي: (٢/ ١٨٦)، تفسير السعدي: (١/ ٧٥ - ٧٦، ٤٣٦)، أضواء البيان: (٧/ ١٠٩)، شفاء العليل: (ص: ٢٠٣).

ومن المفسرين من قال بأن ﴿غُلْفٌ﴾ جمع غلاف، أي أنهم وصفوا قلوبهم بأنها أوعية للعلم، والمقصود أنها لا تحتاج إلى علم رسول الله ﷺ، أو المقصود أنه لو كان ما جاء به رسول الله ﷺ حقًا لعلمته ووعته.

انظر: معاني القرآن للفراء: (١/ ٢٩٤)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ١٢٧)، تفسير القرطبي: (٦/ ٧)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٣٠١).

قال ابن القيم مناقشا هذا القول: (أما قول من قال: هي أوعية للحكمة، فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة، وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، والغلاف قد يكون وعاء للجيدّ والرديء، فلا يلزم من كون القلب غلافًا أن يكون داخله العلم والحكمة) شفاء العليل: (ص: ٢٠٣ - ٢٠٤) (مع اختصار يسير).

ذلك أن ﴿غُلْفٌ﴾ في الآية جمع واحده أغلف، وهو ما عليه غلاف يغشيه ويغطيه، ويحجبه ويستره عن غيره، ويمنع نفوذ غيره إليه.

فوصف اليهود قلوبهم بذلك مريدين أنها لا تتمكن من فهم ما يدعوهم إليه عليه الصلاة والسلام .

قال ابن جرير : (يقولون: عليها غشاوة وأغطية عما تدعونا إليه، فلا نفقه ما تقول ولا نعقله).[١]

وقد رد الله ﷻ على اليهود زعمهم، وكذب قولهم، وأبطل دعواهم، بقوله سبحانه: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، وقوله جل وعلا: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

إذ كان مرادهم الاحتجاج على الكفر، ومقصدهم الامتناع عن الإيمان، وإلا فهم متمكنون في الأصل من سماع الحق وفهمه، لكنهم عاندوا وجحدوا، واستكبروا عن الإيمان والتصديق، واستنكفوا عن الطاعة والقبول، فجازاهم الله تعالى بالطرد والإبعاد من رحمته وتوفيقه، وبالطبع على قلوبهم.[٢]

---

(١) تفسير الطبري: (٦/ ١٠)، وانظر: تفسير السمعاني: (١/ ١٠٧)، تفسير ابن عطية: (١/ ١٧٧)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١/ ٤٠٨)، المفردات: (ص: ٤٥٤)، نظم الدرر: (١/ ١٩٠)، مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٢ – ١٣).

قال القاسمي: (رد الله أن تكون قلوبهم كذلك، لأنها متمكنة من قبول الحق، وإنما طردهم عن رحمته بسبب كفرهم وزيغهم).[١]

يقول ابن القيم: (وجه الإضراب في غاية الظهور، وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقه، فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم الإيمان، فأكذبهم الله وقال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم، وآثروه على الإيمان، فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة.

والمعنى: لم يخلق قلوبهم غلفًا لا تعي ولا تفقه، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها).[٢]

وقد ورد لفظ: (الأغلف) وصفًا للقلب الكافر في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل

---

(١) تفسير القاسمي: (٢/ ١٨٦)، وانظر: (٥/ ٥٤٧ – ٥٤٨)، معاني القرآن للزجاج: (١/ ١٦٩)، تفسير ابن عطية: (١/ ١٧٧)، تفسير القرطبي: (٢/ ١٩)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٣٠١).

(٢) شفاء العليل: (ص: ٢٠٤)، وانظر: نظم الدرر: (٢/ ٣٤٩)، أضواء البيان: (٧/ ١١٠).

السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه] وفيه: [وأما القلب الأغلف فقلب الكافر].(١)

قال ابن القيم: (أشار بـ[القلب الأغلف] إلى قلب الكافر، لأنه داخل في غلافه وغشائه فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله).(٢)

ومما يتصل بهذا الباب ما ورد في وصف رسولنا ﷺ في التوراة بأنه يفتح بالتوحيد قلوبًا غلفًا.

ففي حديث عبد الله بن عمرو ﷺ يحكي بعض أوصاف رسول الله ﷺ في التوراة: (.. ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء(٣)، بأن يقولوا

(١) رواه أحمد في المسند: (٣/ ١٧)، قال ابن كثير في تفسيره: (١/ ٥٧) (هذا إسناد جيد حسن)، وانظر: (٣/ ٢٩٣)، وجوّد السيوطي إسناده كذلك في الدر المنثور: (١/ ٢١٥)، ورواه الطبراني كما في مجمع الزوائد: (١/ ٢٣١)، قال الهيثمي: (وفي إسناده ليث بن أبي سُليم) قال العراقي: (مختلف فيه)، المغني: الإحياء: (١/ ١٧٣)، وضعفه الألباني مرفوعًا: إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨) (الهامش)، وصححه من حديث حذيفة ﷺ بنحوه موقوفًا عليه، وحديث حذيفة رواه ابن جرير في تفسيره: (١/ ٤٠٦)، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٢٠٥)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ٢٧٦)، وغيرهم. انظر: الدر المنثور: (١/ ٢١٤)، وصححه ابن القيم في إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨).

(٢) إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨ - ٤٩) (مع اختصار يسير).

(٣) قال ابن الأثير: (يعني ملة إبراهيم ﷺ التي غيرتها العرب عن استقامتها) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٣١٥)، أي ما أُدخل فيها من عبادة الأصنام، ولذلك وصفها بالعوج، فالمقصود ملة الكفر، وإقامتها يعني إخراج أهلها من الكفر إلى الإيمان. انظر: فتح الباري: (٩/ ٢٠٠، ١٨/ ٢١٤).

لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عميًا، وآذانا صمًا، وقلوبًا غلفًا).(١)

قال ابن الأثير: (أي مغشاة مغطاة، واحدها أغلف).(٢)

والمراد أن رسول الله ﷺ يفتح بكلمة التوحيد تلك القلوب الغلف، فيكشف غطاءها، وينقلها من ظلمة الشرك والكفر إلى نور التوحيد والإيمان.(٣)

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾: (٤/ ١٨٣١).

(٢) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٣٧٩).

(٣) انظر: فتح الباري: (٩/ ٢٠٠، ١٨/ ٢١٤)، مشارق الأنوار: (٢/ ١٣٤).

المبحث الحادي عشر

القلوب المطبوع عليها

الطبع في اللغة التغطية على الشيء، والاستيثاق من أن لا يدخله شيء.

يقال: طبع الشيء، وطبع عليه: أي ختم، وأصله من التأثير في الطين ونحوه، والطابع بالفتح: الخاتم الذي يختم به.[1]

قال ابن فارس: (الطاء والباء والعين أصل صحيح، وهو مثل على نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها، يقال: طبعت على الشيء طابعًا. ثم يقال على هذا: طبع الإنسان وسجيّته، ومن ذلك طبع الله على قلب الكافر، كأنه ختم عليه حتى لا يصل إليه هدى ولا نور، فلا يوفق لخير).[2]

وهو مأخوذ من قولهم: طبع على الكتاب، وختمه: إذا جعل عليه الطابع والخاتم، بعد وضعه في ظرفه، بغرض التوثق من حفظه، وعدم دخول شيء آخر فيه، ومنع غير أصحاب الشأن من الاطلاع عليه.[3]

وقد ورد الطبع على القلوب في إحدى عشرة آية من كتاب الله العزيز.

١. يقول الله سبحانه:

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

---

(١) انظر: لسان العرب: (٤/ ٢٦٣٥)، ترتيب القاموس: (٣/ ٥٣)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٤٩٤).

(٢) مقاييس اللغة: (ص: ٦٠٦).

(٣) انظر: فتح القدير: (١/ ٤١)، تفسير المنار: (٩/ ٣٠).

وسياق الآية في اليهود[١]، متضمنة بعض أنواع قبائحهم، ومن ذلك قولهم: قلوبنا غلف، أي في أغطية وحجب، فلا تفهم ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا تعي ذلك ولا تفهمه[٢]، ينهزهم إلى هذا القول عناد وجحود، ودفع للبينات، وردّ للأدلة، واحتجاج على الكفر، واتجاه إلى الامتناع والنكوص عما يجب عليهم من الإيمان والطاعة والالتزام بالشرائع.

قال القرطبي: (وغرضهم بهذا درء حجة الرسل عليهم السلام).[٣]

وقد كذبهم الله جل وعلا، وأبطل دعواهم، بقوله سبحانه: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

والطبع الختم[٤]، والباء في قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ سببية (أي بسبب كفرهم).[٥]

والمعنى: ليس الأمر كما يقولون، لكن الله سبحانه طبع على قلوبهم، أي ختم عليها، فلا تقبل الهدى، ولا يصل إليها الخير، ولا يدخلها الإيمان، وذلك عقوبة منه ﷻ على كفرهم، وجزاء لهم على عنادهم وإصرارهم على التكذيب.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ٧)، تفسير البغوي: (١/ ٤٩٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٠)، تفسير ابن عطية: (٢/ ١٣٢)، تفسير ابن كثير: (١/ ٥٧٣).

(٣) تفسير القرطبي: (٦/ ٨).

(٤) انظر: تفسير السمعاني: (١/ ٤٩٨)، تفسير البغوي: (١/ ٤٩٦).

(٥) إملاء ما من به الرحمن: (١/ ٢٠٠)، وانظر: أضواء البيان: (٧/ ١١٠).

قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: كذبوا في قولهم: قلوبنا غلف، وما هي بغلف، ولا عليها أغطية، ولكن الله جل ثناؤه جعل عليها طابعًا بكفرهم بالله).[١]

وقال ابن عطية: (أخبر الله تعالى أن ذلك كله عن طبع منه على قلوبهم، وأنهم كذبة فيما يدعونه من قلة الفهم).[٢]

ذلك أنهم سمعوا كلام الله وفقهوه، لكنهم لم يؤمنوا به ولم يقبلوه، ولم يستجيبوا له طاعة وإقرارًا وتصديقًا، بل عصوا وخالفوا وجحدوا، فكان العقاب من الله جل شأنه على ما قدموه باختيارهم من أنواع الكفر إضلالًا لهم، وطبعًا على قلوبهم، وسلبًا للهدى منهم.[٣]

قال الزجاج: (جعل الله مجازاتهم على كفرهم أن طبع على قلوبهم).[٤]

وقال ابن تيمية ـ مستدلًا بهذه الآية الكريمة ـ (والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع).[٥]

---

(١) تفسير الطبري: (٦/ ١٠)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٣/ ٣٣٨)، فتح الباري: (١٣/ ٣٧٧)، طبعة دار الفكر.

(٢) تفسير ابن عطية: (٢/ ١٣٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٢ - ١٣، ١٨/ ١٧٧).

(٤) معاني القرآن: (٢/ ١٢٧)، وانظر: تفسير الواحدي: (١/ ٣٠٠)، زاد المسير: (٢/ ٢١٧)، تفسير القرطبي: (٦/ ٨).

(٥) مجموع الفتاوى: (١٤/ ١٥٢)، وانظر: (٣٣٥ - ٣٣٦).

يقول محمد الأمين في تفسير الآية: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم، وهو نص قرآني صريح في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم) ثم قال بعد أن أورد عددا من الآيات في هذا الباب: (إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الطبع على القلوب، ومنعها من فهم ما ينفع، عقاب من الله على الكفر السابق على ذلك).[1]

٢. يقول الله ﷻ:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

هذه الآية الكريمة تتضمن وعيدًا للكافرين المكذبين لرسول الله ﷺ، وفي مقدمتهم مشركو قريش وكفار مكة.[2]

والمعنى: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين الذين يسكنون الأرض بعد أمم سابقة هلكت وبادت، أن لله جل وعلا سنة ماضية في عقاب أهل الكفر والعناد، وإنزال العذاب بهم بسبب ذنوبهم وتكذيبهم وعدائهم للرسل عليهم السلام.

كما أن من سنته سبحانه أن يجعل من عقوبته على الذنوب الطبع على

(١) أضواء البيان: (٤/ ١٤٥)، وانظر: (٧/ ١٠٩ – ١١٠).

(٢) انظر: تفسير الواحدي: (١/ ٤٠٤)، تفسير القرطبي: (٧/ ١٦٢)، التسهيل: (٢/ ٤٠)، تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٥٤).

القلوب، فلا تقبل الإيمان، ولا تستجيب للهدى، ولا تنتفع بالسماع[1] ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

قال السمرقندي: (يعني نختم على قلوبهم بأعمالهم الخبيثة، عقوبة لهم، فهم لا يسمعون الحق، ولا يقبلون الموعظة).[2]

وقال أبو حيان: (المعنى أن من أوضح الله له سبل الهدى، وذكر له أمثالا ممن أهلكهم الله تعالى بذنوبهم، وهو مع ذلك دائم على غيه لا يرعوي، يطبع الله على قلبه، فينبو سمعه عن سماع الحق).[3]

٣. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

والخطاب في الآية الكريمة لرسول الله ﷺ، والإشارة إلى قرى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، والتي سبق إيراد بعض خبرها في السورة الكريمة.[4]

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٩)، تفسير البغوي: (٢/ ١٨٤)، زاد المسير: (٣/ ١٦٠)، روح المعاني: (٩/ ١٣)، تفسير السعدي: (٢/ ١٣٩).

(٢) تفسير السمرقندي: (١/ ٥٥٠).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٤/ ٣٥٠ – ٣٥١).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٠)، تفسير الفخر الرازي: (١٤/ ١٨٨)، تفسير القرطبي: (٧/ ١٦٢ – ١٦٣)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٣٥٢).

وتتضمن الآية بيانًا بأن الحجة قد قامت على المكذبين من تلك الأمم السابقة، بإرسال الرسل إليهم، مؤيدين بالمعجزات الظاهرة الدالة على الحق، والحجج الواضحة على صدقهم عليهم السلام، وصحة ما جاءوا به عن ربهم سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾.

والباء في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟﴾ سببية، و(ما) مصدرية.

والمعنى أن جحودهم، وإصرارهم على التكذيب بالآيات، وردّهم للحق لما جاءهم به الرسل عليهم السلام، كان سببًا في عقاب الله ﷻ لهم بالإضلال، وجزائه لهم بأن حرمهم التوفيق إلى الهداية والإيمان.

هذا القول في معنى الآية حكاه ابن عطية[(١)]، وحسنه ابن كثير بقوله: (وهو متجه حسن)[(٢)]، وهو قول السعدي[(٣)]، وقال عنه محمد الأمين: (هو من أقرب الأقوال لظاهر الآية الكريمة، ووجهه ظاهر، لأن شؤم المبادرة إلى تكذيب الرسل سبب للطبع على القلوب، والإبعاد عن الهدى، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة).[(٤)]

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ٤٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٣٥).

(٣) انظر: تفسير السعدي: (٢/ ١٣٩).

(٤) أضواء البيان: (٢/ ٣٢٩).

وللمفسرين في معنى الآية أقوال عدة. انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١١ - ١٢)، تفسير السمرقندي: (١/ ٥٥٠ - ٥٥١)، تفسير الفخر الرازي: (١٤/ ١٨٧ - ١٨٨)، زاد المسير: (٣/ ١٦٠ - ١٦١).

ويرى بعض المفسرين أن الباء ليست سببية، وأن (ما) موصولة، والمعنى أن هؤلاء المكذبين ما كانوا ليؤمنوا بعد ظهور المعجزات، وتتابع الآيات، بما كذبوا به قبل ذلك من الحق، والمقصود وصفهم بالغاية في العتو والعناد، والإصرار على الباطل، والثبات على الكفر.

حكى هذا القول ابن عطية مبتدئًا به[(١)]، وهو قول البغوي[(٢)]، ورجحه أبو حيان فقال: (والذي يظهر أن الضمير في: ﴿كَانُوا۟﴾ وفي: ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ عائد على أهل القرى، وأن الباء في ﴿بِمَا﴾ ليست سببية، فالمعنى أنهم انتفت عنهم قابلية الإيمان وقت مجيء الرسل بالمعجزات، بل حالهم واحد قبل ظهور المعجزات وبعد ظهورها، لم تجد عنهم شيئا).[(٣)]

ولما لم تصبح قلوب أولئك المكذبين محلًا قابلًا للإيمان طبع الله جل شأنه عليها، عقابًا لها ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي مثل طبعه على قلوب هؤلاء المذكورين، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ).[(٤)]

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ٤٣٤).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٢/ ١٨٤).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٤/ ٣٥٣)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٥٥)، روح المعاني: (٩/ ١٥).

(٤) تفسير القرطبي: (٧/ ١٦٣)، وانظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٢)، تفسير البغوي: (٢/ ١٨٤)، تفسير النسفي: (١/ ٥٦٠)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٣٥٤).

وقال السمرقندي: (يعني هكذا يختم الله تعالى على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم).(١)

وفي الوصف بالكفر في قوله سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ إشارة إلى أن الإصرار على الكفر، ومخالفة الرسل عليهم السلام، هو سبب للطبع على القلوب.(٢)

يقول سيد قطب: (ليست البينة هي ما كان ينقصهم ليؤمنوا، إنما كان ينقصهم القلب المفتوح، والحس المرهف، والتوجه إلي الهدى، كان ينقصهم الفطرة الحية التي تستقبل وتنفعل وتستجيب، فلما لم يوجهوا قلوبهم إلي موحيات الهدى، ودلائل الإيمان، طبع الله على قلوبهم وأغلقها، فما عادت تتلقى ولا تنفعل ولا تستجيب ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.(٣)

٤. يقول الله سبحانه:

﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾[التوبة: ٨٧].

---

(١) تفسير السمرقندي: (١/ ٥٥١).

(٢) انظر: روح المعاني: (٩/ ١٦).

(٣) في ظلال القرآن: (٣/ ١٣٤٢)، وانظر: تفسير السعدي: (٢/ ١٣٩).

٥. ويقول تبارك وتعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ(١) عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٩٣].

نزلت الآيتان الكريمتان في شأن المنافقين(٢)، وتكرر المعنى فيهما للتأكيد والمبالغة في ذم المنافقين وكشف مكرهم، والتحذير من صنيعهم.(٣)

تتضمن الآيتان الإنكار عليهم، وتوبيخهم على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، واستئذانهم في القعود مع توفر القدرة والقوة، والسعة والغنى، وهم بذلك رضوا بأن يتساووا مع الخوالف، أي النساء(٤) الموصوفات بالضعف، المعذورات في ترك الجهاد، اللاتي يخلفن الرجال في البيوت، ولم يفرض عليهن في الشرع قتال.

---

(١) المقصود هنا العقوبة والمأثم، وأصل السبيل: الطريق، ويستعمل لكل ما يتوصل به إلى شيء خيرًا كان أو شرًا. انظر: المفردات: (ص: ٢٢٩)، تفسير الطبري: (١١/ ١)، تفسير البغوي: (٢/ ٣١٩)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٤٦)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ١٨٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٠/ ٢٠٧، ١١/ ١)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٨٠)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٦٨، ٧١)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٤٢، ١٤٦)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٨٢، ٨٨)، أضواء البيان: (٢/ ٤٧٣ - ٤٧٤)، المنافقون في القرآن: (ص: ٣٦٢ - ٣٦٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٨/ ١٤٦).

(٤) انظر: غريب القرآن لليزيدي: (ص: ١٦٥)، تفسير الطبري: (١٠/ ٢٠٨)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٧٦)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٦٨)، تفسير النسفي: (١/ ٦٧٢)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٨٣).

ولهذا السبب استحق أولئك المنافقون عقاب الله سبحانه لهم بالطبع على قلوبهم، والختم عليها، فلا يفهمون مواعظه جل وعلا، بحيث يتحقق لهم الاعتبار والتدبر والاتعاظ، ولا يعلمون علماً يميزون به بين ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك ما يترتب على الجهاد من المصالح، وعلى القعود من المفاسد في الدنيا والآخرة.[1]

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[2]

عن قتادة في قوله سبحانه: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: (أي بأعمالهم).[3]

وقال ابن جرير: (ختم الله على قلوبهم بما كسبوا من الذنوب).[4]

وقال النسفي: (ختم عليها لاختيارهم الكفر والنفاق).[5]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٠/ ٢٠٨، ١١/ ١)، تفسير النسفي: (١/ ٦٧٢)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٨٣، ٨٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٨٠ - ٣٨١).

(٢) قال صاحب المنار: (عبر هنا بالعلم، وهناك بالفقه، والمراد واحد، وهو الإدراك والعرفان الصحيح الذي يبعث على العمل بمقتضاه، ولكن المتبادر من العلم تيقّن المعلوم، ومن الفقه تأثير العلم في النفس) (١٠/ ٥٩١) فالفقه أخص من العلم. انظر: المفردات: (ص: ٣٨٥).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: (٦/ ١٨٥٩)، الدر المنثور: (٤/ ٢٦٠).

(٤) تفسير الطبري: (١١/ ١).

(٥) تفسير النسفي: (١/ ٦٧٢).

٦. يقول الله جل شأنه:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

تخبر الآية الكريمة عن حال الكافرين المكذبين للرسل عليهم السلام من بعد نوح عليه السلام، والتي أشارت الآيات السابقة على هذه الآية إلى خبره عليه السلام مع قومه.

كما تخبر الآية عن عقاب الله تعالى لهؤلاء المكذبين المعتدين وأمثالهم بالطبع على قلوبهم ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

والاعتداء تجاوز الحد في اقتراف السيئات والوقوع في الآثام، والمقصود هنا مجاوزة الحد في الكفر بالله جل وعلا، والتكذيب برسله عليهم السلام، وردّ الأدلة والحجج المتضمنة للهدى والحق.[1]

والمعنى ـ كما قال ابن كثير ـ: (أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم).[2]

---

(١) انظر: المفردات: (ص: ٣٢٨)، تفسير ابن عطية: (٣/ ١٣٣ - ١٣٤)، تفسير القرطبي: (٨/ ٢٣٣).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٢٦)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ١٣٣)، تفسير القرطبي: (٨/ ٢٣٣)، تفسير السعدي: (٢/ ٣٣٤).

يقول ابن جرير في تفسير الآية الكريمة: (يقول تعالى ذكره: كما طبعنا على قلوب أولئك، فختمنا عليها، فلم يكونوا يقبلون من أنبياء الله نصيحتهم، ولا يستجيبون لدعائهم إياهم إلى ربهم، بما اجترموا من الذنوب، واكتسبوا من الآثام، كذلك نطبع على قلوب من اعتدى على ربه، فتجاوز ما أمر به من توحيده، وخالف ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته، عقوبة لهم على معصيتهم ربهم، من هؤلاء الآخرين من بعدهم).(١)

٧. قال الله تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [النحل: ١٠٨].

سياق الآية الكريمة(٢) يتضمن الوعيد الشديد لمن كفر بعد الإيمان، وارتد عن دين الله تعالى، وآثر الضلال على الهدى، فنطق بكلمة الكفر، وتلفظ لسانه بما تقبله من ذلك فؤاده، وانشرح له صدره، وتفتح له قلبه، طائعًا مختارًا.

ومن ذلك الوعيد والجزاء والعقوبة الإلهية ما ورد في هذه الآية من الطبع على القلوب، والختم عليها، وصرفها عن الهدى، فلا تتأمل الحق ولا تدركه، ولا تتدبر الدلائل بحيث تنتفع وتعتبر.(٣)

---

(١) تفسير الطبري: (١١/ ١٤٥)، وانظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٨١٢ - ١٨١٣).

(٢) يقول الله ﷻ في الآيتين السابقتين على هذه الآية: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ .. ﴾ [النحل: ١٠٦].

(٣) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٢٩٣)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٢٥)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٢٦).

قال ابن كثير: (أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر، واطمأن به، أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابًا عظيمًا في الدار الآخرة، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئًا ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً، فهم غافلون عما يراد بهم).(١)

ويقول السعدي: (لما اختاروا الكفر على الإيمان، منعهم الله الهداية، فلم يهدهم، لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم، فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فلا ينفذ منها ما ينفعهم، ويصل إلى قلوبهم، وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله، التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها).(٢)

٨. يقول الله جل شأنه:

﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٨ - ٥٩].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٨٧).

(٢) تفسير السعدي: (٣/ ٨٧)، وانظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٨٢ - ١٨٣).

والمقصود بالآيتين المشركون، الذين اختاروا سبيل التكذيب، تعنتًا منهم وعنادًا، مع أن معالم الحق ودلائل التوحيد في القرآن بينة واضحة، والحجة عليهم من الرسول عليه الصلاة والسلام قائمة ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾.

هؤلاء الكافرون الجاحدون يقلبون الحقائق، فيتهمون الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بأنهم أهل باطل ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾.[1]

ولاختيار هؤلاء المكذبين الإصرار على الباطل، والثبات على الضلال، واتهام المؤمنين بالإبطال، عاقبهم الله جل وعلا بالطبع على قلوبهم، والختم عليها، فلا يهتدون ولا يؤمنون.

وكذلك يفعل سبحانه بأمثالهم من الجاهلين بتوحيد ربهم جلّ شأنه، ممن يفتقد العلم الموصل إلى الحق والهدى، ولا يسعى إلى تحصيله وإدراكه، ويصرّ على ما هو متلبسّ به من الباطل ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.[2]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢١/ ٥٨)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٣٤٤)، زاد المسير: (٦/ ١٥٨)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٢٢٥)، فتح القدير: (٤/ ٢٣٢).

(٢) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٨٤٦)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٨٨)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٣٣)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ١٨١)، تفسير السعدي: (٤/ ٩٨).

قال النسفي: (أي مثل ذلك الطبع، وهو الختم، يطبع الله على قلوب الجهلة، الذين علم الله منهم اختيار الضلال، حتى يسمّوا المحقين مبطلين، وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة).[1]

وقال الشوكاني: (أي مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الفاقدين للعلم النافع، الذي يهتدون به إلى الحق، وينجون به من الباطل).[2]

يقول صاحب الظلال: (كذلك بمثل هذه الطريقة، ولمثل هذا السبب، فهؤلاء الذين لا يعلمون مطموسوا القلوب، لا تتفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله، متطاولون على أهل العلم والهدى، ومن ثم يستحقون أن يطمس الله على بصيرتهم، وأن يطبع على قلوبهم، لما يعلمه سبحانه عن تلك البصائر وهذه القلوب).[3]

٩. يقول الله ﷻ:

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

تتضمن الآية الكريمة إعلامًا بشدة مقت الله تعالى وبغضه جل وعلا ـ ومعه عباده المؤمنون ـ للمكذبين المجادلين في آيات الله وحججه سبحانه، الذين يعملون على إبطالها وردها، فيخاصمون الرسل عليهم السلام فيما جاءوا به

---

(١) تفسير النسفي: (٣/ ٢٣)، وانظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ٢٢٥).

(٢) فتح القدير: (٤/ ٢٣٢).

(٣) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٧٧٨).

من الدلائل والبينات، ويثيرون حولها الأباطيل والشبهات، تبريرًا للكفر والتكذيب، وأملا في دحض الدين الحق، وإطفاء نوره، وطمس معالمه، دون أن يكون لهم في ذلك حجة أو برهان صحيح.(١)

ومن كانت هذه حاله فإن الله جل شأنه يعاقبه بالطبع على قلبه، فلا يذوق طعم الإيمان، ولا يجد برد الهداية.

قال ابن كثير: (فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا ولا ينكر منكرا).(٢)

وبمثل هذا الطبع على قلوب المخاصمين في آيات الله بالباطل، يطبع الله جل وعلا على قلوب المتكبرين عن عبادة الله تعالى وتوحيده، المتعاظمين عن اتباع الحق، الباغين على الناس اعتداء وظلمًا ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾.

قال السمعاني: (الطبع على القلب هو الختم عليه حتى لا يدخله الحق).(٣)

فيختم سبحانه على قلوب هؤلاء بالضلال، ويحجبها عن الهدى، فلا تقبل الحق، ولا تعقل الرشد، عقوبة من الله تعالى لهم، وجزاء عدلا منه

---

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٩٤٥)، تفسير البغوي: (٤/ ٩٨)، تفسير النسفي: (٣/ ٢٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٩).

(٣) تفسير السمعاني: (٥/ ٢٠).

سبحانه على ما اختاروه من التجبر والكبرياء.(١)

١٠. يقول الله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦].

والآية الكريمة في شأن المنافقين(٢)، الذين كانوا يحضرون مجالس رسول الله ﷺ، فيتظاهرون بالاستماع لقوله عليه الصلاة والسلام، لكنهم في حقيقة الأمر معرضون غافلون، ليس لهم قصد إلى قبول الحق أو الانقياد للوحي، ثم إذا خرجوا من مجلس رسول الله ﷺ التقوا بأهل العلم من الصحابة ﷺ، فيطرحون تساؤلهم عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾.

والمعنى: ما الذي قاله الآن في الساعة الماضية القريبة؟

يبعثهم إلى هذا التساؤل الاستهزاء برسول الله ﷺ، والتقليل من شأنه، والاستخفاف بكلامه، والإيعاز بأن مقاله ليس بحريّ للمرء أن يلتفت إليه، أو يستشعر من ورائه نفعًا، أو يهتم بفقه المراد منه وفهم المقصود.(٣)

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٦٤)، تفسير السمرقندي: (٣٠/ ١٩٧)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٥٩)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٢٠٤)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٦٥).

(٢) انظر: زاد المسير: (٧/ ١٥٠)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٠٣)، التسهيل: (٤/ ٤٨)، تفسير النسفي: (٣/ ٣٦٨)، المنافقون في القرآن: (ص: ١٩١).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥٠ – ٥١)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ١٠)، معاني القرآن للنحاس: (٦/ ٤٧٥)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٠٢)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٢٥)، تفسير ابن عطية: (٥/ ١١٤ –١١٥)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٥٨)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٧٩)، فتح القدير: (٥/ ٣٧)، في ظلال القرآن: (٦/ ٣٢٩٤).

ولما كان أولئك المنافقون على هذه الصفة من النفاق والخبث، متبعين آرائهم وأهوائهم في الكفر والتكذيب، تاركين ما يجب عليهم من قصد الهدى واتباع الحق، فقد جازاهم الله جل وعلا وعاقبهم بالطبع على قلوبهم، والختم عليها، فلا تؤمن ولا تهتدي.(١)

يقول السعدي: (وهذا في غاية الذم لهم، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لألقوا إليه أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها، بسبب اتباعهم أهوائهم، التي لا يهوون فيها إلا الباطل).(٢)

١١. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

تتضمن الآية الكريمة إعلامًا من الله جل وعلا بأنه طبع على قلوب المنافقين، مجازاة لهم بسبب ما أبطنوه في صدورهم من الكفر والتكذيب، بعدما أقروا بالإسلام ظاهرًا، نطقًا بأفواههم، وتلفظًا بألسنتهم، مخادعة وتضليلًا للمؤمنين، بينما هم في الحقيقة صادون في أنفسهم عن دين الله

(١) انظر: تفسير السمعاني: (٥/ ١٧٥)، تفسير البغوي: (٤/ ١٨١)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٧٧)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٩٦)، تفسير القاسمي: (١٥/ ٤٩).

(٢) تفسير السعدي: (٥/ ٢٩)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥١)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٢٨٦)، تفسير ابن عطية: (٥/ ١١٥)، الفوائد: (ص: ١٦٩).

سبحانه، معرضون عن التصديق برسول الله ﷺ، صادون غيرهم عن الإيمان، يغرّون الناس بحلاوة ألسنتهم، وجميل مظهرهم، فإذا رأوا المؤمنين لبسوا لباس الإسلام، وإذا خلوا بأشباههم في الكفر صرحوا بالكره والعداوة، وخططوا للكيد والمكر بالإسلام وأهله(١) ﴿ذَٰلِكَ(٢) بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

قال القرطبي: (أي ختم عليها بالكفر).(٣)

وقال السمعاني: (أي ختم على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان وقبول الحق).(٤)

وقال ابن جرير: (جعل الله على قلوبهم ختمًا بالكفر عن الإيمان).(٥)

وقال ابن كثير: (أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٩٨)، تفسير السمعاني: (٥/ ٤٤١)، تفسير البغوي: (٤/ ٣٤٧)، تفسير القرطبي: (١٨/ ٨١)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٦٨)، أضواء البيان: (٨/ ٣٢٥).

(٢) الإشارة إلى ما تضمنه قوله سبحانه في الآية السابقة: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. انظر: تفسير الطبري: (٢٨/ ١٠٧)، تفسير النسفي: (٣/ ٥٣٠)، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى ما تضمنته الآيتان السابقتان من وصفهم بالكذب والصدّ وسوء العمل. انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣١٢)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٢٧١).

(٣) تفسير القرطبي: (١٨/ ٨١)، وانظر: تفسير السمرقندي: (٣/ ٤٢٨).

(٤) تفسير السمعاني: (٥/ ٤٤١).

(٥) تفسير الطبري: ٢٨/ ١٠٧)، وانظر: تفسير البغوي: (٤/ ٣٤٧).

خير).[1]

وهذه العقوبة الإلهية بالطبع على قلوبهم، وختمها بالكفر، وحرمانها من الهدى، إنما هي بسبب ما اختاروه من الثبات على الباطل، والإصرار على النفاق، والتزام الكفر بعد الإيمان.[2]

قال النسفي: (ختم عليها حتى لا يدخلها الإيمان جزاء على نفاقهم).[3]

يقول صاحب الأضواء: (في هذه الآية نص على أن الطبع على قلوبهم نتيجة لكفرهم بعد إيمانهم).[4]

وفي قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ بيان لأثر ذلك الطبع على قلوبهم، فهم بسببه لا يعون الحجج، ولا يفهمون البراهين، ولا يميزون بين الحق والباطل، ولا يدركون ما ينفعهم من الهدى والخير والإيمان.[5]

وقد وصفت الآية الكريمة المنافقين بأنهم: ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾، وقريب من ذلك وصف رسول الله ﷺ قلب المنافق بأنه قلب منكوس.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٦٨)، وانظر: تفسير السعدي: (٥/ ٢٤٤).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣١٢)، أضواء البيان: (٧/ ١١٠).

(٣) تفسير النسفي: (٣/ ٥٣٠)، وانظر: فتح القدير: (٥/ ٢٣٨).

(٤) أضواء البيان: (٨/ ٣٢٤).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٢٨/ ١٠٧)، تفسير القرطبي: (١٨/ ٨١)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٦٨)، أضواء البيان: (٧/ ١١٠).

ففي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [القلوب أربعة] وذكر منها: [قلب منكوس] ثم قال: [وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر].[1]

وقد وردت عقوبة الطبع على القلب في السنة الشريفة، وذلك في حديث رسول الله ﷺ: [من ترك ثلاث جمع تهاونًا بها طبع الله على قلبه].[2]

والحديث الشريف مشتمل على الوعيد بالطبع على القلب لمن يتكرر

---

(١) رواه أحمد في المسند: (٣/ ١٧)، قال ابن كثير في تفسيره: (١/ ٥٧) (هذا إسناد جيد حسن)، وانظر: (٣/ ٢٩٣)، وجوّد السيوطي إسناده كذلك في الدر المنثور: (١/ ٢١٥)، ورواه الطبراني كما في مجمع الزوائد: (١/ ٢٣١)، قال الهيثمي: (وفي إسناده ليث بن أبي سُليم) قال العراقي: (مختلف فيه)، المغني: الإحياء: (١/ ١٧٣)، وضعفه الألباني مرفوعًا: إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨) (الهامش)، وصححه من حديث حذيفة ﷺ بنحوه موقوفًا عليه، وحديث حذيفة رواه ابن جرير في تفسيره: (١/ ٤٠٦)، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٢٠٥)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ٢٧٦) وغيرهم. انظر: الدر المنثور: (١/ ٢١٤)، وصححه ابن القيم في إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨).

(٢) رواه أبو داود من حديث أبي الجعد الضمري ﷺ في كتاب الصلاة، باب التشديد في ترك الجمعة: (١/ ٦٣٨)، والترمذي بنحوه وحسنه في كتاب الجمعة، باب: ما جاء في ترك الجمعة بغير عذر: (٢/ ٣٧٣)، والنسائي في كتاب الجمعة، باب: التشديد في التخلف عن الجمعة: (٣/ ٨٨)، وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: فيمن ترك الجمعة من غير عذر: (١/ ٣٥٧)، وأحمد في المسند: (٣/ ٤٢٤ - ٤٢٥)، والبيهقي: السنن الكبرى: (١/ ٥٦٦)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٤١٥) وصححه، ووافقه الذهبي، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بالصحة: فيض القدير: (٦/ ١٠٢)، وصححه الألباني في تخريج أحاديث الطحاوية: (ص: ٥١١)، طبعة المكتب الإسلامي، وانظر: الترغيب والترهيب: (١/ ٥٠٩).

منه ترك صلاة الجمعة، على وجه التهاون والتساهل وعدم المبالاة، دون عذر أو ضرورة.

والمقصود تقرير المنزلة الرفيعة لصلاة الجمعة، والتأكيد على خطورة تركها، والإشارة إلى عظم معصية التساهل والتهاون بها.(١)

(١) انظر: فيض القدير: (٦/ ١٠٢)، شرح السيوطي على النسائي: (٣/ ٨٨)، تحفة الأحوذي: (٢/ ٣٧٥).

المبحث الثاني عشر

القلوب المختوم عليها

الختم في اللغة بمعنى: الطبع.

يقال: ختم الشيء، يختمه، ختمًا: طبعه، فهو مختوم، ومختّم، و الختام: الطين الذي يختم به الكتاب و نحوه.

والختم أيضًا: المنع، وحفظ ما في الكتاب بتعليم الطينة. ولذا سُمي ما يختم به الكتاب خاتمًا، لأنه يصونه و يمنع الناظرين عما في بطنه.

و أصل الختم: التغطية. يقال: ختم البذر، أي غطاه.(١)

فالختم والطبع يُفسّر أحدهما الآخر.

قال الزجاج: (معنى ختم في اللغة وطبع معنى واحد، وهو التغطية على الشيء، والاستيثاق من ألا يدخله شيء).(٢)

وقال الراغب: (الختم و الطبع يُقال على وجهين، مصدر ختمت وطبعت، وهو تأثير الشيء كنقش الخاتم والطابع، والثاني: الأثر الحاصل عن النقش، ويتجوز بذلك تارة في الاستيثاق من الشيء والمنع منه، اعتبارًا بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب..).(٣)

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٣٢٤)، لسان العرب: (٢/ ١١٠١ – ١١٠٢)، ترتيب القاموس: (٢/ ١٥).

(٢) معاني القرآن: (١/ ٨٢)، وانظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٤٠).

(٣) المفردات: (ص: ١٤٩).

وقال ابن منظور: (الختم على القلب: ألا يفهم شيئًا، ولا يخرج منه شيء، كأنه طبع، وفي التنزيل العزيز: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، هو كقوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨] فلا تعقل ولا تعي شيئًا).[١]

ويرى ابن القيم أن الطبع و إن كان يشترك مع الختم في معاني التغطية و الاستيثاق إلا أنه أشد و أقوى أثرًا.

يقول ابن القيم: (الختم و الطبع يشتركان فيما ذكر، و يفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجيّة وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق).[٢]

وقد ورد الختم على القلوب في أربع آيات من كتاب الله العزيز:

١. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦ – ٧].

هاتان الآيتان الكريمتان في شأن أهل الكفر من المشركين أو المنافقين أو اليهود، الذين اختاروا طريق الكفر، و أصروا عليه، وعلم الله ﷻ بقائهم

---

(١) لسان العرب: (٢/ ١١٠١)، وانظر: ترتيب القاموس: (٢/ ١٥).

(٢) شفاء العليل: (ص: ٢٠٢).

على الكفر، وموتهم عليه، وعلى ذلك فاللفظ عام يراد به الخصوص.[١]

هؤلاء الكافرون لا يجدي فيهم الإعلام والتخويف، أو الوعظ والتذكير، ويعتدل ويستوي في حقهم الإنذار وتركه، إذ الإيمان منتفٍ عنهم في الحالين.[٢]

وعلة ذلك[٣] أن الله جل وعلا ختم على قلوبهم، فلا تجد للهداية سبيلًا: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧].

وقد فسر الختم في الآية بالطبع [٤].

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: (١/ ٧٩)، معاني القرآن للنحاس: (١/ ٨٧)، تفسير السمعاني: (١/ ٤٦)، تفسير البغوي: (١/ ٤٩)، زاد المسير: (١/ ٢٢)، تفسير القرطبي: (١/ ١٢٩، ١٣٣ – ١٣٤)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٥٠)، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: (ص: ٩).
قال ابن عطية: (١/ ٨٧): (اختلف فيمن نزلت هذه الآية بعد الاتفاق على أنها غير عامة لوجود كفار قد أسلموا بعدها) وبعد أن أورد عددًا من الأقوال اختار منها أنها نزلت (فيمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن، أراد الله تعالى أن يعلم أن في الناس من هذه حاله دون أن يُعيّن أحدًا) وذكر أن هذا القول: (هو المعتمد عليه، وكل من عين أحدًا فإنما مثل بمن كشف الغيب بموته على الكفر أنه في ضمن الآية) وانظر: مجموع الفتاوى: (١٦/ ٥٨٣ – ٥٩١).

(٢) انظر تفسير الطبري: (١/ ١١١)، تفسير السمعاني: (١/ ٤٦) تفسير القرطبي: (١/ ١٢٨ – ١٢٩) تفسير البيضاوي: (١/ ٢٢)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٤٥).

(٣) انظر تفسير البغوي: (١/ ٤٩)، تفسير الفخر الرازي: (٢/ ٤٨)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣٠)، تفسير البيضاوي: (١/ ٢٢)، التسهيل: (١/ ٣٧).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١١٢)، تفسير ابن عطية: (١/ ٨٧)، زاد المسير: (١/ ٢٢)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣١).

وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]، والسدي.[2]

وللمفسرين في توضيح المراد بالختم على القلوب هنا عبارات متقاربة.

ومن ذلك قول ابن قتيبة: (إنما أراد أنه أقفل عليها وأغلقها فليست تعي خيرًا ولا تسمعه، و أصل هذا أن كل شيء ختمته فقد سددته وربطته).[3]

وقول الواحدي: (أي طبع الله على قلوبهم، واستوثق منها، حتى لا يدخلها الإيمان).[4]

وقول السمعاني: (الطبع والختم بمعنى واحد، وهو الذي يمنع القلب من البصر).[5]

وقول القرطبي: (إنما هو معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به)[6]، مستدلا بقول الله جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ١٢]. ومثلها قوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤١)، الدر المنثور: (١/ ٧٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٤٥).

(٣) تفسير غريب القرآن: (ص: ٤٠)، وانظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٥١)، تفسير البغوي: (١/ ٤٩)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣٠)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٤٦)، تفسير السعدي: (١/ ٣٥).

(٤) تفسير الواحدي: (١/ ٩١).

(٥) تفسير السمعاني: (٤/ ٢٢٣)، وانظر: (١/ ٤٦).

(٦) تفسير القرطبي: (١/ ١٣١).

قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠].

والسلك في الآيتين الإدخال[1]، والضمير عائد إلى الشرك والتكذيب، كما قال جمع من المفسرين[2]، وهو مروي عن أنس رضي الله عنه، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم[3]، والمراد بالمجرمين مشركو قريش.[4]

يقول ابن كثير: (أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى).[5]

هذا الختم من الله جل شأنه على قلوب هؤلاء الكافرين إنما هو على وجه العقوبة لهم على إصرارهم على الباطل، وإعراضهم عن الحق وعن

(١) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٢١)، المفردات: (ص: ٢٤٥)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٥٣٦)، تفسير القرطبي: (١٠/ ٧)، لسان العرب: (٣/ ٢٠٧٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ٩، ١٩/ ١١٥)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٢١)، معاني القرآن للزجاج: (٣/ ١٧٤)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ١٢)، تفسير السمعاني: (٣/ ١٣١، ٤/ ٦٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٤٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ٩، ١٩/ ١١٥)، تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٢٨٢١ - ٢٨٢٢)، تفسير الصنعاني: (٢/ ٣٤٥ - ٣٤٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٤٧)، الدر المنثور: (٥/ ٦٧، ٦/ ٣٢٣).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٤٥)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٥٣)، تفسير القرطبي: (١٠/ ٧)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٤٤٨).

(٥) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٤٧)، وانظر: (٣/ ٣٤٨)، تفسير السمرقندي: (٢٠/ ٢٥٢، ٥٦٨)، تفسير الواحدي: (١/ ٥٨٩، ٢/ ٧٩٧)، تفسير البغوي: (٣/ ٤٥)، زاد المسير: (٤/ ٢٨٢)، تفسير النسفي: (٢/ ١٧٩، ٢/ ٥٨٨).

التدبر في دلائله، وانهماكهم في الغواية و المعصية، واستمرارهم في سبل الضلال.

عن قتادة في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: (استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه، فختم الله على قلوبهم).(1)

وعن مجاهد قال: (نبئت أن الذنوب على القلب تحف به من نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم).(2)

يقول القرطبي: (الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم)، (وكان فعل الله ذلك عدلًا فيمن أضله وخذله، إذ لم يمنعه حقًا وجب له فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم، لا ما وجب لهم).(3)

قال ابن القيم: (والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له، وإنما بعد تكرار الدعوة منه سبحانه، والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها فلا تقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤١)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٥)، الدر المنثور: (١/ ٧٣).

(٢) تفسير الطبري: (١/ ١١٢)، تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤١)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٥).

(٣) تفسير القرطبي: (١/ ١٣١)، وانظر: شفاء العليل: (ص: ١٩١)، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: (ص: ١٠).

الأول لم يكن معه ختم وطبع، بل كان اختيارًا، فلما تكرر منهم صار طبعًا وسجيّة، فتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعمّ جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارا قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة).(1)

ويقول ابن كثير: (إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم في الباطل، وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى).(2)

وأورد بين يدي كلامه عددًا من الآيات الدالة على ذلك.

ويقول الألوسي: (ثم إن إسناد الختم إليه ﷻ باعتبار الخلق، والذم والتشنيع الذي تشير إليه الآية الكريمة باعتبار كون ذلك مسببًا عما كسبه الكفار من المعاصي).(3)

---

(١) شفاء العليل: (ص: ١٩٩ – ٢٠٠).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٤٦)، وانظر: معاني القرآن للنحاس: (١/ ٨٧)، تفسير السعدي: (١/ ٣٥)، أضواء البيان: (٦/ ٦٥٢ – ٦٥٣).

(٣) روح المعاني: (١/ ١٣٢)، قال أبو السعود: (فإن خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر، بل بطريق الترتيب على ما اقترفوه من القبائح) (١/ ٣٧).

ولذا فسر ابن جرير الختم في الآية الكريمة ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بحديث أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: [إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت. فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]].(١)

فقد قال ابن جرير: (والحق في ذلك عندي ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ).(٢)

وبعد أن أورد الحديث بسنده قال: (فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلفتها، وإذا أغلفتها أتاها حينئذ الختم من قِبَل الله ﷻ والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ نظّير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفضّ ذلك عنها ثم حلها، فكذلك

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ويل للمطففين: (٥/ ٤٣٤)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة، واللفظ له، في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب: (٢/ ١٤١٨)، وأحمد في المسند: (٢/ ٢٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان: (٥/ ٤٤٠)، والحاكم في المستدرك: (٢/ ٥٦٢)، وصححه، ووافقه الذهبي. وانظر: الترغيب والترهيب: (٤/ ٩٢)، وحسنه غير واحد من المعاصرين. انظر: تحفة الأحوذي: (٨/ ٣٣٢) (الهامش)، ذم الهوى: (ص: ٧٩) (الهامش).

(٢) تفسير الطبري: (١/ ١١٢).

لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فضه خاتمه وحله رباطه عنها).(١)

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ١١٢ – ١١٣)، وذكر أيضًا أن معنى الختم على القلوب هو نظير معنى الختم على سائر الأوعية والظروف: (١/ ١١٢).

ويُفْهم من ذلك أن ابن جرير يرى أن لفظ الختم والإقفال ونحوهما هو على سبيل الحقيقة، ويؤيده حديث: [إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه] وحديث: [فأي قلب أُشْرِبَها نكت فيه نكتة سوداء]، وقد روي عن حذيفة ﷺ ومجاهد أن القلب مثل الكف ينضم وينقبض مع تتابع الكفر والذنوب حتى يطبع عليه ويختم. انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٩)، تفسير ابن أبي حاتم: (١٠/ ٣٤٠٩)، الدر المنثور: (٨/ ٤٤٦ – ٤٤٧)، قال القرطبي: (وفي قول مجاهد هذا، وقوله ﷺ: [إن في الجسد مضغة..] دليل على أن الختم يكون حقيقيًا) كما استدل القرطبي لهذا القول أيضًا بحديث رفع الأمانة وقبضها من القلوب [فيظل أثرها مثل الوكت..] حيث ذكر أن في هذا الحديث: (ما يدل على أن ذلك كله محسوس في القلب يفعل فيه، وكذلك الختم والطبع. والله أعلم) (١/ ١٣٢).

وقد اكتفى ابن كثير: (١/ ٤٥ – ٤٦)، والثعالبي: (١/ ٣١) بهذا القول في تفسير آية الختم في سورة البقرة، تبعًا لابن جرير، واحتمله ابن عطية فقال: (هذا الطبع يحتمل أن يكون حقيقة، ويحتمل أن يكون استعارة) (٥/ ١١٥)، وانظر: (١/ ٨٨)، وقال: (والحقيقة في هذا غير مستحيلة، والتجوز أيضًا فصيح) (٣/ ٥٢٥)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (١/ ٤٨)، التسهيل: (١/ ٣٧).

ونصر ابن القيم القول بالحقيقة وقال: (وهذه الأمور إذا أضيفت إلى محالها كانت بحسب تلك المحال، فنسبة قفل القلب إلى القلب كنسبة قفل الباب إليه، وكذلك الختم والطابع الذي هو عليه بالنسبة إليه كالختم والطبع الذي على الباب والصندوق ونحوهما) شفاء العليل: (ص: ٢٠١).

ويرى عدد من المفسرين أن هذه الأوصاف ليست على حقيقتها، بل هي كناية عن غشيان الضلال في القلب، وعدم نفوذ الحق إليه، من باب استعارة الشيء المحسوس للمعقول، أو تمثيلًا للقلب بالوعاء الذي يختم أو يغطى لمنع الوصول إليه، فهو بمثابة الشيء المختوم عليه، أو المقفل، ختمًا وقفلًا حسيًا، والمستوثق منه استيثاقًا حقيقيًا.

وممن قال بذلك ابن عطية: (٣/ ٦٨)، والبيضاوي: (١/ ٢٢)، وابن جزي: التسهيل: (١/ ٣٧)، وأبو حيان: تفسير البحر المحيط: (١/ ٤٨)، وأبو السعود: (١/ ٣٧)، والألوسي: روح المعاني: (١/ ١٣٢)، والشوكاني: فتح القدير: (١/ ٤١).

ولفظ: ﴿رَانَ﴾ في الآية الكريمة المفسَّرة في الحديث بمعنى غلب وغشي وغطى.[1]

والمصدر الرين، ومثله الران[2]، ولذا سمي الصدأ الذي يعلو الشيء ويغشاه رينًا.[3]

قال الخطابي: (الران والرين لغتان، وهو ما يغشى القلب ويتخلله من ظلمة الذنوب).[4]

ومعنى الآية أن كسب أولئك الكافرين المكذبين من الذنوب غطى قلوبهم وغلب عليها.

عن مجاهد في الآية الكريمة قال: (العبد يعمل بالذنوب فتحيط بالقلب، ثم ترتفع حتى تغشى القلب).[5]

وقال: (انبثت على قلبه الخطايا حتى غمرته).[6]

---

(١) انظر: غريب القرآن لليزيدي: (ص: ٤١٩)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٥١٩)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٢٩٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٦٠)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٧٢٢)، زاد المسير: (٨/ ٢٠٣)، لسان العرب: (٣/ ١٧٩٦، ١٧٩٧)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ١١٥).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٩١)، لسان العرب: (٣/ ١٧٩٧).

(٣) انظر: غريب القرآن لليزيدي: (ص: ٤١٩)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٢٩٩)، المفردات: (ص: ٢١٤)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٧٢٢)، لسان العرب: (٣/ ١٧٩٦).

(٤) غريب الحديث: (٣/ ٧١).

(٥) تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٨).

(٦) تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٩)، وانظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٨٥)، الدر المنثور: (٨/ ٤٤٧).

وعن الحسن قال: (الذنب على الذنب، ثم الذنب على الذنب، حتى يغمر القلب فيموت).[1]

يقول البغوي: (ومعنى الآية: غلب على قلوبهم المعاصي وأحاطت بها).[2]

وقال ابن جرير: (غلب على قلوبهم وغمرها وأحاطت بها الذنوب فغطتها).[3]

وعن ابن عباس ﷺ أنه فسر ﴿رَانَ﴾ في الآية بمعنى طبع.[4]

وعن مجاهد قال: (الران الطابع)[5]، وعنه أيضًا قال: (كانوا يرون أن الرين هو الطبع).[6]

وقال السمرقندي في تفسيره للآية: (﴿بَلْ رَانَ﴾ يعني ختم).[7]

---

(١) الدر المنثور: (٨/ ٤٤٧)، وانظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٨، ٩٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٦٠)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٨٥).

(٢) تفسير البغوي: (٤/ ٤٦٠)، وانظر: تفسير الواحدي: (٢/ ١١٨٣).

(٣) تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٧)، وانظر: تفسير السمعاني: (٦/ ١٨٠).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٩)، تفسير ابن أبي حاتم: (١٠/ ٣٤٠٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٦٠)، الدر المنثور: (٨/ ٤٤٧).

(٥) الدر المنثور: (٨/ ٤٤٧)، وانظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٩).

(٦) شعب الإيمان: (٥/ ٤٤٢)، وانظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٩)، إحياء علوم الدين: (٣/ ١٦)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٦)، الدر المنثور: (٨/ ٤٤٧).

(٧) تفسير السمرقندي: (٣/ ٥٣٥)، وانظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٩١).

ولا تعارض بين المعنيين من حيث اللغة، فإن ألفاظ الرين والطبع والختم متقاربة المعنى، ولذا قال ابن منظور: (وأصل الرين الطبع والتغطية).[١]

ولا من حيث المعنى الشرعي المتعلق بالقلب، فإن الطبع والختم على القلوب نتيجة للران الذي يغشاها.

ومن ثم اعتبر بعض الأئمة أن الطبع والران مرتبتان إحداهما أشد من الأخرى.

عن مجاهد قال: (الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد ذلك كله).[٢]

وقال أبو معاذ النحوي[٣]: (الرين أن يسود القلب من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، والإقفال أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب).[٤]

---

(١) لسان العرب: (٣/ ١٧٩٧)، وانظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٩١).

(٢) تفسير الطبري: (١/ ١١٢)، وانظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٤٥)، شعب الإيمان: (٥/ ٤٤٢)، ذم الهوى: (ص: ٧٩)، النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١١٢).

(٣) هو الفضل بن خالد، أبو معاذ النحوي المروزي، مولى باهلة، روى عن عبد الله بن المبارك، توفي سنة إحدى عشرة ومائتين. انظر: الثقات لابن حبان: (٩/ ٥)، كشف الظنون: (٢/ ١٤٤٩).

(٤) شفاء العليل: (ص: ٢٠٥)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ٦٥، ٣١/ ٩٤)، تفسير القرطبي: (١٩/ ١٧١)، فتح القدير: (٥/ ٤١٦).

يقول ابن القيم: (وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد).[١]

ويظهر من حديث أبي هريرة المفسّر للآية أن الران عبارة عما يغطي القلب ويعلوه من السواد، كأثر عن غمرة الخطايا وغشيان الذنوب.

عن الحسن في معنى الآية قال: (هو الذنب على الذنب حتى يرين على القلب فيسود)[٢]، وبنحوه عن قتادة.[٣]

فالران حجاب يحجب القلب عن نور الهدى وضياء الحق.

عن ابن زيد في معنى الآية قال: (غلب على قلوبهم ذنوبهم، فلا يخلص إليها معها خير).[٤]

يقول ابن القيم: (وأما الرين والران فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها).[٥]

---

(١) الداء والدواء: (ص: ١٦٧).

(٢) تفسير الصنعاني: (٣/ ٣٥٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٩٩)، الدر المنثور: (٨/ ٤٤٧)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٨٥)، مدارج السالكين: (٣/ ١٧٣).

(٤) تفسير الطبري: (٣٠/ ١٠٠).

(٥) شفاء العليل: (ص: ٢٠٥)، وانظر: مدارج السالكين: (٣/ ١٧٣).

هذا الحجاب يتسبّب عن كسب الإنسان من سيئات الكفر والمعاصي والفجور.

يقول ابن كثير: (إنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا).(١)

وقال الرازي: (بل أفعالهم الماضية صارت سببًا لحصول الرين في قلوبهم).(٢)

وقال ابن عطية: (أوجب أن ما كسبوا من الكفر والطغيان والعتو قد ران على قلوبهم، أي غطى عليها وغلب، فهم مع ذلك لا يبصرون رشدًا، ولا يخلص إلى قلوبهم خير).(٣)

ويقول ابن القيم: (أخبر الله ﷻ أن كسب القلوب سبب للران الذي يعلوها)(٤)، إذ (أخبر سبحانه أن ذنوبهم التي اكتسبوها أوجبت لهم رينا على قلوبهم، فكان سبب الران منهم، وهو خلق الله فيهم، فهو خالق السبب ومسبَّبه، لكن السبب باختيار العبد، والمسبب خارج عن قدرته واختياره).(٥)

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٨٥)، وانظر: المسائل في أعمال القلوب: (ص: ١٠٠)، الفوائد: (ص: ٢٠١).
(٢) تفسير الفخر الرازي: (٣١/ ٩٤).
(٣) تفسير ابن عطية: (٥/ ٤٥١)، وانظر: (٥/ ٤٥٢)، المفردات: (ص: ٢١٤)، التسهيل: (٤/ ١٨٥)، أضواء البيان: (٤/ ١٤٥).
(٤) مدارج السالكين: (٢/ ٢٧).
(٥) شفاء العليل: (ص: ٢٠٦)، وانظر: الفوائد: (ص: ١٦٨).

وفي هذا الباب أيضًا حديث حذيفة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا(١)، فأي قلب أُشْرِبَها(٢) نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها(٣) نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا(٤)، فلا تضره فتنة مادامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبَادًّا(٥)، كالكوز(٦) مُجَخِّيًا(٧)، لا يعرف

(١) تشبيه لعرض الفتن على القلوب، وظهورها واحدة إثر أخرى، بعرض أعواد الحصير على صانعه وناسجه، كلما انتهى من عود أخذ آخر. انظر: مشارق الأنوار: (١/ ٢٠٥، ٢/ ٧٣)، الديباج على مسلم للسيوطي: (١/ ١٦٤).
(٢) أي حلت منه محل الشراب، والمراد أنه رضيها وقبلها قبولًا تامًا. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٤٥٤)، الديباج على مسلم للسيوطي: (١/ ١٦٤).
(٣) أي ردها ولم يقبلها. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٧٢).
(٤) الصفا: جمع صفاة، وهي الحجر الأملس. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤١)، والمقصود من تشبيه القلب هنا بالصفا بيان قوة يقينه، وسلامته من الفتنة، وأنها لم تلصق به، ولم تؤثر فيه، كما أن الحجر الأملس لا يعلق به شيء، فهو وصف آخر لهذا القلب بعد وصفه بالبياض. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٧٢)، الديباج على مسلم للسيوطي: (١/ ١٦٤). والقلب الأبيض هو ما (أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردّها، فازداد نوره وإشراقه وقوّته) إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨).
(٥) بضم الميم وتشديد الدال، يقال: اربد لونه، واربادّ، إذا تغير ودخله سواد. انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (٤/ ١٢١)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١٨٣)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٧٣).
(٦) الكوز بضم الكاف: وعاء الماء. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٨٠).
(٧) (المجخي: المائل عن الاستقامة والاعتدال، فشبه القلب الذي لا يعي خيرًا بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء) النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٤٢)، وانظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (٤/ ١٢٢) فهو وصف ثان بعد وصفه بالسواد، والمراد أنه مقلوب منكوس لا يعلق به خير. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٧٣)، الديباج على مسلم: (١/ ١٦٤).

معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا أما أشرب من هواه).(١)

إذ يقرر الحديث أن اتباع الإنسان لهواه، وافتتانه بالشبهات والشهوات المتتابعة، وتأثره بذلك، وقبوله له، ورضاه به، يثمر أمرين متلازمين: أولهما سواد القلب وظلمته، وثانيهما انحرافه وانتكاسه، بحيث لا يعي الخير، ولا يبصر الحق، ولا يمتعض من المنكر والشر.(٢)

قال المنذري(٣): (معنى الحديث أن القلب إذا افتتن، وخرجت منه حرمة المعاصي والمنكرات، خرج منه نور الإيمان، كما يخرج الماء من الكوز إذا مال أو انتكس).(٤)

ويقول ابن القيم: (صدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته، كان الصدأ متراكبًا على قلبه، وصدؤه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم، فلم تظهر فيه صور الحقائق كما هي عليه.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب (بيان أن الإسلام بدأ غريبًا..) (١/ ١٢٨ – ١٢٩).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٧٣)، إغاثة اللهفان: (١/ ٤٧ – ٤٨).

(٣) هو عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، زكي الدين، أبو محمد المنذري، الشافعي، الشامي ثم المصري، إمام حجة حافظ، علامة في الحديث وفنونه، من مصنفاته: الترغيب والترهيب، ومختصر سنن أبي داود، توفي سنة ست وخمسين وست مائة.
انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٢٩٧ – ٢٢٩٨)، طبقات الحفاظ للسيوطي: (ص: ٥٠٤ – ٥٠٥).

(٤) الترغيب والترهيب: (٣/ ٢٣١).

فإذا تراكم عليه الصدأ واسودّ وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقًّا، ولا ينكر باطلًا، وهذا أعظم عقوبات القلب، و أصل ذلك من الغفلة و اتباع الهوى، فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره).(١)

٢. يقول الله ﷻ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

في الآية الكريمة توبيخ وتبكيت للمشركين المعاندين، واحتجاج عليهم، وإبراز لنوع من الأدلة على وحدانية الله سبحانه، وأنه المستحق وحده للعبادة والتعظيم، وعلى بطلان الشرك واتخاذ الآلهة من دون الله جل وعلا.(٢)

والختم على القلب في هذه الآية يتضمن معنى الطبع عليه، بحيث لا ينتفع به صاحبه انتفاعًا دينيًا شرعيًا، فلا يتدبر الدلائل، ولا يعقل الهدى، كما يتضمن معنى التغطية وزوال الفهم، بحيث لا ينتفع به صاحبه انتفاعًا دنيويًا، فلا يدرك ولا يميز، ولا يعرف الأشياء ولا يفقه الأمور.(٣)

وكذلك الحال بالنسبة لأخذ السمع والبصر الوارد في الآية.

---

(١) الوابل الصيّب: (ص: ٨٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ١٩٦)، تفسير البغوي: (٢/ ٩٧)، تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ٢٢٧)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ١٣١)، تفسير أبي السعود: (٣/ ١٣٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ١٩٦)، تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ٢٢٧)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٣٣)، تفسير أبي السعود: (٣/ ١٣٤)، فتح القدير: (٢/ ١١٧).

والمعنى أن الله جل شأنه هو القادر على أن يسلب من الإنسان سمعه فيصبح أصمّ، ويذهب بصره فيصبح أعمى، ويختم على قلبه فلا يعقل ولا يميز ولا يهتدي، ومن ثَمّ لا ينتفع بهذه القوى دينًا ولا دنيا، إذ هو تبارك وتعالى المنعم على الإنسان بهذه النعم، وليس هناك من يقدر على وهبها أو انتزاعها أوردّها بعد سلبها سواه سبحانه، ولذا فهو المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له.[١]

قال القاسمي: (وإنما خُصّت هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر لأنها أشرف أعضاء الإنسان، فإذا تعطلت اختل نظام الإنسان، وفسد أمره، وبطلت مصالحه في الدين والدنيا).[٢]

٣. يقول الله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤].

تتضمن الآية الكريمة إنكارًا وتوبيخًا وردًا على كفار مكة، الذين اتهموا رسول الله ﷺ باختلاق الكذب فيما جاء به من الوحي عن الله تبارك وتعالى.[٣]

وللمفسرين في لفظ الختم في الآية قولان رئيسان:

الأول: أنه بمعنى الربط على القلب.

(١) انظر: تفسير القرطبي: (٦/ ٢٧٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٣٣).

(٢) تفسير القاسمي: (٦/ ٥٢١)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ٢٢٧).

(٣) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٩٦٥)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٢٢٦)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٨)، التسهيل: (٤/ ٢٠)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٥١٦).

وهو قول الواحدي[١]، والسمرقندي.[٢]

وعلى هذا القول فمعنى: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] أي يربط على قلبك ويثبته ويقويه، فتصبر على هذا الاتهام والأذى.[٣]

الثاني: أن الختم في الآية بمعنى الطبع على القلب، فلا يفقه ولا يعي خيرًا.

عن السدي في تفسير ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال: (يطبع).[٤]

وعن قتادة في الآية ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال: (إن يشأ أنساك ما قد آتاك).[٥]

واختار هذا القول عدد من المفسرين منهم ابن جرير[٦]، والزجاج[٧]، وابن كثير[٨]، والبقاعي[٩]، ورجحه الشوكاني.[١٠]

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٩٦٥).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (٣/ ٢٣٠).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٩٩)، تفسير السمعاني: (٥/ ٧٥)، تفسير النسفي: (٣/ ٢٩٣).

(٤) تفسير الطبري: (٢٥/ ٢٧ - ٢٨).

(٥) تفسير الطبري: (٢٥/ ٢٧)، وانظر: تفسير الصنعاني: (٣/ ١٩١)، الدر المنثور: (٧/ ٣٥٠).

(٦) انظر: تفسير الطبري: (٢٥/ ٢٧).

(٧) انظر: معاني القرآن: (٤/ ٣٩٩).

(٨) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ١١٤).

(٩) انظر: نظم الدرر: (٦/ ٦٢٦).

(١٠) انظر: فتح القدير: (٤/ ٥٣٠).

والمعنى: أن الرسول ﷺ لو كان مفتريًا كما يدعي المشركون لطبع الله على قلبه، فلا يبقى معه من الوحي شيء.

والمقصود إبعاد التهمة عن رسول الله ﷺ، وتبرئته منها، والشهادة له عليه الصلاة والسلام بالصدق، وأن ما ادّعوه باطل لا حقيقة له.(١)

يقول ابن كثير في تفسير الآية: (أي لو افتريت عليه كذبًا كما زعم هؤلاء الجاهلون ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله جل جلاله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] أي لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه).(٢)

وهذا من ابن كثير تفسير للقرآن بالقرآن.

قال القاسمي: (هذا تفسير بالأشباه والنظائر من الآيات، يؤثره كثير من الأئمة ما وجد إليه سبيلًا، فإن التنزيل يفسر بعضه بعضًا).(٣)

ومن ثَمّ فإن هذا القول في معنى الآية هو الأقرب، والعلم عند الله تعالى، ومما يؤيده أيضًا كونه أكثر مناسبة لسياق الآية الكريمة التي أوردت

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٤ - ٣٥)، التسهيل: (٤/ ٢٠)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٣٠ - ٣١)، تفسير السعدي: (٤/ ٤٢٢)، الشفا: (٢/ ٢٦٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ١١٤).

(٣) تفسير القاسمي: (١٤/ ٣١٠).

اتهام المشركين لرسول الله ﷺ بالافتراء، إذ يتضمن الرد عليه، بينما تفسير الختم على القلب بالربط عليه غير متضمن لذلك، ولذا قال ابن عطية عن هذا القول في معنى الختم: (هذا تأويل لا يتضمن الرد على مقالتهم).(١)

٤. يقول الله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

تتضمن الآية الكريمة تسلية لرسول الله ﷺ في مواجهته للكافرين الذين اتبعوا أهوائهم، و أطاعوها، فرفضوا الحق، وتركوا الهدى، وأعرضوا عن الإيمان(٢) ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل أو من المفعول.

وعلى الأول فالمعنى أن الله جل وعلا أضل هذا العابد لهواه على علم سابق منه سبحانه بكفره، واستحقاقه للضلال، وأنه لا يهتدي مهما تنوعت البينات.

وعلى الثاني فالمعنى أن هذا الذي أضله الله تعالى قد وصله العلم، وبلغه الحق، واستبان له الدليل، وقامت عليه الحجة، ومع ذلك استنكف عن الاستجابة جحودًا وعنادًا.

---

(١) تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٥)، وانظر: نظم الدرر: (٦/ ٦٢٦).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٢٩٤)، تفسير ابن عطية: (٥/ ٨٦)، التسهيل: (٤/ ٣٩)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٥٠).

وكلا المعنيين محتمل.(١)

وتقرر الآية الكريمة أن الله سبحانه ختم على قلبه، أي طبع عليه، وحال بينه وبين الهدى، فلا يعقل الخير، ولا يعتقد الحق، ولا يعي الرشد، ولا يتفكر في الدلائل، ولا يتأثر أو ينتفع بالمواعظ.

هذا الختم من الله جل شأنه عقاب له على ما اكتسب من الإعراض عن الإيمان، وعبادة الهوى من دون الله.(٢)

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾

يقول ابن جرير في تفسير الآية: (طبع على سمعه أن يسمع مواعظ الله وآي كتابه، فيعتبر بها ويتدبرها ويتفكر فيها، فيعقل ما فيها من النور والبيان والهدى، وطبع أيضًا على قلبه، فلا يعقل به شيئًا ولا يعي به حقًا، وجعل على بصره غشاوة أن يبصر به حجج الله، فيستدل بها على وحدانيته، ويعلم بها أن لا إله غيره).(٣)

وبمثل هذا المعنى قال عدد من المفسرين.(٤)

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٨٦)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٤٩)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٥٠).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٨٧).

(٣) تفسير الطبري: (٢٥/ ١٥١) (مع اختصار يسير).

(٤) انظر: تفسير السمعاني: (٥/ ١٤١)، تفسير البغوي: (٤/ ١٦٠)، زاد المسير: (٧/ ١٢٧)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١١٢)، تفسير النسفي: (٣/ ٣٤٣)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٥٠)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٧٣).

وفي السنة الشريفة ورد لفظ الختم على القلب في حديث رسول الله ﷺ: [لينتهين أقوام عن ودْعهم(١) الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكوننّ من الغافلين].(٢)

والحديث الشريف مشتمل على الوعيد بالختم على القلب لمن يعتاد ترك صلاة الجمعة والتخلف عنها دون عذر أو ضرورة، وبيان أن ذلك من أعظم أسباب الخذلان للعبد ـ والعياذ بالله تعالى ـ.

قال ابن عبد البر: (الختم على القلوب مثل الطبع عليها، وهذا وعيد شديد، لأن من طبع على قلبه وختم عليه لم يعرف معروفًا ولم ينكر منكرًا).(٣)

والحديث يتضمن إشارة إلى أن الختم سبيل إلى تمكّن الغفلة، ذلك (أن اعتياد ترك الجمعة يغلب الرّين على القلب، ويزهد النفوس في الطاعات، وذلك يؤديهم إلى الغفلة).(٤)

---

(١) (أي تركهم إياها، والتخلف عنها، يقال: ودع الشيء، يدعه، ودعا، إذا تركه) النهاية في غريب الحديث: (٥/ ١٦٦).

(٢) رواه مسلم من حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم في كتاب صلاة الجمعة، باب التغليظ في ترك الجمعة: (١/ ٥٩١).

(٣) الاستذكار: (٢/ ٥٥)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/ ١٥٢).

(٤) فيض القدير: (٥/ ٣٩٧)، وانظر: سبل السلام: (٢/ ٤٥).

المبحث الثالث عشر

القلوب المقفلة

أصل القفل يدل على صلابة وشدة في الشيء.

ومن ذلك: قَفِل الشيء، أي يَبِس، والقَفْل: ما يبس من الشجر، وأقفل الباب، وأقفل عليه، إقفالا، فهو مقفل.

والقفل: الحديد الذي يغلق به الباب، سُمِّي بذلك لأن فيه شَدًّا وشِدَّة، والجمع أقفال.[١]

قال الراغب: (وقد جعل ذلك مثلًا لكل مانع للإنسان من تعاطي فعل، فيقال: فلان مقفل عن كذا).[٢]

وقد ورد لفظ الأقفال مضافًا إلى القلوب في قول الله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

والآية الكريمة في المنافقين[٣]، تتضمن توبيخًا لهم على إعراضهم عن القرآن، وعدم تدبرهم له، وتفهمهم لمعانيه، وتفكرهم فيما يتضمنه من دلائل التوحيد، والمواعظ والأحكام، والوعد والوعيد: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

---

(١) انظر: المشوف المعلم: (٢/ ٦٥٣ - ٦٥٤)، مقاييس اللغة: (ص: ٨٦٦)، لسان العرب: (٥/ ٣٧٠٧)، ترتيب القاموس: (٣/ ٦٦٩)، وللقفل أصل آخر يدل على معنى الرجوع من السفر.

(٢) المفردات: (ص: ٤١٠)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٨٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥٧)، تفسير النسفي: (٣/ ٣٧٠)، المنافقون في القرآن: (ص: ١٩١).

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ فيتبين لهم الحق، ويتضح لهم الهدى، فيسلكون طريق الإيمان الصادق، متباعدين عما أقاموا عليه من الكفر والنفاق.(١)

ثم قرّرت الآية أن قلوب أولئك المنافقين مقفلة عن الخير والإيمان والهدى، مغلقة عن فهم كلام الله جل وعلا، وما فيه من الموعظة والتذكير، غير قابلة للتفكر والتدبر، بحيث تعقل الحق وتفهمه ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

و﴿أَمْ﴾ في الآية منقطعة بمعنى: (بل).(٢)

قال ابن كثير: (أي بل على قلوب أقفالها فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه).(٣)

وقال ابن الجوزي: (والمراد أن القلب يكون كالبيت المقفل لا يصل إليه الهدى).(٤)

يقول ابن القيم : (كأن القلب بمنزلة الباب المرتج ، الذي قد ضرب عليه قفل ، فإنه إن لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ١١٩)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٨٣).

(٢) انظر: تفسير السمعاني: (٥/ ١٨١)، تفسير البغوي: (٤/ ١٨٤)، تفسير ابن عطية: (٥/ ١١)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٨٣).

(٣) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٨٠)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥٧)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٦٣).

(٤) زاد المسير: (٧/ ١٥٤)، وانظر: فتح القدير: (٥/ ٤١).

وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان ولا القرآن).(١)

ومن الملاحظ في الآية تنكير لفظ القلوب، وإضافة الأقفال إليها.

يقول ابن القيم في توجيه ذلك: (تأمل تنكير القلب، وتعريف الأقفال، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء، وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: أم على القلوب أقفالها. لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة.(٢)

---

(١) شفاء العليل: (ص: ٢٠٨)، وانظر: نظم الدرر: (٧/ ١٧٠).

وقد نبه ابن القيم إلى أن من الممكن إزالة الختم والإقفال عن القلب بإرادة الله ومشيئته، ورحمته وفضله سبحانه، فيهتدي العبد بعد الضلال، ويرشد بعد الغي.

يقول ابن القيم: (ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع من الطبع والختم والقفل حصول الإيمان، بأن يفك الذي ختم على القلب وطبع عليه وضرب عليه القفل ذلك الختم والطابع والقفل، ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيه، ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده.. والمقصود أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم والطابع، وفتح ذلك القفل، يفتحه من بيده مفاتيح كل شيء، وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه، وإن كان فك الختم والقفل غير مقدور له، كما أن شرب الدواء مقدور له، وزوال العلة وحصول العافية غير مقدور.. فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلى من بيده هداه، وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه، وأنه إن لم يهده الله فهو ضال، وسأل الله أن يقيل قلبه ويقيه شر نفسه وفقه وهداه) شفاء العليل: (ص: ١٩٨ - ١٩٩ مع اختصار).

(٢) وهو قول القرطبي. انظر: تفسير القرطبي: (١٦/ ١٦٣).

ولبعض المفسرين أقوال أخرى في توجيه ذلك. انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٢٨)، تفسير النسفي: (٣/ ٣٧٠)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٨٣)، نظم الدرر: (٧/ ١٧٠)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٩٩).

وفي قوله: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال: أقفال، لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى القلوب علم أن المراد بها ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها.. والله أعلم).[1]

وقد أوضح سياق الآيات منشأ تلك الأقفال لقلوب أولئك المنافقين، وسببها الذي استحقت به عقاب الله جل شأنه، وذلك في قول الله سبحانه في الآية التالية لهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

فقد عاندوا الحق بعد ما عرفوه، وتأخروا إلى الكفر بعد ما اتضح لهم طريق الإيمان، ورفضوا الهدى وقد تبينت لهم معالمه، وانكشفت دلائله، وظهرت براهينه وحججه، وعبدوا الشيطان بطاعتهم له فيما زينه وحسنه من الثبات على الكفر والنفاق، واستحباب الدنيا وتقديمها على الآخرة.[2]

---

(١) شفاء العليل: (ص: ٢٠٨)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٢٨)، تفسير النسفي: (٣/ ٣٧٠)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٨٣)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٩٩)، فتح القدير: (٥/ ٤١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥٨)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٨٠)، نظم الدرر: (٧/ ١٧٠ – ١٧١).

الفصل الثالث:

القلوب المريضة

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: المراد بمرض القلب.

المبحث الثاني: وصف القلب بالمرض في القرآن لكريم.

المبحث الأول

المراد بمرض القلب

المرض مصدر للفعل مَرِض، يَمْرض، ويراد به السقم الذي يصيب الإنسان، فيخرج به عن حد الصحة والاعتدال، سواء كانت تلك العلة جسمية أو نفسية، حسية أو معنوية، بدنية أو قلبية، وسواء كان الداء ماديًا متعلقا بالجسد، أو روحيًا متعلقًا بالدين.

وأصل المرض في اللغة يدور حول معاني الضعف والفتور والنقصان والفساد والظلمة.

يقال: بدن مريض: أي ضعيف ناقص القوة، وعين مريضة: أي فيها فتور وضعف، وليلة مريضة: أي مظلمة، وشمس مريضة: أي غير صافية، ومرض فلان في حاجتي: أي نقصت حركته.(١)

ومرض القلب بمدلوله الإيماني الشرعي لا يخرج عن هذه الدائرة اللغوية.

ذلك أن قلب العبد حين ينحرف في علمه وإدراكه تصديقًا واعتقادًا، أو في عمله وحركته شهوة وإرادة، فيزيغ عن المسار الصحيح، ويضل عن الصراط المستقيم، الذي ارتضاه الله تعالى له شرعًا ودينًا، حينها يصيب

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩٤٤)، المفردات: (ص: ٤٦٩)، لسان العرب: (٦/ ٤١٨٠ - ٤١٨٢)، ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ٢٢٩)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤٩٢ - ٤٩٣).

القلب فساد وضعف، ونقصان وظلمة، فيعتلّ ويمرض، وينتكس عن عافيته وقوته، ونوره وصحته.

يقول الغزالي: (اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له، حتى لا يصدر منه أصلًا، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار، وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله، وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته).(١)

فإذا اعتل قلب المؤمن، وأسرع إليه الداء، خرج بما يحتويه من سقم ومرض عن دائرة القلب الصحيح السليم، إذ ينقص إيمانه، ويضعف سراج قلبه عن الإضاءة الكاملة والنور التام، لكنه لا ينطفئ بالكلية بحيث يظلم ويرتكس إلى دائرة الكفر أو النفاق الخالص، بل يبقى القلب مترددًا بين الحياة والموت، بحسب تردده بين العلم والجهل، والهدى والضلال، والطاعة والمعصية، والتقوى والفجور.(٢)

---

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٨٣)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٤١)، إغاثة اللهفان: (١/ ١٣٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٩٤ – ٩٥، ٢٨/ ٤٤٨).

وحينئذ لا يخلو الأمر من ثلاث حالات:

الأولى: أن يبقى القلب في هذه الدائرة موصوفًا بالمرض، دون أوبة إلى الصحة والسلامة، أو ارتكاس إلى الموت التام، تؤمل له العافية، ويخشى عليه الهلاك.

الثانية: أن يعمل العبد بتوفيق الله تعالى إلى السعي في الأسباب الموجبة لعافية القلب وحياته، وتمام نوره وضيائه، فيعود القلب بالتوبة والإنابة إلى حدّ الصحة والسلامة، بعد زوال ما نأى به عن ذلك الحدّ من الداء والمرض.

الثالثة: أن يتمادى العبد في غيه وجهله، ويستكبر عن علاجه ودوائه، فتتمكن منه الشهوات المردية، والشبهات المضلّلة، بحيث تخرجه عن دائرة الإيمان إلى دوائر الكفر الصريح أو النفاق الخالص، فيصبح المرض باستشرائه مميتًا موهنًا للقلب بشكل تام، وحينها يكون القلب المريض مرادفًا للقلب الميت الذي لا أثر فيه لحياة الإيمان ونور الهداية.(١)

يقول ابن القيم في وصف القلب المريض: (قلب له حياة وبه علة، فله مادتان، تمده هذه مرة، وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه، ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات، وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر

---

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين: (ص: ١٥٦).

والعجب، وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة، ما هو مادة هلاكه وعطبه[١]، وهو مُمتحن بين داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا).[٢]

ويقول ابن أبي العز: (علامة مرض القلب عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة إلى الأغذية الضارة، وعدوله عن دوائه النافع إلى دوائه الضار.

فها هنا أربعة أشياء: غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، ودواء مهلك.

فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك، وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء والدواء).[٣]

وفي الحديث الشريف إشارة إلى هذا القلب المريض.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصْفَح.

---

(١) العطب: بفتح العين والطاء: الهلاك. انظر: مقاييس اللغة: (ص:٧٦٠).

(٢) إغاثة اللهفان: (١/ ٤٥).

(٣) شرح الطحاوية: (ص: ٢٤٥)، وانظر: إغاثة اللهفان: (١/ ١٤٣).

فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البَقْلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرْحة يمدها القيح والدم، فأي المدّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه].[١]

والشاهد في الحديث هنا: (القلب المصفح).

والمراد بصَفْح الشيء جانبه وناحيته.[٢]

قال ابن الجوزي: (قلب مُصْفَح: أي ذو وجهين، له صَفْحان).[٣]

ووجهاه وجانباه هما المذكوران في الحديث: [إيمان ونفاق] ولذا سمي بالقلب المصفح، لأن الإيمان لم يتمكن فيه بحيث يزهر سراجه بالنور التام، ولم يتجرد الحق فيه، بل هو متردد بين جانبين، متنقل بين ناحيتين، متذبذب

---

(١) رواه أحمد في المسند: (٣/ ١٧)، قال ابن كثير في تفسيره: (١/ ٥٧) (هذا إسناد جيد حسن)، وانظر: (٣/ ٢٩٣)، وجوّد السيوطي إسناده كذلك في الدر المنثور: (١/ ٢١٥)، ورواه الطبراني كما في مجمع الزوائد: (١/ ٢٣١)، قال الهيثمي: (وفي إسناده ليث بن أبي سُليم) قال العراقي: (مختلف فيه)، المغني: الإحياء: (١/ ١٧٣)، وضعفه الألباني مرفوعًا: إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨) (الهامش)، وصححه من حديث حذيفة ﷺ بنحوه موقوفًا عليه، وحديث حذيفة رواه ابن جرير في تفسيره: (١/ ٤٠٦)، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٢٠٥)، وأبو نعيم في الحلية: (١/ ٢٧٦)، وغيرهم. انظر: الدر المنثور: (١/ ٢١٤)، وصححه ابن القيم في إغاثة اللهفان: (١/ ٤٨).

(٢) انظر: المشوف المعلم: (١/ ٤٢٩)، مقاييس اللغة: (ص: ٥٤٦).

(٣) غريب الحديث: (١/ ٥٩٢).

بين وجهين: الحق والباطل، وهو في الأول أشبه بالبَقْلة من النبات يمدّها الماء الطيب، وفي الثاني أشبه بالقُرْحة من الجروح يمدها القيح، فإذا غلب الأول كان أقرب إلى الإيمان والهدى والاستقامة، وإذا غلب الثاني كان أقرب إلى الكفر والنفاق، وإذا غمره وغطاه كان كافرًا صريحًا أو منافقًا تام النفاق.[1]

هذا الداء المنافي للصحة يصيب القلب في إحدى دائرتين: دائرة الشبهة أو دائرة الشهوة، وقد تجتمع العلتان، وقد تنفرد إحداهما في القلب دون الأخرى.[2]

يقول ابن القيم: (مرض القلب خروج عن صحته واعتداله، فإن صحته أن يكون عارفًا بالحق، محبًا له مؤثرًا له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه، فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غيّ وشهوة، وقد سمى الله سبحانه كلا منهما مرضًا).[3]

وبعد أن ذكر أن (المرض يدور على أربعة أشياء: فساد وضعف ونقصان وظلمة) قال: (هذا أصله في اللغة، ثم الشك والجهل والحيرة والضلال، وإرادة الغيّ وشهوة الفجور في القلب، تعود إلى هذه الأمور الأربعة).[4]

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٤٩).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٨٧).

(٣) شفاء العليل: (ص: ٢١٣)، وانظر: القواعد الحسان: (ص: ٩٤).

(٤) شفاء العليل: (ص: ٢١٤).

وذكر أيضًا في موضع آخر أن مرض القلب (هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له، فلا يرى الحق حقًا، أويراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، وتفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له، وهو الغالب).[1]

وبهذا الاعتبار يمكن تقسيم مرض القلب إلى قسمين[2]:

الأول: مرض الشهوة، حيث يميل القلب إلى محبة المعصية، وشهوة الفاحشة، وإرادة الفجور، وتثور فيه معاني الحسد والكبر والبخل والجبن، ونحو ذلك من الأدواء.

فهو حركة للقلب مضادة للعلم الصحيح، متعارضة متناقضة مع المعلوم قطعًا من الحق والهدى.

فالفساد في هذا القسم من جهة الشهوة المحرمة، يتأسس على تحكيم الهوى، والانقياد له، واتباعه، وتقديمه على مراد الله جل شأنه المتضمّن في نصوص الكتاب والسنة.[3]

---

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٥٧ - ٥٨).

(٢) انظر: الآداب الشرعية: (٣/ ١١١)، شرح الطحاوية: (ص: ٢٤٤)، تفسير السعدي: (١/ ٣٧)، أضواء البيان: (٥/ ٧٣٤ - ٧٣٥)، القواعد الحسان: (ص: ٩٤).

(٣) انظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٩٠).

الثاني: مرض الشبهة[١]، فيميل القلب إلى الاعتقادات الباطلة، ويتقبل الشكوك الرديئة، ويصبح محلًا قابلًا لفتنة الشبهة التي يلتبس فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال، والمعروف بالمنكر، وقد يستحكم المرض في القلب، فيعتقد المعروف منكرًا والباطل حقًا، ويثمر ذلك ترددًا وحيرة، وفتنة وريبة، فيستسلم للفهم الفاسد، ويبني علمه على أساس باطل، وحينئذ تفتر إرادته في طلب الحق، فلا يصل إليه، وتعمى بصيرته عن تلمسّه واليقين به، لامتلاء القلب بما ترسّخ فيه من القناعة بضده من الباطل.

وأساس هذا المرض الجهل، وقصور العلم، واتجاه نفسي إلى تقديم الرأي على نصوص الشرع.

وهذا القسم من مرض القلب أخطر من سابقه، إذ يتعلق بعقيدة القلب وأصل إيمانه، بالإضافة إلى أن صاحبه لا يقرّ بباطله، بل يراه الحق الذي لا ريب فيه، بينما مريض الشهوة يعترف غالبًا بضلال معصيته مع غلبة هواه عليه، ولذا يكون أقرب إلى الأوبة من مريض الشبهة.

(١) الشبهة: الالتباس. يقال: اشتبه الأمر: إذا اختلط، وشُبّه عليه الأمر: لُبّس عليه، وأمور مشتبهة: مشكلة يشبه بعضها بعضًا، وشُبِّه عليه: خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره. انظر: لسان العرب: (٤/ ٢١٩٠)، ترتيب القاموس: (٢/ ٦٧٠).

والمراد: (الشكوك التي توقع في اشتباه الحق بالباطل، فيتولد عنها الحيرة والريبة) مدارج السالكين: (٣/ ٣٨١).

ومن ثَمّ فإن مرض الشبهة كثيرًا ما يردي صاحبه، ويؤثر في دينه وإيمانه، ويورثه ضلالًا عن الهدى، وانحرافًا عن الحق، ويسهّل له الوقوع في براثن البدع المفارقة للسنة، وحبائل الأفكار المشوشة المؤثرة على اليقين، بل قد يؤول هذا المرض بصاحبه إلى كفر أو نفاق مخرج عن الملة، أو ينهزه إلى الثبات والتزام كفره ونفاقه إن كان يعيش ذلك أصلًا.

وتشتد العلة، ويتضاعف الافتتان، حين يقترن المرضان، فيخالط مرض الشبهة اتباع للأهواء النفسية، وقصد للأغراض الشخصية، من كبر أو حسد، أو محبة للظهور، أو شهوة للتعاظم والعلوّ.

يقول ابن القيم: (فتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى).[١]

(١) إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٨٧)، وانظر: (٢/ ٨٨٨ - ٨٩٠)، القواعد الحسان: (ص: ٩٤).

المبحث الثاني
وصف القلب بالمرض في القرآن الكريم

ورد وصف القلب بالمرض في اثنتي عشرة آية من القرآن الكريم، وحين التأمل في تلك الآيات الكريمة، والرجوع إلى كلام أهل التفسير في معانيها، وفي شأن المقصودين بها، يتبين أن هذا الوصف غالب في القرآن الكريم ـ خصوصا في حال انفراده ـ على طائفة معينة، وهم المنافقون الذين داخل الفساد والظلمة قلوبهم، وغلب عليها الضعف والنقصان والسقم، وذلك فيما يتعلق بعقائدهم وما يتبعها من إرادات وأهواء.

ولعل تخصيص المنافقين بغلبة هذا الوصف، مع أن فساد القلب موجود في الكافرين الخلّص أيضًا، عائد إلى أن المنافقين تميزوا وانفردوا بالوصف الذي به سموا بهذا الاسم، وهو النفاق المبني على إظهار الإسلام في حال كان لهم في ذلك تحقيق مصلحة عاجلة، أو التحرز عن مفسدة متوقعة، بينما لا مانع لديهم من الإفصاح عن كفرهم في المكان والزمان الذي يشعرون فيه بالأمن، ويتمكنون من البوح بمكنون صدورهم، بحيث يتحقق لهم ما يهدفون إليه من المكر بالإسلام والكيد لأهله، كما قال الله سبحانه عنهم: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

فلما كان ظاهرهم بهذه الصورة من السلامة والبراءة والوداعة، كان الوصف بالمرض متجهًا إلى محل الضمائر والسرائر الذي يخفون فيه هذا

الفساد العظيم، وذلك الداء العضال، والعلم عند الله تعالى.

وفيما يلي عرض لجملة الآيات التي تضمنت وصف القلب بالمرض، وذلك على سبيل الإيجاز والاكتفاء بدائرة هذا الوصف منها:

١. يقول الله تعالى:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠].

سياق هذه الآية الكريمة في المنافقين، وفيها يخبر الله جل شأنه أن في قلوب هؤلاء المنافقين مرضًا ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾.

عن ابن زيد قال: (هذا مرض في الدين، وليس مرضًا في الأجساد، قال: هم المنافقون).[١]

والمراد بالمرض هنا الشك والنفاق.[٢]

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شك).[٣]

وهو مروي عن ابن مسعود رضي الله عنه، وقتادة، وابن زيد، والربيع بن أنس، وأبي العالية، وغيرهم.[٤]

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ١٢١)، الدر المنثور: (١/ ٧٦)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١٢١)، غريب القرآن لليزيدي: (ص: ٦٥)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٤١)، معاني القرآن للزجاج: (١/ ٨٦)، تفسير الواحدي: (١/ ٩٢)، تفسير السمعاني: (١/ ٤٨) تفسير البغوي: (١/ ٥٠)، زاد المسير: (١/ ٢٤)، تفسير النسفي: (١/ ١٧).

(٣) تفسير الطبري: (١/ ١٢١)، تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤٣)، الدر المنثور: (١/ ٧٥)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١٢١- ١٢٢)، تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤٣)، الدر المنثور: (١/ ٧٥- ٧٦)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا قال: (المرض النفاق).[١]

هذا النفاق والشك والتحيّر والتذبذب بين الإيمان والكفر من هؤلاء المنافقين، يكشف الخلل والفساد والسقم المتأصل في اعتقاد قلوبهم، فيما يتعلق بدين الله جل وعلا، ونبيه ﷺ.[٢]

والظاهر أن العلة في قلوب المنافقين تتمثل في جانبين[٣]:

أولهما: وهو الغالب عليهم[٤]، الجحود بالحق الذي جاء به رسول الله ﷺ، بعدما تبينت لهم معالمه، وعرفوا صدقه، واستيقنوا أمره، وظهرت لهم البينات الموجبة للإيمان به، والإذعان له.

وهو جحود مبني على كبر أو حسد أو متاع يخشون زواله، أو غير ذلك من دواعي الجحود والإنكار والمخالفة.

وثانيهما: شك وريب في الحق مع رسول الله ﷺ، ليس لهم فيه عذر، بسبب تفريطهم في طلب الحق، واستنكافهم عن النظر في دلائله، والتأمل في حججه وبراهينه، وانشغالهم بعقائدهم الباطلة، ومعتقداتهم الزائفة،

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ١٢١)، تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤٣)، الدر المنثور: (١/ ٧٥)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١٢٠- ١٢١)، تفسير ابن عطية: (١/ ٩٢)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣٨).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٩٢).

(٤) انظر: المنافقون في القرآن: (ص: ٤٠)، النفاق آثاره ومفاهيمه: (ص: ١٥).

واستسلامهم لأهوائهم وشهواتهم، وتشبّثهم بتقليد كبرائهم في التمسّك بالضلال دون دليل، والإصرار على الباطل بلا برهان، وعدم جدّيتهم في قصد الهداية، ولذا فهم لا يسمعون سماع المنتفع، ولا يبصرون إبصار المعتبر، ولا يتفكرون تفكر الراغب في الوصول إلى الحق والهدى.

ثم أخبر الله تعالى أنه زادهم فسادًا واعتلالًا في قلوبهم، جزاء لهم على الذنب المتجدّد منهم[1] ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾.

عن ابن عباس ﵄ قال: (شكًّا).[2]

وهو مروي عن ابن مسعود ﵁، وقتادة، والربيع بن أنس، وأبي العالية.[3]

وعن قتادة قال: (نفاقًا).[4]

وعن عبد الرحمن بن زيد قال: (زادهم رجسًا، وقرأ قول الله ﷻ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] قال: شرًا إلى

(١) انظر: زاد المسير: (١/ ٢٤)، مجموع الفتاوى: (١٤/ ١٥٢)، القواعد الحسان: (ص: ٩٤).
(٢) تفسير الطبري: (١/ ١٢٢)، تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤٤)، الدر المنثور: (١/ ٧٥)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).
(٣) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١٢٢ - ١٢٣)، تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤٤)، الدر المنثور: (١/ ٧٦).
(٤) تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٤٤).

شرهم، وضلالة إلى ضلالتهم).[1]

قال ابن كثير: (وهذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن، وهو الجزاء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]).[2]

وهذا تفسير للقرآن بالقرآن قال به جمع من المفسرين.[3]

والمقصود أن أولئك المنافقين كلما نزلت آية من كلام الله سبحانه، تتضمن أمرًا أو خبرًا أو موعظة، شكّوا وارتابوا وكذّبوا، فيزيدهم الله تعالى بذلك مرضا في قلوبهم ، يضاف إلى ما سبق فيها من شك وتكذيب بما نزل من آيات الله جل شأنه.

قال البغوي: (لأن الآيات كانت تنزل تترى، آيه بعد آية، كلما كفروا بآية ازدادوا كفرًا ونفاقًا، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾).[4]

(١) تفسير الطبري: (١/ ١٢٢ - ١٢٣)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).
(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٤٨).
(٣) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١٢٢)، معاني القرآن للزجاج: (١/ ٨٦)، تفسير السمرقندي: (١/ ٥٣)، تفسير الواحدي: (١/ ٩٢)، تفسير السمعاني: (١/ ٤٨)، تفسير البغوي: (١/ ٥٠)، تفسير ابن عطية: (١/ ٩٢)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٥٩)، القواعد الحسان: (ص: ٩٤).
(٤) تفسير البغوي: (١/ ٥٠).

ويقول ابن عطية: (وهذه الزيادة بما ينـزل من الوحي، ويظهر من البراهين، فهي على هؤلاء المنافقين عمى، وكلما كذبوا زاد المرض).[1]

٢. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: ٥٢].

والمقصود بهذه الآية الكريمة المنافقون[2]، والمرض في قلوبهم هو النفاق[3]، ومن آثاره ومظاهره ما ذكرته الآية من حال المنافقين في مسارعتهم ومبادرتهم إلى مودة اليهود والنصارى، وموالاتهم ومعاونتهم، وممالأتهم على المؤمنين.[4]

٣. يقول الله سبحانه:

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٩].

تذكر الآية الكريمة مقالة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، والتي

(١) تفسير ابن عطية: (١/ ٩٢)، وانظر: النفاق آثاره ومفاهيمه: (١٢ – ١٣).
(٢) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ٢٧٨ – ٢٧٩)، معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٣٢١)، تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ١٦)، زاد المسير: (٢/ ٢٨٩).
(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ١٨١)، معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٣٢١)، تفسير البغوي: (٢/ ٤٤)، تفسير النسفي: (١/ ٤١٨).
(٤) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ٢٧٩)، تفسير الفخر الرازي: (١٢/ ١٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٦٨).

قالوها يوم بدر ﴿غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾، في إشارة إلى المسلمين الذين كانوا في ضعف وقلة، والمعنى أنهم اغتروا بدينهم وخدعوا، فظنوا أنهم به لا يُغْلبون، وأنهم سينتصرون على جيش أقوى عتادًا وأكثر عددًا، ومن ثم تكلفوا ما لا طاقة لهم به ولا حيلة، وأوردوا أنفسهم موارد الهلاك، وفي ذلك تقليل من شأن المؤمنين، واستخفاف بعقولهم وأسلوب تفكيرهم.[1]

وفي المراد بالذين في قلوبهم مرض في الآية احتمالان[2]:

الأول: أن الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والعطف للتفسير أو التأكيد أو تعدد الأوصاف.[3]

ورجح ذلك القرطبي.[4]

الثاني: أن الذين في قلوبهم مرض في هذه الآية ليسوا منافقين، بل هم من المسلمين، والمراد بهم من ضعف يقينهم، ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ولم تثبت في الإسلام أقدامهم، فتأثروا بنوع من الشبهة، وداخلهم شيء من الريب والشك، مما لا يصل إلى حد النفاق المباين للإيمان، فنهزهم ذلك إلى مشاركة المنافقين، وموافقتهم في ذلك القول.

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ٥٣٩)، تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١٧٦ - ١٧٧)، تفسير أبي السعود: (٤/ ٢٦)، تفسير المنار: (١٠/ ٣١)، تفسير السعدي: (٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩).
(٢) انظر: تفسير الزمخشري: (٢/ ٢١٧)، تفسير القاسمي: (٨/ ٧٥).
(٣) انظر: روح المعاني: (١٠/ ١٦)، تفسير القاسمي: (٨/ ٧٥).
(٤) انظر: تفسير القرطبي: (٨/ ١٩).

وبهذا قال جمع من أهل التفسير كالواحدي، والسمعاني، وابن عطية، والرازي، وغيرهم.[1]

وهو الأقرب في تفسير: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ في الآية الكريمة، والعلم عند الله تعالى.

قال ابن عطية: (النفاق أخص من مرض القلب، لأن مرض القلب مطلق على الكافر وعلى من اعترضته شبهة وعلى من بينهما).[2]

ويقول صاحب المنار: (المنافقون هم الذين يظهرون الإسلام ويسرون الكفر، والذين في قلوبهم مرض هم ضعاف الإيمان، تثور بهم الشكوك والشبهات تارة فتزلزل اعتقادهم، وتسكن تارة فيكونون كسائر المسلمين).[3]

٤. يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم

---

(١) انظر: تفسير الواحدي: (١/ ٤٤٤)، تفسير السمعاني: (٢/ ٢٧١)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥٣٩)، تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١٧٦)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٥٠٥ - ٥٠٦)، تفسير أبي السعود: (٤/ ٢٦)، روح المعاني: (١٠/ ١٦)، تفسير المنار: (١٠/ ٣٠)، تفسير السعدي: (٢/ ٢٠٨)، تفسير ابن عاشور: (١٠/ ٣٨).

ويرى البقاعي في نظم الدرر: (٣/ ٢٢٨) أن ذلك يشمل من لم يرسخ الإيمان في قلبه، كما يشمل اليهود المصرحين بالكفر.

(٢) تفسير ابن عطية: (٢/ ٥٣٩)، وانظر: النفاق وآثاره ومفاهيمه: (ص: ١٢ - ١٣).

(٣) تفسير المنار: (١٠/ ٣٠).

مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

نزلت الآيتان الكريمتان في شأن المنافقين كما قال جمهور المفسرين[1]، والضمير في قوله سبحانه: ﴿فَمِنْهُم﴾ عائد إليهم.

وقد تضمنت الآية الأولى قول المنافقين بعضهم لبعض: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾، والإشارة إلى السورة من القرآن الكريم، وغرضهم الإنكار لأن تكون السورة سببًا في زيادة الإيمان، بالإضافة إلى الاستخفاف بالسورة، والاستهزاء بالقرآن، والتهكّم بالمؤمنين.[2]

كما تضمنت الآية الثانية السبب في عدم استفادتهم أو تأثرهم بما يتنزل من سور القرآن، وذلك هو المرض في قلوبهم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾. والذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والمراد بالمرض هنا النفاق.[3]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٢)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٩٨)، زاد المسير: (٣/ ٣٥٢)، تفسير القرطبي: (٨/ ١٨٩)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٠٢).

(٢) انظر: تفسير السمعاني: (٢/ ٣٦١)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٣٠٩ - ٣١٠)، التسهيل: (٢/ ٨٨)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ١١٥)، تفسير النسفي: (١/ ٦٩٠)، تفسير ابن عاشور: (١١/ ٦٥).

(٣) انظر: معاني القرآن للفراء: (١/ ٤٥٥)، تفسير الطبري: (١١/ ٧٣)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٧٦)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٩٩)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٨٧)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٤٠)، روح المعاني: (١١/ ٥١).

ولهذه العلة في قلوبهم كان نزول السورة من القرآن سببًا في زيادة كفرهم ونفاقهم بدلًا من نماء الهدى في قلوبهم.[1]

ذلك أنهم كلما نزلت سورة أنكروها وارتابوا وكفروا بها، فيستمر الكفر والنفاق في قلوبهم ازديادًا، بانضمام اللاحق منه إلى السابق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾.

قال الزجاج: (أي زادتهم كفرا إلى كفرهم، لأنهم كلما كفروا بسورة ازداد كفرهم).[2]

٥. يقول الله تعالى:

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣].

يرى بعض المفسرين أن المراد بالذين في قلوبهم مرض في الآية الكريمة عامة الكفار، سواء كانوا مشركين معلنين للكفر، أو منافقين مسّرين به.[3]

لكن عامة المفسرين على أن المراد بهم هنا أهل النفاق، الذين يتلقفون

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٠٣).

(٢) معاني القرآن: (٢/ ٤٧٦)، وانظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٣)، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ١٩٢)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٤٦٨)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٨٧)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٤٠)، روح المعاني: ١١/ ٥١).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٩)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٨)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨٢)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٣٠).

الشبهات وينشرونها.[1]

والمراد بإلقاء الشيطان ما يقذفه من الوساوس والأقاويل، وما يثيره من الشبه والأباطيل، يعارض بها الحق في شأن القرآن الكريم، بغرض صدّ الناس عن قبوله واستيقانه والإيمان به.[2]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٩١)، تفسير الواحدي: (٢/ ٧٣٨)، تفسير الزمخشري: (٣/ ١٦٧)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٩٤)، تفسير الفخر الرازي: (٢٣/ ٥٥)، زاد المسير: (٥/ ٣٠٣)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٩٣)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٩)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٣٠)، نظم الدرر: (٥/ ١٦٥)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١٤)، فتح القدير: (٣/ ٤٦٨)، روح المعاني: (١٧/ ١٧٤)، تفسير القاسمي: (١٢/ ٣٧).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨١)، القواعد الحسان: (ص: ١٥٦)، أضواء البيان: (٥/ ٧٣٢)، وقد أورد بعض المفسرين عند هذه الآية وسابقتها رواية الغرانيق، والمشتملة على أن الرسول ﷺ سها في قراءته لسورة النجم، فأضاف بعد قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠]: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. قالوا: وذلك هو المراد بإلقاء الشيطان في قراءته عليه الصلاة والسلام.

وكل ذلك يتعارض مع عصمته ﷺ، وقد ردّه جمع من أهل العلم، وبينوا بطلانه، ولذا قال ابن عطية في تفسيره: (٤/ ١٢٩): (بل يقتضي مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقى ولا يعينون هذا السبب ولا غيره).

ووجّه بعضهم تلك الرواية على فرض التسليم بصحتها بأن القائل لتلك العبارات هو الشيطان، نطق بها محاكيًا صوت رسول الله ﷺ، فظن بعض السامعين أنها من كلام رسول الله عليه الصلاة والسلام.

انظر: أحكام القرآن لابن العربي: (٣/ ١٢٩٩ - ١٣٠٣)، الشفا: (٢/ ٤٧٤ - ٤٧٥، ٤٧٧ - ٤٨١)، زاد المسير: (٥/ ٣٠٢)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٤ - ٥٧)، تفسير الفخر الرازي: (٢٣/ ٥٠ - ٥١)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨١ - ٣٨٢)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٨)، تفسير الثعالبي: (٣/ ٨٤)، فتح القدير: (٣/ ٤٦٨)، تفسير القاسمي: (١٢/ ٣٨ - ٥٧)، أضواء البيان: (٥/ ٧٢٨ - ٧٣٢)، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: (ص: ٢٠٨ - ٢١٢).

ومن حكمة الله جل وعلا أن جعل هذا الإلقاء الشيطاني فتنة لمن في قلبه مرض.

والفتنة هنا بمعنى الضلالة.(١)

والمقصود أن هذه الوساوس والأباطيل الشيطانية تورث شبهة لدى هؤلاء، وذلك بسبب ضعف قلوبهم بالمرض الذي أعلّها وأسقمها، فتصبح موردًا ملائمًا، ومحلًا قابلًا لإلقاء الشيطان وكيده، ومن ثم يكون هذا الإلقاء سببًا في ضلالهم واستمرارهم في سبل الكفر والنفاق والتكذيب.(٢)

قال صاحب الأضواء: (ومعنى كونه فتنة لهم أنه سبب لتماديهم في الضلال والكفر).(٣)

٦. يقول الله تعالى:

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٥٠].

---

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٧٣٨)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٨)، فتح القدير: (٣/ ٤٦٨).
وقد فسرها جمع من المفسرين بالاختبار والابتلاء. انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٩١)، تفسير الزمخشري: (٣/ ١٦٧)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٤٢٧)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٩)، زاد المسير: (٥/ ٣٠٣)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٨٢)، نظم الدرر: (٥/ ١٦٥)، والقولان غير متعارضين، والعلم عند الله تعالى، إذ الضلالة نتيجة للابتلاء في حق الذين في قلوبهم مرض.
قال ابن الأثير: (وقد كثر استعمالها ـ أي الفتنة ـ فيما أخرجه الاختبار للمكروه) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤١١)، وانظر: أضواء البيان: (٥/ ٧٣٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٩٥)، القواعد الحسان: (ص: ٩٥).

(٣) أضواء البيان: (٥/ ٧٣٣).

سياق الآية الكريمة في المنافقين(١)، يكشف نوعا من خبثهم، فهم يعلنون الإيمان والطاعة لله تعالى ورسوله ﷺ، وهم في حقيقة الأمر معرضون عن ذلك، ومن مظاهر هذا الإعراض رفضهم الدعوة للتحاكم إلى رسول الله ﷺ في حال كان الحق عليهم، بينما هم يسرعون إليه عليه الصلاة والسلام، طائعين خاضعين، منقادين لحكمه، في حال كان الحق ثابتًا لهم على غيرهم.

وقد اشتملت هذه الآية على بيان العلة المانعة من قبولهم الحق، والتحاكم إلى الشرع، وهي المرض الملازم لقلوبهم، المتأصل فيها ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾.

والمراد بالمرض النفاق(٢)، وصفتهم به الآية، وأثبتته لهم بصورة الاستفهام على وجه الذم والتوبيخ.(٣)

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ١٥٦)، تفسير الواحدي: (٢/ ٧٦٧)، التسهيل: (٣/ ٧٠)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٩٨).
يقول الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [النور: ٤٧ - ٤٩].

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٦٢٣)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٥٢٠)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٢٥٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ٢١)، تفسير النسفي: (٢/ ٥١٧)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٤٦٧)، فتح القدير: (٤/ ٤٦).

(٣) انظر: تفسير السمعاني: (٣/ ٥٤٢)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٩١)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٨٧).

قال ابن الجوزي: (هذا استفهام ذم وتوبيخ، والمعنى: إنهم كذلك، وإنما ذكره بلفظ الاستفهام ليكون أبلغ في ذمهم).(١)

٧. يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢].

تذكر الآية الكريمة قول المنافقين والذين في قلوبهم مرض، والمتضمن وصف وعد الله تعالى ورسوله ﷺ للمؤمنين بالنصر والغلبة وإعلاء الدين بأنه وعد باطل لا حقيقة له.(٢)

وكان ذلك القول منهم يوم الأحزاب، حين حوصر المسلمون في المدينة من قبل جيوش المشركين، فعظم عليهم الكرب، وضاق الحال، واشتد الرعب والخوف، وتهيأت الفرصة للمنافقين للمزيد من التشكيك والتخذيل.(٣)

وقد عطفت الآية الكريمة الذين في قلوبهم مرض على المنافقين، فبرز للمفسرين في هذا العطف قولان(٤):

(١) زاد المسير: (٥/ ٣٧٠)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٣٥٢)، تفسير القرطبي: (١٢/ ١٩٣)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٤٦٧).
(٢) انظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ٢٤١)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢١٧).
(٣) انظر الروايات بهذا الشأن في تفسير الطبري: (٢١/ ١٣٣ - ١٣٤)، تفسير الصنعاني: (٣/ ١١٣ - ١١٤)، الدر المنثور: (٦/ ٥٧٧).
(٤) انظر: تفسير النسفي: (٣/ ٥٥).

الأول: أن العطف للصفات، فالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والمرض الشك والنفاق.(١)

الثاني: أن العطف لتغاير الذات، فالذين في قلوبهم مرض غير المنافقين، والمرض في قلوبهم ضعف في الإيمان، واضطراب في الاعتقاد، وتزعزع في اليقين، لا يبلغ حد النفاق المنافي للإيمان بالكلية.(٢)

ولذا تأثر هؤلاء بشبهات المنافقين، واستجابوا لإرجافهم وتشكيكهم، فشاركوهم مقولتهم، ووافقوهم في عبارتهم.

وهذا القول هو الأقرب في بيان المراد بالذين في قلوبهم مرض في هذه الآية، والعلم عند الله تعالى.

٨. يقول الله تعالى:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

تتضمن الآية الكريمة نهي المؤمنات عن تليين القول، وترقيق الكلام، حين مخاطبة الرجال، وذلك حتى لا يطمع مريض القلب بظنه موافقة المرأة له.(٣)

(١) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٨٦٠)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٩٧).
(٢) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٥١٦)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٥٤١)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢١٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٧٣)، نظم الدرر: (٦/ ٨٢)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٩٤)، روح المعاني: (٢١/ ١٥٨).
(٣) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٥٠)، تفسير البغوي: (٣/ ٥٢٧)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٤٥)، تفسير القرطبي: (١٤/ ١١٥).

وفي المراد بمرض القلب هنا قولان[1]:

الأول: النفاق.[2]

وهذا القول مروي عن قتادة، والسدي.[3]

الثاني: إرادة الفجور والفسق وشهوة الزنا.

وهذا القول مروي عن ابن عباس ﵄، وعكرمة، وغيرهما[4]، وبه قال جمهور المفسرين[5]، وهو الأقرب في تفسير المرض هنا، وسياق الآية الكريمة يشهد له.

ولذا قال ابن عطية بعد أن رجح هذا القول: (وليس للنفاق مدخل في

---

(١) انظر: معاني القرآن للنحاس: (٥/ ٣٤٥)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢٣٠).

(٢) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٨٦٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٣)، تفسير الصنعاني: (٣/ ١١٦).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٣)، تفسير الصنعاني: (٣/ ١١٦)، الدر المنثور: (٦/ ٥٩٩).

(٥) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٥٠)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٥٦)، تفسير البغوي: (٣/ ٥٢٧)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٤٥)، زاد المسير: (٦/ ١٩٦)، تفسير الفخر الرازي: (٢٥/ ٢٠٨)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٢٤٥)، تفسير النسفي: (٣/ ٦٤)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٨٢)، تفسير أبي السعود: (٧/ ١٠٢)، روح المعاني: (٢٢/ ٥)، تفسير السعدي: (٤/ ١٥٠)، الآداب الشرعية: (٣/ ١١١).

قال ابن تيمية: (هو مرض الشهوة، فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٩٥)، وانظر: (٢٨/ ٤٤٨)، القواعد الحسان: (ص: ٩٥).

هذه الآية).[1]

وتابعه القرطبي في ذلك.[2]

ويمكن الجمع بين القولين باعتبار أن مريض القلب بالنفاق ليست لديه ضوابط يتقيد بها، أو حدود يلتزمها، في التعامل مع الشهوات المحرمة.

ولذا اتجه بعض المفسرين إلى تفسير الآية بما يعمّ القولين.

يقول ابن جرير في تفسير الآية: (فيطمع الذي في قلبه ضعف، فهو لضعف إيمانه في قلبه، إما شاك في الإسلام منافق، فهو لذلك من أمره يستخف بحدود الله، وإما متهاون بإتيان الفواحش).[3]

٩. يقول الله تعالى:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

تتضمن الآية الكريمة تهديدا للمنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين بتسليط الرسول ﷺ عليهم[4] إن لم يتوقفوا عن أنواع الفساد الذي يفعلونه، ويقومون ببثه بين المؤمنين في دولة الإسلام بالمدينة.

---

(١) تفسير ابن عطية: (٤/ ٣٨٣).

(٢) تفسير القرطبي: (١٤/ ١١٥)، وانظر: التسهيل: (٣/ ١٣٧).

(٣) تفسير الطبري: (٢٢/ ٣)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٥٢٧)، زاد المسير: (٦/ ١٩٦)، فتح القدير: (٤/ ٢٧٧)، تفسير ابن عاشور: (٢٢/ ٩).

(٤) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٣٥٢)، معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٢٣٦).

وللمفسرين في المراد بالمرض في هذه الآية أقوال:

الأول: المراد بالمرض النفاق والشك في الدين.

وعلى هذا فالمنافقون هم الذين في قلوبهم مرض، عُبِّر عنهم باللفظين.

وهذا القول مروي عن محمد بن كعب القرظي[١]، وغيره.[٢]

الثاني: المراد بالمرض ضعف الإيمان.

فالذين في قلوبهم مرض في هذه الآية هم ضعفاء الاعتقاد، الذين لم يثبت الإيمان ولم يتمكن في قلوبهم، ومن ثم فهم صنف آخر غير المنافقين.[٣]

الثالث: المراد بالمرض إرادة الفجور وحب الزنا.

وهذا القول مروي عن عدد من التابعين كعكرمة، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم، على اختلاف في الألفاظ بينهم[٤]، وبه قال جمهور المفسرين.[٥]

---

(١) هو محمد بن كعب بن سليم، أبو حمزة القرظي المدني، من حلفاء الأوس، تابعي ثقة، صالح ورع، من أئمة التفسير، وأوعية العلم، توفي سنة سبع عشرة ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٢/ ١٣٢ - ١٣٤)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٦٤٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٤/ ١٥٨)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢٥١)، الدر المنثور: (٦/ ٦٦٢)، روح المعاني: (٢٢/ ٩٠).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٧٠)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٢٥٢)، التسهيل: (٣/ ١٤٤)، تفسير أبي السعود: (٧/ ١١٥)، روح المعاني: (٢٢/ ٩٠).

(٤) انظر: تفسير الصنعاني: (٣/ ١٢٣ - ١٢٤)، تفسير الطبري: (٢٢/ ٤٧)، تفسير ابن أبي حاتم: (١٠/ ٣١٥٦)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٥١٩)، الدر المنثور: (٦/ ٦٦٢ - ٦٦٣).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٤٧)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٦٩)، تفسير الواحدي: (٢/ ٨٧٤)، تفسير السمعاني: (٤/ ٣٠٧)، تفسير البغوي: (٣/ ٥٤٤)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٣٩٩)، زاد المسير: (٦/ ٢١٦)، تفسير النسفي: (٣/ ٨٠)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٥١٩).

وهذا القول هو الأقرب في تفسير المرض هنا[١]، وسياق الآية الكريمة يؤيده، إذ تشتمل الآية السابقة[٢] على دعوة النساء إلى الحجاب، حماية لهن من أذية الفساق.

قال الزمخشري في تفسير الآية: (والمعنى لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون[٣] عما يؤلفون من

---

(١) ومع اتفاق القائلين بهذا القول على أن المرض هنا مرض شهوة، فقد اختلفوا في عطف الذين في قلوبهم مرض على المنافقين في الآية.

فمنهم من قال بأن العطف لتغاير الصفات، والموصوف واحد، فالذين في قلوبهم مرض من أهل الزنا والفجور يشملهم لفظ المنافقين في الآية، ويدخلون في جملتهم، لكن الآية نصت عليهم إشعارا بخطرهم، وتنبيها على بعض أعمالهم الخبيثة انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٤٧)، تفسير الفخر الرازي: (٢٥/ ٢٣١)، تفسير القرطبي: (١٤/ ١٥٧)، الدر المنثور: (٦/ ٦٦٢).

ومنهم من قال بأن العطف للتغاير بالذات، فالفسقة أهل الفواحش هم صنف آخر غير المنافقين. انظر: تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢٥٠)، روح المعاني: (٢٢/ ٩٠).

والقولان محتملان كما قال ابن عطية: (٤/ ٣٩٩)، غير أن الثاني أظهر، والعلم عند الله تعالى، ولا يمنع القول به من كون المنافقين أو بعضهم متصفًا بمرض القلوب المتعلق بالفاحشة والفجور.

(٢) هي قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

(٣) المراد بالإرجاف إشاعة الكذب والباطل، من قدوم العدو، أو هزيمة المسلمين، ونحو ذلك مما يسوء، والغرض إضعاف معنويات المؤمنين، وكسر قلوبهم، وإدخال الحزن والغم إلى نفوسهم. انظر: تفسير القرطبي: (١٤/ ١٥٨)، المفردات: (ص: ١٩٦).

أخبار السوء، لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوؤهم).[١]

ويمكن الجمع بين هذا القول وسابقه، وذلك باعتبار أن إرادة الفاحشة أثر يتبع نقص الإيمان وضعف الاعتقاد.[٢]

١٠. يقول الله تعالى:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

والآية الكريمة في شأن المنافقين[٣]، تبين أنهم كانوا إذا أنزلت سورة من القرآن، بينة المعنى، واضحة الدلالة[٤]، مشتملة على فرض الجهاد والأمر به، يصيبهم من ذلك هلع ورعب يظهر في نظرات أعينهم ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

والذين في قلوبهم مرض هنا هم المنافقون، والمرض النفاق كما ذكر

(١) تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٧٠)، وانظر: تفسير النسفي: (٣/ ٨٠)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢٥٠ - ٢٥١).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: (٧/ ١١٥)، روح المعاني: (٢٢/ ٩٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥٤)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٠٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ٦٢)، التسهيل: (٤/ ٤٨ - ٤٩).

(٤) انظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٠٣).

عامة المفسرين.[١]

والمعنى أنهم متصفون بالجبن وكراهية الجهاد، ولذلك يحدقون ويشخصون بأبصارهم كما يفعل من يتغشاه الموت.[٢]

قال ابن الجوزي في تفسير الآية: (أي يشخصون نحوك بأبصارهم ينظرون نظرًا شديدًا كما ينظر الشاخص ببصره عند الموت، لأنهم يكرهون القتال، ويخافون إن قعدوا أن يتبين نفاقهم).[٣]

١١. يقول الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩].

والمقصود في الآية الكريمة المنافقون، وما في قلوبهم من المرض هو النفاق.[٤]

والأضغان جمع ضَغَن، وهو ـ كما قال الراغب ـ (الحقد الشديد).[٥]

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٥٤)، معاني القرآن للنحاس: (٦/ ٤٧٩)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٢٨٧)، تفسير السمعاني: (٥/ ١٨٠)، تفسير ابن عطية: (٥/ ١١٧)، زاد المسير: (٧/ ١٥٢)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٦)، تفسير النسفي: (٣/ ٣٦٩)، تفسير أبي السعود: (٨/ ٩٨)، روح المعاني: (٢٦/ ٦٧)، أضواء البيان: (٧/ ٤٢٧).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ١٨٣)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٦١).

(٣) زاد المسير: (٧/ ١٥٢)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٥/ ١٢)، تفسير السمعاني: (٥/ ١٨٠).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٦٠ - ٦١)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠٠٤)، تفسير البغوي: (٤/ ١٨٥)، زاد المسير: (٧/ ١٥٥)، تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ٦٩)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٦٦)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٨٠).

(٥) المفردات: (ص: ٣٠٠).

وذلك أثر للعلة والفساد في معتقد القلوب، تمثل في حقدهم على الإسلام، وإضمارهم الشر للمؤمنين.

فالآية تتضمن التوبيخ لهذه الفئة ، والتهديد بكشف أمرها ، وإظهار خبثها ومكرها، وإبراز كيدها وعداوتها.[1]

١٢. يقول الله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١].

تبين الآية الكريمة ـ ضمن ما اشتملت عليه ـ أن إخبار الآية السابقة[2] بعدد خزنة النار كان سبب فتنة للذين في قلوبهم مرض والكافرين ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾.

وفي المراد بالذين في قلوبهم مرض في هذه الآية أقوال، أبرزها مايلي:

الأول: أن الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والمرض النفاق، وعطف عليهم الكافرون، وهم المشركون المصّرحون بالتكذيب.

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ١٢٠)، تفسير القرطبي: (٦/ ١٦٦)، تفسير أبي السعود: (٨/ ١٠٠ - ١٠١).

(٢) هي قول الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠].

وهذا القول مروي عن قتادة[1]، وبه قال جمع من المفسرين[2]، ونسبه ابن الجوزي وغيره إلى أكثرهم.[3]

وعارض بعضهم هذا القول بأن السورة مكية، ولم يظهر النفاق إلا في المدينة بعد الهجرة.[4]

وأجاب القائلون به بأن ذلك يدخل ضمن دائرة الإعجاز القرآني في الإخبار بما سيكون، وبذلك يزول الاعتراض.

يقول الرازي مؤيدًا لقول أكثر المفسرين، و مجيبًا على الاعتراض المذكور (والجواب: قول المفسرين حق، وذلك لأنه كان في معلوم الله تعالى أن النفاق سيحدث، فأخبر عما سيكون، وعلى هذا تصير هذه الآية معجزة، لأنه إخبار عن غيب سيقع، وقد وقع على وفق الخبر، فيكون معجزًا).[5]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٩/ ١٦١)، الدر المنثور: (٨/ ٣٣٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٩/ ١٦١)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٤٩٤)، تفسير البغوي: (٤/ ٤١٧)، تفسير الفخر الرازي: (٣٠/ ٢٠٧)، تفسير القرطبي: (١٩/ ٥٣ - ٥٤)، تفسير النسفي: (٣/ ٦١٧)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٤٤)، نظم الدرر: (٨/ ٢٣٢).

(٣) انظر: زاد المسير: (٨/ ١٢٧)، تفسير الفخر الرازي: (٣٠/ ٢٠٧)، تفسير القرطبي: (١٩/ ٥٤)، الروض الريان: (٢/ ٥٣٥ - ٥٣٦).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٩٦)، زاد المسير: (٨/ ١٢٧)، تفسير الفخر الرازي: (٣٠/ ٢٠٧)، تفسير ابن عاشور: (٢٩/ ٣١٧).

(٥) تفسير الفخر الرازي: (٣٠/ ٢٠٧)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٥٤)، التسهيل: (٤/ ١٦٢)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٥٤٤)، تفسير النسفي: (٣/ ٦١٧)، تفسير أبي السعود: (٩/ ٦٠)، روح المعاني: (٢٩/ ١٦٠)، الروض الريان: (٢/ ٥٣٦).

وقال البقاعي: (نزول هذه السورة قبل وجود المنافقين علم من أعلام النبوة).[١]

وعلى هذا يكون المعنى ـ كما قال القرطبي ـ: (﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي في صدورهم شك ونفاق، من منافقي أهل المدينة، الذين ينجمون[٢] في مستقبل الزمان بعد الهجرة).[٣]

الثاني: أن المراد بالمرض هنا الاضطراب وضعف الإيمان[٤]، وعلى ذلك فالذين في قلوبهم مرض هم فئة من المسلمين، اعتلّت قلوبهم تأثرًا بالشبهات التي يثيرها أهل الكفر، فشاركوهم مقالتهم.

الثالث: أن الذين في قلوبهم مرض هم الكافرون، والمراد بالمرض الشك والارتياب، وذلك باعتبار أن ذلك مما يتصف به كفار مكة إجمالًا.

وجوّز هذا القول بعض المفسرين.[٥]

---

(١) نظم الدرر: (٨/ ٢٣٢).

(٢) أي يظهرون. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩٧٨).

(٣) تفسير القرطبي: (١٩/ ٥٣ - ٥٤)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٥٤)، تفسير النسفي: (٣/ ٦١٧). وقد أورد القرطبي قولا بأن المراد بالكافرين اليهود والنصارى، وهو توسيع لدائرة الإخبار بما سيكون في الآية. انظر: تفسير القرطبي: (١٩/ ٥٤).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٩٦)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٣٧٦)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ٩٥).

(٥) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٥٤)، تفسير الفخر الرازي: (٣٠/ ٢٠٧)، تفسير القرطبي: (١٩/ ٥٤)، فتح القدير: (٥/ ٣٤١)، الروض الريان: (٢/ ٥٣٦).

وبناء على هذا القول يكون عطف الكافرين للتفسير والبيان، أو يكون المراد بالكافرين الجازمين بالتكذيب، في مقابل المرتابين المتردّدين.[١]

أمّا ما تضمنته الآية من قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ فالإشارة فيه إلى قول الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ إخبارا عن عدد خزنة النار من الملائكة عليهم السلام.

والمعنى: ما الذي أراده الله تعالى بهذا الحديث.[٢]

ومقصدهم من هذا الاستفهام الإنكار والنفي، والاستبعاد لأن يكون ذلك الخبر من عند الله جل وعلا أصلًا.[٣]

وبذلك كان هذا المثل ابتلاءً واختبارًا من الله جل شأنه للعباد، يزداد به أهل الإيمان إيمانًا وثباتًا ويقينًا، ويواجهه من خبثت قلوبهم بالإنكار والاستبعاد، ويستغلونه للمكر والاتهام وإثارة الشبهات، فيفتتنون بذلك، ويزدادون به كفرًا وضلالا.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ٥٤٤)، تفسير ابن عاشور: (٢٩/ ٣١٧).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٢١٧)، زاد المسير: (٨/ ١٢٧)، تفسير القرطبي: (١٩/ ٥٤).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٩٦)، التسهيل: (٤/ ١٦٢)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٣٧٦-٣٧٧)، تفسير النسفي: (٣/ ٦١٧)، روح المعاني: (٢٩/ ١٦٠).

الخاتمة

(وتتضمن ملخصًا لأهم نتائج البحث)

- العبودية غاية الحياة، كما تفيده الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، واللام فيها للإرادة الدينية الشرعية، فالعبودية هي مراد الله تعالى من عباده، ومحل محبته ورضاه سبحانه.
- يختلف الرسل عليهم السلام في الشرائع، لكنهم يتفقون في دعوة الناس إلى تحقيق هذه الغاية الشريفة: إفراد الله تعالى بالعبادة.
- شرف الإنسان في تحقيق معاني العبودية لله جل وعلا، وكلما ارتقى العبد في هذا المقام زاد شرفه، وعلت مرتبته، ولذا وصف الله تعالى به أكمل خلقه رسولنا ﷺ في أشرف أحواله.
- الكائنات كلها تسبح الله تعالى وتعظمه، بما في ذلك الحيوانات والجمادات، بإدراك يهيئها الله سبحانه لها، وبكيفية يعلمها الله جل وعلا.
- الناس كلهم عبيد لله اضطرارًا، مشيئته فيهم نافذة، لا يملكون من الأمر شيئًا دون إرادته جل شأنه، وهم يلجأون إليه عند الشدائد والنكبات، لكن المؤمنين يختارون عبوديته سبحانه، فينالون ثوابها، ويحوزون شرفها.
- العبد مأمور بأن يسخر أعضاءه كلها لعبودية ربه تبارك وتعالى: قلبه، ولسانه، وسائر جوارحه.

- لا يلج العمل دائرة العبودية، ولا ينال الاعتبار الشرعي، إلا إذا توفرت فيه صحة الاعتقاد، وصحة النية، وصحة الوسيلة.
- القلب لطيفة روحية لها بالعضو الجسدي تعلّق وارتباط، فمعنى القلب شرعًا يشمل ما يلتئم الوجهين الحسّي والمعنوي.
- للقلب خطورته وأهميته البالغة، إذ بانتفاء عبوديته لا يبقى لعمل الجوارح أثر وثمرة، بينما يمكن للقلب أن يستقلّ بعبادة مجرّدة عن عمل الجوارح.
- للقلب قول أو تصديق، وعمل أو حركة، ولكل منهما ركائز وأركان. فأركان القول: الاعتقاد والتصديق الجازم بالله تبارك وتعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وأركان العمل: المحبة، والخوف، والرجاء.

- بين أركان عبودية القلب العملية ترابط وتلازم وثيق، والغلو في ركن على حساب بقية الأركان يفضي إلى خلل مؤثر في دائرة العبودية.
- يتفاوت الناس في عبودية القلب، سواء كان ذلك في دائرة تصديق القلب واعتقاده، أو في دائرة حركته وفعله.
- عبودية القلب تستلزم وتقتضي عبودية الجوارح، فلا يمكن أن يكون الملزوم قويًا ثابتًا، دون أن يظهر ذلك في لازمه ومقتضاه.

- يؤثر في نماء حياة القلب مجموعة عوامل، منها: العلم، والاستقامة، والذكر، والتوبة، والارتباط بالقرآن، واللجوء إلى الله تعالى بالدعاء، بالإضافة إلى تخلية النفس من وساوس الشيطان بإغلاق منافذه، والاستعاذة بالله من كيده.
- لعبودية القلب ثمرات ينالها المؤمن آجلة في الآخرة، وعاجلة في الدنيا:

ففي الآجل مغفرة وثواب، ونجاة من النار، وفوز بالجنة.

وفي العاجل إقبال على البر، وتباعد عن الإثم، وثناء ومحبة، وطمأنينة وسرور، ورعاية وتأييد، واهتداء وتسديد، وحفظ من تسلّط الشياطين.

- تضمن القرآن الكريم أوصافًا للقلوب في حال صحتها وموتها.

فمن أوصاف الصحة: السلامة، والوجل، والإخبات، واللين، والإنابة، والاطمئنان.

ومن أوصاف الموت: القسوة، والتكبر، والإنكار، والارتياب، والاشمئزاز، واللهو، والزيغ.

فيعاقبها الله جل وعلا بمثل الختم، والطبع، والإكنان.

- وصف القلب بالمرض في القرآن الكريم غلب على أهل النفاق، لكنه أطلق أيضًا على من ضعف إيمانه، فاستولت عليه شبهة، أو انحرفت به شهوة.

وصلى الله وسلم على نبينا وسيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المراجع

* الإبداع في مضار الابتداع

علي محفوظ، ط ٧، دار الاعتصام، القاهرة.

* إبراز المعاني من حرز الأماني

عبد الرحمن بن إسماعيل، أبو شامة المقدسي، تحقيق إبراهيم عوض، مكتبة مصطفى، القاهرة.

* الإتقان في علوم القرآن

عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل، ١٤٠٧هـ، المكتبة العصرية، بيروت.

* أحكام القرآن

أبو بكر محمد بن عبد الله، ابن العربي، تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

* إحياء علوم الدين

محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي، ضبط محمد بلطة، ١٤٢٣هـ، المكتبة العصرية، بيروت.

* اختلاف المفسرين

د. سعود الفنيسان، ط١، دار إشبيليا، الرياض.

* الأخلاق الإسلامية وأسسها

عبد الرحمن حبنكة الميداني، ط١، دارالقلم، دمشق.

* الآداب الشرعية

محمد بن مفلح، أبو عبد الله المقدسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* أدب الدنيا والدين

علي بن محمد، أبو الحسن الماوردي، تعليق محمد راجح، ط١، دار اقرأ، بيروت.

* الأدب المفرد

محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله البخاري، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، ط١، دار الصديق، الجبيل.

* الأربعين في أصول الدين

أبوحامد الغزالي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل

محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، المكتبة الإسلامية، بيروت.

* أسباب النزول

علي بن أحمد، أبو الحسن الواحدي، تحقيق أيمن شعبان، دار الحديث، القاهرة.

* الاستذكار

يوسف بن عبد الله، أبو عمر بن عبد البر، تحقيق سالم عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* الاستقامة

أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط١، دارابن حزم، بيروت.

* الاستيعاب في معرفة الأصحاب

أبو عمر بن عبد البر، تحقيق علي البجاوي، ١٤١٢هـ، دار الجيل، بيروت.

*الإصابة في تمييز الصحابة

أحمد بن علي، ابن حجرالعسقلاني، تحقيق عادل عبد الموجود، ط١، دارالكتب، بيروت.

* أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن

محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

* الاعتصام

إبراهيم بن موسى، أبو إسحاق الشاطبي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

* الاعتقاد على مذهب السلف

أحمد بن الحسين، أبو بكر البيهقي، تصحيح أحمد مرسي، حديث أكاديمي، فيصل اباد.

* اعتقاد أهل السنة

هبة الله بن الحسن، أبو القاسم اللالكائي، تحقيق أحمد حمدان، ١٤٠٢هـ، دار طيبة، الرياض.

* الأعلام

خير الدين الزركلي، دارالعلم، بيروت.

* أعلام السنة المنشورة

حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق شميم السلفي، مكتبة الأقصى، الدوحة.

* إعلام الموقعين عن رب العالمين

محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عبد الحميد، ط٢، دار الفكر، بيروت.

* إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان

ابن القيم، تحقيق علي الحلبي، ط١، دارابن الجوزي، الدمام.

* اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم

ابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، ط٢، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة.

* اقتضاء العلم العمل

أحمد بن علي، الخطيب البغدادي، تحقيق الألباني، ط٤، المكتب الإسلامي، بيروت.

* إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات

أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، ١٣٨٩هـ، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة.

* الإنسان في ضوء القرآن الكريم

د. عبد الرحمن المطرودي، ١٤١٠هـ.

* آيات الله في النفس والروح والجسد

ماهر أحمد الصوفي، دار الرضوان.

* الإيمان

ابن تيمية، ط٣، المكتبة الإسلامية، دمشق.

* الإيمان

محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، تحقيق د.علي الفقيهي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* بدائع الفوائد

ابن القيم، تخريج أحمد شعبان، ط١، مكتبة الصفا، القاهرة.

* البداية والنهاية

إسماعيل بن كثير، أبو الفداء الدمشقي، تحقيق علي شيري، ط١، دار إحياء التراث، بيروت.

* البرهان في علوم القرآن

محمد بن عبد الله، بدرالدين الزركشي، تحقيق محمد أبوالفضل، ط٢، دارالمعرفة، بيروت.

* بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز

محمد بن يعقوب، مجد الدين الفيروزابادي، تحقيق محمد النجار، المكتبة العلمية، بيروت.

* بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني

أحمد بن عبد الرحمن البنا، دار إحياء التراث، بيروت.

* بلوغ المرام من أدلة الأحكام

ابن حجر، تحقيق رضوان محمد، دار إحياء التراث، بيروت.

* تاريخ دمشق

علي بن الحسن بن هبة الله، تحقيق عمر العمري، ١٩٩٥م، دار الفكر، بيروت.

* تاريخ الفرق الإسلامية

علي مصطفى الغرابي، ط٢، مكتبة صبيح، القاهرة.

* تأويل مختلف الحديث

عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق محمد النجار، ١٣٩٣هـ، دار الجيل، بيروت.

* التبيان في أقسام القرآن

ابن القيم، تصحيح طه شاهين، ١٤٠٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

* تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي

محمد عبد الرحمن المباركفوري، تخريج عصام الصبابطي، ط١، دار الحديث، القاهرة.

* تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين

محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

* التحفة العراقية في الأعمال القلبية

ابن تيمية، تحقيق د. يحيى الهنيدي، ط١، مكتبة الرشد، الرياض.

* التحفة القليبية في حل الألفاظ القرآنية (معجم الألفاظ القرآنية ومعانيها).

موسى بن محمد القليبي المصري، تحقيق د. محمد داود، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة.

* التخويف من النار

عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي، ابن رجب الحنبلي، ط١، دار البيان، دمشق.

* تدريب الراوي شرح تقريب النواوي

جلال الدين السيوطي، تحقيق د. عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت.

* التدمرية

ابن تيمية، تحقيق محمد السعوي، ط١، شركة العبيكان، الرياض.

* التذكار في أفضل الأذكار

محمد بن أحمد، أبوعبدالله القرطبي، المكتبة العلمية، بيروت.

* ترتيب القاموس المحيط للفيروزابادي
الطاهر بن أحمد الزاوي، ط٣، دار الفكر، بيروت.
* ترجمان شعب الإيمان
عمر بن رسلان، سراج الدين البلقيني، تحقيق د. سعود الدعجان، ط١، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
* الترغيب والترهيب
عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تعليق مصطفى عمارة، ط٣، مكتبة مصطفى البابي، القاهرة.
* تسلية أهل المصائب
محمد بن محمد المنبجي الحنبلي، تحقيق بشير عيون، ط٤، دار البيان، دمشق.
* التسهيل لعلوم التنزيل
محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت.
* التعاريف
محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق د. محمد رضوان، ط١، دار الفكر، بيروت.
* التعريفات
علي بن محمد الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت.

* تعظيم قدر الصلاة
محمد بن نصر المروزي، تحقيق د.عبد الرحمن الفريوائي، ط١، مكتبة الدار، المدينة المنورة.
* تفسير البحر المحيط
محمد بن يوسف، أبو حيان الأندلسي، ط٢، دار الفكر، بيروت.
* تفسير البغوي: معالم التنزيل
الحسين بن مسعود، أبو محمد البغوي، تحقيق خالد العك، ط٢، دار المعرفة، بيروت.
* تفسير البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل
عبد الله بن عمر، ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
* تفسير الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن
عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
* تفسير ابن أبي حاتم
عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، تحقيق أسعد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.
* تفسير الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل
محمود بن عمر، جارالله الزمخشري، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دارإحياء التراث، بيروت.

* تفسير السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

عبد الرحمن بن ناصر السعدي، طبعة ١٤٠٨هـ، دار المدني، جدة.

* تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

محمد بن محمد، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث، بيروت.

* تفسير السمرقندي: بحر العلوم

نصر بن محمد، أبو الليث السمرقندي، تحقيق د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.

* تفسير السمعاني: تفسير القرآن العزيز

منصور بن محمد، أبو المظفر السمعاني، تحقيق ياسر بن إبراهيم، دار الوطن، الرياض.

* تفسير الصنعاني

عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق د. مصطفى مسلم، ط١، مكتبة الرشد، الرياض.

* تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن

محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري، ط٢، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة.

* تفسير ابن عاشور: التحرير والتنوير

محمد الطاهر، ابن عاشور، ١٩٨٤م، الدار التونسية، تونس.

* تفسير ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام محمد، ط١، دار الكتب، بيروت.

* تفسير غريب القرآن

ابن قتيبة، تحقيق أحمد صقر، ١٣٩٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

* تفسير الفخر الرازي: التفسير الكبير، مفاتيح الغيب

محمد بن عمر، فخر الدين الرازي، المطبعة البهية المصرية، القاهرة.

* تفسير القاسمي: محاسن التأويل

محمد جمال الدين القاسمي، اعتنى به محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢، دار الفكر، بيروت.

* تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن

أبو عبد الله القرطبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* التفسير القيم لابن القيم

جمع محمد الندوي، تحقيق محمد الفقي، دار العلوم الحديثة، بيروت.

* تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم

أبو الفداء ابن كثير، ١٤٠١هـ، دار المعرفة، بيروت.

* تفسير المعوذتين

ابن القيم، ط٦، المطبعة السلفية، القاهرة.

* تفسير المنار: تفسير القرآن الحكيم
محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت.
* تفسير النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل
عبد الله بن أحمد، أبو البركات النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت.
* تفسير الواحدي: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز
علي بن أحمد، أبو الحسن الواحدي، تحقيق صفوان داودي، ط١، دار القلم، دمشق.
* التفسير والمفسرون
د. محمد حسين الذهبي، ط٢، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
* تقريب التهذيب
ابن حجر، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة، بيروت.
* تلبيس إبليس
عبد الرحمن بن علي، أبو الفرج البغدادي، ابن الجوزي، تحقيق أيمن شعبان، ١٤٢٤هـ، دار الحديث، القاهرة.
* التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد
أبو عمر بن عبد البر، تحقيق مصطفى العلوي، ١٣٨٧هـ، وزارة الأوقاف، المغرب.
* تنبيه الغافلين
أبو الليث السمرقندي، تحقيق عبد العزيزالوكيل، ط١، دارالشروق، بيروت.

* تهذيب الآثار
أبو جعفر الطبري، تحقيق د. ناصر الرشيد، ١٤٠٤هـ، مطابع الصفا، مكة المكرمة.
* تهذيب الأسماء واللغات
يحيى بن شرف، أبو زكريا النووي، تحقيق علي معوض، ط١، دار النفائس، بيروت.
* تهذيب التهذيب
ابن حجر، ط١، دار الفكر، بيروت.
* تهذيب سنن أبي داود
ابن القيم، تحقيق أحمد شاكر، دار المعرفة، بيروت.
* التهذيب الموضوعي لحلية الأولياء
محمد عبد الله الهبدان، ط١، دار طيبة، الرياض.
* التواضع والخمول
عبد الله بن محمد بن أبي بكر القرشي، ابن أبي الدنيا، تحقيق محمد عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
* التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ
محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق د.عبد العزيز الشهوان، ط٥، مكتبة الرشد، الرياض.
* تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد
سليمان بن عبد الله آل الشيخ، ط٦، المكتب الإسلامي، بيروت.

* الثقات

محمد بن حبان، أبو حاتم البستي، تحقيق شرف الدين أحمد، ط١، دار الفكر، بيروت.

* الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير

جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت.

* جامع العلوم والحكم

ابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* حاشية السندي على سنن النسائي

نورالدين بن عبد الهادي، أبو الحسن السندي، ط٢، دارسحنون، تونس.

* حجة القراءات

عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، أبو زرعة، تحقيق سعيد الأفغاني، ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* حدائق الحقائق

محمد بن أبي بكرالرازي، تعليق إبراهيم شمس الدين، ط١، دارالكتب العلمية، بيروت.

* الحديقة الأنيقة في شرح العروة الوثيقة

محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي، ط٢، دار الحاوي، اليمن.

* حلية الأولياء

أحمد بن عبد الله، أبو نعيم الأصبهاني، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت.

* خلق الإنسان

سعيد بن هبة الله بن الحسين، تعليق د. يحيى مراد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)

ابن القيم، تحقيق عامر ياسين، ط١، دار ابن خزيمة، الرياض.

* الدراية في تخريج أحاديث الهداية

ابن حجر، تحقيق عبد الله المدني، دار المعرفة، بيروت.

* الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة

ابن حجر، تحقيق محمد جاد الحق، ط٢، مطبعة المدني، القاهرة.

* الدر المنثور في التفسير بالمأثور

جلال الدين السيوطي، ١٩٩٣م، دار الفكر، بيروت.

* دستور الأخلاق في القرآن

د. محمد عبد الله دراز، تحقيق د.عبد الصبور شاهين، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب

محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

* دلائل النبوة

أبو بكر البيهقي، تحقيق د.عبد المعطي قلعجي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* الديباج على مسلم

جلال الدين السيوطي، تحقيق أبوإسحاق الأثري، ١٤١٦هـ دار ابن عفان، الخبر.

* ذم الهوى

أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق عصام الحرستاني، ط١، دار الجيل، بيروت.

* الرسالة القشيرية

عبد الكريم بن هوازن، أبو القاسم القشيري، تحقيق هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

* روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن

محمد علي الصابوني، ط٣، مكتبة الغزالي، دمشق.

* الروح

ابن القيم، تحقيق محمد العطار، ط١، دار الفكر، بيروت.

* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

السيد محمود الألوسي، شهاب الدين البغدادي، ١٤٠٣ هـ، دار الفكر، بيروت.

* الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية

عبد الرحمن بن عبد الله، أبو القاسم السهيلي، تعليق طه عبد الرءوف، دار الفكر، بيروت.

* الروض الريان في أسئلة القرآن

الحسين بن سليمان بن ريان، تحقيق عبد الحليم السلفي، ط١، مكتبة العلوم، المدينة المنورة.

* روضة المحبين ونزهة المشتاقين

ابن القيم، تخريج عبد السلام علوش، ط١، مكتبة الرشد، الرياض.

* رياضة النفس

محمد بن علي، الشهير بالحكيم الترمذي، تعليق إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* زاد المسير في علم التفسير

أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق د.محمد زغلول، ط١، دار الفكر، بيروت.

* الزهد

أحمد بن حنبل الشيباني، تخريج محمد بن عيادي، ط١، مكتبة الصفا، القاهرة.

* الزهد والرقائق

عبد الله بن المبارك المروزي، ط١، دار ابن حزم، بيروت.

* سبل السلام

محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق محمد الخولي، ط٤، دار إحياء التراث، بيروت.

* سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهي (شرح منظومة حرز الأماني للشاطبي)

علي بن عثمان، أبو القاسم العذري البغدادي، ط٣، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة.

* سلسة الأحاديث الصحيحة

الألباني، إعداد مشهور آل سلمان، ط١، مكتبة المعارف، الرياض.

* السنة

عمر بن أبي عاصم، أبو بكر الشيباني، تحقيق الألباني، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت.

* سنن الترمذي

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق أحمد شاكر، ط٢، دار سحنون، تونس.

* سنن الدارمي

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، اعتنى به د. بدرالدين جتين، دار سحنون، تونس.

* سنن أبي داود

سليمان بن الأشعث السجستاني، اعتنى به د. بدرالدين جتين، ط٢، دارسحنون، تونس.

* السنن الكبرى

أبوبكر البيهقي، تحقيق محمد عطا، ١٤١٤هـ دار الباز، مكة المكرمة.

* سنن ابن ماجة

محمد بن يزيد القزويني، أبو عبد الله ابن ماجة، تحقيق محمد عبد الباقي، دار الكتب، بيروت.

* سنن النسائي

أحمد بن شعيب الخراساني، اعتنى به بدرالدين جتين، ط٢، دارسحنون، تونس.

* سير أعلام النبلاء

محمد بن أحمد، شمس الدين الذهبي، ترتيب حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، عمان.

* السيرة النبوية

عبد الله بن هشام، أبومحمد الحميري، تحقيق مصطفى السقا، ط٢، دار الخير، بيروت.

* السيرة النبوية الصحيحة

د.أكرم العمري، ط٤، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

* السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية

د. مهدي رزق الله، ط١، مركز الملك فيصل للبحوث، الرياض.

* شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال

العز بن عبد السلام السلمي، اعتنى به حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، عمان.

* شذرات الذهب في أخبار من ذهب

عبد الحي بن العماد، أبو الفلاح الحنبلي، مكتبة القدسي، القاهرة.

* شرح الأربعين النووية

محمد بن علي، ابن دقيق العيد، مؤسسة دار العلوم، بيروت.

*شرح الأربعين النووية

النووي، دار المجتمع، جدة.

* شرح حديث(إنما الأعمال بالنيات)

ابن تيمية، تحقيق عبد الله بن حجاج، ١٤٠١هـ، مكتبة السلام، القاهرة.

* شرح الزرقاني على الموطأ

محمد بن عبد الباقي الزرقاني، ط١، دارالكتب العلمية، بيروت.

* شرح سنن ابن ماجة

جلال الدين السيوطي، تحقيق عبد الفتاح أبوغدة، ط٢، مكتبة المطبوعات، حلب.

* شرح السيوطي لسنن النسائي

جلال الدين السيوطي، ط٢، دار سحنون، تونس.

* شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور

جلال الدين السيوطي، تعليق محمد الحمصي، ط٣، مؤسسة الإيمان، بيروت.

* شرح العقيدة الطحاوية

علي بن علي، ابن أبي العز الحنفي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط١، دار البيان، دمشق.

* شرح الكوكب المنير

محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي، ابن النجار، تحقيق د. محمد الزحيلي، ١٤٠٠هـ، دار الفكر، دمشق.

* شرح لمعة الاعتقاد

محمد بن عثيمين، تحقيق أشرف عبد المقصود، ط٢، مكتبة الإمام البخاري، الإسماعيلية.

* شرح النووي على صحيح مسلم

النووي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* شعب الإيمان

أبو بكر البيهقي، تحقيق محمد بسيوني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* الشفا بتعريف حقوق المصطفى
القاضي عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق عبد السلام البكاري ط١، دارالفكر، بيروت.

* شفاء العليل
ابن القيم، تحقيق د.السيد محمد سيد، ١٤٢٥هـ، دار الحديث، القاهرة.

* الصحاح
إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عطار، ط٤، دار العلم، بيروت.

* صحيح البخاري
أبوعبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، اعتنى به د.مصطفى البغا، ط٣، دار ابن كثير، دمشق.

* صحيح ابن حبان
محمد بن حبان، أبو حاتم البستي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* صحيح ابن خزيمة
أبو بكربن خزيمة، تحقيق محمد الأعظمي، ١٣٩٠هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

*صحيح القصص النبوي
عمر سليمان الأشقر، ط ١٤١٩هـ، دار النفائس، عمان.

* صحيح مسلم
مسلم بن الحجاج القشيري، اعتنى به محمد عبد الباقي، ط٢، دار سحنون، تونس.

* صفة الصفوة
أبوالفرج ابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري، ط٣، دار المعرفة، بيروت.

* صيانة صحيح مسلم
عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، أبوعمرو ابن الصلاح، تحقيق موفق عبد القادر، ط٢، دار الغرب، بيروت.

* الضوء اللامع لأهل القرن التاسع
محمد بن عبد الرحمن ، شمس الدين السخاوي، ١٣٥٣هـ مكتبة القدسي، القاهرة.

* طب القلوب (ابن القيم)
جمع وتنسيق د.عجيل النشمي، ط٢، دار الدعوة، الكويت.

*طبقات الحفاظ
جلال الدين السيوطي، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت.

* طبقات الصوفية
محمد بن الحسين، أبوعبد الرحمن السلمي، تحقيق نورشربية، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة.

* الطبقات الكبرى

محمد بن سعد، أبوعبد الله البصري، دار صادر، بيروت.

* طبقات المفسرين

أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق سليمان الخزي، ط١، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

* طبقات المفسرين

جلال الدين السيوطي، تحقيق علي محمد عمر، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة.

* طريق الهجرتين وباب السعادتين

ابن القيم، تحقيق سيد عمران، ١٤٢٦هـ دار الحديث، القاهرة.

* طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب

ضياء الدين عبد العزيز بن أحمد الديريني، ط٢، دار القمر، القاهرة.

* العبادة في الإسلام

يوسف القرضاوي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* العبودية

ابن تيمية، تحقيق علي عبد الحميد، ط٤، دار المغني.

* عجائب القرآن

فخر الدين الرازي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين

ابن القيم، تصحيح زكريا يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت.

* العقل

الحارث بن أسد، أبوعبدالله المحاسبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* العقيدة الإسلامية وأسسها

عبد الرحمن بن حسن الميداني، ط٥، دار القلم، دمشق.

* العقيدة في الله

د. عمرسليمان الأشقر، ط٥، مكتبة الفلاح، الكويت.

* علماء نجد خلال ستة قرون

عبدالله بن عبد الرحمن البسام، ط١، مكتبة النهضة، مكة المكرمة.

* عمدة القاري

محمود بن أحمد، بدرالدين العيني، دار إحياء التراث، بيروت.

* عمل اليوم والليلة

ابن السني، أحمد بن محمد الدينوري الشافعي، تحقيق كوثر البرني، دار القبلة، بيروت.

* عمل اليوم والليلة

النسائي، تحقيق د. فاروق حمادة، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* عون المعبود شرح سنن أبي داوود
محمد شمس الحق العظيم ابادي، تخريج عصام الصبابطي، ١٤٢٢هـ، دار الحديث، القاهرة.
* غريب الحديث
حمد بن محمد، أبو سليمان الخطابي، تحقيق عبد الكريم العزباوي، ١٤٠٢هـ، دار الفكر، دمشق.
* غريب الحديث
القاسم بن سلام، أبو عبيد الهروي، تحقيق د.محمد خان، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت.
* غريب الحديث
ابن قتيبة، تحقيق د.عبد الله الجبوري، ط٣، مطبعة العاني، بغداد.
* غريب القرآن
محمد بن عزيز، أبو بكر السجستاني، تحقيق محمد أديب، ١٤١٦هـ، دار قتيبة.
* غريب القرآن وتفسيره
عبد الله بن يحيى، أبوعبد الرحمن اليزيدي، تحقيق محمد الحاج، ط١، عالم الكتب، بيروت.
* الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة
عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* الغنية لطالبي طريق الحق
عبد القادر بن موسى الجيلاني الحسني، دار الألباب، دمشق.
* الفائق في غريب الحديث
الزمخشري، تحقيق علي البجاوي، ط٢، دار المعرفة، بيروت.
* فتاوى الإمام النووي (المسائل المنثورة)
النووي، ترتيب علاء الدين بن العطار، تحقيق محمد الحجار، ط٣، دار السلام.
* فتح الباري بشرح صحيح البخاري
ابن حجر، ضبط طه عبدالرءوف، ١٣٩٨هـ مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
* الفتح الرباني
عبد القادر الجيلاني، تحقيق محمد البواب، ١٤٠٢هـ، دار الألباب، بيروت.
* الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني
أحمد بن عبد الرحمن البنا، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
* فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن
أبو يحيى زكريا الأنصاري، تحقيق محمد علي الصابوني، ط١، المكتبة العصرية، بيروت.

* فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير
محمد بن علي الشوكاني، دار الأرقم، بيروت.
* فتح المجيد شرح كتاب التوحيد
عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت.
* فتوح الغيب
عبد القادر الجيلاني، بشرح ابن تيمية، تخريج محمد بحري، ط٢، دار القادري، دمشق.
* الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت.
* الفروق في اللغة
الحسن بن عبد الله، أبوهلال العسكري، ط٤، دارالآفاق الجديدة، بيروت.
* فضائل الصحابة
أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق وصي الله عباس، ط١، دار العلم، بيروت.
* الفوائد
ابن القيم ، تحقيق د.ماهرعبد الرزاق، ط١، دار اليقين، المنصورة.
* الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة
الشوكاني، تحقيق عبد الرحمن المعلمي، ١٣٩٨هـ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.

* فيض القدير شرح الجامع الصغير
المناوي، دار المعرفة، بيروت.
* القصيدة النونية
ابن القيم، بشرح د. محمد هراس، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
* القلب في القرآن وأثره في سلوك الإنسان
د. سيد محمد الشنقيطي، ١٤١٣هـ، دار عالم الكتب، الرياض.
* القواعد الحسان لتفسير القرآن
السعدي ، ط٣، مكتبة الرشد، الرياض.
* قوت القلوب في معاملة المحبوب
محمد بن علي الحارثي، أبو طالب المكي، مراجعة سعيد نسيب، ط٢، دار صادر، بيروت.
* كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس
إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق أحمد القلاس، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت.
* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون
مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الحنفي، الحاج خليفة، ١٤١٣هـ دار الكتب، بيروت.

* الكليات

أيوب بن موسى، أبوالبقاء الكفوي، تحقيق د.عدنان درويش، ط٢، دار الكتاب، القاهرة.

* الكواشف الجلية عن معاني الواسطية

عبد العزيز محمد السلمان، ط١١، مطابع المجد، الرياض.

* اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة

بدر الدين الزركشي، تحقيق د. محمد الصباغ، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت.

* لباب النقول في أسباب النزول

جلال الدين السيوطي، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت.

* لسان العرب

أبو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور، تحقيق عبد الله علي، دار المعارف.

* لوامع الأنوار البهية

محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي، ط٢، مؤسسة الخافقين، دمشق.

* مباحث في علوم القرآن

مناع القطان، ط٣٥، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* مجمع الزوائد ومنبع الفوائد

علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق عبد الله الدرويش، ١٤١٢هـ، دار الفكر، بيروت.

* مجموع الفتاوى

ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، مكتبة المعارف، الرباط.

* المجيد في إعجاز القرآن المجيد

عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني، ابن خطيب زملكان، تحقيق د. شعبان صلاح، ط٢، دار غريب، القاهرة.

* مختصر سنن أبي داود

أبو محمد المنذري، تحقيق أحمد شاكر، دار المعرفة، بيروت.

* المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد

علي بن محمد البعلي، ابن اللحام، تحقيق د.محمد مظهر، ١٤٠٠هـ، دار الفكر، دمشق.

* مدارج السالكين في شرح منازل السائرين

ابن القيم، تحقيق الداني آل زهوي، ط١، المكتبة العصرية، بيروت.

* المسائل في أعمال القلوب والجوارح

الحارث المحاسبي، تعليق خليل عمران، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* المسائل في الزهد

الحارث المحاسبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* المستدرك على الصحيحين

محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عطا، ط١، دار الكتب، بيروت.

* المسند

أحمد بن حنبل، ط٢، دار سحنون، تونس.

* مسند الشهاب

محمد بن سلامة القضاعي، تحقيق حمدي السلفي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* مشارق الأنوار

القاضي عياض، المكتبة العتيقة.

* مشاهير علماء نجد

عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، ط١، دار اليمامة، الرياض.

* مشكاة المصابيح

محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق الألباني، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت.

* المشوف المعلم في ترتيب الإصلاح على حروف المعجم

عبدالله بن الحسين، أبوالبقاء العكبري، تحقيق ياسين السواس، ١٤٠٣هـ، دار الفكر، دمشق، مركز البحث العلمي (جامعة أم القرى).

* مصائب الإنسان من مكائد الشيطان

إبراهيم بن محمد بن مفلح، أبوإسحاق المقدسي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* مصباح الأنوار

د. محمد الصادق بوعلاق، ٢٠٠٤م، مكتبة الهلال، بيروت.

* مصباح الزجاجة

أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني، تحقيق محمد الكشناوي، ط٢، دار المعرفة، بيروت.

* مصنف عبد الرزاق

أبوبكر الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت.

* معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول

حافظ بن أحمد الحكمي، تخريج أشرف بن يوسف، ١٤٢٤هـ، دار ابن الهيثم، القاهرة.

* معالم السنن

أبو سليمان الخطابي، تحقيق أحمد شاكر، دار المعرفة، بيروت.

* معاني القرآن

أحمد بن محمد المرادي، أبوجعفر النحاس، تحقيق محمد علي الصابوني، ط١، مركز إحياء التراث بجامعة أم القرى، مكة المكرمة.

* معاني القرآن

يحيى بن زياد، أبوزكريا الفراء، ط٢، عالم الكتب، بيروت.

* معاني القرآن وإعرابه

إبراهيم بن السري، أبوإسحاق الزجاج، تحقيق د.عبدالجليل شلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت.

* المعجم الكبير

سليمان بن أحمد، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي السلفي، ط٢، مكتبة العلوم، الموصل.

* المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

أبو الفضل، زين الدين العراقي، ١٤٢٣هـ، المكتبة العصرية، بيروت.

* المغني في ضبط أسماء الرجال

محمد طاهر بن علي الهندي، ١٣٩٩هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

* مفتاح دار السعادة

ابن القيم، تحقيق محمد عيسى، ط١، دار الغد الجديد، المنصورة.

* المفردات في غريب القرآن

الحسين بن محمد، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد عيتاني، ط١، دار المعرفة، بيروت.

* المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة

محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق محمد الخشت، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت.

* المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية

أبو القاسم علي المقدسي، تحقيق محيي الدين مستو، ط١، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

* مقاييس اللغة

أبو الحسين أحمد بن فارس، اعتنى به د.محمد عوض، ط١، دار إحياء التراث، بيروت.

* مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب

أبوحامد الغزالي، تخريج بهيج غزاوي، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت.

* الملل والنحل

محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق محمد كيلاني، ١٤٠٠هـ، دار المعرفة، بيروت.

* المنافقون في القرآن الكريم

عبد العزيز الحميدي، ط١، دار المجتمع، جدة.

* مناقب الإمام أحمد بن حنبل

أبوالفرج ابن الجوزي، تحقيق د.عبد الله التركي، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة.

* منهاج العابدين

أبو حامد الغزالي، دار الجيل، بيروت.

* الموافقات في أصول الشريعة

أبو إسحاق الشاطبي، اعتنى به إبراهيم رمضان، ط٦، دار المعرفة، بيروت.

* المواهب اللدنية بالمنح المحمدية

أحمد بن محمد القسطلاني، تعليق عماد البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

* نزهة الألباب في الألقاب

ابن حجر، تحقيق عبدالعزيز السريري، مكتبة الرشد، الرياض.

* النشر في القراءات العشر

أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي، ابن الجزري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

* نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

إبراهيم بن عمر، أبوالحسن البقاعي، تخريج عبد الرزاق المهدي، ط٢، دار الكتب، بيروت.

* النفاق آثاره ومفاهيمه

عبد الرحمن الدوسري، ط١، مكتبة دار الأرقم، الكويت.

* نقد المنقول

ابن القيم، تحقيق حسن سويدان، ط١، دارالقادري، بيروت.

* النهاية في غريب الحديث والأثر

المبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي، دار الفكر، بيروت.

* نوادر الأصول في أحاديث الرسول

الحكيم الترمذي، تحقيق عبد الرحمن عميرة، ١٩٩٢م، دارالجيل، بيروت.

* نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار

الشوكاني، ط٢، دار الفكر، بيروت.

* هدي الساري مقدمة فتح الباري

ابن حجر، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

* الوابل الصيب

ابن القيم، تحقيق إياد القيسي، ط٣، مكتبة الرشد، الرياض.

* الوافي في شرح الأربعين النووية

د. مصطفى البغا، ط٢، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

* وسائل الإدراك في القرآن الكريم

د. محمد الشرقاوي، ط١، عالم الكتب، الرياض.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان

أحمد بن محمد بن أبي بكر، ابن خلكان، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
التمهيد: المراد بالعبودية في اللغة والشرع	١٥
الباب الأول: العبودية	٢٢
الفصل الأول: معالم في مقام العبودية لله تعالى	٢٣
المبحث الأول: العبودية غاية الحياة	٢٧
المبحث الثاني: العبودية منهج الرسل عليهم السلام	٣٧
القسم الأول: النصوص العامة	٣٧
القسم الثاني: النصوص الخاصة	٤١
المبحث الثالث: شرف مقام العبودية	٤٩
المسألة الأولى: الرسل عليهم السلام	٥٠
المسألة الثانية: المؤمنون	٦٢
الفصل الثاني: أقسام العبودية	٦٩
المبحث الأول: أقسام العبودية باعتبار الكائنات	٧١
المطلب الأول: المكلفون العقلاء	٧٣
المسألة الأولى: الإنس والجن	٧٣
المسألة الثانية: الملائكة عليهم السلام	٧٦

الموضوع	الصفحة
المطلب الثاني: غير العقلاء	٨٦
المسألة الأولى: بعض الآيات الواردة في عبودية غير العقلاء تنصيصًا	٨٧
المسألة الثانية: المراد من تسبيح غير العقلاء	٩٣
المبحث الثاني: أقسام العبودية باعتبار العموم والخصوص	١٠٣
المسألة الأولى: العبودية العامة	١٠٣
المسألة الثانية: العبودية الخاصة	١١٦
المبحث الثالث: أقسام العبودية باعتبار أعضاء الإنسان	١١٩
المسألة الأولى: عبودية القلب	١٢٣
المسألة الثانية: عبودية اللسان	١٢٩
المسألة الثالثة: عبودية الجوارح	١٣٥
الفصل الثالث: ضوابط العبودية	١٣٧
المبحث الأول: توحيد الله تعالى والإيمان به	١٣٩
المبحث الثاني: إخلاص النية	١٤٥
المبحث الثالث: التزام الشرع	١٥٧
الباب الثاني: عبودية القلب	١٨٢
الفصل الأول: التعريف بالقلب وأهميته	١٨٣
المبحث الأول: التعريف بالقلب	١٨٧

الموضوع	الصفحة
المراد بالقلب لغة وشرعا	١٨٧
محل القلب، سبب التسمية	١٩٢
الفؤاد وعلاقته بالقلب	١٩٤
الصدر وعلاقته بالقلب	١٩٨
العقل وعلاقته بالقلب	١٩٩
المبحث الثاني: لفظ القلب في القرآن الكريم	٢١٥
لفظ الفؤاد ولفظ الصدر في القرآن الكريم	٢٢٩
المبحث الثالث: أهمية القلب ومكانته	٢٣٩
المسألة الأولى: القلب هو الأساس والباعث	٢٣٩
المسألة الثانية: إيمان القلب وإخلاصه أصل في قبول العمل الصالح	٢٤٦
المسألة الثالثة: عمل القلب هو الميزان لتفاضل عبادة الظاهر	٢٥٠
المسألة الرابعة: إخلاص القلب يجعل المباح طاعة وقربة	٢٥٦
المسألة الخامسة: عبودية القلب طاعة مستقلة	٢٥٨
المسألة السادسة: القلب هو الأصل في المدح أو الذم	٢٦٨
المسألة السابعة: القلب منبع الإيمان	٢٧٠
المسألة الثامنة: القلب محل التقوى	٢٧٣
المسألة التاسعة: القلب موطن الهداية	٢٧٥

الموضوع	الصفحة
المسألة العاشرة: القلب موضع الكفر والنفاق	٢٧٧
المسألة الحادية عشرة: القلب مركز الفقه والعقل والانتفاع بالعلم	٢٧٨
المسألة الثانية عشرة: القلب محل الارتياح والسعة	٢٧٩
المسألة الثالثة عشرة: القلب مستقر الحب والميل والهوى	٢٨١
الفصل الثاني: أركان عبودية القلب وتفاوت الناس فيها	٢٨٤
المبحث الأول: عبودية القلب بين الإيجاب والسلب	٢٨٧
المبحث الثاني: أركان عبودية القلب	٢٩٩
أركان علم القلب وتصديقه	٣٠١
أركان عمل القلب	٣٠٤
المسألة الأولى: المحبة	٣١٠
المسألة الثانية: الخوف والرجاء	٣١٥
المبحث الثالث: منازل الناس في عبودية القلب	٣٣١
المسألة الأولى	٣٣٣
المسألة الثانية	٣٣٥
المسألة الثالثة	٣٣٧
المسألة الرابعة	٣٤٠
المسألة الخامسة	٣٤٢

الموضوع	الصفحة
المسألة السادسة	٣٤٤
المسألة السابعة	٣٤٦
المسألة الثامنة	٣٦٨
الفصل الثالث: لوازم عبودية القلب وثمراتها والمؤثرات فيها	٣٧٣
المبحث الأول: لوازم عبودية القلب ومقتضياتها	٣٧٥
المسألة الأولى	٣٧٨
المسألة الثانية	٣٨٠
المسألة الثالثة	٣٨٢
المسألة الرابعة	٣٨٦
المسألة الخامسة	٣٩٠
المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في حياة القلب	٣٩٣
المسألة الأولى: العلم	٣٩٤
المسألة الثانية: الاستقامة على الطاعة	٤٠٥
المسألة الثالثة: الذكر والاستغفار والتوبة	٤٢٤
المسألة الرابعة: التعلق بالقرآن الكريم	٤٣٣
المسألة الخامسة: الالتجاء إلى الله تعالى والتضرع إليه بالدعاء	٤٤٠
المسألة السادسة: إغلاق منافذ الشيطان والاستعاذة بالله منه	٤٤٥

الموضوع	الصفحة
المبحث الثالث: ثمرات عبودية القلب	٤٥٩
المطلب الأول: الثمرات الأخروية	٤٥٩
المسألة الأولى: النجاة من النار وأهوال القيامة	٤٥٩
المسألة الثانية: الفوز بالجنة ونعيم الآخرة	٤٦٨
المسألة الثالثة: عظم الثواب واستمراره	٤٧٦
المطلب الثاني: الثمرات الدنيوية	٤٨٩
المسألة الأولى: العصمة من إغواء الشيطان وتسلطه	٤٨٩
المسألة الثانية: التباعد عن الآثام والإقبال على الطاعات	٤٩٢
المسألة الثالثة: الرعاية والكفاية والتأييد	٤٩٦
المسألة الرابعة: محبة الله تعالى وثناؤه	٥٠٢
المسألة الخامسة: الإمامة والقيادة	٥٠٥
المسألة السادسة: السرور والطمأنينة	٥٠٧
المسألة السابعة: الاهتداء والانتفاع بالمواعظ	٥١٥
الباب الثالث: أنواع القلوب وأوصافها في القرآن الكريم	٥٢٥
الفصل الأول: القلوب الصحيحة	٥٢٦
المبحث الأول: القلوب السليمة	٥٢٩
المبحث الثاني: القلوب المطمئنة	٥٣٩

الموضوع	الصفحة
المبحث الثالث: القلوب الوجلة	٥٦١
المبحث الرابع: القلوب المخبتة	٥٧١
المبحث الخامس: القلوب المنيبة	٥٨١
المبحث السادس: القلوب اللينة	٥٨٥
المبحث السابع: القلوب المربوط عليها	٥٩٩
الفصل الثاني: القلوب الميتة	٦٠٧
المبحث الأول: القلوب اللاهية	٦٠٩
المبحث الثاني: القلوب القاسية	٦١٥
المبحث الثالث: القلوب المتكبرة	٦٣٣
المبحث الرابع: القلوب المشمئزة	٦٤١
المبحث الخامس: القلوب المرتابة	٦٤٥
المبحث السادس: القلوب المنكرة	٦٥٧
المبحث السابع: القلوب الزائغة	٦٦١
المبحث الثامن: القلوب الغافلة	٦٧٧
المبحث التاسع: القلوب العمي	٦٨٣
المبحث العاشر: القلوب المكنونة	٦٨٧
المبحث الحادي عشر: القلوب المطبوع عليها	٦٩٩

الموضوع	الصفحة
المبحث الثاني عشر: القلوب المختوم عليها	٧٢١
المبحث الثالث عشر: القلوب المقفلة	٧٤٥
الفصل الثالث: القلوب المريضة	٧٤٩
المبحث الأول: المراد بمرض القلب	٧٥١
أقسام مرض القلب	٧٥٧
المبحث الثاني: وصف القلب بالمرض في القرآن الكريم	٧٦١
الخاتمة	٧٨٦
المراجع	٧٨٩
المحتويات	٨٢٦